الجغرافيا .. السيادة والتاريخ

تأليف

جيمس فرجريف

ترجمة

على الأنصاري

تقديم ومراجعة

د. فتحي عبد العزيز

الكتاب: الجغرافيا .. السيادة والتاريخ

الكاتب: جيمس فرجريف

ترجمة : علي الأنصاري

تقديم ومراجعة : د. فتحي عبد العزيز

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

فرجريف ، جيمس

الجغرافيا .. السيادة والتاريخ / جيمس فرجريف ، ترجمة : علي الأنصاري، تقديم ومراجعة : د. فتحي عبد العزيز – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٤٥١ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ٨٩٥ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٦٢٨٥ / ٢٠١٨

الجغرافيا .. السيادة والتاريخ





مقدمة

ليست الجغرافيا التاريخية أحد فروع الجغرافيا الطبيعية أو الجغرافيا البشرية، وإنما هي جغرافية الماضي بجوانبه الطبيعية والبشرية، بمعنى أنها لا تقتصر في دراستها على الظروف الطبيعية للماضي، وإنما تهتم بدراسة النشاط البشري كذلك؛ ولا يمنع ذلك من أن تكون هناك دراسات عن الجغرافيا المناخية في الماضي، أو دراسات عن الهجرات البشرية. ومجمل القول إن الجغرافيا التاريخية تضم في رحابها وجهي الجغرافيا الطبيعية والبشرية لتجعلهما علماً واحداً، موضوعه جغرافيا العصور السابقة، ومن هنا اكتسبت اسم تاريخية.

وتستمد الجغرافيا التاريخية مادتها من عدة علوم، فهي ذات صلة وثيقة بفروع الجغرافيا الأخرى خاصة الجيومورفولوجيا، والجغرافيا المناخية، والجغرافيا الحيوية، إضافة إلى الجغرافيا البشرية بفروعها المختلفة، وتستعين الجغرافيا التاريخية بعلم المناخ القديم للتعرف على الأحوال المناخية التي سادت مناطق العالم في العصور المختلفة. وللجغرافيا التاريخية صلة وثيقة بعلم الآثار، إذ يلجأ دارس الجغرافيا التاريخية إلى الآثار التي خلفها الإنسان، فعن طريق ما خلفته المجتمعات القديمة يتمكن الأثريون من تجميع الأدلة التي تفيد دارس الجغرافيا التاريخية. ومن العلوم الأخرى علم الأنثربولوجيا بشقيه الطبيعي والحضاري، وهو يُفيد الجغرافيا التاريخية في التعرف على الحضارات المختلفة، وكيفية ملاءمتها واستمرارها أو تغيرها.

وتهتم الجغرافيا التاريخية باللغويات؛ فعن طريق التحليل اللغوي يتمكن دارس الجغرافيا التاريخية من التعرف على الإنسان في الفترات التاريخية المختلفة، إذ تُعد اللغة هي وسيلة للحفاظ على الحضارة ونقلها من جيل إلى آخر. ولا شك أن العلاقة وثيقة بين الجغرافيا التاريخية وعلم التاريخ.

يعتقد البعض أن الجغرافيا قديمة بقدم الجنس البشري فمع مرور الزمن سعت المجموعات البشرية المختلفة للعيش بتناسق مع وسطها البيئي الطبيعي من خلال اكتشاف الأماكن التي تتوافر فيها متطلبات الحياة الأساسية (مثل المسكن والملبس والمأكل) بهدف اتخاذها كأماكن استقرار وأمان كما دفع حُب الاطلاع للمجموعات البشرية الأخرى القيام برحلات استكشافية إلى مناطق كانت مجهولة بالنسبة إليهم ووصف ما شاهدوه في تلك الأماكن، فعملية وصفهم للأماكن التي اكتشفوها خلال أسفارهم يعتبرها البعض بحد ذاتها نقطة البداية لعلم الجغرافيا، أما التطورات الأخرى التي طرأت على الفكر الجغرافي عبر العصور.

منذ وقت طويل، والإنسان يحاول باستمرار تطوير معرفته بالعالم الذي يحيط به، فعلى سبيل المثال عرف المصريون القدماء كيفية قياس مساحات الأرض وكيفية توجيه مبانيهم، كما حددوا عدد أيام السنة، أما الفينيقيون المعروف عنهم بكثرة أسفارهم واكتشافاتهم للأقاليم غير المعروفة فقد طوروا العديد من المهارات الملاحية وأبرزوا الاختلافات المناخية بين الأماكن المختلفة، وبالرغم من أن عناصر المعرفة الجغرافية قد ساهمت بها كل حضارة من حضارات العالم المختلفة، إلا أن الإغريق القدماء كانوا أول

من قدم معلومات جغرافية تفصيلية وبالتالي فهم بحق مؤسسو علم الجغرافيا.

لعل أول جغرافي إغريقي هو الشاعر هوميروس homer **فملحمة الأوديسة** odyssey **لهوميروس تضمنت وصفا جغرافيا لأماكن مختلفة في إقليم البحر المتوسط بالرغم من إن مغزى ملحمته لم يكن بالتحديد تقديم الوصف الجغرافي وإنما هو الإخبار عن مغامرة مثيرة، وبعد هوميروس بحوالي خمسمائة عام، ألف هيكتاتيوس** hecataeus **كتابا بعنوان وصف الأرض** description of the earth **حيث يُعتبر الأول من نوعه الذي يهدف إلى وصف الأرض؛ فالعالم طبقا لهيكاتيوس هو أساسا منطقة البحر المتوسط.. وقبل بداية القرن الخامس قبل الميلاد تطورت كتابات الإغريق من الوصف إلى محاولة التفسير، فهيرودوت** Herodotus **المعروف بميوله وتخصصه بدراسة التاريخ إلا أنه قام ببحث الكثير من المواضيع الجغرافية فقد ترتب على أسفاره الكثيرة وكتاباته الوصفية حينا والتفسيرات حينا آخر للأماكن التي زارها للمساعدة في توضيح العديد من القضايا الجغرافية.**

أما بلاتو Plato **فقد أشار خلال القرن الرابع قبل الميلاد إلى أن الأرض كروية وفي الوقت ذاته افترض** eudoxus **بأن النطاقات المناخية** Kilmer **تطوق الأرض، فكانت الأفكار التي جاء بها كل من بلاتو و**eudoxus **مجرد أفكار نظرية تحتاج إلى مزيد من الإثبات والبرهان، فقد حاول أرسطو** Aristotle **تلميذ بلاتو إيجاد البرهان القوي لإثبات الأفكار**

التي جاء بها بلاتو؛ فلاحظ أرسطو ظل الأرض الدائري على سطح القمر، وبيَّن أن درجات الحرارة تتناقص كلما ازدادت المسافة عن خط الاستواء، أما ألكسندر العظيم Alexander the great بصفته أحد تلاميذ أرسطو فقد ساهم في تطوير المعرفة الجغرافية الإغريقية من خلال القياسات التي قام بها خلال حملات الغزو التي رافقها فقد ضمنت تقاريره التي أعدها معلومات جغرافية قيمة عن الأماكن التي شاهدها.. وآخر علماء الإغريق العظماء المعروفين بمساهمتهم في المعرفة الجغرافية هم ايراستوتين Eratosthenes وسترابو strobe لقد دعي ايراستوتين مرارا بأبي الجغرافيا لأنه أول من حدد معنى مفهوم الجغرافيا المؤلف من شقين geo ومعناها الأرض graph's ومعناها وصف، كما انه أول من قام بقياس محيط الأرض باستخدام زاوية سقوط أشعة الشمس والمعادلات الرياضية ما اشتملت مساهمات إيراستوتين على تصميم خارطة العالم بين عليها كل من أوروبا والهند وليبيا أما استرابو بالرغم من إضافاته الضئيلة على المعرفة الجغرافية إلا أنه كان الفضل له في تأليف كتاب الجغرافيا الذي تكون من سبعة عشر مجلدا، وتبرز أهمية هذا الكتاب بأنه يعد تجميعا للإضافات الجغرافية الإغريقية بوجه عام، لقد قدم الإغريق القدماء الاسم والإطار الذي يمكن العمل من خلاله في إضافة المزيد من المعلومات الجغرافية من قبل كل باحث فيما بعد.

لقد انتهى عصر الاكتشافات الجغرافية بظهور أعمال اثنين من رواد المدرسة الجغرافية الألمانية الحديثة، وهما ألكسندر همبولت Alexander von Humboldt وكارل ريتر kar Ritter حيث كان لكليهما التأثير

الكبير على مسيرة الفكر الجغرافي مما دفع فريق من الباحثين بالاعتقاد بأنه كان لهامبولت وريتر الدور الحاسم في نهاية الحقبة الكلاسيكية بالجغرافيا وبداية الجغرافيا الحديثة كما اعتبر هامبولت بأنه مؤسس الجغرافيا الطبيعية الحديثة، وريتر بأنه مؤسس الجغرافيا الحضارية.

وبالرغم من عصرية الفكر الجغرافي لكل من همبولت وريتر إلا أنهما يختلفان اختلافا بيناً في المنهج المتبع من قبل كل منهما عند معالجة الموضوعات الجغرافية فهامبولت كان رحالة وكاتبا للظواهر التي شاهدها في رحلاته العديدة غير أنه أيضا نحى منحى التفسير من خلال الفرضيات التي وضعها.

أما ريتر الذي عمل في مهنة التدريس في إحدى الجامعات الألمانية فقد ساهم في تطوير مفاهيم الترابط بين السكان ووسطهم البيئي الطبيعي حيث افترض وجود نوع من الترابط العضوي بين السكان وبين الطبيعة.. ولقد تبنى وجهة النظر هذه كثير من الباحثين، كما أنه دار جدل حولها فيما بعد..

ومن أوجه الاختلاف الأخرى بين كلا من ريتر وهامبولت هي أن نظرة هامبولت إلى العالم نظرة شمولية بينما اتجه ريتر نحو المنهج الإقليمي حيث ركز على دراسة الأقاليم.

أما أوجه الشبة بين كلاً من هامبولت وريتر فتتمثل في ميل كل منهما نحو إضفاء الصبغة العلمية على الجغرافيا، كما أنهما يرون أن الجغرافيا في

تعاملها مع الظاهرات والحوادث ذات الأصول المختلفة مترابطة في جهات مختلفة من العالم كما أشار إلى الحاجة الماسة لتطوير مفاهيم جغرافية عامة تتعلق بوجود العلاقات القوية بين الظواهر الجغرافية والبشرية والطبيعية.

إن هذا الكتاب الذي بين يديك يُمثل محاولة طيبة ترمي إلى شرح العوامل الجغرافية وتوضيح أثرها في توجيه التاريخ. وقد أسهب المؤلف في دراسة الحضارة المصرية لأنها في نظره بعثت النور والعرفان إلى شتى نواحي العالم، وكانت البذرة الأولى التي أخذت عنها الحضارات القديمة والحديثة في مختلف العصور وقد نظر المؤلف إلى البيئات المختلفة نظرة صادقة ناقدة وقام بدراسة الحقائق الجغرافية فيها ووصل بهذه الدراسة إلى تكييف التطور التاريخي في كل منها.

ومعني هذا تفسير التاريخ بأسلوب يسمو كثيرا عن مجرد سرد الوقائع والأحداث بدون إشارة إلى العوامل الجغرافية الأساسية، وقد وصل بهذا المجهود إلى بحث فلسفة الحضارة الإنسانية وكيف أنها رغم تنوعها في البيئات المختلفة ترمي دائما إلى إسعاد البشر ورفاهيتهم، وتدعو إلى التقارب بين الأمم وإلى توطيد روح التفاهم بينها..

وما بين يديك كتاب كنز يزخر بالكثير الذي سيُبهرك وسيُبهر كُل من يقرأه لأنه كتاب قيم في ذاته ملئ بمعلوماته؛ لذا استمتع به؛ واغتنم فرصة وجود هذا الكنز الكبير بين يديك وانهل منه كما تشاء.

د. فتحي عبد العزيز

تمهيد

ما العالم إلا مسرح كبير

في هذا المؤلف محاولة لقصة محبوكة الأطراف تبين أن نظامًا حقيقًا ينتظم أحداث ها الكوكب السيار وأن بدت في ظاهرها خالية من كل نظام يربط بينها. ولما كنا نتناول تاريخ العالم وجغرافيته في مثل ها الحيز الضيق كان من الضروري أن نتحاشى ذكر الكثير من التفاصيل، وقد تختلف الآن فيما يجب حذفه، وقد تظهر للناس بعض الأشياء على صورة تختلف عن صورتها في نظر المؤلف، ولكن صدق هذه النظرية في مجموعها لا يتوقف على دقة هذا التعبير أو ذاك أو على هذه النظرة أو تلك، ويجمل بنا أن نؤكد بوجه خاص أن هذا الكتاب وهو يعالج تاريخ العالم إنما يعني بوجه واحد منه، وغايته الرئيسية في الحقيقة هي العناية بالمسرح وإعداده، لا بتمثيل المسرحية ذاتها، وهدفه هو تبيان كيف كان المسرح معدًا في فترات مختلفة من التاريخ العالمي، كما يعني بصفة خاصة بإعداد المسرح الحالي لتمثيل المسرحية في الوقت الحاضر.

وقد يبدو هذا الكتاب لأول نظرة عابرة أنه يمثل ناحية مادية ولكن ماديته في الحقيقة ترجع إلى أن طبيعة البحث تفرض العناية بالنواحي المادية.

وقد تتبعنا الطرق التي أثرت بها العوامل الجغرافية في الممثلين، وأغفلنا النواحي الروحية للمسرحية والتي لا تبرز أثر العوامل الجغرافية ولكن هذا لا يعني أنها غير قائمة.

جيمس فيرجريف

الفصل الأول

الجغرافيا صانعة التاريخ

وضع ها الكتاب ليظهر كيف أن تاريخ العالم قد سيرته عوامل ووجهته ظاهرات تدخل جميعها تحت كلمة "جغرافية"، وليبين أي الحقائق الجغرافية جوهرية حقًا وذلك بملاحظة العوامل التي لها أكبر الأثر في توجيه التاريخ.

وفي هذه الجملة الأخيرة نجد ثلاث كلمات يجب أن ندرك المقصود منها تمامًا وهي:

"التاريخ" و"التوجيه" و"الجغرافيا"

١- التاريخ: إذا تكلمنا عن التاريخ على هذا النحو فإن كلامنا ينصب بطبيعة الحال على تاريخ الإنسان على وجه الأرض، ومع ذلك فإن التاريخ يشمل معاني عديدة منها ما يلي:

(أ) قد يكون التاريخ مجرد سرد لجميع الأحداث التي وقعت وفق الترتيب الزمني لحدوثها دون أي تعليق، وحين ندرس التاريخ تحتم الضرورة معرفة الكثير عن هذه الأحداث، ولكن مجرد العلم بها لا يثير

اهتماما كبيرًا، بل ولن يستطيع أحد الإلمام بهذه الحوادث كلها حتى وإن تيسر لها جمعها. فلا مناص إذن من أن نتير منها أعظمها أهمية.

(ب) ومن ثم فنن نخرج بفكرة أخرى عن التاريخ باعتبار أنه رواية لأكثر الأحداث أهمية حسب ترتيب حدوثها، على أنه ينبغي عند انتخاب أهم الأحداث.

أن نقارن بينها حتى نكم أيها أكثر أهمية. ولكن نقوم بهذا العمل يجب بطبيعة الحال أن نفكر لماذا هي "هامة". وعندئذ نجد أن الأحداث تكون هامة إذا أثرت في خير البشر إلى حد كبير، وهي أقل أهمية إذا لم تؤثر في الإنسان إلا قليلا.

(جـ) وهكذا تخطر على أذهاننا في الحال فكرة ثالثة عن التاريخ باعتبار أنه قصة للأحداث الهامة والأسباب التي سببت حدوثها والآثار التي خلفتها في الإنسان، وعند تقدير هذه الأهمية يجب أن نذكر أن بعض الأحداث يؤثر في الإنسان أثرا عميقا لفترة ما ولا يؤثر إلا قليلا بعد ذلك. على حين لا يؤثر بعضها الآخر في الإنسان إلا قليلا في مبدأ الأمر ويظل تأثيرها يفعل فعله أمدا طويلا.

فإذا ما نظرنا إلى التاريخ على هذا النحو وجدنا أن بعض الحوادث التي تبدو قليلة الأهمية هي في الواقع أحداث هامة، وفي الوقت ذاته قد تبدو بعض الحوادث الأخرى هامة جدا ولكنها في واقع الأمر دون هذه المرتبة، ونجد أيضًا أن الأسباب والنتائج التاريخية متشابكة متداخلة حتى

لتجعل من التاريخ وحدة كاملة حية، فإن بعض الحوادث المعينة قد أدت بطبيعة الحال إلى أحداث أخرى، وأن ما قام به فرد أو قبيلة أو أمة عينها قد أثر في حياة آناس أخرين وأمم أخرى، هذا وأن دراسة التاريخ شائقة جدًا ومرجع ذلك هو أنها إحدى الدراسات التي تعالج أمور البشر وعلاقاتهم بعضهم ببعض، كما تعني بالأثر الذب يتركه كل إنسان أو كل مجموعة من الناس في الآخرين. وأننا نعلم أيضًا من دراسة التاريخ أن جماعات من البشر، وإن بعدت الشقة بينها في الزمان والمكان ومع ذلك فهم يتصفون بخصائص جد متشابهة، حتى أن بعض الأحداث المتشابهة جدًا قد تحدث في مناطق جد مختلفة من العالم، وقد يختلف زمن حدوثها بل وقد تفص بينها عدة قرون من الزمان، وما حدوثها نفسه إلا نتيجة هذا التشابه، ومن هذا يبدو اتجاه التاريخ "لأن يعيد نفسه" كما يقال.

ولكن التاريخ ليس كله تكرارًا بل فيه تقدم وفيه رقي. وقد لا نلحظ ذلك إذا رجعنا إلى الوراء عاما أو عامين ولكنا لو رنونا بأفكارنا إلى الوراء قرونًا وشملت نظرتنا العالم بأجمعه لأمكننا أن نلحظ أن تقدمًا قد حدث وإذا اتسعت نظرتنا فشملت تاريخ العالم بأجمعه إرداد ظهور هذا التقدم وضوحا. وقد يغلب علينا الريب في التعبير عما نقصد بكلمة "تقدم" ولكنا في الواقع نلمسه على كل حال، فنحن ندرك مثلا أن أفكار الناس عن الحق وعن الباطل قد طرأ عليها تغير إبان العصور التاريخية فتغيرت في جملتها إلى ما هو أحسن وما هذا سوى جانب واحد من جوانب الرقي. وهناك اتجاهات أخرى واضحة يسير التطور فيها نحو التقدم فقد ارتفع مستوى معيشتنا إلا من الناحيتين الأخلاقية والفكرية فحسب بل ومن

الناحية المادية أيضًا فنحن الآن أفضل كساء وغذاء عما كان عليه أجدادنا منذ قرون ويتوافر لنا من أسباب الحياة أكثر مما تيسر لهم واتسع وقت فراغنا أكثر مما اتسع لهم. ولدينا آلاف من الشواهد على أننا بوجه عام أسعد حالًا في حياتنا في القرن العشرين بعد الميلاد عما كنا عليه منذ خمسة آلاف عام مثلًا.

فما هو الذي حدث؟ وإذا تركنا جانبًا كل المسائل الدينية فماذا نعني بكلمة تاريخ؟ أليس هناك ثمة عبارة موجزة تعبر عن معني التاريخ؟ قد يجاب عن هذه الأسئلة إجابات عدة وقد تثار اعتراضات على الجواب الذي نثبته هنا. ولا شك أن لهذا الجواب حدودًا غير أنه يمكننا القول بإن "التاريخ" في أوسع معانيه من الناحية المادية هو تسجيل لقدرة الإنسان المتزايدة على التحكم في الطاقة. ونقصد بكلمة "طاقة" القدرة على أداء عمل أو بعث حركة وليس التحكم فيها، بمعني دفع الأشياء إلى الحركة أو إيقافها، سواء أكانت قطارات أم ساعات أم طواحين أم بشرًا. وهكذا نحتاج إلى الطاقة في كل عمل. وإنما تقوم حياة الإنسان على سعيه إلى الحصول على أكبر قدر ممكن من الطاقة والانتفاع به، وتقليل الضائع منها بقدر الإمكان. وكل وسيلة تكسبه طاقة أكبر أو تنقص من خسارته منها هي علامة تقدم ورقي ولها أهميتها في تاريخ العالم. وكل اكتشاف توصل به الإنسان إلى كيفية صنع الأشياء بل وكل ما نسميه اختراعًا مما يمثل مراحل متميزة من الرقي ليست مجرد حقائق – هامة إلى حد ما – لا صلة لها بالتاريخ، بل أن صلتها به وثيقة للغاية فاختراع الكتابة الهروغليفية مثلا والحروف الأبجدية والأرقام الحسابية والطباعة والبوصلة والفأس والعجلة

والأبرة والآلة البخارية وورقة النقد، هذه كلها أشياء لها أكبر الأثر في مجري التاريخ العالمي، وأهميتها تتركز في أنها مكنت البشر من استغلال الطاقة واقتصادها.

ومن ثم يتضح لنا أن للطاقة أهميتها البالغة فيما نسميه "التاريخ الاجتماعي" بل ومن الضروري أن تبرز أنها لا تقل في أهميتها أيضًا للتاريخ الحربي والدستوري –أي التاريخ الذي يعني بالقوانين والمعارك ويؤرخ للملوك والجمهوريات. وقد يكون من المفيد أن نضرب لذلك مثلا استغلال الطاقة المتولدة من الفحم المحترق أو من المياه الساقطة، فهي لا تستغل كلها في أن تحفظ للآلات دورانها بل أننا نستغلها في نواحي أخري. وقد يبدو في الظاهر أنها تذهب سدي إذا استخدمت بقصد الحصول على طاقة أكبر فيما بعد. ويجري هذا النحو بأساليب تشبه إلى حد كبير تلك التي نراها تعمل عملها على نطاق واسع في التاريخ السياسي والاجتماعي.

١– فقد تستدم الطاقة في إبدال أجزاء جديدة من آلة بأخرى قديمة أو في إضافة أجزاء أخرى أكثر صلاحية لهذا العمل فنستنفد الطاقة في صناعة الجزء الجديد وفي تركيبه وضبطه، وقد يبدو هذا مجهودًا ضائعًا، كذلك الأمر عند ما توضع نظم جديدة للحكم، فليس ذلك سوي إدخال تحسينات في آلة الحكم.

وكل تغيير تدريجي في وسائل الحكم هو بمثابة إحلال آلة جديدة محل أخرى قديمة. ومع ذلك، فإن مثل هذا الاستبدال نادر ويكاد يكون غير

معروف على أي نطاق واسع، ذلك لأن قدرًا كبيرًا من النظام القديم يبقي عادة ويدخل في تركيب النظام الجديد حتى في أشد الثورات عنفًا.

٢- وقد تبذل طاقة في تشحيم الآلات، وكل طاقة تستخدم في صناعة الزيت وتنقيته واستعماله تبدو جهدًا ضائعًا، ولكن استعمال الزيت يمكن الآلة من أداء عملها أكثر مما تستطيعه بدون هذا الزيت. وعلى نفس هذا النمط ينتفع الجهاز الحكومي بجهود عدد من الرجال هم بمثابة الزيت للآلة حتى يتسني لها أن تدور في سهولة ويسر. وعلى مر الزمن يزداد الانتفاع بالطاقة لصالح الأفراد الذين يعنيهم الأمر. وإن البنوك والأسواق المالية (البورصات) والصحف التجارية هي كلها بمثابة الزيت الذي بفضله تسير شئون العالم التجاري في مجراها بسهولة، كما تيسر بطريقة غير مباشرة شئون العالم الإجتماعي والسياسي.

٣- وقد يحدث في بعض الأحيان أن تذهب طاقة الآلة سدى فتنطلق هاربة دون أن تؤدي عملًا نافعًا —وهي عادة على صورة طاقة حرارية وعندئذ يضع المهندس بعض الوسائد حول بعض أجزاء الآلة ليمنع تسرب الحرارة منها. كما تتطلب الآلات نوعًا من الحماية لكي يمنع عنها الصدأ ولمقاومة ما قد تحدثه لها قوة الهواء من أضرار. وفي كلتا الحالتين فإن ما يبذل من الجهد في حماية الآلات قد يبدو ضائعًا غير أنه على مدى الزمن يؤدي إلى كسب قدر من الطاقة أكبر مما استنفذ. ولهذا الغرض عينه تقام المباني سواء أكانت لحماية الآلات أم لحماية الناس. كذلك الحال في قوات البوليس والجيش والأسطول وغيرها من الهيئات فإنها تشبه عمليات

الحماية والوقاية التي يقصد بها منع تسرب الطاقة هباء أو لتحول دون أن تحدث لها أضرار أو لتمنع المؤثرات الخارجية من أن تحول بينها وبين مواصلة عملها بانتظام.

وهناك نظرية هندسية أخرى لها أثر عميق جدًا في التاريخ إلا وهي نظرية الحمولة الكاملة أو الحمل الأقصي. ومعني هذا أن إدارة عدد من الآلات مجتمعة يتطلب طاقة مما تتطلبه إدارة كل آلة على حدة، لأن الآلات لا تعمل قط بأقصى قوتها في وقت واحد. ولنضرب لذلك مثلا النقل بالترام. فإن تسيير قطارات الترام جميعًا بوساطة محطة مركزية لهو أكثر اقتصادًا من تسيير كل منها على حدة بقوة خاصة بها. وهناك وفر كبير آخر علاوة على الاقتصاد الناتج عن إنشاء عدد أقل من الآلات، ألا وهو إن العربات لا تعمل جميعها بأقصي سرعتها في وقت واحد. هذه النظرية مثل غيرها تطبق على نطاق واسع في التاريخ الاجتماعي ويرجع إليها الفضل في نمو المدن في الوقت الحاضر. كما أن المخازن الكبري وبيوت الأعمال العظمي والنقابات تدين لهذه النظرية بأهميتها. بل ولدرجة ما يمكن أن يرجع إليها بعض الفضل في وجود القوميات والامبراطوريات.

(ء) وهكذا تولد لدينا الآن فكرة رابعة عن التاريخ، فعندما نتكلم عن تاريخ العالم بأوسع معانيه نقصد وجود علاقة منظمة بين أحداث تبرز كيف تمكن الإنسان بالتدريج من أن يستخدم من الطاقة قدرًا متزايدًا، هذا مع بيان أسباب هذه الأحداث ونتائجها.

وتتصل بنظرية الحمولة الكاملة نظرية هندسية أخرى وهي "القصور الذاتي" والقصور الذاتي هو مقدرة الجسم على استمرار التحرك إذا ما بدأ في الحركة وليكن هذا الجسم قطارًا أو مؤسسة أو مدينة أو صناعة القطن في لنكشير أو الإمبراطورية البريطانية، وكلما عظم الجسم عن أن توقف حركته لأن إيقاف الأشياء يتطلب بذل طاقة وإذا ما كفت الأجسام فجأة عن الحركة نشأ عن ذلك ضرر، وإذا ما منعنا عن جسم متحرك القوة الدافعة له فإنه لا يكف عن الحركة في التو واللحظة كما أنه لا يصل إلى أقصي سرعته في لحظة إطلاق هذه القوة عليه مرة أخرى. والآلة المتحركة لا تسكن سكون الأموات إذا معنا عنها مورد البخار، كما أنها لا تقفز إلى الدوران في أقصى سرعتها إذا ما أعيد إليها موردها من القوة.

وإذا لم يتوافر لها القدر الكافي من الطاقة لدورانها فإنها تبطئ فترة ثم تقف، ولكنها لا تقف فجأة. وقد ظلت الإمبراطورية الرومانية تعيش ثلاثمائة عام بعد أن نقصت قوتها الدافعة نقصًا خطيرًا.

– التوجيه: ويجب أن نحدد معني كلمة "توجيه". قد يساعدنا على فهم معناها ذكر ما لا ينطوي تحتها وضرب بعض الأمثلة على ذلك. فالتوجيه نوجه الحصان ونضبط سيره أو نحدد في أي الاتجاهات يسير أو نوقفه، ولكنا لا تخلق الحصان ولا الطاقة التي يستخدمها في استجابته لتحقيق رغباتنا ثم إن الناس قد يستطيعون ضبط مجري مائي في انحداره من سفح تل من التلال وببلغ تحكمهم فيه أنهم يحفرون له قناة ويبنون له شواطئها بالأحجار ليحولوا دون فيضانها على الجوانب أو يضعون

الأنابيب لنقل بعض مائها أو كلها إلى حيث يريدون. ولكنهم لا يستطيعون خلق النهر نفسه بمعني خلق الماء ذاته، كذلك يستطيع الإنسان أن يتحكم في الإفادة من الطاقة المتولدة من الفحم سواء في التدفئة أو في تسيير قطار بما يحمله أو في إدارة آلة تدير مصنعًا للنسيج، ولكنه لا يستطيع أن يخلق الفحم ذاته.

وهكذا إذا قلنا أن التاريخ توجهه وتحدده الجغرافيا فإنا لا نعني أن الإنسان مضطر بحكم الجغرافيا إلى أن يزيد في استخدام الطاقة شيئا فشيئا، ولكن معناه أن الجغرافيا تحدد إلى مدى كبير الطريق المعين الذي قدر للإنسان أن يسلكه في هذا الاستغلال.

٣- الجغرافيا - ويجب أن نحدد أيضًا معنى كلمة "جغرافيا" وأن تحذر القول بأن العلم بالجغرافيا لا يحوي إلا المعرفة بأسماء الأماكن أو مواقعها أو أن نعرف عن هذه الأماكن بعض المعلومات الطريفة، فما هذا سوى جزء واحد بالغ الأهمية من بين أجزاء الجغرافيا، وهو الجزء الذي يماثل معرفة الأحداث في علم التاريخ ولكن لا يعدو أن يكون جزءًا، كذلك يجب أن يكون معروفًا أن الجغرافيا ليس معناها معرفة كل ما على سطح الأرض —وإذا كان كل ما على الأرض يتصل بالجغرافيا معرفة مواقع الأشياء كالمدن والجبال والأنهار بل والناس وأحوالهم وكذلك تعرف كيفية توزيع الأشياء على سطح الأرض وكيف ينتظم اليابس والماء وأين يسقط الأمطار بغزارة وأين ترتفع درجة الحرارة وأين تنخفض وأين تنمو أنواع

الحياة النباتية على إختلافها وأين تهب العواصف وأين تهدأ الرياح وأين يعيش الناس بمختلف أجناسهم.

ولما كانت أكثر الأحوال الجغرافية هي نتيجة لظروف جغرافية أخرى فإننا كثيرًا ما نضمن دراستنا الأسباب والنتائج، فنعرف لماذا وجدت غالبية الأشياء التي نحن بصددها حيث هي، وكيف أثر وجودها أو انعدامها في حياة الإنسان، ولقد فرضنا عند التعرض لتعريف ماهية التاريخ أن الأحداث تحدث نتيجة لأعمال البشر فيما مضي ولكنا هنا في الجغرافيا نفرض أن الأحداث إنما تحدث بالشكل أو الأسلوب الذي تحدث به بسبب عوامل أخرى مسيطرة.

أما وقد تبينا معني هذه الكلمات الثلاث ألا وهي التاريخ والتوجيه والجغرافيا فإننا نستطيع أن ندرك أن هذا الكتاب قد وضع ليبين الطريق الذي يسر للإنسان استغلال الطاقة شيئًا فشيئًا وكيف أن طريقه قد حددته التوزيعات الجغرافية على سطح الأرض.

وهكذا تتكون لدينا فكرة عن المسرح العالمي الذي يمثل عليه البشر الآن أدوارهم في الحياة.

العوامل الكبرى البعيدة الأثر مع بساطتها

وقبل أن نمضي في تتبع أثر العوامل الجغرافية في مجري التاريخ فجعلت ظروفًا وحوادث معينة تتوالي بعضها أثر بعض في ترتيبها الزمني، يحسن بنا أن نبين أثر بعض العوامل الأساسية البارزة والمألوفة لنا إلى حد قد يكمن فيه خطر نسيان أهميتها القصوى، وذلك لأنها قائمة على الدوام ومألوفة لكل إنسان، فلم تعد تستلفت النظر، ولما كانت تعمل عملها في صمت وتؤثر أثرها على الدوام وفي البشر جميعًا - وفي جميع مراحل المدنية، أصبح من الصعب تصور الأثر العميق الذي تتركه في الحياة.

أولا- المكان:- من الواضح أن لكل حادث مكانا يقع فيه، وفكرة المكان وهي أبسط ما توحي به الجغرافيا، ترتبط بأبسط فكرة عن التاريخ ارتباطًا وثيقًا بل أن الأحداث التي تحدث في مكان معين أو في أقليم بالذات لها علاقتها المحددة في غالب الأحيان ببعضها بعضا وترتبط عادة فيما بينها بنوع ما من العلاقات ولا تتصل اتصالا وثيقًا بالأماكن التي تخرج عن نطاق حدوثها، وتؤخذ مثل هذه الحقائق في تتابعها على أنها تاريخ تلك البقاع أو الأمكنة. فنتكلم عن تاريخ انجلترا أو تاريخ فرنسا أو تاريخ اليونان أو تاريخ لندن وهذه طريق هامة إن لم تكن بديهية تحكمت بها الجغرافيا في التاريخ وسندرك أهميتها البالغة فيما بعد ولكنا نعلم أن تواريخ هذه البقاع وهذه الأقاليم لا يمكن أن تدرس بمعزل عن غيرها فإنا لا نستطيع الوقوف على جزء كبير من تاريخ لندن ما لم نكن على علم إلى حد ما بتاريخ انجلترا. وأن الإنجليز كانوا على اتصال بالفرنسيين لفترة

طويلة من الزمان وأن تاريخ انجلترا قد تأثر بتاريخ فرنسا الذي تحكم فيه إلى حد ما. ومثل هذا القول يصدق على جميع التواريخ وكل منها يستند إلى حقيقتين: الأولى أن تاريخ الإقليم يمثل وحدة قائمة بذاتها لسبب أو لآخر. والثانية أن سكان الإقليم يتأثرون بظروف حياة سكان الأقاليم الأخرى قربت أم بعدت. ولكل منها وحدته الخاصة وهذه هي الظاهرة الغالبة في الأزمنة الحديثة ولكنه ينطبق أيضًا على التاريخ القديم.

ثانيا- الطاقة - وما دمنا قد قررنا أن التاريخ يعني زيادة معرفة الإنسان بطرق استخدام الطاقة وتوفيرها فإن التاريخ مسير بحكم توزيع الطاقة في صورها المختلفة وبحكم توزيع أي عامل قد يحول دون استخدامها أو ما قد يحفز الإنسان على زيادة الانتفاع بها.

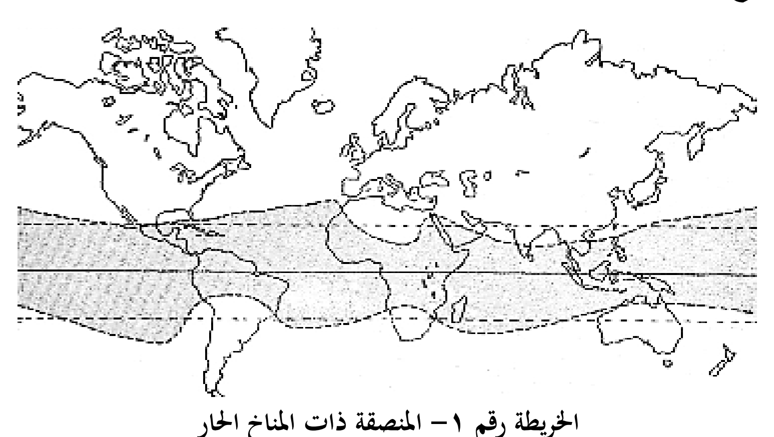
وكل طاقة على سطح الأرض مصدرها الشمس أما في شكل حراري أو ضوئي وربما في أنواع أخرى من الإشعاع وبفضل هذه الطاقة استطاع البشر أن يصنعوا الأشياء ويبعثوا بالحركة فيها، فهم يتسلطون على هذه الطاقة ويخضعونها لإرادتهم وتصبح جزءًا منهم، فهم يأكلون الخبز المصنوع من القمح أو من الحبوب الأخرى والتي ما كانت تنمو وتزدهر لولا حرارة الشمس وضوؤها، كما أصبح الحب دقيقًا مطحونًا بفضل استخدام الفحم الذي هو في الأصل نبات بما بفضل حرارة الشمس، وقد يطحن الدقيق بقوة مستمدة من المياه وهذه مصدرها الأمطار حين تنحدر على سفوح الجبال، وهي أصلا قد تصاعدت في صورة أبخرة من المحيط بفضل حرارة الشمس ثم حملتها الرياح إلى اليابس، وللشمس الفضل الأول في حركة

الرياح، كما أن البشر قد يستمدون طاقتهم من لحم الحيوان الذي يأكل النبات في غذائه بعد نموه بفضل أشعة الشمس، وقد يستطيع البشر الاستغناء عن بعض الطعام وتدفئة أنفسهم بالنيران التي وقودها المواد النباتية كالفحم أو الخشب أو الزيت وهي جميعًا تستمد طاقتها الكامنة من الشمس. وقد يحاول البشر اقتصاد بعض الطاقة بارتداء الملابس والفضل في وجودها مباشرة أو غير مباشرة عائد إلى الشمس، ومن اليسير أن نتبين في جميع هذه الحالات الجوهرية وفي حالات أخرى كثيرة تكاد لا تقل عنها أهمية أن الطاقة التي يسيطر عليها الإنسان مستمدة من الشمس مباشرة وأن قليلا من التفكير يظهر أن الشمس هي المصدر الأول لذلك القدر الهائل من الطاقة التي نحتاج إليها في قضاء آلاف المطالب العديدة اللازمة للحياة اليومية ومن هذا يتبين أن توزيع الطاقة على الأرض هو في الجملة توزيع للطاقة الشمسية فالأماكن التي تقع مباشرة تحت الشمس تتلقي قسطًا من الطاقة أوفر من تلك التي تستقبل الإشعاعات بميل أو بانحراف، وبعبارة أخرى أن الأماكن القريبة من خط الاستواء هي في مجموعها أوفر حظًا من تلك التي تقع قرب القطبين ولعل هذه الحقيقة هي أهم حقائق التاريخ المالي وأبقاها، ومدي الاستفادة من هذه الطاقة متأثر بتوزيعات أخرى عديدة بدرجات متفاوتة وفي أزمنة مختلفة ولكن توزيع الطاقة يظل في جميع مراحل التاريخ هو الأساس الأول الذي تقوم عليه جميع الأحداث.

ويمكن أن نبين جلاء الأثر الذي تتركه هذه التوزيعات في تاريخ العالم إذا تصورنا الكرة الأرضية بما عليها من قارات ومحيطات كما نعرفها اليوم، تدور حول الشمس، وهي تدير لها دائما وجهًا واحدًا فقط، لو حدث مثل

ذلك لتركزت الحرارة والضوء في نصف واحد من الأرض وبصفة خاصة في وسط ذلك الجزء من الكرة الأرضية وبطبيعة الحال لن يتلقى النصف الآخر شيئا من هذه الإشعاعات، ومن الواضح أن الحياة لن تصبح ميسورة كما هي حالنا اليوم، ولو أنها قد تصبح ميسورة في أماكن تستحيل فيها الحياة اليوم استحالة مادية. ثم إذا تصورنا الأرض تدور كما تدور الآن ولكن ميل محورها يختلف عن ميله في الوقت الحاضر فإن قليلا من التفكير يرينا كيف تختلف الأحوال عندئذ اختلافا جسيما عن الظروف السائدة فعلا الآن، وإن كانت هذه فروضًا فيها تعسف ولكنها تؤكد كيف أن توزيع الطاقة في حالته الراهنة يتحكم في التاريخ.

وقد يقال أن التوزيع النظري للطاقة على سطح الأرض قد تأثر ببعض العوامل البشرية أو بما يعرف أحيانًا بالتعادل البشري[1] غير أن هذا التوزيع للطاقة يتأثر



الخريطة رقم ١– المنصقة ذات المناخ الحار

(١) يقصد المؤلف هنا تناسب طاقة البشر مع الطاقة الطبيعية –فكلما نقصت الطاقة الطبيعية كلما ازدادت الطاقة التي يبذلها الإنسان في حياته والعكس بالعكس– المترجم.

تبين المساحة المظللة الأماكن التي لا تنخفض فيها درجة الحرارة إطلاقا عن فهر نهيت إبان السنوات العادية

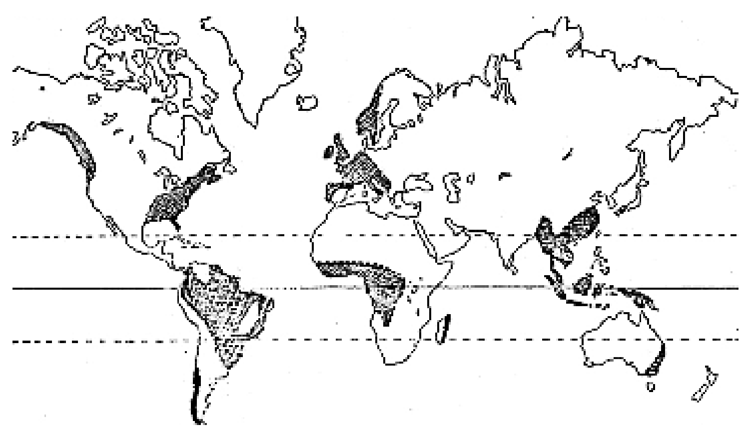
إلى حد ما بعوامل أخرى مختلفة ومثال ذلك أن الأماكن القريبة من خط الاستواء تتلقي بصفة عامة قسطًا من الطاقة أوفر من تلك التي تجاور القطبين ولكن هذا النقص في الطاقة لا يسير على وتيرة واحدة فبعض الأقاليم يتلقى فعلا قسطًا من الطاقة أكبر من أقاليم أخرى تقع على مقربة من خط الاستواء بسبب اختلاف توزيع الهواء والتيارات الهوائية أو ما نسميها بالرياح.

(١) ومن الأهمية مكان ملاحظة التوزيع الفعلي للهواء ومن المعلوم أنه كلما ارتفعنا عن سطح الأرض نقصت درجة الحرارة أو بعبارة أخرى قلت الطاقة التي يمكن الاستفادة منها وهذا يتصل بحقيقة أخرى وهي أنه كلما ارتفعنا كلما نقص الهواء نفسه.

وهكذا تصبح الأبعاد الرأسية ذات أهمية بالغة مع أن هذه الأبعاد عينها قد لا تستحق الذكر لو أنها اتخذت على مقياس أفقي وذلك بسبب هذا النقص في الطاقة وحده، فالقمح مثلا وهو غذاء رئيسي يمكن أن ينمو في بريطانيا في منطقة تمتد شمالا إلى انفرنسشير (invernesshire) ولكنه لا ينمو في انجلترا نفسها على ارتفاع ألف قدم بسبب نقص الحرارة الكافية اللازمة لنضوجه لأن درجة الحرارة تنقص بمعدل درجة فهرنهيت واحدة لكل خمسين أو ستين ميلا حين نتجه نحو القطبين ولكنها تنقص

بنفس المعدل لكل ٢٠٠ أو ٣٠٠ قدم يرتفعها الإنسان عن سطح الأرض.

(٢) (ب) ولا يقل توزيع التيارات الهوائية أهمية عن عامل الارتفاع بل وقد يفوقه أهمية فإلى فعل الرياح ودفعها للتيارات المائية يرجع الفضل في أن انجلترا أدفأ مناخًا من لبرادور وأن الحياة ميسورة فيها عموما لأن تيارًا مائيا دفيئًا يأتي من الجنوب الغربي فيرفع من درجة حرارة المناخ فوق المعدل المعتاد لمثل هذه العروض وهي تتراوح بين ٥٠و٦٠ درجة بينما الحياة في لبرادور تكاد تكون مستحيلة بسبب تأثرها بالمياه المثلجة الآتية من الشمال المتجمد ولو قارنا خريطتين إحداهما تمثل الرياح والأخرى تمثل التيارات المحيطية لاتضح أن التيارات تدين بوجودها



(الخريطة رقم ٢)

المناطق المظللة يزيد فيها المطر عن عشر بوصات

توزيع مناطق الأمطار الغزيرة الدائمة طول العام

إلى الرياح، ولو أمكن مقارنة الخريطيتن بخرائط أخرى تمثل الحرارة لاتضح لنا أن نظام الرياح مسئول عن عمران أو جدب الأراضي التي تقع في نظاق ْ٢٠ عرضية جنوبي الدائرة القطبية الشمالية.

ومعني هذا أن نظام الرياح قد تحكم تحكما فعالا في مجري التاريخ بطريقة أخرى، وقد سبقت الإشارة إلى اعتماد الإنسان في حياته على غذائه وحيثما يكون الإنسان فإنه يأكل ليعيش، وطعامه إما أن يكون مستمدًا من النبات وأما من الحيوان.

ولما كانت الحيوانات تعتمد آخر الأمر في غذائها على النباتات أدركنا بوضوح الأهمية البالغة التي للمواد النباتية حقًا أن مجتمعات قليلة جدًا قد تعيش على الأسماك وهذه بدورها تعتمد على أنواع خاصة من النباتات المائية أو على مخلوقات أخرى تعيش معتمدة على الأنواع النباتية الدنيا ولكن أغلب البشر يعتمدون في غذائهم على المنتجات النباتية التي تنمو بفضل المطر فإنه لا يكفي أن توجد الطاقة (الحرارة) بل أن وجود المطر أساسي حتى يتيسر للنباتات أن تنمو، أي أن الأمر لا يقتصر على وجود الطاقة فحسب بل على إمكان الإفادة منها، أي أنه متوقف على وجودها بالمظهر أو الشكل الذي يمكن الإنسان من استخدامها، والمطر هو الأبخرة الآتية إلى اليابس من المحيط، والرياح هي الناقل الوحيد لها فإذا هبت الرياح من البحر إلى اليابس تهيأت الفرصة للأرض التي تهب عليها لأن تستفيد من طاقتها فتصبح صالحة للسكني والحياة. أم إذا هبت من

اليابس إلى البحار كانت الأراضي التي تهب منها جافة قاحلة لا يقبل الناس على العيش فيها.

يتضح مما سبق أن الظروف الجغرافية قد تحكمت في التاريخ تحكما حقيقًا لا مجازا، فهي التي جعلت بعض الأماكن تلائم بوجه عام حياة البشر أكثر من غيرها، ولكن الظروف الجغرافية تحكمت في التاريخ بمعني آخر أدق يمكن جماله بالقول بأنها وجهت التاريخ في مجراه توجيهًا فعليًا.

هذه الظروف وآثارها هي التي نحن بصدد دراستها.

الفصل الثاني

الصحراء – بدء التاريخ – مصر

لقد رأينا مما سبق أن عوامل جغرافية تتحكم في التاريخ وتسيره بمعني أنه بفضل توزيع الحرارة والرطوبة أصبحت الحياة أكثر يسرا في بعض بقاع الأرض عن غيرها. وعلينا الآن أن نبحث الظروف الجغرافية الأخرى التي تحدد السبل التي سار عليها التقدم والرقي.

أولا– ينبغي أن نلاحظ أن الظروف الجغرافية هي التي خلقت الحافز الذي دفع الإنسان إلى التقدم ومتابعته، حقا أن الأقاليم الإستوائية بما توافر لها من الحرارة والرطوبة قد تيسر أسباب الحياة للحيوان إلى أقصى حد، غير أن من الحقائق الراهنة أن الإنسان في الأقاليم المعتدلة لا في الأقاليم الإستوائية قد بلغ الغاية في قدرته على التحكم في الطاقة. والتاريخ الجدير بهذا الإسم لا نجده في أفريقيا الإستوائية وإنما نجده في أوربا المعتدلة ويرجع هذا إلى عاملين جغرافيين ترجع أهمية كل منهما للأثر الذي يتركه في عقل الإنسان كما يتركه في جسمه.

(أ) يأتي في المرتبة الأولى أنه ليس في العروض الإستوائية ما يحفز الإنسان أو الحيوان إلى بذل الجهود أكثر من أن يتناول الطعام الضروري الذي يحفظ عليه الحياة. وما ذلك إلا لأن الحياة ونعني بها

الحياة الحيوانية ميسورة في هذه العروض، وأما في العروض المعتدلة، فكلما ابتعدنا عن خط الإستواء أصبحت الحياة أكثر صعوبة، ولهذا السبب إذا ما قدر للمخلوقات فيها أن "تعيش" وتستمر كان من الضروري لها بذل قدرًا أكبر من المجهود والنشاط.

وليس للهمج من سكان أفريقيا الإستوائية من حاجة إلى ارتداء لباس ما ولو كان غطاء من الجلد. ومثل ذلك في الغذاء فهو صعب المنال في أوروبا ويتطلب الحصول عليه جهدًا ونصبًا. وعلى ذلك فإنه حتى في ذلك الزمان الذي كانت الأجناس البشرية جميعًا على درجة من التأخر والهمجية نجد متوحشي أوروبا أرقي من متوحشي أفريقيا لا لسبب إلا لأن الحياة في أروبا تتطلب نشاطًا ذهنيًا أكثر بسب النقص في الطاقة الشمسية.

(ب) ثم يأتي في المرتبة الثانية أن الأيام في الأقاليم الإستوائية تكاد تشبه بعضها بعضًا ولكن الأيام تختلف فيما بينها كلما اتجهنا شمالًا فلا تشبه بعضها بعضا.

وبحكم تتابع الفصول في العروض المعتدلة تصبح فيها أيام للصيف وأخرى للشتاء. وهي تختلف تبعًا لاختلاف كمية الطاقة الحرارية أو تبعًا لاختلاف مقدار الرطوبة في هذا الفص عن ذاك. وفي أي من الحالين فمن المؤكد أن يكون الطعام شحيحًا في فترة وموفورًا إلى حد ما في فترة أخرى.

ونشأ عن ذلك أن اليوم أصبح دورة الحياة في أفريقيا الإستوائية حيث يعزف الأفراد والأجناس عن النظر إلى المستقبل البعيد ويقصرون

حياتهم على الزمن الحاضر وحده ولا يحتاطون للمستقبل بينما السنة هي دورة الحياة في الأقاليم المعتدلة ومن ثم عني الناس بالتفكير في أمر مستقبلهم.

هاتان المجموعتان من الظروف الجغرافية، شأنها شأن كثير من الظروف الجغرافية إن لم يكن أغلبها، واضحتان وضوحًا يخشي معه أغفال شأنهما أو التقليل من خطرهما في تاريخ العالم، ولكنهما تعملان في إصرار وإلحاح ولهما صفتا الاستمرار والتأثير على مدى الزمان في كل رجل وكل امرأة وكل طفل في كلا الإقليمين. هاتان الظاهرتان بمفردهما، أو بالاشتراك مع غيرهما، تفسران اختلاف تاريخ الإقليمين، "تقدم حضارة أوروبا" وجهالة "القارة المظلمة".

وتبدو أهمية هاتين الظاهرتين في خلق الحافز الذهني الذي يدفع بالإنسان إلى توفير الطاقة في المناطق التي نطلق عليها اسم الأقاليم المعتدلة، إذا ما قدر للحياة فيها أن تبقي مستمرة، فإن ارتداء الملابس يحول دون إشعاع الطاقة الحرارية ويوفرها لتستغل في غرض آخر والعروض التي تتأثر بالتغيير الفصلي تتطلب أن تحدد أوقات معلومة للبذر والحصاد وأوقات معلومة للأزهار والإثمار ويصبح من الضرروي إمكان توفير الطاقة الغذائية من الأيام السمان للإنتفاع بها في الأيام العجاف.

والإنسان يستهويه أن يجد أقل قدر من المقاومة، سواء في الأقاليم الاستوائية أو في الأقاليم المعتدلة ولكنه في واحدة منها يجد دافعًا أو حافزًا

للعمل قد يصل به إلى درجة الحاجة التي هي أم الاختراع بينما ينعدم عنده هذا الحافز في الإقليم الآخر.

ولما كان الحافز إلى التفكير في اقتصاد الطاقة يكاد يكون معدومًا في العروض الاستوائية، فإنا نجد فيها أجناسًا بشرية أكثر انحطاطًا من غيرها من السلالات التي تسكن المناطق الأخرى حتى بعد أن تقادمت العهود على ارتقاء هذه السلالات الأخيرة وارتفاعها عن مستوى معيشة الحيوان. ومن ثم يجب ألا ننتظر من هذه السلالات تقدمًا، وبالتالي يجب ألا ننتظر منها تاريخًا، أما في العروض المعتدلة فبفضل وجود هذا الحافز واستمراره نرى الأجناس توالي تقدمها وتضيف لنفسها قوة على قوة. وهذا يبين لنا السبب الذي يفسر الحقيقة التالية وهي أن تاريخ العالم هو في معظمه تاريخ المناطق المعتدلة التي تقع على وجه التقريب بين خطي عرض ٣٠° و٦٠°.

ثانيا– ويبرز أثر هذا الحافز كاملا في بعض الأماكن أكثر من غيرها تبعًا للظروف الجغرافية. ولما كان الإنسان يتحكم في الطاقة ويسيطر عليها سواء يتناول الأطعمة ذاتها كما هو الحال في البيئات البدائية أو باستخدام الفحم كما هو الحال في بيئة القرن العشرين، ففي استطاعته أن يسخر هذه الطاقة بطريقتين: أما بالإفادة منها بتسخير طاقة أكبر منها، وأما بتبديدها دون فائدة، بل وقد يسخرها في تدمير وسائل الإنتفاع بها. وقد يتبع الطريقتين في وقت معًا إلى حد ما، وقد يبذل مجهوده الخاص لينتفع بمجهود غيره وفي هذه الحال تزيد قدرة الفرد ولكن لا تزيد كمية الطاقة التي يتحكم فيها مجموع البشر.

ومن البين أن أقدر الجماعات على توفير الطاقة هم أولئك الذين يعيشون في وئام وسلام، والفضل في تضامنهم مع غيرهم مبعثه تزايد قدرتهم على توفير الطاقة، الأمر الذي ييسره لهم اتحادهم، ولا ينتظر أن تظهر مثل هذه الجماعات لأول مرة في الأقاليم الاستوائية لا لمجرد انعدام الحافز الذي يدفع بها إلى التفكير في المستقبل ولكن لأن الأفراد والقبائل لا تعيش في سلام بسبب ما تفرضه عليها الطبيعة من انحطاط في مستوى حضارتها — نعم قد تعيش قبائل – لأن الفضل في وجودها يرجع إلى عوامل غير جغرافية – ولكن القبيلة، في غير المناطق الإستوائية تنمو وتصبح نظامًا أكثر تعقيدًا.

بل حتى في المناطق التي يتوفر للإنسان فيها هذا الحافز يحتاج أيضًا إلى نوع من الحماية كي يتيسر له الرقي. وقد تأخذ الحماية أشكالا شتى، فقد يحمى الرجل نفسه وقد تحمي الأمة نفسها باستخدام جزء من طاقتها في الدفاع، ومن الواضح أنه من الأفضل لو أمنت أمة الدفاع عن نفسها دون تنفق في هذا طاقتها كأن تتكفل ظروفها الجغرافية فتدفع عنها شر العدوان. ويجب أن نتصور أن مثل هذه الجماعة أو القبيلة أو السلالة سرعان ما تخرج من مرحلة التأخر والهمجية وهو الدور الذي تكفلت فيه الطبيعة بحمايتها. وقد تكفلت الظروف الجغرافية بحماية أمم مختلفة في عهود مختلفة وفي أحوال مختلفة، غير أن أنواع الحماية تتغير تبعًا لتغير الأحوال وما يعد حماية في عصر من العصور قد لا يصبح حماية كافية في عصر آخر – ويعد درعا واقيًا في أي عهد من العهود كل ما يحول دون تدخل القبائل أو الأجناس الأخرى. وتعد من أنواع الدفاع الخاصة تلك

الظاهرات الجغرافية التي يتعذر على الناس تخطيها أو عبورها في يسر، ويزيد الدفاع مناعة كلما زادت الطاقة التي يبذلها الإنسان في هذا السبيل.

وتقوم بهذا الدور ظاهرات جغرافية كثيرة كالأنهار والبحيرات والجبال والسفوح الشديدة الانحدار والمستنقعات، ولها جميعًا أثرها في حماية المجتمعات الصغيرة، ولكن الظاهرات الكبرى التي لحمايتها أثر في مجري التاريخ العالمي هي الهضاب الواسعة التي تبلغ حدًا من الإرتفاع يتعذر معه نمو النباتات، أو الصحراوات الترامية الشديدة الجفاف لدرجة تفقدها كل قدرة على الإنبات، أو البحار التي لا يتيسر للإنسان أن يتخذ فيها مقرًا. ويقتضي التغلب على كل من هذه العقبات بذل الجهود بالإضافة إلى أنها تكاد تفتقر إلى أول مقومات الحياة البشرية. ولابد للإنسان أن يكون على قسط كبير من المدنية قبل أن يصيب نجاحًا في التغلب عليها.

ولهذا هيأت في العصور الأولى حماية كاملة للمجتمعات التي احتضنتها. لقد كانت هذه الظاهرات مجهولة مخيفة وكان البحر أكثرها غموضًا ورعبا.

ثالثا – كما يجب أن نذكر أثر هذه الظروف الجغرافية باختصار ونوضحها كعوامل موجهة للتاريخ، ذلك أن مجرى التاريخ بأسره، بما في ذلك بداياته، قد تأثر بصفات الأفراد والأجناس وميزاتهم، وبعض هذه الصفات يرجع إلى عوامل جغرافية وبعضها الآخر لا يرجع الفضل فيه إلى مثل هذا العوامل ولكنا نأخذها قضبة مسلمة، كما أن أحداث التاريخ

بكل ما أستتبعته من نتائج وحدوثها في الأزمان التي قدرت لها – بل أن مجرد حدوثها وحده – كل هذا يرجع إلى إرادة الإنسان ورغبته في العمل. ولو حرم الإنسان قوة الإرادة لما حدثت هذه الأحداث إطلاقا. غير أن أعمال البشر من ناحية أخرى تتكيف طبقًا لمقتضيات الظروف المحيطة بهم كما تتكيف حسب تكوين أجسامهم. والاتجاهات التاريخية الكبرى لم تتأثر إلى حد كبير بالصفات المميزة للأفراد، لأن الظروف الجغرافية على مر العصور أقوى أثرًا من عبقرية الأفراد، وأبعد مدي من المميزات الجنسية ما لم تكن هذه المميزات وليدة عوامل جغرافية وهكذا بدأ التاريخ حيث بدأ بفضل هذه الظروف الجغرافية.

ومن الواضح أن معلوماتنا عن صور الحضارات الاولى ناقصة وفي أغلب الأحيان قليلة، ومن الطبيعي ألا يكون لدينا سجل للتقدم التدريجي الذي حدث خلال العصور الطويلة قبل أن يخرج للإنسان من ظلمات الوحشية، وأقصى ما نأمل في البحث عنه هو بقايا هذه الحضارات القديمة، تلك البقايا التي صمدت للدهر طويلا لأنها متينة في تكوينها، ولا شك أن أنها بقايا حضارة متقدمة إلى حد ما.

ومن الطبيعي أيضًا ألا تصل الحضارات الأولى التي سمعنا بها إلى ما وصلت إليه إلا بعد عهد قد يقدر بعشرات الآلاف من السنين لأن نمو هذه الحضارة كنمو الأشجار بطئ في مبدئه لو قورن بنموها فيما بعد حين يتيسر للشجرة أن تنمو في أجزاء كثيرة منها، ويجب أن نذكر أنه حتى في تلك الأزمان التي نبدأ في اعتبارها أزمانًا تاريخية سبقها تاريخ بدائي على

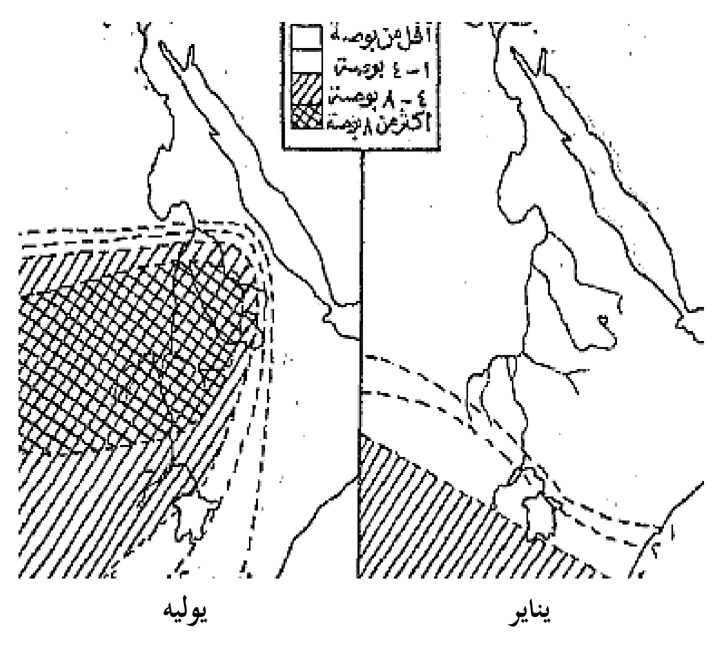
نطاق ضيق كان يجري منذ زمان سحيق وقد يمتد فيزيد طولا عن عمر التاريخ كله ولكن أيضًا يجب أن نذكر أنه قليل الأهمية محدود النطاق من وجهة نظر التاريخ العالمي.

هذا البطء في النمو هو نتيجة طبيعية لعوامل فرضتها الجغرافيا. ولما كانت الظروف الجغرافية هي عوامل موجهة أو ضوابط وليست في حد ذاتها قوى دافعة فهي تستغرق زمانًا طويلا لتجعل أثرها محسوسًا. وبمرور الزمن تبدو نتائج هذه الضوابط أكثر وضوحًا وربما أفعل تأثيرًا وقد أثرت بمضي الوقت بطريقتها الخاصة لأن أحوالا معينة كانت سائدة، أو لأن أحوالا أخرى غابت عن الميدان فمثلا يستغرق شخص أو جنس من الأجناس في اكتشاف حقيقة ما وقتا أطول مما يستغرقه تلقينه إياها، ولهذه الحقيقة مزايا، فاكتشاف الإنسان لحقيقة معينة يدل على أنه قد وصل إلى المستوى العقلي الذي يمكنه من الإفادة بذكاء من اكتشافه لها، وليس هناك أشد خطرًا من فرض حضارة زائفة أي حضارة منقولة على هذا الجنس إذأن ضررها يزيد على نفعها.

ولتخليص ما سبق ذكره نقول أن أول بوادر الحضارة ظهرت حيث الحياة سهلة ميسورة إلى حد ما، وحيث دورة الحياة ليست اليوم أو النهار، وحيث يتحتم على الإنسان أن يعمل من أجل حاضره ومستقبله. وأكثر من هذا نجد الأجناس الأولى المتحضرة عاشت في بعض الأماكن في جماعات أكبر نسبيًا من الأسرة ومن القبيلة ولكنها مجتمعات صغيرة بحيث تكون في حد ذاتها وحدة تشعر بكيانها وذاتيها. هذا على أن يتوافر لها

قسط من الحماية ضد عدوان الأعداء ممن تفوق قدرتهم على التخريب قدرة هؤلاء على الإنشاء. وحين تبدأ معرفتنا بهذه الأجناس، لابد وأن تكون قد استغرقت زمنًا طويلا حتى نجحت في الخروج من مرحلة الهمجية التي كانت تعيش فيها.

هنا نرى مصر تتمتع بمناخ بديع – فهي وإن خلت من الأمطار فأحاطتها الطبيعة بصحراء على كلا الجانبين إلا أنها تستمتع بمورد من الماء العذب – وهو على دوامه ذو دورة فصلية، وقد لا ندرك هذه الظاهرات المتناقضة إلا إذا درسنا جغرافية مصر، فلمياه النيل مصدران – أحدهما إقليم المطر الاستوائي الدائم حيث يستمد النهر ماءه بعد أن تنظمه مجموعة من البحيرات والمستنقعات فيخرج منها ذا تصرف ثقل معه ذبذبة المستوى خلال العام كله، والمصدر الآخر مرتفعات الحبشة – وهي بلاد تمتاز بموسم مطير إذ يسقط عليها في أواخر الربيع وأوائل الصيف طوفان من الأمطار فتنحدر من المرتفعات إلى السهول ثم من السهول إلى الأراضي الجافة في شمالها.



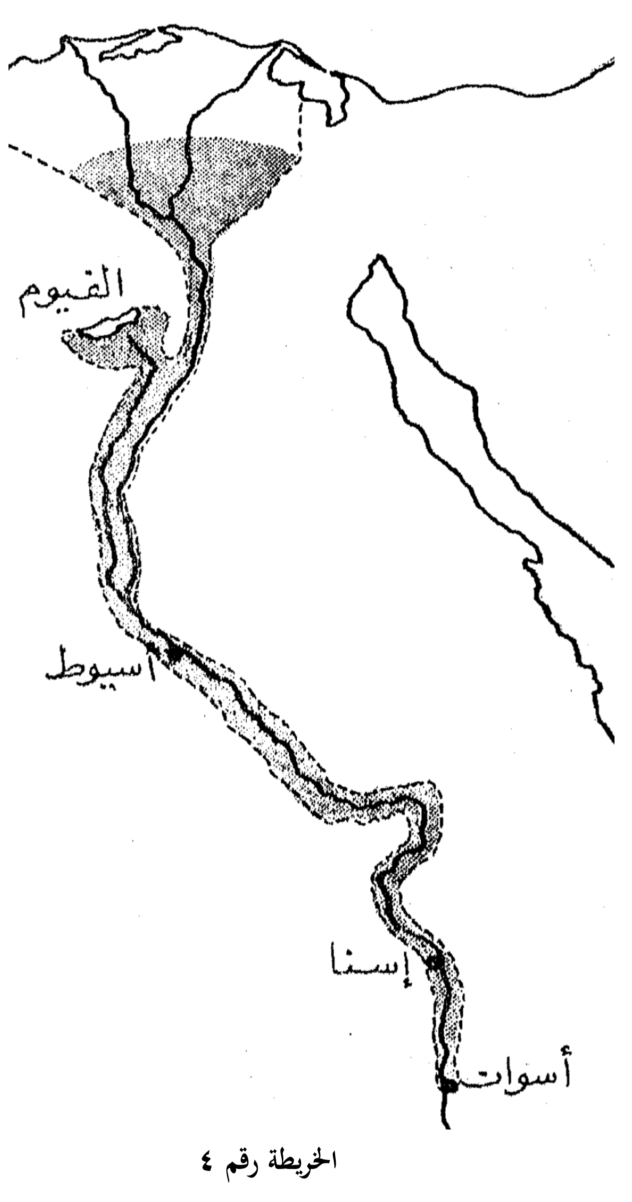
الخريطة رقم ٣

سقوط الأمطار في حوض النيل

تبين الخريطتان كيفي أن الروافد الجنوبية تستمد ماءها صيفًا وشتاء بينما تستمد والرافد الشرقية كميات كيرة من الماء خلال شهور الصيف فقط.

وما مصر سوى دلتا النيل وواديه الأدنى إلى مسافة سبعمائة ميل من مصبه فهي شريط بمحاذاة مجري النهر العظيم حتى البحر– يرويه النيل وتحميه الصحراء من كل جانب وقد وقفت حاجزًا لا يسهل عبوره – وفي حقيقة الأمر فإن هذه الحماية أكمل مما تبدو– فإن النيل في مجراه الأدنى يجري خلال أراض من الحجر الجيري حفر فيها واديه في أول الأمر، ثم ملأه بعد ذلك بما جلبه معه من طمي نحتته الفيضانات المتوالية من جبال

الحبشة، وهو يجري في الجنوب ابتداء من موقع أسوان الحديثة فوق طبقات من الحجر الرملي ترتكز على كتل كبيرة من الصخور الصلبة، والنهر هنا لم يكون واديا حقا لمسافات شاسعة بل اقتصر على عدد من الخوانق تفصل بينها الجنادل وقد لا يبعد شاطئ النهر عن الصحراء الجرداء أكثر من مسافة متر أو مترين لا تصلح لأن ينمو فيها شئ في الواقع وليس فيها ما يغري على الإقامة، وهكذا عزلت مصر من الجنوب تمامًا كما عزلت من الشرق والغرب.



الخريطة رقم ٤

مصر

وفي الشمال يوجد البحر. وفي الأيام الخوالي كان البحر مجهولا ولذا وهب لمصر حماية كاملة شأنه شأن الصحراء تمامًا، ولا نجد مثل هذه

الظروف موفورة في جهات أخرى توائم فيما بينها نشأة حضارة مبكرة وترعاها بدرجة لا تداني.

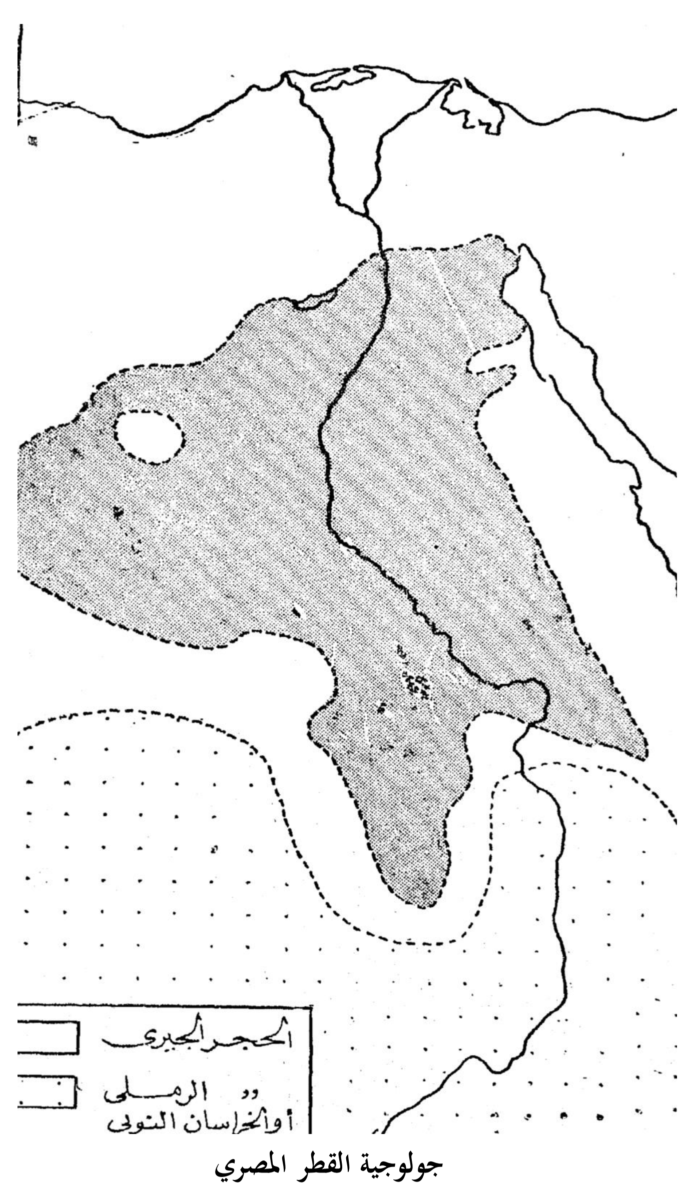
ويتبين من المعلومات الضئيلة الأولى عن تاريخ مصر الطويل أنه كان يسكنها جنس بشري لم يكن على أية حال في ادرك الأسفل من الهمجية والتأخر. وما كاد هذا الجنس يظهر حتى اختفي ليحل مله جنس آخر أرفع سأوا في حضارته.

غير أننا لا نعرف عن هذا الجنس الأخير إلا قليلا، وقد أقامت هذه الشعوب في وادي النيل وعاشت هادئة مطمئنة زهاء ألفي عام قبل أن يظهر على المسرح أولئك الذين يطلق عيهم اسم قدماء المصريين.

ولما بدأ المصريون يسيطرون على البلاد حوالى عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد اقتبسوا بدورهم حضارة أولئك الذين سبقوهم في سكناها، وارتفعوا بمستواها في شئ من السرعة حتى أنه لم تحل سنة ٣٧٠٠ قبل الميلاد حتى كان ملوك الأسرة الرابعة يحكمون البلاد جميعا من الجندل الأول إلى البحر وبلغوا درجة من التنظيم مكنهم من تشييد الأهرامات العظيمة.

ثم حدث إنحطاط ملحوظ – كما يحدث عادة في غير مصر – ويبدو أن الأداة الحكومية قد أصابها البلي فضعفت قوة الحكومة المركزية خلال عهود أسرات عديدة، ثم انقسم وادي النيل إلى أقاليم ومقاطعات مختلفة بحكم طوله وضيق اتساعه، وأخذ حكامها يستأثرون بالسلطان على حساب الملك واتجهت الأمور شيئًا فشيئًا نحو الفوضي مما أخر تقدم

البلاد، إلا أن الحضارة المصرية ظلت تتابع سيرها الحثيث، وإن كان بطيئًا خصوصًا في النواحي التي تميزت بها، والتي اعتمدت على تحسين وسائل الري. ونظرًا لأن مقر الحكومة المركزية إبان هذه العصور الأولى كان يقع قرب رأس الدلتا دائمًا، كان من الطبيعي، حين تنشب ثورة من الثورات في مقاطعة صغيرة أن تأخذ في نشر نفوذها في المقاطعات المجاورة لها، ولابد وأن تكون القوة الناشئة أو الثائرة بعيدة ما أمكن عن مقر الحكومة المركزية.



جولوجية القطر المصري

يبدأ وادي النيل الأدنى حيث نبدأ طبقات الحجر الجيري

ولما استعادت مصر مجدها حوالى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد تحت حكم الأسرة الثانية عشرة كانت طيبة – لا هرقليوبوليس أو منف– هي القلب في جسم الحياة المصرية. وعم الرخاء القطر المصري تحت حكم هؤلاء الملوك وأقيمت مشروعات الرى الكبرى وزادت الثروة القومية حتى ليمكننا أن نقول أنها بلغت دورة تقدمها في ذلك الحين.

ثم ضعف الحكم الوطني مرة أخرى وكان من الطبيعي أن ينتقل الحكم أخيرًا دون غزو بالمعني المعروف من أيدي الوطنيين إلى ملوك الهكسوس، وهم قبائل من الرعاة جاءوا إلى مصر، أما لأن الدلتا قد اجتذبهم إليها بما فيها من خيرات وإمالأنهم لجأوا إليها اضطرارًا يبحثون عن مأوي يقيهم شر أعدائهم. وقد اتخذت هذه القبائل بصفة خاصة حضارة البلاد حضارة لها ثم اندمجت بالسكان الذين عاشت بين ظهرانيهم، ثم قام أمراء طيبة بفضل بعدهم عن مركز سلطان الهكسوس في الدلتا، وانتزعوا السلطة من أيدى هؤلاء الحكام وطردوا جزءًا من السكان من أرضهم ودانت لهم زعامة البلاد.

ولأول مرة في تاريخ مصر يطرد منها غزاة، وإن كانوا قد دخلوها مسالمين، ولأول مرة في تاريخها تبدأ مصر غزوًا خارجيًا حوالى عام ١٦٠٠ق.م. تحت أمرة ملوك أسرة ملوك الأسرة الثامنة عشرة ممن تسموا بأسماء تحتمس وامنحوتب. واستمر هذا الغزو حتى امتدت السيطرة المصرية شمالا إلى جبال أرمينية.

وهكذا يظهر التاريخ المصري ثلاث فترات بلغت مصر فيها ذروة المجد، وتعد عصورًا ذهبية بارزة ليس فقط لأن التقدم التدريجي في حضارتها كان أوضح ما يكون في هذه الفترات وإنما لأنها أضافت إلى كفايتها ما اقتصدته في الطاقة بفضل مركزية حكومتها، وإلى هذا الاقتصاد يرجع بعض الفضل فيما أحرزته البلاد من تقدم سريع آخر. وتعتبر الفترة الذهبية الثالثة أرفع ذروة وصل إليها مجد مصر في نواحي الثروة والرخاء المادي. ثم أخذت الحضارة المصرية والقوة المصرية في الهبوط على الرغم من مجئ الرعامسة فيما بعد وقامت ظروف أخرى ليست كلها جغرافية قللت من أثر العوامل الجغرافية وهي التي ظلت تتحكم أو تسود الموقف حتى هذا العصر، وبدأت ظروف جغرافية أخرى تحدث أثرها. ولما تم لسنحاريب هزيمة ملوك مصر لم تكن هذه سوى بداية سلسلة من الفتوحات خضعت مصر معها تحت حكم أمم مختلفة كالأشوريين والبابليين والفرس واليونان والرومان والعرب والأتراك والبريطانيين. ولم تر مصر الاستقلال منذ عام ٣٣٠ ق.م[٢]

وليس تقدم الدولة المصرية راجعًا إلى العبقرية الموروثة لسكانها فإنه على الرغم من الحماية التي كفلتها الطبيعة للبلاد نجد جنسين إن لم يكن ثلاثة أجناس منفصلة قد استوطنت البلاد على التوالي في عصور تاريخية وكان كل منها على جانب رفيع من الحضارة بالنسبة للعصر الذي عاش

---

(٢) يمكن الرد على هذا بحقائق تاريخية ثابتة تؤكد استقلال مصر فترات طويلة بعد هذا التاريخ.

فيه ولكنه بلغ في مصر مستوى من المعيشة أرفع مما بلغه سكان البلاد الأخرى في نفس الوقت.

لقد كان التقدم وليد الظروف الجغرافية التي ذكرناها آنفًا بما توافر لمصر بصفة خاصة من حماية ممتازة. لقد غزيت البلاد ولكن يجب ألا يغيب عن الذهن أن الغزوات كانت قليلة في عددها وفي طول مدتها بالنسبة لطول التاريخ المصري ومن المحتمل أنه تصل فترة استقلال مصر إلى أربعة آلاف عام لم يشهد المصريون خلالها عدوًا غازيًا لهم في عقر دارهم، (أي بما يزيد بألف وخمسمائة عام من المدة التي تفصل زماننا عن زمانهم) وساد حكم الملوك الوطنيين طوال تاريخهم فيما عدا فترة لم تتجاوز بضع مئات من السنين، حقًا اعترى الملوك الوطنيين الضعف والإنحلال بعد عام ٢٥٠٠ ق.م وحل محلهم لفترة ما حكام من أصل أجنبي، غير أنه بعد أن طردهم ملوك الوجه القبلي من المصريين وهم الذين لم يخلعوا عن عروشهم لاعترافهم بسيادة ملوك الهكسوس عاشت مصر نحو ألف عام، وهي امبراطورية مترامية الأطراف، قبل أن تدول دولتها وتحل محلها حضارات ساهمت مصر بقسط كبير في خلق الحافز الأول الذي بعث بها إلى الوجود.

ولو قارنا تاريخ مصر بتاريخ دول العالم الأخري لوجدنا أنه ما من واحدة منها عاشت نصف ذلك الزمان بدون غزو أو اجتياح. وأن طول العهد الذي لبثته الدولة المصرية إنما يرجع الفضل فيه إلى استحالة الغزو الأجنبي أو احتمالاته، وهذا بدوره يرجع إلى الحماية التي كفلتها الصحراء

–تلك الحماية التي سمحت بالنمو الطبيعي الحثيث لنواحي الحضارة المختلفة دون أن تضطرب بسبب تدخل عناصر أجنبية من حين إلى آخر.

ولما سقطت مصر من برجها العالي استمرت الأحوال الجغرافية تؤثر في تاريخ البلاد – وليست الصحراء في حمايتها بأقل شأنًا من غيرها إذ اعتاد سكان مصر أن يثقوا في حمايتها مدى أربعة آلاف عام فعجزوا عن أن يدفعوا العدوان. ولما أخذت العوامل الجغرافية تنتج مدنيات أرفع شأوا أصبحت مصر كالقصبة المرضوضة كما تنبأ بذلك النبي العبري[٣].

وتدل المظاهر الخاصة التي تمتاز بها الحضارة المصرية بوضوح على أثر العوامل الجغرافية ومن الطبيعي أن يدرك سكان وادي النيل مقدار الطاقة التي يوفرها لهم ري الأراضي، غير أن الأمر لم يقتصر على إدراكهم الجانب المادي للحياة فإن مسلكهم العقلي يبدو أكثر وضوحًا بطريقة أخرى– فمن البين أن الفكرة الجديدة، فكرة الاستعداد للمستقبل، قد سيطرت على عقول المصريين بوحي التغيير الفصلي، حتى أن أهم الآثار التي تركوها كانت قبورًا ومعابد، معابد يعرف الأحياء بوساطتها متى يتوقعون الفيضان ومتى تح بهم التحاريق ومتى تجئ أيام البذر وأيام الحصاد– وقبورا يحفظون فيها أجسامهم الرقيقة مدى عصور لا حصر لها– وكان تراثهم الأدبي الأكبر "كتاب الموتي" مما يؤكد لك أن المصريين.. أمة وهبت نفسها لتدبير الحياة المقبلة.

---

(٣) يبدو تأثير المؤلف في هذه الفقرة بالتوراه

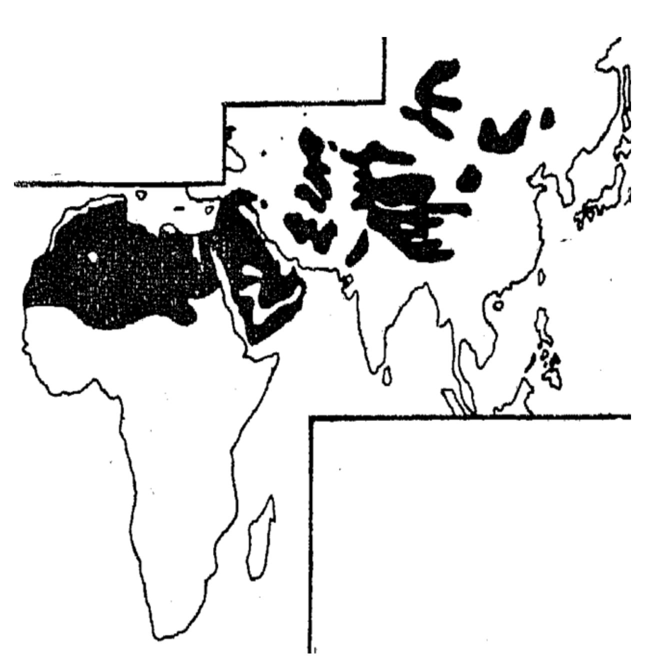
الفصل الثالث

المستنقعات والمراعي ـ بابل وآشور

رأينا أن أول تباشير المدنية ظهرت في مصر وهي بلاد حبتها الطبيعة ومنحتها موفرة في الماء والدفء. وليس من المؤكد معرفة أي عصر من العصور بدأت مصر ما يصح أن نسميه تاريخًا، ولكن مما لا شك فيه أنه قبل أن يحل عام ٥٠٠٠ق.م كان سكان مصر على قسط كبير من الحضارة وكانوا قد قطعوا شوطًا في المدنية بعد بهم عن مرحلة الهمجية البدائية، ومن المؤكد أنهم توصلوا إلى استخدام الأحجار في بناء المقابر إن لم يكن في بناء المنازل أيضًا.

ولنلق الآن نظرة على الخرائط لنرى إن كانت هناك أقاليم أخرى، لها مثل هذا التاريخ العريق وتشابه أحوالها أحوال مصر. ولنترك جانبًا العروض القريبة من القطبين وكذلك القريبة من خط الاستواء إما لعدم توافر الطاقة الكافية لتقدم الحضارة وإما لانعدام الدافع الذي يحفز الإنسان إلى استغلالها. أما وقد عرفنا أن الصحراء تكفل الحماية للبلاد التي تحتضنها فمن الطبيعي أن نوجه نظرنا إلى المنطقة الصحراوية لنرى إن كانت تحوى أقاليم أخرى ذات موارد من الماء تهئ لها الخصب. فإلى الغرب من نهر

النيل على طول الصحراء الكبرى لا نجد إقليمًا يمكن أن يقارن بمصر، أما إلى الشرق منه فإن النطاق الصحراوي يتجه شمالا نحو قلب آسيا وهو منطقة جافة لأن الرياح حين وصولها تكون قد تخلصت من رطوبتها بمرورها فوق الجبال المحيطة بهذه المناطق. ولكن الصحراء هنا ليست بالقسوة التي عليها الصحراء المحيطة بمصر، وليست الأحوال المناخية ملائمة لبناء الحضارة كما هي الحال في مصر إذ أن مصر فذة في مزاياها. نعم قد نجد في بقاع أخرى أرضًا محمية وتخضع للتنوع الفصي، موفورة الماء والحرارة ولكنك لن تجد إقليما تجتمع فيه كل هذه المزايا مثل اجتماعها في مصر إذ أنها انفردت بهذا كله بين أقاليم العالم.



الخريطة رقم ٦– النطاق الصحراوي في العالم القديم

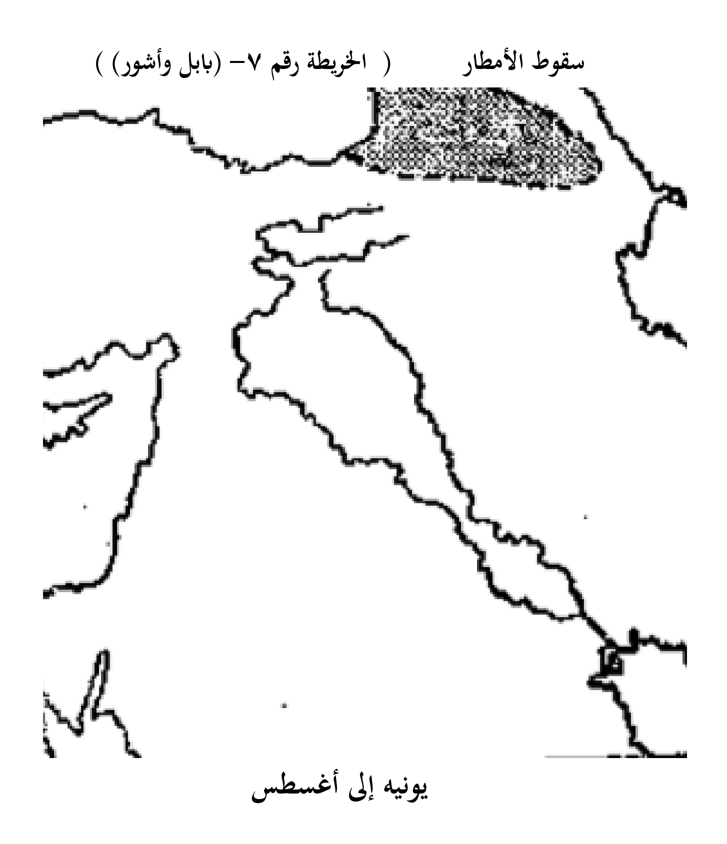
وليس هناك نهر كنهر النيل بمنبعيه أحدها في إقليم المطر الدائم والآخر في إقليم المطر الفصلي. ولكنا نجد نهري دجلة والفرات يجريان من منطقة الأمطار الشتوية الخفيفة وتقع منابعهما في مرتفعات تغذي النهرين صيفًا بماء الثلوج الذائبة والتي تساقطت عليها إبان الشتاء السابق. فجمعا الميزتين إذ يجري بهما الماء الدائم في جميع الفصول ويتأثران كذلك بالتغيرات الفصلية. وهكذا تبدو الظروف الطبيعية مشابهة لظروف مصر وإن اختلفت عنها اختلافًا أثر بالفعل في تاريخ النهرين ففي مصر يجري النيل في واد ضيق ينخفض انخفاضًا فجائيًا عن مستوى الصحراء ببضع مئات من الأقدام —وتقاس بالياردات المسافة الفاصلة بين الصحراء الجرداء والتربة ذات الخصوبة الزاخرة. فكل أرض تصل إليها مياه النيل تنتج النبات على حين يسود الجدب كل أرض أخرى لا تصيب مطرا. ومن ناحية أخرى لم تنخفض سهو دجلة والفرات كثيرًا عن مستوى الأراضي التي تحيط بهما فإن الجزء الأدنى بادئًا من شمال موقع بغداد سهل فيض رسوبي متسع، كونه النهران وليست هذه السهول المنخفضة جميعها بخالية من الأمطار. ومن ثم لا يجري نهرا دجلة والفرات خلال صحراوات وإن كانت الصحراوات تحيط بسهولها من الجانبين – حقًا إن بادية الشام وصحراء النفود تمتدان إلى الجنوب الغربي ولكنهما لا تقربان النهر إلا في نقاط محدودة بعيدة هنا وهناك. ويفصل بين النهر والصحراء عادة منطقة من مراعي (الاستبس). إما إلى الشمال الشرقي فالصحراوات تسود الجزء الأوسط من هضبة إيران، وتمتد من منطقة المراعي إلى قرب سفوح الجبال وهي خالية من الزراعة إلا في بعض بقاعها التي تصلح لها. وهذه المراعي

بوجه عام ليست خالية تمامًا من السكان بينما الوديان الجبلية تصلح في مجموعها لأن تعول عددًا كبيرًا من البشر، والجزء الشمالي الغربي من السهول إقليم رعوي أيضًا غير أن الجفاف يسود فيما بين الأنهار حتى ليكاد يكون شبه صحراوي وإن كانت نسبة الرطوبة فيه ترتفع قليلا عند سفوح الجبال وعلى طول مجاري الأنهار.

وهكذا نرى أن الظروف المصرية تسود تلك البيئة بشكل مخفف. وتشمل فيما تشمله ظاهرة أخرى موجودة في مصر وإن كان أثرها في مصر قد طغي عليه الدور الذي لعبته الصحراء، فعندما يقترب الدجلة والفرات من البحر ويأخذان في الجريان على السهل الفيضي تنتشر مياههما على شكل برك ومستنقعات توفر قدرًا كبيرًا من الحماية للأراضي الخصبة من ثلاث نواح لأن المستنقعات المترامية تهئ حماية فعالة للمجتمعات الصغيرة فالإنسان يستطيع قطع الأراضي سيرًا على الأقدام ويستطيع عبور المجاري المائية في القوارب ولكن المستنقعات عقبة كأداء إلى حد كبير. ومن الميسور أن تنشأ حضارة مبكرة في ظل حماية هذه المستنقعات. أضف إلى ذلك أن الأنهار فيما بين المستنقعات، بفروعها المتداخلة تكفل حماية طيبة كما أن الأراضي التي تمتد وراء الأنهار والمستنقعات قليلة السكان وتتدرج إلى صحراء جرداء. وقد هيأ البحر في الجنوب الشرقي حماية أخرى لوادي دجلة والفرات شأنه هنا شأن البحر في مصر هذا مع العلم بأنه كان هنا أكثر اتساعا في الزمن الغابر عما هو عليه اليوم لأن كلا من النهرين كان يقذف إليه بمائة من مصب منفصل مستقل.

هذه هي أرض بابل – وهنا كما هو الحال في مصر نرى أن طبيعة المكان بظروفه الخاصة تمثل الحقيقة الكبري في تاريخها. هذا على الرغم من أننا لا نعلم علم اليقين إلا بالقليل عن تاريخ بابل خلال أربعة الآلاف عام التي تلت سنة ٧٥٠٠ ق.م. ومن المعروف أن جنسين من البشر كانا مصدر ارتقاء الحضارة فيها بالشكل الذي عرفت به وأن الجنس الذي جاء أولا أتقن كثيرًا من فنون الحياة قبل أن يتصل بالجنس الآخر.

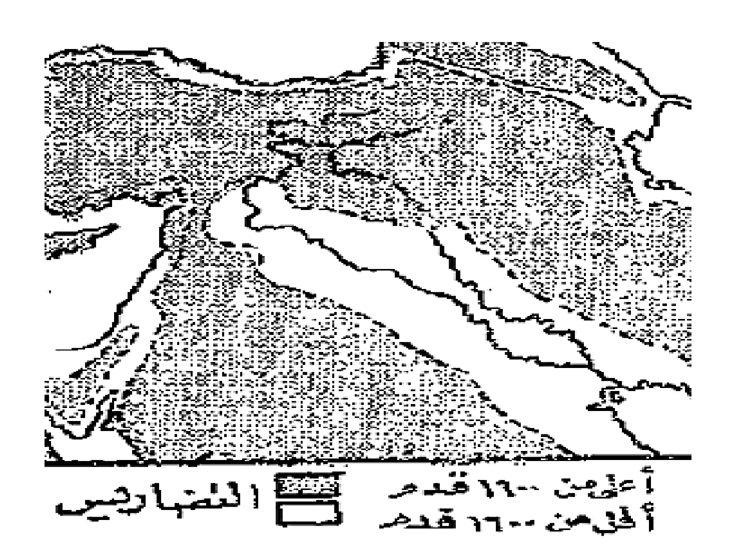
سقوط الأمطار (الخريطة رقم ٧– (بابل وأشور))



يونيه إلى أغسطس



من ديسمبر إلى فبراير



سقوط الأمطار

(الخريطة رقم ٧– (بابل وأشور))

وفي العصور البدائية تكفي الحماية الجغرافية لأن تصد الأعداء وتسمح بالتطور والنمو غير أن هذه الظروف ذاتها دفعت بابل إلى الانقسام إلى أجزاء صغري.

فبالرغم من أن بابل قد أخذت من المدنية بقسط كبير منذ زمن قديم وقد تصل في عراقه حضارتها فتعاصر الحضارة المصرية بل وقد تفوقها قدمًا إلا أن توحيد البلاد هنا تأخر نحو ألف عام عن العصر الذي ظهرت فيه مصر كدولة موحدة.

ولم تتحد بابل قبل أن تقوم امبراطوريتها الأولى تحت قيادة سرجون الأكادي عام ٣٨٠٠ق.م. إذ عاش البابليون قبل هذا التاريخ عيشة زراعية مطمئنة في دويلات صغيرة مستقلة. وقد أمنوا شر الأعداء المتوحشين وراء خطوط دفاعهم، وأخذوا يرقون بنظم حياتهم في بطء شديد استغرق منهم آلاف السنين. فعرفوا كيف يصنعون الآجر ويبنون المنازل والمدائن ويحفرون القنوات قبل أن يحفرها المصريون ولكنهم لم يتحدوا تحت حكم ملك واحد؛ وحتى بعد أيام سرجون كانوا يميلون إلى اعتبار نظام الحكم عندهم كأنه حلف مرن بين دويلات مختلفة تربط بينها المصلحة المشتركة أكثر من كونهم يمثلون دولة واحدة تحت حكومة مشتركة ولما تحسنت أحوال المعيشة كان من الطبيعي أن ينشئ البابليون علاقات مع جيرانهم، وتدرجت حضارتهم من حضارة تعتمد على الزراعة في أساسها إلى حضارة تحتل التجارة فيها المقام الأول. وكان لهذا نتائج هامة، فطالما كان البابليون يحيون حياتهم وراء خطوط دفاعهم ويفضون مشاكلهم الصغيرة بأنفسهم كان حريا بهم أن يحرزوا تقدمهم دون تدخل خارجي. ولكن توسعهم فيما وراء حصونهم سبب ضعف مركزهم وأضحى تاريخ سهول دجلة والفرات منذ عام ٢٥٠٠ق.م. هو تاريخ للمحاولات التي بذلها السكان المحيطون لها ليضعوا أيديهم على قلب البلاد الخصيب. لقد كانت

المستنقعات كفيلة بإبعاد الهمجين في العصور البدائية الأولى حين كانت حمايتها كافية أو تكاد تكون كافية، غير أنها لم تكن مستحيلة العبور خاصة بعد أن نقصت مساحاتها بفضل جهود البابلين. وقد كازوراء هذه المستنقعات بقاع تصلح للسكني وتسكنها فعلا أجناس تمدنت قليلا باتصالها بمثل الحياة البابلية ونظرت هذه الأجناس بعيون ملؤها الحقد والحسد إلى الأراضي الخصيبة التي كانت في متناول أيديهم. فتناوب حكم البابليين جنس بعد آخر.

وكان حكم الأسر الوطنية قصيرًا غير ذي بال فسكن العيلاميون الجبال التي تحد بابل من الشرق وتحف بهضبة إيران وسكن القاصيون kassites إلى الشمال منهم على امتداد نفس هذه المرتفعات. وسيطر كل منهم على أراضي بابل لمدة طالت أو قصرت، وحينما هبطوا إلى السهول اقتبسوا الحضارة التي وجدوها هناك وانفصلوا عن ذويهم في الجبال وفقدوا خصائصهم بالتدريج وأندمجوا في سكان السهول الآخرين.

وبعد ذلك برزت دولة أشور من بين المراعي الشمالية الغربية. ويرجح أنها قامت على شاطئ دجلة الأوسط الذي كان خاضعة لبابل وأن تأسيسها كان على يد البابلين أيام توسعهم، ولما كانت أشور بعيدة عن بابل وتفصلها عنها مساحات شاسعة بعضها مراع وبعضها يكاد يكون صحراء اتجهت نية أشور إلى الاستقلال وفرض سيطرتها على البلاد الخصيبة الواقعة قرب سفوح الجبال. وحين بدأت بابل تسقط تحت أقدام الملوك الأجانب كانت أشور قوة يحسب حسابها.

وطالما كانت بابل مركز الحضارة كان تاريخ ما بين النهرين في جملته تاريخ سلم وهدوء إذ اعتمد أهلها على الزراعة والتجارة ولم تكن بهم حاجة كبرى أو حافز قوي يدفع بهم إلى الغزو والفتح واستمر الحال على ذلك حتى خضعت بابل لحكم الأسرات النازحة من التلال الشمالية الشرقية ثم اختلفت الأحوال حينما سيطرت آشور وسادت.

ويرجع السبب إلى الظروف الجغرافية، فإن آشور لا تصلح للزراعة إلا في بقاع صغيرة. ولم يتيسر لها التوسع في زراعتها. أما بابل فالأراضي فيها مسطحة وهي تعلو قليلا عن مستوى مجاري الماء. ولذلك أمكنها في يسر حفر القنوات التي استخدمت في أغراض الري والتجارة. ولكن الأمر مختلف في أشور إذ الأنهار في معظم حالاتها تنخفض عن مستوى الأرض انخفاضًا يضيع معه معظم فائدتها.

حقًا أن الجزء الصالح للزراعة من أراضي أشور كان مضرب الأمثال في الخصوبة إلا أنه أصغر من يعول عددًا كبيرًا من السكان. ولم يتوافر له من الحماية أكثر مما هيأتها له أراضي المراعي المحيطة به. وهذه ليست صحراوية إلا في الجنوب الغربي فقط. ولهذا وقع عبء الدفاع عن أشور على كواهل أهلها أنفسهم –وهم وإن لم يكونوا من البابلين إلا أنهم اقتبسوا حضارتهم من حضارة بابل التي كانت تسبق زمانهم، وكانوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم بنجاح ومن الأفضل طبعًا أن تقوم بالدفاع حكومة مركزية قوية، ولهذا قامت في أشور منذ أول الأمر حكومة ملكية موحدة مقرها نينوي ثم نمت بغزة القبائل المجاورة لها التي لم تبلغ بعد درجة

تدانيها في فنون الحرب، ولم ينجل عام ١٤٠٠ق.م. حتى خلعت أشور عنها رباط الولاء الذي كانت تدين به لبابل، بل وأكثر من هذا فإنها استطاعت أن تغزو بابل نفسها في عقر دارها.

والأشوريون قوم مطبوعون على القتال، وحب القتال فيهم خصلة تجري في دمائهم. وكان الدرس الذي لقنته إياهم الظروف الجغرافية هو أن يفيدوا من نشاط غيرهم ما داموا لا يجدون ما يفي بحاجاتهم. ولما كانت الجبال تحد أطماعهم من الشرق فإنهم اتجهوا غربًا وفرضوا الجزية على بابل وسوريا وفلسطين وفينيقيا.

ورغم مرور العهود الطويلة لم تبتدع أشور نظامًا للحكم للاستفادة من الولايات المفتوحة على خير وجه. فقد استولت جيوشها على كافة الدول المجاورة لها وأخمدت ثوراتها إن ثارت، ولكنها كانت تترك هذه الدول وشأنها ما دامت تدفع الجزية لها وما دامت كلمة أشور قوية نافذة، وظلت الحال على هذا المنوال إلى أن كانت سنة ٧٥٠ق.م. في عهد ما نسميه الإمبراطورية الأشورية الثانية حين بذلت المحاولات لتأمين الفتوحات واستغلال الدول المقهورة على أمرها كي تسيطر أشور على تجارة العالم الشرقي بأجمعه.

وكان هذا هو الهدف الأسمي للحكومة إلى حد ما. ولكنها فشلت في محاولة تأسيس امبراطورية تجارية تقوم على القوة الغاشمة وحدها كما فشلت في محاولة توطيد أركان امبراطورية تجارية دون أن تستعد للدفاع عنها. لأن

الدول التابعة لها أخذت تثور على سلطانها واحدة إثر أخرى. حقًا أخمدت بعض الثورات ولكن حين غابت الجيوش الأشورية عن الميدان اشتعلت الثورات من جديد. وقد أحاطت بأشور أجناس وحد بينها شعور الكراهية للغزاة وإن لم يوجد بينها شئ غيره. وهاجمت هذه أشور حتى دمرتها تدميرًا.

ومن ثم تعلمت بابل درسًا تاريخيًا قيما أدركت منه معنى الإتحاد فأسست إمبراطورية بابلية على أنقاض أشور وقام بتأسيسها وإلى بابل الأشوري الأسبق.

غير أن الخطر سرعان ما بدا يتهددها من هضبة ميديا لأن أشور بمشروعاتها التجارية فتحت أبواب الاتصال بالعالم الخارجي كما تمدن أهل ميديا بفضل اتصالهم بسكان السهول المجاورة لهم فيما وراء جبالهم ومن ثم انحدروا إلى السهول واستولوا عليها.

في كل هذا التاريخ تبدو العوامل الجغرافية واضحة وإن كان تاريخ بابل وأشور ليس بالبساطة كتاريخ مصر لأن الظروف الجغرافية فيهما أكثر تعقيدًا ولكن الحقائق الأساسية ظاهرة وقد تهيأت لبابل الفرصة لإنماء حضارة خاصة بها في أول الأمر وليدة لظروفها المناخية التي وفرت لها من الطاقة ما يكفيها وانعكست آثارها على صفحات عقول سكانها فعملوا على استغلال الطاقة ما أمكن، ذلك بالإضافة إلى الحماية الطبيعية التامة، ثم أخذت آشور بمقاليد الأمور لأن الظروف الجغرافية حفزت أهلها ليدفعوا العدوان عن أنفسهم. وكما أن الشعور بالحماية الطبيعية والاعتماد عليها

خلق في مصر وبابل سكانًا عاجزين عن حماية أنفسهم كذلك كان التعرض الطويل للعدوان حافزًا للدفاع عن النفس وباعثًا للإيمان عند بعض الشعوب بأن القتال في حد ذاته هو إحدى ضرورات الحياة.

ومنذ أن سقطت نينوي والعوامل الجغرافية لم تنقطع عن عملها. وبعد أن فشلت أشور في إقامة امبراطورية تعتمد على القوة توحدت سهول الدجلة والفرات وكانت بابل أهم أجزائها ولكن الناس هنا كما هم في مصر لم يكن من اليسير أن ينسوا الدرس الذي ألقته عليهم الطبيعة مدى آلاف السنين واستمرت الأشياء تجري على طبيعتها وكان جريانها قويا غلابا، فلم تستعد بابل استقلالها قط وبقيت أرضًا مفتوحة لكل من حدثته نفسه بالاستيلاء عليها واستغلال أراضيها كل حسب استطاعته وكيفما كان يسمح به زمانه فبعد أن سيطر عليها العيلاميون والقاصيون والأشوريون تبعهم أهل ميديا وفارس واليونان ثم الرومان والعرب والأتراك ودام استعبادها زهاء ثلاثة آلاف عام لم تعد خلالها وسائل الدفاع القديمة عقبات أمام أقوام ارتفع بهم مستوى معيشتهم، فليس بعجيب بعدئذ أن تعود بابل اليوم فتصبح مستنقعًا راكدًا كما بدأت في غابر الزمان.

وقد تستصلح أراضيها اليوم. وفي مقدور هذه البلاد أن تصبح بستانًا ينتج الفاكهة على نطاق أوسع مما كانت في الماضي، وقد تبنى بها الخزانات الكبيرة كما هو الحال في مصر فتخزن بها المياه من الفيضان إلى التحاريق، وقد تتخذ احتياطات فعالة للحيلولة دون الفيضانات الخطيرة المدمرة التي تغرق الأراضي وتسبب المستنقعات ولو تيسر لها حكم صالح لأصبحت جنة من جنات الأرض .

الفصل الرابع

الطرق ـ فلسطين ـ وفنيقية

لقد أشرنا فيما سبق إلى نشأة مركزين للحضارة في مصر وفي بلاد النهرين لأن الظروف الجغرافية فيهما قد هيأت لسكان الإقليمين مزايا لم تتوافر لغيرهم من سكان البلاد الأخرى. ولقد تأثر سكان الأقاليم المجاورة بقيام الحضارة في هاتين المنطقتين وعلى الأخص في المنطقة الثانية. ومن الطبيعي أن يشمل التأثير أولئك الذين يعيشون بين المنطقتين فيتأثرون بهما تأثيرًا متصلا على توالى الأيام. وربما لم يبلغ تأثرهم بإحدى هاتين الحضارتين نفس الدرجة التي تأثر بها غيرهم من سكان البلاد الأخرى لو أننا قصرنا المقارنة على عهد من العهود.

وعلى الرغم من أن مصر تحيط بها الصحراء من كلا الجانبين وهي صحراء قاسية منيعة يصعب اجتيازها إلا أن إطارا ساحليا يمتد من الركن الشمالي الشرقي من مصر على طول ساحل البحر المتوسط وهو أقل جدبا من بقية الصحراء ويتدرج شمالا إلى شريط ضيق من السهول الساحلية والتلال الداخلية الخصيبة في مجموعها والتي تستمع بمورد من الماء لا بأس به. هذا الإقليم هو موطن الفلسطينيين والعبرانيين والفينقيين

وهذا الشريط هو حلقة الاتصال بين مقر الحضارتين العريقتين ويرجع إلى هذه الحقيقة وحدها الفضل في أهميته العظمي.

وهكذا يظهر خلال دراستنا لتقدم الحضارة وسير التاريخ، أننا نواجه عاملا جغرافيا آخر، ذلك أن الناس لا يعيشون فقط حيث الحياة أسهل ما تكون بل ويتحركون في اتجاهات حيث الحركة أسهل ما تكون، ويبذلون فيها أقل طاقة ممكنة. والانتقال دائمًا يتبع أقل قدر ممكن من العقبات أو الحد الأدنى للمقاومة كما يقال دائمًا، وحيثما توجد الطرق يسير الناس، وقبل أن توجد الطرق بزمن طويل كان هناك دروب استخدمها الناس في انتقالاتهم لأن الانتقال عليها، بفضل ظروف جغرافية خاصة، كان أكثر سهولة. وهذه في الواقع سبل وليست طرقا فالطريق قد تبلغ عرضها عدة أقدام أو ياردات على حين ليس للسبيل بالمعني المعروف عرض محدود وهناك مثلا سبيل من باب الحجرة إلى موقد النار أي السبيل الذي يسلكه الإنسان ليتجنب ما قد يوجد أمامه من عقبات ولكنه لا يعتبر طريقًا. وقد يكون هناك سبيل واحد وعدة طرق – فإن السبيل أو الممر بين لندن واسكتلند يجري شمالا بين نهر الهبر وجبال البنين مخترقا سهل يورك ونيوكاسل ويسير في محاذاة الساحل حتى أدنبره – ويمكن اعتبار الطريق الشمالي العظيم أنه كان ولا يزال صورة له، كما أن سكة حديد الشمال وما يتصل بها تمثل المظهر الحديدي لهذا الطريق.

ولما لم يكن في ذلك الوقت بين مصر والعراق طريق ظاهر فقد كانت هناك دروب محددة جدًا تكون في مجموعها طريقًا واحدًا في معظم المسافة بين القطرين.

وكان من الميسور إلى حد ما الانتقال من بابل والاتجاه شمالا على طول وادي الفرات ثم الهبوط إلى وادي نهر العاصي بين سلسلتي جبال لبنان الداخلية ولبنان الساحلية ثم الانحدار إلى سهل الليطاني أو البقاع إلى أعالي الأردن مخترقين سهل إسرائيل أو مرج ابن عامر مارين بما جدو التي كانت ملتقي الجيوش في هذا العالم الصغير كما يسهل اختراق أرض فلسطين على طول امتداد سواحل البحر المتوسط ثم على طول الشريط الصحراوي الضيق إلى أرض مصر وقد كان اختراق الطرف الشمالي لبادية الشام إلى واحدة دمشق رأسًا أقصر طولا ولكنه أقل يسرًا ولذلك كان يوفر بعض الطاقة عند التجار الذين بلغوا قسطًا من الحضارة والمدنية. وكانت دمشق هي نقطة الابتداء لمن أراد اختراق الصحراء شرقا وهي نهاية المطاف أو المرسى الأخير لمن قصد عبور الصحراء غربًا إلى الجزء الأكبر من سورية. وأيا كانت الجهة التي جاءوا منها فقد كانوا جميعًا يمرون بمرج ابن عامر وفلسطين.

ولم تبرز أهمية هذا الطريق فجأة بل نمت شيئًا فشيئًا تبعًا لنمو البلاد التي تربط بينها وتبعًا لازدياد أهميتها. وينبغي ألا نتصور أن حركة النقل التي جرت على هذا الطريق كانت تعادل ما يجري الآن على أي طريق من

طرق الريف الإنجليزي ومع هذا فقد كان هذا الطريق هو الذي تجري عليه أكبر تجارة شهدها العالم في ذلك العهد.

ومن الطبيعي ألا يكون تاريخ البلاد التي تمر بها هذه الطريق عريقا في القدم كتاريخ مصر أو العراق. ذلك أن بينها وبينهما عهدًا بعيدًا. ولابد أن تكون الحضارة قد بلغت شأوًا عظيمًا في كليهما وانتشر نفوذهما قبل أن تتصل إحداهما بالأخرى. ومع ذلك يبدو أن اتصالهما المبكر كان أمرًا عارضًا ومن قبيل الصدفة البحتة إذ أرسل ملوك الأسرة الرابعة في مصر حوالى عام ٣٨٠٠ ق.م. كما أرسل الملك سارجون الأكادي في بابل الحملات والبعوث من كلتا الدولتين بقصد استغلال مناجم النحاس في صحراء سينا واقتطاع الأحجار المناسبة لأعمال النحت والتماثيل. وعلى مر الزمن سارت التجارة في هذا الطريق كما سيرت الجيوش حتى أنه لمدى ثلاثة آلاف عام التي كانت مصر والعراق خلالها أهم الأقاليم العالم اكتسبت سواحل بلاد الشرق الخصيبة (الليفانت) درجة من الأهمية لا تتناسب وحجمها الطبيعي. ولما كان هذا الموطن موطن الفلسطينيين والإسرائيليين هو المعبر الموصل بين امبراطوريتي العالم القديم فلا عجب إذن أن يظهر سكانه كثيرًا على مسرح التاريخ على الرغم من أن فلسطين نفسها صغيرة في مساحتها لا تتجاوز مساحة مقاطعة ويلز في بريطانيا حتى أن النبي إيليا –كما جاء في الكتاب المقدس – عبرها من جانب إلى آخر في يوم واحد.

وقد حاولت مصر والعراق السيادة عليها في مختلف العصور —وحتى في حالة استقرار هذه السيادة فعلا لأحد الطرفين فهي لم تكن دائمًا سيادة مباشرة وفي غالب الأحيان كانت تسكن الأراضي التي يمر بها هذا الطريق شعوب لم تدن بالولاء لأحد وكانت في بادئ الأمر دائمًا تحارب بعضها بعضًا ثم تحضرت بالتدريج وأدركت المزايا التي تكتسبها من مرور التجارة في أراضيها.

ولم يتيسر لبني إسرائيل إلا حوالى عام ١٠٠٠ق.م. السيطرة على الطرق التجارية بنجاح ولم يتيسر لبني إسرائيل إلا حوالى عام ١٠٠٠ق.م. السيطرة على الطرق التجارية بنجاح. أي في عصر النبيين داود وسليمان حينما تدهورت قوة مصر وآشور وتمكن سكان تلال فلسطين الإسرائيليون من السيطرة على الطريق التجارية بنجاح، الأمر الذي لم يتيسر للفلسطينيين من سكان السواحل —واستطاعا تأسيس امبراطورية في عهدها يمكن أن تقارن بالإمبراطوريات التي نشأت في العالم القديم. ولما انقسمت تلك الإمبراطورية إلى قسمين فقدت سيطرتها الفعالة على الطريق التجاري ثم عادت سيرتها الأولى دويلة صغيرة بين جيرانها تسكن في شعاب تلالها. حقًا كانت دولة إسرائيل ذات مركز متوسط ولكنها كانت تافهة الأثر من الناحية السياسية. تضالع هذه الإمبراطورية العظيمة آنًا وتضالع الأخرى آنًا آخر حتى سقت أثناء الصراع بين الأمتين الجبارتين.

ولما دالت دولتا مصر والعراق وانتقل السلطان إلى غيرهما قلت الأهمية الجغرافية للطريق الموصل بينهما ولو أن القدس احتفظت دائمًا بأهمية عظيمة لأسباب لا محل هنا لدراستها.

وقد تأثر تاريخ العالم بظاهرة جغرافية أخرى تتصل بما سبق وترتبط بتوزيع اليابس والماء. فمن البديهي أن البشر يعيشون على اليابس وأن الدول تقوم على اليابس لا على الماء وأن التاريخ مرتبط في أساسه بالجزء اليابس من الكرة الأرضية ولا يتيسر لجماعة كبيرة من الناس العيش دواما على سطح البحر. ولا يتيسر لهم أن يستغلوا طاقتهم بنجاح وتوفيق وأن يسجلوا لأنفسهم تاريخًا بحريًا خاصًا بهم، غير أن الانتقال بعكس الاستقرار أيسر على البحر منه على اليابس. إذ أن بعض العقبات تقوم على اليابس فتعوق الاتصال ولابد للإنسان من أن يتغلب عليها أو يدور حولها ليتجنبها وفي كلتا الحالتين يستنفد هذا المجهود جزءًا من نشاطه دون أن يفيد منه شيئًا ذا بال. وليس الأمر مقصودًا على هذا وحده بل أن أي مقدار من المتاجر يحتاج في نقله على الماء إلى طاقة أقل بكثير مما يتطلبه نقله على اليابس، ومعنى هذا أن الماء أصلح من اليابس كطريق لانتقال الإنسان والبضائع من مكان إلى آخر.

وقد عرفت هذه الحقيقة الامبراطوريتان العريقتان في حضارتهما إذ لم يقتصر

دور أنهار النيل ودجلة والفرات على أمداد الإنسان بحاجاته المباشرة من الماء وكفاية مطالب الري ولكنها كانت طرقا للسفر والانتقال فاستخدم الإنسان في أول الأمر أبسط أنواع العائمات الطوافة المصنوعة من القصب والغاب والأعشاب ثم تدرج منها إلى استعمال القرب لأنها أقدر على الطفو من غيرها ثم توصل الإنسان أخيرًا إلى استخدام القوارب الخفيفة، وبفضلها غامر التجار البابليون حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م وخرجوا بها إلى مياه الخليج الفارسي الهادئة، ومن المؤكد أيضًا أن المصريين استعملوا عددًا قليلًا من المراكب أو السفن في البحر الأحمر في إحدى المناسبات بعد هذا التاريخ بنحو قرن أو قرنين، غير أن هذه المحاولات كانت استثنائية وكان العالم ينظر إليها بعين العجب لأن استخدام القوار كان دائمًا مقصورًا على مجاري الأنهار.

على أن النقل على الأنهار وإن كان يتطلب طاقة أقل منه على اليابس إلا أن له بعض العيوب منها أن الإنسان مضطر إلى السفر حيث يجرى النهر خصوصًا في حالة الأنهار القليلة الروافد كالفرات والنيل وحتى لو حفرت لها قنوات فهي ليست بذات فائدة تضارع البحر، فإذا ركب الإنسان البحر أصبح في ميسوره أن يصل إلى أقصى أطراف المعمورة، وهكذا يصبح توزيع اليابس والماء من الأهمية بمكان، وأهم ظاهرات ذلك التوزيع تتجلى في الحقيقة الواقعة وهي أن الاتصال بالبحر سهل ميسور لأن البحر كل متصل واليابس أجزاء متقطعة.

وفي ذلك الزمن الغابر، حتى بعد أن تحضر الناس آلافا من الأعوام، ظل غموض المجهول يحول بينهم وبين معرفة البحر معرفة كاملة، والناس بطبيعتهم يألفون اليابس ولكن الأجزاء الخصيمة المعمورة بالسكان في العالم القديم تفصلها المستنقعات عن البحر ولقد ألف الناس رؤية الأنهار لأنها تجري بينهم ولكنهم لم يدركوا البحر وظلوا يخشونه إن خاطروا بركوبه، ولهذا يعتبر اكتشاف البحر أعظم الاكتشافات العالمية أثرًا، ومن ثم دخل البحر في نطاق التاريخ ولم يعد ذلك الحاجز المنيع الذي يفصل بين البشر وأضحى همزة الوصل بين جميع الأقطار التي تحف به.

ومما هو جدير بالذكر أن يقوم بهذا الكشف لأول مرة الأقوام التي عاشت حيث ينتهي الطريق البري الأعظم إلى شاطئ البحر، إذ امتد بمحاذات الجبال سهل ساحلي خصب ضيق النطاق يمتاز بحره بعمق مياهه وبخلوه من المستنقعات ولم يغب البحر قط عن بصر سكان هذا الساحل، يفكرون فيه دائمًا وينزلون قواربهم إلى اليم العميق مباشرة دون أن يكلفهم ذلك شططًا كما كان يتطلب من غيرهم من سكان البلاد الأخرى.

وقد كان من الأهمية البالغة أن يكون البحر المتوسط أول البحار التي اكتشفها الإنسان وقد أجمع الكثيرون على أنه كان المدرسة الأولى لتعليم الملاحة البحرية لا مجرد الملاحة النهرية وهو كما يدل عليه اسمه يقع وسط اليابس فهو بحر داخلي يخلو من آثار العواصف التي تكثر في عرض المحيطات، أضف إلى ذلك أن أهميته بالنسبة لملاحي العهود الغابرة ترجع إلى خلوه من حركات المد والجزر حتى أنه مهما اختلف المكان وفي أي

وقت من الأوقات كانت السفن الصغيرة تستطيع أن ترسو إلى شواطئه في سهولة ويسر، علمًا بأن سفن القدماء كانت في جملتها صغيرة، ويشارك البحر المتوسط في هذه المزايا البحر الأحمر والخليج الفارسي ولكنه يبزها جميعًا في مساحته الواسعة وينفرد دونها بمزايا لم تتوافر لأي من البحرين الآخرين ذلك أن شواطئه على العموم أكثر خصبًا ولا تنقصها المرافئ الطبيعية الجيدة، وتتصف بوجود الرءوس الأرضية البارزة والسواحل كثيرة التعاريج والجزر المبعثرة الظاهرة فوق سطح المياه ولا يغيب البر فيه عن نظر الملّاح، والمأوى دائمًا قريب إن جد الخطر، فهو بهذه المزايا يصبح المثل الأعلى لتربية رجال البحر.

ولما عرف الناس هذا البحر كطريق للاتصال تهيأت الفرص للفينيقيين من سكان صور وصيدا وغيرهما لأن يلعبوا دورهم في تاريخ ذلك العالم الصغير في العهد القديم، لأنهم يسكنون أرضًا هي همزة الوصل بين البلاد المختلفة، وهي بمثابة لوحة القفز إلى عرض البحار، ومن البين أيضًا أن تتأخر الحضارة المؤسسة على البحر في نموها عن الحضارات التي تكلمنا عنها آنفًا، ومن الطبيعي كذلك ألا تنمو هذه.

الدويلات إلا بعد أن يتعرف أهلها على هذا الطريق ومن ثم يمضي عهد طويل قبل أن تتحفز عقول سكانها إلى العمل من أثر الأفكار التي نشأت عن هذه المعرفة، وعلى أية حال لم يحل عام ١٦٠٠ ق.م إلا وقد عُرِف الفينيقيون كأمة من تجار البحار، ولابد أنهم بدأوا مغامراتهم في هذا السبيل قبل ذلك بزمن بعيد، لأنهم جاءوا في الأصل من بابل بعد أن

قطعوا الطريق العظيم وبعد أن عرفوا القوارب واشتغلوا بالتجارة وقد أغرتهم السماء الصافية في بيئتهم الأولى بدراسة علم الفلك ولا غرو فإن فوائده للملاحة الليلية لا تحصى.

وهكذا حفزتهم بيئتهم الجديدة إلى التقدم في اتجاهات جديدة، وقد بدأت صيدا بملك زمام الأمر ثم تبعها صور من بين المدائن الكثيرة المبعثرة على طول السواحل ومن هاتين المدينتين كلت تخرج السفن إلى البلاد المتأخرة على بعد المسافة بينها، وربما كان دافع الفينيقيين في أول الأمر البحث عن بعض الأسماك الصدفية التي كانوا يحتاجون إلى كميات كبيرة منها لصبغ الملابس الملكية باللون الأحمر الأرجواني الذي اشتهرت بصناعته مدينة صور.

ومن الجائز أن البحث عن الأصباغ لم يكن هدفهم الوحيد، فالتجارة، من أي نوع كانت، محببة إلى نفوسهم ما دامت تجزى عن المتاعب التي يجشمونها ولكي يتابع الفينيقيون أعمالهم التجارية في أمن وهدوء أنشأوا المستعمرات على طول سواحل البحر المتوسط من طرف إلى آخر ولم يأت عام ١٠٠٠ ق.م حتى كانت مجموعة الحلف الفينيقي تكون وحدة يعمل لها حساب وإن كانت ضعيفة الروابط فيما بينها حقًا، ملك الفينيقيون بقاعًا صغيرة في مساحتها لأنهم كانوا في قراره نفوسهم تجارًا لا يحتاجون إلى مساحات واسعة من الأرض الخصبة ليزرعوا ما يحتاجون إليه من الغذاء ولكنهم كانوا يفضلون شراءه بما تدره عليهم منّهم من كسب وفير.

لقد حكمت صور وصيدا وقرطاجة مناطق صغيرة فيما حولها ولم تكن دولتهم قطرًا واحدًا مندمجًا كدولة مصر أو بابل، بل كانت عبارة عن مستعمرات متفرقة على سواحل البحر المتوسط الذي كان يربط فيما بينهما، وكون من وحدتها دولة تختلف في طبيعتها ونظمها عن أي دولة سبقتها في الوجود.

ولم يكن حكم الفينيقيين وحده هو البدعة الجديدة، بل إنهم كانوا أنفسهم يمتازون بسجايا ذات طابع جديد فرضته عليهم ظروف بيئتهم، ولابد أن سلوكهم العام كان يفرض على الغير احترامهم والخضوع لهم بدليل بقاء أسواق الهمج المتأخرين مفتوحة لهم زمنًا طويلًا، والتجارة في جوهرها مهنة ودية، ومهما تقدم المصريون والبابليون فقد بذهم الفينيقيون في هذا المضمار، وفي الحق كانت الشجاعة من أخص صفاتهم ولم يكونوا كالأشوريين مجرد مقاتلين، كما تركت فيهم الأسفار الدائمة وسط البحار المتلاطمة وعلى ظهور سفنهم الصغيرة صفة التعلق بالحرية إلى جانب ميزة الشجاعة الفريدة التي تكلمنا عنها مما مكنهم من أن يقفوا بالمرصاد ليدفعوا عن أنفسهم محاولات أشور المتكررة للقضاء عليهم.

وبالرغم من فشل أشور في القضاء على التجارة الفينيقية فقد سببت هذه لمحاولات لها عجزًا وشللا، وقد ضعف بضعفها الفينيقيون في فينيقيا الأصلية منذ القرن السادس ق.م حقًا لم تسقط بلادهم نهائيًا حتى اضطرتهم الظروف إلى مواجهة قوة بحرية أخرى سندرسها فيما بعد

الفصل الخامس

حضارة البحر

١- اليونان

رأينا كيف قامت الحضارات القديمة في مصر والعراق بفضل اجتماعهما بالصحراء والمستنقعات وكيف اكتسبت جهات أخرى أهميتها نتيجة للاتصال الطبيعي الذي حدث بين الدولتين ورأينا كيف أصبح البحر أداة للاتصال بين الدول بعد أن كان حاجزًا يفصل بينها، وقد استطردنا في تتبع هذه الحقائق استطرادًا طبيعيًا، وعلينا الآن أن ندرس أثر البحر في جهات أخرى غير مصر وفينيقيا وتتبين كيف كان البحر عاملا مؤثرًا كفل الحماية في أول الأمر ثم أصبح أداة للاتصال فيما بعد.

وأما أولئك الذين سنهتم بدراسة أوطانهم فهم من أطلقوا على أنفسهم في عصور متأخرة اسم الهلينيين والذي نسميهم الإغريق، أما وطن أولئك الهلينيين فهو هلاس، أو بلاد اليونان كما يحلو لنا تسميتها، فأينما عاش الإغريق فهم كانوا يعيشون في هلاس، وبلاد هلاس هي التي ينبغي علينا دراستها غير أن هناك خطأ شائعًا يجب أن نتجنبه، إذا ما ألقينا نظرة على خريطة سياسية حديثة رأينا بلاد اليونان تحتل الطرف الجنوبي الغربي

لشبه جزيرة بلقان حيث تبدأ السلاسل الجبلية في الانخفاض والاختفاء تحت سطح البحر، واسم بلاد اليونان تعبير صحيح لو قصدنا به مملكة اليونان الحديثة فقط ولكنه خطأ إن عنينا أنه الوطن الوحيد لليونانيين حتى للمحدثين منهم، بل ونمهن في الخطأ لو ظنناه وطن قدماء الإغريق الذين نحن بصدد تاريخهم.

ولو أننا نظرنا إلى خريطة توزيع الأجناس في الشرق الأدنى لرأينا أن بلاد اليونان الحقيقية أو الوطن الحقيقي لليونانيين يشمل اليوم كل السواحل والجزر

وأشباه الجزر في بحر إيجة، وبحر إيجة دون أجزاء البحر المتوسط جميعًا يحوى من الجزر المتناثرة على سطحه أكثر من أي بحر آخر وفيه من أشباه الجزر والرءوس ما يمنع انتظام سواحله أكثر من أي ساحل آخر من سواحل البحر المتوسط وقد انتشرت فيه الجزء انتشارًا كثيفًا حتى أن اسم إيجة أو الأرخبيل الذي أطلقه اليونانيون عليه، وهو بحرهم الرئيسي، أصبح يدل في معناه على مجموعة من الجزر، وهو إن دل على شيء فهو يؤكد الميزة التي جعلت لهذا البحر أهميته لأن أول حضارة عرفت في أوربا قامت على تلك الجزر وأشباهها في بحر الأرخبيل.

هنا نجد أرضًا كفلت لها الظروف الجغرافية حماية وتهيأت للشعب فرصة لأن يشيد حضارة خالصة من التدخل الخارجي، فقام في هذا الإقليم

نوعان متناقضان من الحضارة، وليس لدينا سبيل إلى الجزم أيهما كان أسبق في الوجود من الآخر.

أولًا- فمن ناحية ارتفع مستوى المعيشة تدريجًا في جزيرة كريت الكبيرة المساحة وفي البلوبونيز وهي جزيرة تقريبًا وفي بقعة أو اثنتين من البقاع الملائمة حيث توافرت للحضارة فيها فرصة النمو والإزدهار بفضل حمايتها حماية كاملة من الغزو والعدوان.

وتحسنت تدريجًا ظروف الحياة لسكانها حتى أنهم قبل أن يأتي عام ٢٠٠٠ ق.م كانوا قد شيدوا مباني حجرية عظيمة ومارسوا فنونًا وصناعات من نوع بدائي، وأنشأوا المدن في داخل البلاد ما أمكنهم حتى يبعدوها عن التعرض لأخطار رجال البحر الذين قد يغيرون على سكان الشواطئ والذين كانوا قليلي الثقة بأنفسهم إذا ابتعدوا عن بيئتهم الأولى ألا وهي البحر.

ثانيًا- ومن الناحية الأخرى فقد وُجد رجال البحر حتى في ذلك الزمان الغابر ومن الجائز أنهم جاءوا من الجزر الصغرى التي لم يغب البحر فيها عن الأبصار، فأصبح بطبيعة الحال مألوفًا لديهم وربما يكون هؤلاء قد بنوا القوارب وركبوا متن لبحر وانتقلوا من مكان إلى آخر وأحرزوا قصب السبق في هذا المضمار قبل الفينيقين.

فإذا ما نمت وتطورت هذه الحضارة وهي التي اتخذت مقرها في مناطق محمية، كان من المنتظر كلما ازدادت معرفتهم بالبحر أن تختفي الأهوال التي كان ينسبها سكان اليابس إليه – فلما بلغت هذه الحضارة أوجها تقريبًا حين عاصرت الأسرة الثامنة عشرة في مصر حوالي عام ١٦٠٠ ق.م كانت قد انتشرت في جميع جزر بحر إيجة وعلى شواطئ آسيا الصغرى وتركت أنارها في البلاد التي سميت فيما بعد بإيطاليا وصقلية على حين كانت سفن كريت بكل تأكيد معروفة في مصر، وكان ملوك الفراعنة يستقبلون في بلاطهم البعوث والسفارات الكريتية، ومهما يكن من شيء فقد كانت هذه حضارة تنتشر لا إمبراطورية تحكم تسود.

كان البحر حاجزًا في الأزمنة الغابرة فتهيأت لليونان ظروف جغرافية لاءمت نمو حضارة عريقة، مثلها في ذلك مثل مصر وبابل، ويجب أن نلاحظ بدقة أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين هذه الحضارات، فكما اختلفت بابل عن مصر لأن بابل كانت محاطة بمستنقعاتها، ومصر بصحرواتها – كذلك اختلفت اليونان عن كل منهما بفضل حماية البحر لها، فإن مصر بسبب طولها انقسمت طبيعيًا إلى مصر العليا ومصر السفلى، أو مملكتي الشمال والجنوب، كما كانتا تسميان، أي الدلتا والوادي، وانقسمتا بدورهما إلى أقاليم صغرى أو مديريات وإن لم يفصل بينما أي حاجز طبيعي ذي أهمية تذكر ولهذا خضعت مصر في أغلب تاريخها لحاكم (واحد) ومن آن لآخر لحاكمين اثنين، وفي الأحوال الشاذة لسلطات متعددة منقسمة على بعضها، هذا إذا ما استقلت أقاليمها ومديرياتها، أما بابل فعلى الرغم من أنها كانت أكثر اندماجا وأحكاما من

مصر إلا أنها كانت أكثر من مصر استعدادًا للانقسام إلى دويلات صغيرة لأن الفواصل بين الأقسام الصغرى في بابل كانت أبرز وأفعل أثرًا، كما أن أثر النهر في ربط البلاد وتوحيدها لم يشعر به البابليون إلا قليلا، ولما كانت هذه الحواجز غير مانعة كان من الطبيعي أن تضطر الدويلات البابلية إلى الدخول في نوع ما من الاتحاد أما الجزر وأشباه الجزر اليونانية فقد انفصلت تماما عن كتلة اليابس بل وعن بعضها بعضا حينما كان البحر حاجزًا، وبعد أن أصبح البحر طريق الاتصال ظلت مساحات من البحر تفصل فيما بين الجزر وبعضها وليست الحدود هنا خطا فاصلا بل هي مساحات واسعة والواقع أن هذه الظروف لم يقتصر تأثيرها على توجيه مجرى التاريخ بصفة مباشرة بأن جعلته يسلك أيسر السبل ويفضلها على غيرها، وإنما أثرت في التاريخ أثرًا لا يقل عمقًا بصفة غير مباشرة بفضل انعكاسها على تفكير الإغريق أنفسهم، إذ اختلفت نظرتهم إلى البحر عن نظرة الفينيقيين، فقد كان البحر في نظر الفينيقيين وسيلة تطرقها التجارة حين أنه كان في نظر الإغريق وسيلة للدفاع عن استقلالهم، فالبحر قبل كل شيء طريق بالسنبة للفينيقيين ولكنه ميدان دفاع بالنسبة للإغريق، إذ شعرت كل دويلة من الدولات اليونانية برغبة في الاستقلال ليس فقط عن كل شعب أجنبي عنها بل وعن الدويلات اليونانية الأخرى، وقد ازداد هذا الشعور قوة من جراء الاختلافات الكبرى بين مختلف الأجزاء حتى بين الأجزاء المتجاورة في كتلة الأراضي اليونانية الأصلية، مما نشأ عن اختلاف الظواهر الطبيعية وما يستتبعها من تنوع في المناخ، وهكذا خارج كل دولة شعور قوي بوحدتها

وشخصيتها وكان من نتيجته أن التاريخ لم يسجل قط قيام إمبراطورية يونانية.

لم يك هذا أثرًا عابرًا، فحوالي عام ١٠٠٠ ق.م، طرأ تغيير على طراز الحضارة الذي ساد البقاع التي نطلق عليها الآن اسم بلاد اليونان، إذ غزتها قبائل من الشمال واعترى حضارتها تأخر ظاهري لفترة من الزمان لم تدم طويلا لأن الدم الجديد ساعد على سرعة نمو طراز الحضارة الإغريقي الخالص وعمل على بلوغه درجة عالية من النضوج والازدهار، وليس هنا مجال التعرض للكلام عن هذا التطور، بل ينبغي أن نلاحظ أن أثر الظواهر الجغرافية قد اختلفت قليلا واختلفت توزيع الدويلات، وكل ما حدث من تغييرا إنما يرجع إلى اختلاف الأثر الذي طبعته العوامل الجغرافية على عقول اليونانيين الذين أصبحوا – دون وعي منهم – أكثر دراية بأساليب اقتصاد الطاقة والجهد، وهكذا انتشرت الحضارة اليونانية الحديثة في الجزر وأشباه الجزر المبعثرة في بحر إيجة بنفس الطريقة التي انتشرت بها الحضارة اليونانية السابقة وإن كانت هذه أسرع في انتشارها لأن اليونانيين أصبحوا أكثر دراية بالبحر وإدراكا لقيمته كطريق للاتصال بين الأجزاء المختلفة، ويبرز في تاريخ اليونانيين سواء في العهود المتقدمة أم المتأخرة، ذلك الدرس الذي لقنتهم الطبيعة إياه وهو أن البحر وسيلة دفاع وحماية بكل ما ينطوي عليه هذا الدرس من معان ظاهرة في الحاضر كما كانت في الماضي.

ويصور لنا التاريخ الداخلي لهلاس – أي الوطن اليوناني – مدى سيطرة الظروف الجغرافية، حقًا قامت دول يونانية جديدة فأصبحنا نسمع

عن إسبرطة وعن أثينا بدلا من أرجولس وطيبة، وجرى التاريخ في مجراه المنتظر فرأينا تطورًا مستمرًا متمرًا متعدد الألوان يلم بالوحدات الصغرى بسبب اختلاف مصالحها خلال الثلاثة أو الأربعة القرون التي برزت فيها اليونان أمام أبصارنا، فلم يقر قرار لأي وحدة منها إلا قليلا، وتردد نفس الشعور من عدم الاستقرار في نفس كل مواطن في كل وحدة، وأحس بضرورة تقدير حقوقه الفردية، وفي هذا كله يتضح الدور الأساسي الذي يلعبه البحر فإن التاريخ الداخلي لهذه الدول اليونانية– أو دل اليونانيين بمعنى أعم – ما كان إلا صراعا بين مجموعتين من الأحلاف بين مجموعة أحلاف دول المدن التي قامت على اليابس وبين مجموعة الأحلاف الأخرى التي كان البحر عمادها، ومن الطبيعي أن يكون النصر لفترة طويلة من الزمان حليف الحلف الذي يعتمد على البحر – كما نرى ذلك بيننا في هذه الأيام، ولكن النصر في هذه المرة كان قصير الأجل بسبب ميل اليونانيين الطبيعي إلى التفرقة والانفصال.

ويبرز التاريخ الخارجي لمجموعة الدول اليونانية هذه الحقيقة أيضًا، فقد رأينا أن البحر كان وسيلة دفاع بالنسبة للإغريق وأنه كان طريق تجارة بالنسبة للفينيقيين، ولم يكفل في نظر الفينيقيين إلا قدرًا ضئيلًا من الحماية لأن الخطر لم يأتهم من البحر بل من البر، وقد خلا البحر من المنافسين لهم وهم في غمرة حماستهم، ولم ينازعهم سلطانهم إلا بعض سفن للقرصان في أسوأ الظروف وهكذا ركب الفينيقيون متن البحار ، وانتشروا فيها انتشارًا واسعًا، ولم تبلغ فينيقيا قط درجة التكتل والاندماج التي بلغتها اليونان، هذا على فرض أن اسم فينيقيا كان يشمل كل الأراضي التي خضعت

لنفوذ الفينيقيين، وما حدث ذلك إلا لأن فكرة القوة البحرية لم تكن قد ولدت بعد ولم يخطر على بال الفينيقيين أن التجارة كالزراعة، سواء بسواء، في حاجة إلى الحماية والدفاع، وأن السفن التجارية التي تجرى في عرض البحار تحتاج إلى الدفاع المنظم كالمدن والدول المستقرة على اليابس، ومن الطبيعي أن يتجه الفينيقيون في تفكيرهم هذا الاتجاه ما داموا لا يجدون في البحر منافسًا أضف إلى ذلك أنه على الرغم من ضرورة الدفاع عن التجارة فإن البحر خلو من الحصون الطبيعية وأينما وجد البحر أصبح السبيل ممهدًا للجميع وغير ممنوع على أحد، والدفاع الوحيد هو في كفاية رجال البحر أنفسهم، فإن تساوت الظروف كانت الغلبة في جانب العدد الراجح، وحين نظر الإغريق إلى البحر كميدان حرب لم يظهروا أي ميل للسماح لغيرهم بأن يشاركهم ميزاته ومنافعه، وكانوا أقدر على فرض إرادتهم وتنفيذها، وليس بعجيب إذن أنه لما أصبح الإغريق تجارًا في آخر الأمر كانوا أكثر حذرًا في مزاولة أعمالهم التجارية في مناطق لا يتمتعون فيها بالنفوذ الأكبر، ومن ثم استطاعوا أن يغتصبوا من الفينيقيين تجارة بلاد كثيرة كان الوصول إليها أمرًا ميسورًا إلى حد ما بالنسبة للإغريق، ولم يعن الفينيقيون قط بالقتال حبًا في القتال لذاته، فإذا ما شعروا بوطأة المنافسة تركوا المكان إلى غيره إيمانًا منهم بأن في ميدان التجارة متسعًا للجميع، وهكذا أضحى الإغريق تجارًا مقتدين بالمثل الذي ضربه لهم الفينيقيون أو كنتيجة طبيعية للظروف الجغرافية، وربما كان احترافهم للتجارة مبعثة العاملان في وقت معًا، وأخيرًا تمكنوا من طرد منافسيهم من شرق البحر المتوسط وجعلوا منه بحرًا إغريقيًا خالصًا.

ومهما يكن من الشيء، فلم يكن الفينيقيون وحدهم هم الذي اضطر اليونانيون إلى صراعهم، فقد رأينا أن ميديا قد سيطرت على أكثر أجزاء الإمبراطورية الأشورية بعد سقوط نينوي وجاء الفرس في أعقاب الميديين وهم شعب جبلي هبطوا من حافة هضبة إيران وسيطروا على كل أراضي الإمبراطورية الآشورية.

وامتدت حدود بلادهم في جميع الاتجاهات تقريبًا، ولأول مرة في التاريخ صارعت إمبراطورية برية أخرى بحرية، لأن بلاد اليونان شملت سواحل آسيا الصغرى، واقتربت فارس من هذه الشواطئ زاحفة من الهضبة الداخلية لإيران بعد غزو مملكة قارون التي لم تخضع قط لدولة أشور، ومن الجائز أن حكام فارس قد ساورتهم الظنون بأن سكان السواحل سوف يسارعون إلى الخضوع شأنهم في ذلك شأن الفينيقيين من قبل، لأن هؤلاء الفينيقيين لم يقدروا فرص الدفاع التي هيأتها البحر لهم فأحنوا رءوسهم للعاصفة ودفعوا الجزية واستمروا يزاولون تجارتهم وكأنه لم يحدث شيء، وقد كان هذا التصرف في نظرهم حكيمًا طبيعيًا لأن في الخضوع كسبًا تجاريًا، ولكن نظرة الإغريق للأمور اختلفت عند معالجة هذه الأزمة بالذات، وهنا تبدو حقيقة هامة وهي أن المسلك العقلي للإنسان أو للأمة هو ما تفرضه الظروف الجغرافية فرضًا وأن الاستقلال في نظر الإغريق يفوق التجارة في قيمته حتى في نظر سكان شواطئ آسيا الصغرى من اليونانيين فإن سواحلها لم تكن إلا جزءًا من بلاد اليونان، وأنظار أهلها ترنو إلى البحث وتعزف عن البر، يغضون الطرف عن فارس ولا يتجهون نحوها، ولم يتيسر للفينيقيين من سكان الشاطئ الفنيقي أن يتلقوا المدد أو

المساعدة من المستعمرات الفينيقية خارج بلادهم، على حين أن ذلك كان ميسورًا بالنسبة للإغريق من سكان آسيا الصغرى فكانوا يتلقون المساعدات باستمرار من إخوانهم فيما وراء البحر وقد تدور الدائرة فترة ما على اليونانيين من سكان الكتلة اليابسة أمام عدوان جيش من الجيوش بينما يظل باقي الإغريق في قواعدهم فيما وراء البحار وفي جزائرهم بعيدين عن متناول أية قوة برية لا يتوافر لديها أسطول، ذلك أن الشعب البحري لا تقهره إلا قوة بحرية، ولما تيسر لفارس آخر الأمر تسخير سفن الشعوب التي سيطرت عليها وعلى الأخص سفن فينيقيا ومصر وصقلية حاولت غزو اليونان عن طريق البحر، وقاد أجزر سيس جيشه خلال الأقطار المختلفة، ولعله كان أكبر جيش رأته الدنيا لعدة قرون مضت ولعدة قرون تلت زمانه. أشاع الذعر معه في كل مكان وانتشرت ظاهرة الخضوع دون قتال بين أغلب بلاد اليونان، غير أن الموقف انقلب رأسًا على عقب في موقعه سلاميس إذ أحرزت دولة أثينا النصر بعد أن تملكها اليأس، فألحقت بأسطول أجزرسيس هزيمة منكرة وحالت أثينا بين الإمبراطورية الشرقية العظمى وبين السيطرة الفعلية على البحار، ويجب ألا يغيب عن الذهن المعنى الكامن في تصرف الملك الفارسي. ومصدره انعدام الألفة بينه وبين البحر، ولهذا العامل أثره الحاسم في مجرى القتال، فليس مرجع الهزيمة النقص في السفن الفارسية وعددها لأنه تبقى لأجزرسيس في نهاية المعركة عدد من السفن الصالحة للقتال أكبر مما تبقى للإغريق ولكن أجزرسيس جاء من بلاد تنظر إلى البحر نظرة استغراب ولم يكن هو شخصيًا من رجال البحر، ولهذا فقد الثقة بالبحر وعاد مهزومًا، ولو فرضنا أن أسطوله

دمر عن آخره لكان التقهقر لا يعنى أكثر من أن رحى الحرب قد دارت في غير مصلحته وأنه قد يعود إلى الميدان مرة أخرى، ولكن تقهقر أجزرسيس ومعه أسطول يفوق أسطول أعدائه في عدده، يحمل في طياته اعترافًا بأن البحر أبعد منالًا من أن يمتد إليه الحكم الفارسي.

حدث هذا في عام ٤٨٠ ق. م. وقد تركز العصر الذهبي لبلاد اليونان في أقل من قرن ونصف من الزمان وهو العهد الذى عاش فيه أقطاب اليونانيين الذين خلدوا ذكر الثقافة اليونانية، وكان أثر البحر بارزًا خلال العهد كله سواء أكان بطريق مباشر أم غير مباشر، ويتضح هذا من أسطورة لعلها أكثر الأساطير شيوعًا في التاريخ اليوناني، وهي تلك التي تروى "مغامرات عشرة آلاف جندي" قضوا شهورًا في التجول والمغامرة حول بحر أيو كسين[٤] فلما وقعت أبصارهم على البحر لم يتمالكوا أنفسهم من الصياح ((البحر! البحر!)) هذه الأسطورة تلفت النظر إلى أن البحر هو الظاهرة الكبرى في حياة اليونانيين، وما يبعث على الدهشة أن تأتى هذه الصيحة من جيش يتكون في غالبيته من أهل أسبرطة وهم أقل اليونانيين تقديرًا للبحر.

ومن الطبيعي أن تكون أثينا وهي أكثر الدويلات اليونانية اعتمادًا على البحر هي القوة الفعالة في إلحاق الهزيمة بجيوش أجزرسيس وأساطيله، فلم يكن بد من أن تتولى أثينا الزعامة في بلاد اليونان فترة من الزمان أطول

(٤) الاسم القديم للبحر الأسود – المترجم.

مدى من أي دويلة أخرى، ولكن زعامتها في ذلك الحين كانت قصيرة الأجل نسبيًا إذ لم تزد عن الستين عامًا، فبدأت سياسة من التوسع البحري أفقدتها أسطولها مرتين، المرة الأولى فقدت أسطولها في صقلية على أيدى رجال بحر أُخر فضاعت مكانتها في التو واللحظة، والمرة الثانية فقدت أسطولها في الدردنيل أثناء محاولتها حماية طرق تموينها بالقمح الوارد إليها من البحر الأسود، ولم تكن أثينا قد استجمت بعد من صدمتها الأولى فلم يتوافر لقوتها الناقهة شيء من المناعة يجعلها تحتمل الصدمة الثانية فخضعت أثينا جوعًا ولم تعد بعدئذ شيئًا مذكورًا.

وخلفت إسبرطة أثينا لفترة تزيد قليلاً عن الجيل الواحد وخلفت طيبة إسبرطة لمدة تبلغ نحو عشر سنوات قبل أن تنشط عوامل الانحلال فتعمل عملها ولم تسيطر قط على البحر بينما دانت لاسبرطة السيادة البحرية لبضع سنوات بعد سقوط أثينا، ثم استعاد الأثينيون السيادة البحرية لحد ما وشاركتهم فيها دول المدن اليونانية في آسيا الصغرى كما شاركهم فيها الفينيقيون وهؤلاء كما سبق أن رأينا قد انطووا تحت جناح فارس، وظلت دول المدن اليونانية الأخرى في آسيا الصغرى نفسها في حالة من الضعف والانقسام على الرغم من أنها كانت تتطلع في بعض الأحيان إلى البلاد اليونانية الأخرى طالبة معونتها فكان رجاؤها يتحقق أحيانًا، ويخيب أحيانًا غير أن حكومات المدن اليونانية ظلت منقسمة على بعضها بعضًا فحالف بعضها ملك فارس وزودوه بالمساعدة مما مكن الفرس في فترتين من فرض نوع من السيطرة على جميع البلاد الإغريقية وإن تعذر القول بأنهم مارسوا هذه السيطرة فعلاً.

ولا بد من توافر شرطين أساسيين لإمكان قيام وحدة تضم جميع اليونان وهما السيطرة الكاملة على البحر والسيطرة الكاملة على البر، لأن بلاد اليونان بطبيعتها تتكون من جزائر وأشباه جزائر، ولن تتحد الجزر إلا بالسيطرة على البحر وفي هذه الحالة تظل أشباه الجزر معرضة للهجوم من البر، فإذا قامت إلى جانب السلطة البحرية قوة برية منظمة اضطرت الدويلات المختلفة في بلاد اليونان إلى الاعتراف بسلطة واحدة عليا لفترة من الزمان، أي إذا اجتمعت إلى القوة البرية أخرى بحرية قامت دولة لها من السلطان ما يجعلها تسود كل بلاد اليونان وتحكم لعهد قصير كل أنحاء العالم المعروف آنئذ والذى كان له شأن يذكر في ذلك الزمان. وتبين الفتوحات المقدونية التي قام بها فيليب والإسكندر مدى الأثر الذى تتركه بعض الشخصيات البارزة في مجرى التاريخ – وعلى كل حال فإن العوامل الجغرافية – وإن لم تتضح هنا تمامًا كما وضحت في حالات أخرى – ذات أثر محسوس في كل حال وقد يزداد أثرها وضوحًا لو أننا تذكرنا أن العوامل الجغرافية تعمل عملها بالتأثير في عقول البشر.

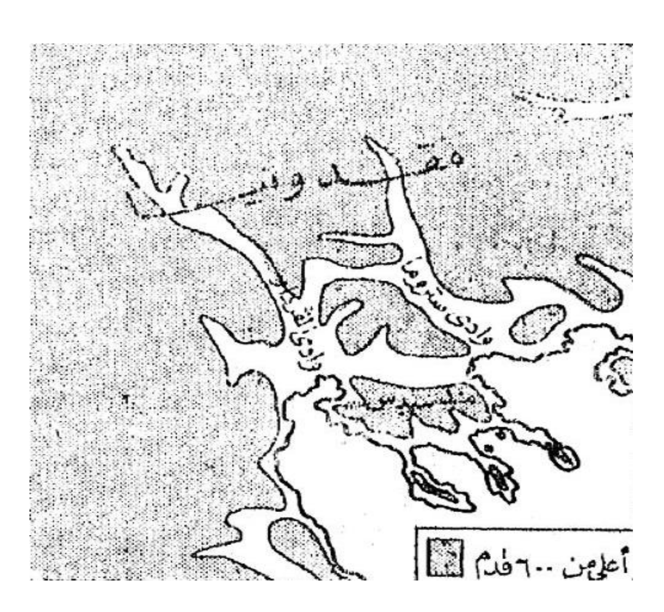
كان العالم المعروف للبشر وقتئذ – أي للمتحضرين من البشر – عالمًا صغيرًا قوامة مصر والعراق واليونان وما بينهما – أما فيما وراء هذه الدائرة فتقع بلاد وبحار يعرفها في شيء من الغموض من يقطنون داخل الإطار الصحراوي الجبلي فإن سكان الجبال من أهل ميديا وفارس هبطوا في الشرق إلى أرض العراق ثم زحفوا منها غربًا حتى حالت البحار والمرتفعات الإغريقية دون تقدمهم، وقد لفت هذا الزحف أنظار اليونانيين وعلى الأخص يوناني أوربا إلى وجود قوة متحضرة عظمى إلى الشرق منهم،

ومن ثم بدأ الإغريق يوجهون أبصارهم إلى الشرق ويدركون شيئًا فشيئًا أن التقدم شرقًا ميسورًا بل هو أسهل نسبيًا من زحف الفرس غربًا وإن أسطورة العشرة آلاف جندي توحى بأن غزو الشرق ممكن وأن الإغريق يتفوقون على أهل آسيا بطيب عنصرهم الإغريقي ويمتازون عليهم بالتدريب العسكري فبدأ أجيسلاوس من إسبرطة غزواته، وداعبت الأحلام "جاسون" في تساليا فصورت له إمكان غزو فارس لو اتحد اليونانيون ولكنهما أخفقا في تحقيق أحلامهما لأن الوطن اليونانيين ممزق شر تمزيق. ومن ثم يتضح أن فكرة غزو الهيلينيين للشرق حين ظهرت لم تكن بدعة جديدة وإنما هي نتيجة طبيعية للظروف الجغرافية.

كذلك كان تنفيذ هذا الغزو أمرًا تحتمه الظروف الجغرافية فليست مقدونيا بإغريقية خالصة فهي تبعد عن البحر أكثر من أية مدينة يونانية أخرى وفيها يجرى أكبر أنهار بلاد اليونان وأكبر ودياها ولم يكن أهل مقدونيا رجال بحر كأهل اليونان بل كانوا في غالبيتهم رجال بر وسكان جبال تحضروا إلى درجة لا بأس بها بفضل اختلاطهم بجيرانهم من اليونانيين، غير أنهم احتفظوا بكثير من عاداتهم البدائية، بفضل بعدهم عن البحر، واحتفظوا على الأخص بطاعتهم لسلطان رؤسائهم مما جعلهم جنودًا ممتازين خصوصًا حين أصبح القتال علمًا أكثر منه أي شيء آخر، وبعد أن تعلم المقاتلون طرق الاقتصاد في الجهود والطاقة ما أمكنهم، وحين أصبح الجيش أداة تدريب لبضعة آلاف من الرجال يعملون في نظام وانسجام وكأنهم رجل واحد، فلما جاء الأوان كان من الطبيعي أن ينجح المقدونيون في فرض سلطانهم على جميع اليونان بفضل بعدهم عن مواطن

الهجوم عليهم، الأمر الذى عجزت عن تحقيقه جميع المدن اليونانية الأخرى.

ولم ينقص مقدونيا العلم بالبحار كبلاد فارس لأن توسعها فيما وراء الوديان والأنهار جعلها على اتصال بشبه جزيرة خلقيدية التي تبرز كثيرًا داخل البحر بما اشتملت عليه من مدن تجارية كثيرة تعتمد في حياتها على البحر، وكلما ازدادت مقدونيا اتساعًا كلما أصبحت في موقف يهيئ لها السيطرة على هلسبونت (الدردنيل).



الخريطة رقم ٨ – مقدونيا

وهكذا كانت مقدونيا في موقفها تختلف كل الاختلاف عن كل من فارس أو إسبرطة وهما القوتان اللتان قامتا في أساسهما على اليابس وحاولتا فرض السيطرة على بلاد اليونان. حاولت الأولى على بعد الدار

أن تسيطر على المدن البحرية في آسيا الصغرى، وقبضت الثانية (إسبرطة) على هلسبونت لفترة قصيرة من الزمان رغم أنها لم تكن سيدة البحار في واقع الأمر، أما مقدونيا فتفضلهما كقوة بحرية تسود البحر، فليست هناك جزر حول شبه جزيرة خلقيدية تصلح لكى تتخذها قاعدة لها أية قوة بحرية معادية والشاطئ كله في متناول مقدونيا.

وبعد أن تعلمت هذه الجماعات من سكان الجبال درسًا جديدًا في الحياة لقنتها إياه الظروف الجغرافية كان من المنتظر أن يسجل التاريخ أثرها في عالمها الصغير، ومن المعقول أن تنجب دويلات يونانية أخرى رجالاً يأتون بمثل ما أتى به فيليب والإسكندر، وما دام من المقدر لجيوش من أصل يوناني أن تجتاح العالم فمن الطبيعي أن تأتى هذه الجيوش من مقدونيا إذ تقف وراءها قارة من اليابس، ومن الطبيعي أيضًا أن تستهوى فكرة إنشاء إمبراطورية برية قلوب الحكام المقدونيين، ومن الواضح أن الجيش هو أداة التوسع البرى. أضف إلى ذلك أن هؤلاء المقدونيين لا يعتورهم شعور الخوف من البحر وهو الشعور الذى يتردد عادة في قلوب أهل اليابس. وهذه حقيقة يدركها كل من أوتى قسطًا من الذكاء وعلى أية حال فإن السيطرة على البحار شرط أساسي لتكوين الإمبراطوريات.

وقد استغل فيليب شعور الغيرة عند اليونانيين فاتخذ منه أساسًا لربط مقدونيا بكل الوحدات اليونانية المتفرقة وتمكن الإسكندر الأكبر من إيجاد التعاون بين الأسطول والجيش الأمر الذى يطبق الآن بنجاح على نطاق واسع، ففتح الإسكندر تقريبًا كل البلاد التي يمكن أن نصنفها بالتحضر،

وأطلق فيض الحضارة اليونانية من عقاله على كل من آسيا الصغرى ومصر والعراق وهضبة فارس وطوران واستطاع أن يوقظ شعوب الهند لفترة من الزمان، وهي التي قبعت في عقر أوطانها تبنى حضارتها في بطء شديد.

كان المثل الأعلى عند الإغريق سياسة لا حكمًا وقد قامت الإمبراطورية على أكتاف رجلين اثنين إذ ظلت مواهب الحكم عند الإغريق جامدة لم تتطور، فليس بعجيب أن تتفرق إمبراطورية الإسكندر بعد موته أجزاء وأن تخضع إلى مصير مختلف كل وحدة طبيعية جغرافية كمصر والعراق وفارس وآسيا الصغرى واليونان وتراقيا، ومن الطبيعي أن تبتعد كل من هذه البلاد تدريجًا عن الأخرى إبان الفوضى التي أعقبت موت الإسكندر على الرغم من أن الحكم فيها قامت به أسر يونانية أو مقدونية. ومن الطبيعي أن يسود الشقاق الداخلي بلاد اليونان نفسها، وألا تظل طويلاً حتى تبتلعها الإمبراطورية الناشئة في الغرب.

ومع ذلك ظل البحر العامل الذى يوجه التاريخ اليوناني وقد انتشرت الحضارة اليونانية في كل الحوض الشرقي للبحر المتوسط وقامت في البلاد الأجنبية مدن يونانية وانتقلت عاصمة مصر لأول مرة في تاريخها إلى جوار البحر فقد كانت العواصم القديمة كطيبة ومنف في داخل البلاد، ولكن اليونانيين اضطروا حين حكموا البلاد غلى أن يشيدوا عاصمتهم الإسكندرية حيث يتيسر لهم تلقى الأمداد من قواعدهم فيما وراء البحار في الوطن الهلاسي.



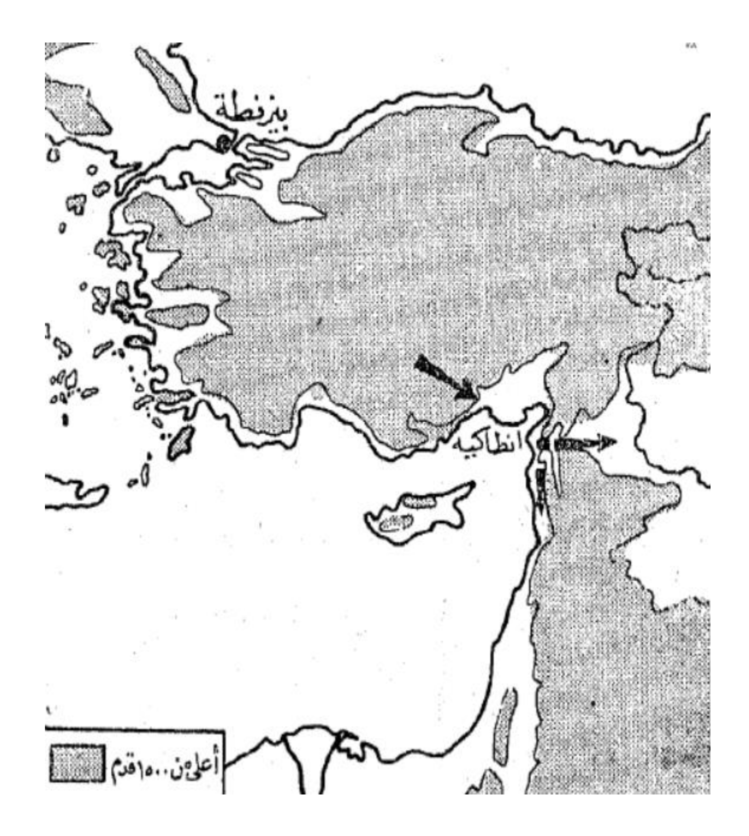
الخريطة رقم ٩

١- تقع الإسكندرية في المدخل الغربي لوادي النيل - لتتجنب الرواسب التي يقذف بها النهر ثم يحملها تيار البحر إلى الشرق.

٢- كما تقع بين المستنقعات والصحراء على أول بقعة من الأرض الصلبة حيث تهيئ الطبيعة ميناء صالحًا.

٣- وبنيت على جزيرة (اتصلت منذ ذاك الأوان بالكتلة اليابسة) تستند في ظهرها إلى بحيرة - فهي بهذه الظروف تستمتع بموقع حصين جدًا فهي في أحسن الظروف مواءمة للدفاع عنها.

كما تدين أنطاكية أيضًا بنموها وبأهميتها لوقوعها في البر بين مرتفعات الشمال والجنوب حيث يمهد نهر الفرات الطريق إلى بابل، وقيامها لا فضل فيه للطريق البحري ولكنه وثيق الصلة بالطريق البرى الذى يتبعه المسافر من بيزنطة فيدور حول قلب آسيا الصغرى الصحراوي الجاف حتى يصل إلى أنطاكية وعندها يضطر المرء إلى أن يحسم أمره فيختار أحد الطريقين إما إلى بابل وإما إلى مصر.



الخريطة رقم ١٠ – موقع انطاكية

وعلى الرغم من أن اليونانيين عاشوا في أراضي مصر وسوريا كطبقة منفصلة سواء كانوا تجارًا أم حكامًا إلا أنهم أوحوا بفكرة الوحدة الاجتماعية التي ربطت جميع أجزاء العالم وقتئذ، حتى أنه حين تدهورت الإمبراطورية الرومانية بعد قرون عدة ظلت بيزنطة عاصمة لإمبراطورية شرقية ووريثة للتراث العظيم الذى خلفته حضارة تروادة وسيطرت بيزنطة على شواطئ بحر إيجه والبحر الأسود وهذه الشواطئ بالذات كانت آخر أجزاء الإمبراطورية الشرقية في اختفائها تحت طوفان السلالات التركية.

وقد بقيت هذه المتناقضات إذ بقى اليونانييون يسكنون شواطئ بحر إيجه وجزره وكانت اليونان الحديثة أول الأمم في تحررها من الحكم التركي وقد تهيأ لها استقلالها بعد معركة بحرية وقعت عند نفاريتو بالقرب من شواطئها الغربية، وعاد الحكم اليوناني مرة أخرى إلى خلقيدية وسلونيك ولكن سواحل آسيا الصغرى بسكانها اليونانيين بقيت في يد دولة تتخذ اليابس قاعدة لها(٥).

٢- قرطاجة

رأينا كيف تمتعت بعض الحضارات القديمة بالسلم فنمت وازدهرت بفضل توفر الحماية لها من وجوه كثيرة ذلك أن الظروف الجغرافية وفرت لها الحماية وتحكمت في الاتجاهات التي تحتم على هذه الشعوب اتباعها في

(٥) كان هذا قبل اتفاق لوزان عام ١٩٢٣ وقبل أن يتم تبادل السكان بين تركيا واليونان الذى أجرى بمقتضاه المترجم.

توجيه طاقتها، أما بتحديد الاتجاهات التي يجد فيها الإنسان أقل قدر من المقاومة وإما بتأثيرها في العقل البشرى ليختار مسالك معينة، وأن كانت في أول الأمر عسيرة غير أنها على ممر الأيام تصبح أكثر يسرًا وسهولة. وعلينا الآن أن نذكر حقيقتين حتى ندرك سير التاريخ بعدئذ وكيف أثرت فيه العوامل الجغرافية.

أولاً:- الحقيقة الأولى هي أن الشعوب التي سكنت الأقاليم التي ذكرناها آنفًا خضعت لهذه العوامل الجغرافية مدى عصور عديدة واستقرت تحت تأثيرها أخلاقهم وأذواقهم وعاداتهم وطرق معاشهم حتى أنه بمرور الزمان لما هاجرت بعض سلالاتهم إلى أراض أخرى سواء كان ذلك طواعية أم اضطرارًا انتقلت معهم إلى أحفادهم خصائصهم التي اكتسبوها خلال الأجيال الطويلة، ولا يهمنا هنا كيف تم هذا الانتقال، ففي بعض الحالات كان الانتقال بالوراثة المباشرة، وفي بعض الحالات الأخرى كان يتم ذلك الانتقال بالتعليم والتلقين بأسلوب ما.

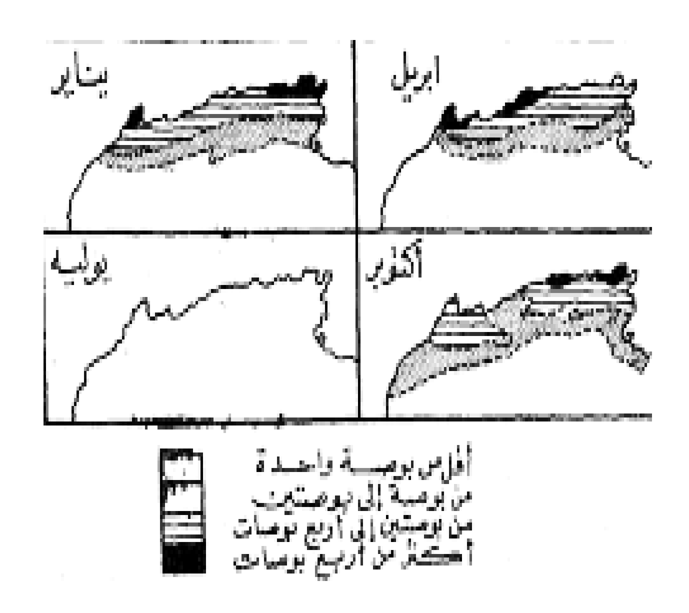
ومن ذاك الوقت فصاعدًا لم يعد التاريخ بالبساطة التي كان عليها في مراحله الأولى إذ اضطر الناس إلى تعديل المثل أو القيم التي لقنتها إياهم ظروف معينة حتى يوائموا بينها وبين حياتهم في ظروفها الجديدة، لأن هذه الظروف على الرغم من أنها تتحكم في تصرفات الإنسان إلا أن عملها قد يعتريه التعديل أو التحسين بسبب استمرار سيطرة الظروف الجغرافية القديمة على عقول تلك الجماعات وأن قوة القصور الذاتي الذى تكلمنا عنه في الفصل الأول لهي من الأهمية بمكان في هذه الأحوال.

ثانيًا – والحقيقة الثانية هي: ولو أن بعض الشعوب قد حبتها الطبيعة فسبقت غيرها في الإفادة على خير وجه من الطاقة أو الموارد التي وفقت إليها وأنها برزت بروزًا واضحًا وضربت المثل في كيفية اختزان الطاقة وتوفيرها إلا أن شعوبًا وأجناسًا أخرى كانت ترتقى فتعرف كيف تنتفع بالحياة على خير وجه وربما كان حافزها إلى ذلك الاقتداء بغيرها من الشعوب الأكثر تحضرًا. وهكذا أخذ مستوى الحضارة العالمي في الارتفاع تدريجًا. ولكن الشعوب التي تنقل وتقلد غيرها دون إبداع وابتكار تقل في قيمتها ووزنها عن تلك التي تبتكر التقدم ابتكارًا، وقبل الفترة التي نحن بصددها بلغت شعوب كثيرة درجة من الحضارة تفوق حضارة الشعب المصري الذى سمعنا عنه أولاً. غير أن شعوبًا أخرى ضربت في تقدمها بسهم أوفر، والسيادة والسيطرة تولان دائمًا إلى الشعوب التي تسبق غيرها في ميدان الحضارة والرقى، ومن ثم كان تاريخ العالم مسيرًا توجهه الشعوب الأكثر تحضرًا، وإن كان المظهر الذي يتخذه ذلك الرقي تشكله دائمًا الظروف الجغرافية.

فإذا تذكرنا هاتين الحقيقتين رأينا أن المرحلة التالية هي مرحلة رقي وتقدم طبيعيين وأن الظروف الجغرافية تحكمت في هذا الرقي بصفة مباشرة وغير مباشرة، فقد ذهب الفينيقيون إلى احتراف التجارة البحرية تحت إغراء موقعهم الجغرافي، ولما كانوا تجار بحر وجدوا من الملائم تأسيس المحطات المؤقتة أو الدائمة على الشواطئ التي كانوا يرتادونها، يجلبون إليها السلع والبضائع أو ينقلونها منها، وهكذا تناثرت مراكزهم النجارية على طول شواطئ البحر المتوسط.

وقد رأينا الإغريق يطردون منافسيهم تدريجا من جميع المراكز التي سيطروا عليها في بحر إيجة وحين سيطر الإسكندر على ذلك البحر بأجمعه باستيلائه على شواطئ المشرق حتى الإسكندرية كان يدق المسمار الأخير في نعش التجارة الفينيقية في شرق البحر المتوسط.

وعلى أية حال، ظلت الجاليات التجارية المكونة من عناصر فينيقية، تعيش في غرب البحر الأبيض المتوسط في مستعمرات أسسها الفينيقيون المهاجرون من فينيقيا الأصلية متخطين النفوذ الإغريقي وكانوا يستزيدونها قوة المرة بعد المرة يزودونها بجماعات من المهاجرين من شواطئ المشرق كلما استبد بهم حكامهم في وطنهم الأصلي وظلت هذه المستعمرات عهودًا طويلة وهي مؤسسات تجارية فقط كتلك التي أنشأها البريطانيون في الهند، وكانت أهمها مجموعة المدن التي أسست في موقع مدينة تونس الحالية، فإذا ألقينا نظرة على خرائط إفريقيا نرى في شمالها الغربي بين الصحراء والبحر نطاقًا من اليابس معرضًا خلال جزء من العام للرياح الغربية المطيرة، وهو في أساسه مرتفعات وهضاب، وهو أشبه بجزيرة تختلف عما يحيط بها – وتتهيأ فيه الفرصة لنوع ما من الحضارة لتنمو وتزدهر– وهو كتلة كبيرة في مساحتها فلا تستطيع السيطرة عليها أقوام لم تبلغ من التنظيم قدرًا محترمًا وتسودها في الوقت عينه عناصر الوحدة والتشابه فلا يسهل تجزئتها أجزاء صغير، غير أن طرفها الشرقي والغربي يتميزان عن الوسط فهما يضمان.



الخريطة رقم ١١ سقوط الأمطار في شمال أفريقيا

سهولا وأودية، فأسس الفينيقيون مستعمراتهم في الطرف الشرقي (أي الطرف التونسي) وهو الأقرب إلى وطنهم، وكان سكان هذه المستعمرات على ود وصداقة مع الوطنيين من أصحاب البلاد الأصليين ولم ينظروا إلى أنفسهم كأنهم أصحاب الأراضي فقد كنوا تجارًا، وتجار بحر على وجه الخصوص، واعتبروا امتلاك الأراضي أمرًا غير ضروري، ولم يكن عزوفهم عن امتلاك الأراضي مرجعه احترام أي وضع قائم ولكنه كان نتيجة لتأثرهم بالظروف الجغرافية التي تعرضوا لها في أوطانهم الأولى في سابق الأيام، هذا على الرغم من انقطاعهم عن التعرض لها وقتئذ، وحفزهم إلى اتخاذ هذا الموقف وجود الطريق في وطنهم الأصلي على حين لم يوجد طريق بري مماثل له في غرب البحر الأبيض المتوسط.



الخريطة رقم ١٢

شمال أفريقيا – التضاريس – جزيرة الأعراب (المنطقة العربية)

وبالطبع كان للظروف الجغرافية القائمة أثرها الخاص أيضا فهم في وطنهم الأصلي كانوا محصورين إمبراطوريتين عظيمتين مقرهما النيل ودجلة الفرات وقد ألفوا رؤية غيرهم يحكمون الأراضي وهم يتاجرون برًا وبحرًا، ولكنهم في بيئتهم الجديدة كانوا الشعب الممتاز ولم يكن هناك سادة ينظرون إليهم على الأقل كنظراء لهم ذلك أي سلطة فانعكست هذه الظروف الجغرافية على التاريخ فلم يقتصر الأمر على أن تقوم مدينة واحدة بالزعامة كما حدث لصور وصيدا في فينيقيا بل قامت قرطاجة بأكثر من ذلك فأقامت إمبراطورية وأخضعت لسلطانها مدنًا أخرى ومدت حكمها المباشر على منطقة تونس الحديثة بتمامها.



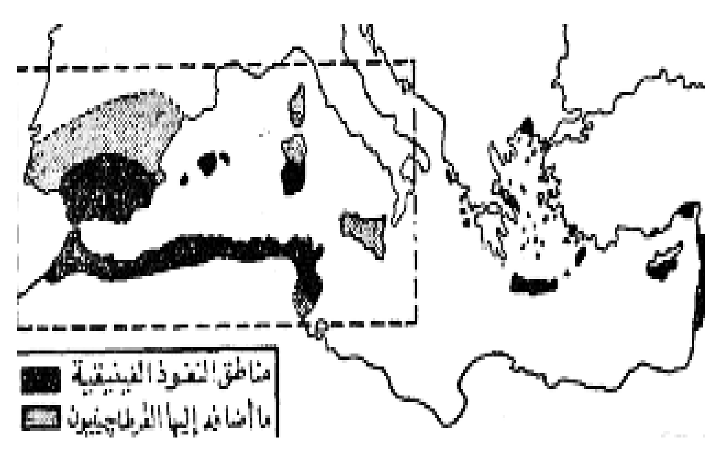
الخريطة رقم ١٣ – تقع جزيرة الأعراب بين البحر والصحراء

وكانت النتيجة عينها فيما وراء البحار فقد استسلم الفينيقيون في الشرق البحر الأبيض للإغريق دون مقاومة تذكر بينما رفضت قرطاجة وقد استقر أهلها آمنين على أراضيهم وسيطروا على مساحات من اليابس بالقدر الذي أرادوا، وأقاموا إمبراطورية بحرية تعتمد على التجارة وتشمل كل غرب البحر المتوسط، وخضعت للحكم القرطاجي كل شواطئ شمال إفريقية وغرب صقلية وكورسيكا وجنوب إسبانيا، ولم يجرؤ تاجر أجنبي أن يخطر فيما بينها من بحار.

كما حددت العوامل الجغرافية نوع الحكم أيضًا، فإن الساحل المتصل وانعدام الجزائر الصغيرة في غرب البحر المتوسط كل ذلك أدى إلى انعدام روح الاستقلال الفردي التي كانت مصدر قوة الحضارة الهلينية

ومصدر ضعفها في الوقت ذاته، وعندما قامت إمبراطورية قرطاجة كانت أكثر ثباتًا واستقرارًا، وقد

كسبت قرطاجة بفضل موقعها المنعزل ميزة عدم التعرض للهجوم من البر، كما يؤيد الواقع ذلك إذا اقتصرت الهجمات التي شنت عليها من البحار فقط.



الخريطة رقم ١٤ – الأراضي الفينيقية والقرطاجينية

وفي موقع قرطاجة نقلة ضعف أيضًا، فإن الشعوب التي دخلت تحت لوائها لم تبلغ مثل درجتها من المدنية بسبب الظروف الجغرافية في غال الأحيان، ونظر الفينيقيون إلى الأهالي كشعوب متأخرة وحكموهم كما حكمت أشور رعايا فتوحاتها بيد من حديد، وكلما نمت إمبراطورية قرطاجة اختفي شعور الود والصداقة بين الوطنيين والتجار واستبدل به شعور الحقد والكراهية للغزاة، ولما قدر لقرطاجة أن تواجه إمبراطورية أخرى تقوم على أسس أخرى في الحكم وتتبع أساليب أخرى في الانتفاع بالطاقة البشرية في

سبيل تحقيق غاية أسمى عجزت قرطاجة عن مواجهتها وسقطت لأن القرطاجيين كانوا أسوأ موقفًا، على الرغم من تشابه الظروف الأخرى تقريبًا، وعلى الرغم من أن الطرفين كانا قد استعملا بذكاء أساطيلهما وجيوشها، ذلك أن جيوش الفينيقيين كانت مكونة من رجال لم يتبادلوا الود مع سادتهم كانوا ينصرون قرطاجة طالما أجزلت لهم العطاء، وهذه كانت تجمع أرباحها التجارية لكي تصرف منها في هذه الأوجه، وأموالها هي عبارة عن الطاقة التي اقتصدها القرطاجيون، فلمَّا اختفت تلك الأرباح التجارية فقدوا السيطرة على البحر، وخانهم جنودهم الجشعون، إذ لم يتردد في جوانحهم قط شعور بالوطنية، وحين فقدت قرطاجة سيادتها البحرية سقطت نهائيًا واحتفي الفينيقيون من المسرح.

الفصل السادس

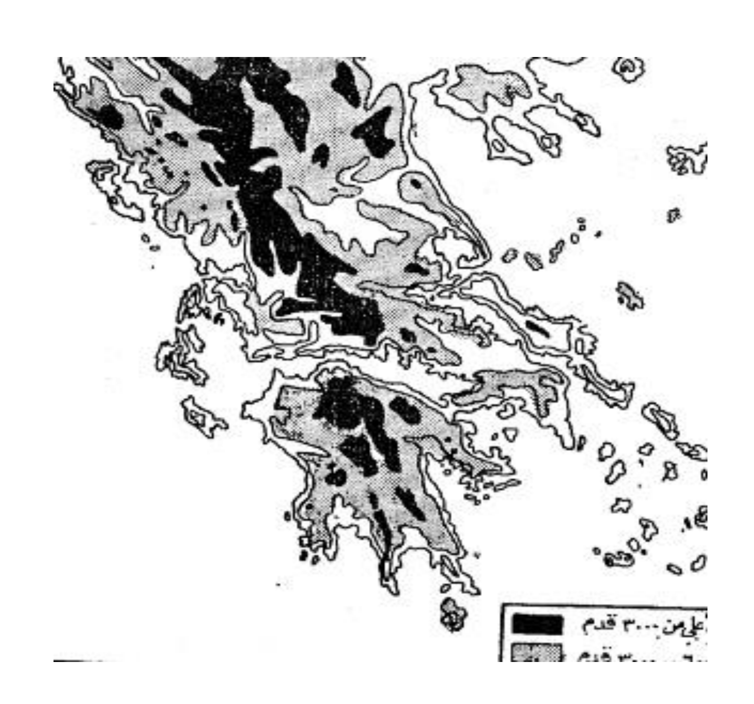
التناقض بين البر والبحر وبين المرتفعات والمنخفضات

روما

إن المرحلة التالية من تاريخ العالم أشد تعقيدًا في أسباها من أية مرحلة سبت لنا دراستها، فليس الأمر فيها قاصرًا على ملاحظة مجموعة واحدة من الظروف الجغرافية، ولكنها سلسلة من المجموعات تتابعت وكانت كل منها في دورها أبرز أثرًا من الأخريات، أضف إلى هذا أنه يجب أن نضع نصب أعيننا دائمًا الآثار المتجمعة التي تخلفت عن حوادث التاريخ السابقة، وربما لم يدرك الرومان تلك العبر عن دراية وبصيرة، ولكنهم أخذوا بها واتبعوها خاصة وأنه قد تجمعت في الإمبراطورية الرومانية جميع الاكتشافات الكبرى التي سبقتها إليها شعوب مجيدة في تاريخها، وتضافرت هذه الاكتشافات لدرجة هيأت لروما الفرصة في أن تترك طابعها على التاريخ في مجراه بشكل لم تداها فيه أمة أخرى، فلولا الإمبراطوريات السابقات لم تصل روما إلى ما وصلت إليه – وهكذا أثرت العوامل الجغرافية بصفة غير مباشرة، لأن هذه الإمبراطوريات القديمة إنما تدين بأصل وجودها إلى ظروف جغرافية إلى حد كبير.

كما يرجع إلى العوامل الجغرافية الفضل في إمكان الجمع بين هذه الدروس التي استخلصتها روما عن هذه الإمبراطوريات السابقة، لقد رأينا

إلى الآن ثلاث إمبراطوريات قامت تعتمد كل الاعتماد على اليابس وهي مصر وبلاد الكلدان وأشور وقد وفرت الظروف الطبيعية الحماية لاثنتين منها وتعلَّمت الأخيرة كيف تحمي نفسها بنفسها ثم رأينا تتابع ثلاثة شعوب دانت لها سيادة البحر وهم الفينيقيون والإغريق والقرطاجيون فعاش الشعب الأول دون حماية طبيعية وأحتمى الثاني بالبحر واعتمد الشعب الثالث على نفسه في الدفاع عن وطنه، ثم أدرك رجل واحد قيمة البر والبحر لفترة قصيرة وأخضع العالم بفضل بصيرته النافذة وعبقريته الفذة، فليس بعجيب إذن أن يحدث التطور التالي في أرض تمتد كثيرًا داخل البحر وتتعرض كثيرًا لتأثير قوي مختلفة كان التاريخ من صنعها.



الخريطة رقم ١٥

بلاد السودان الحديثة

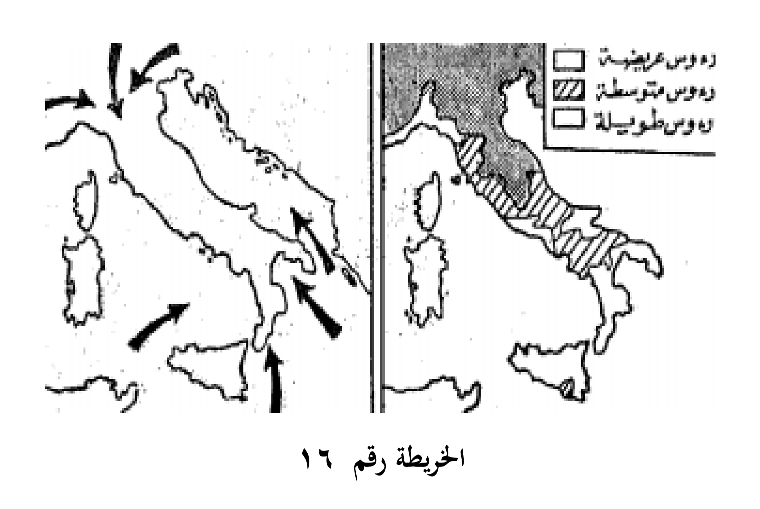
التضاريس

تظهر الخريطة العمود الفقري والشعاب المتفرعة عنه

ومن الطبيعي أن يقوم في إيطاليا مركز عظيم جديد للحضارة فإن إيطاليا بحكم تضاريسها وموقعها الجغرافي متصلة بالحضارات القديمة ومنفصلة عنها في نفس الوقت، ولكن قليلا من التعمق في دراسة تفاصيل تكوينها يظهر لنا بوضوح إلى أي حد كان نمو هذا المركز طبيعيًا، ولو قارنا إيطاليا باليونان لظهر الفرق واضحًا بينهما، ففي بلاد اليونان نرى شبكة كاملة من سلاسل الجبال ترتفع فتصبح العمود الفقري في وسط شبه

الجزيرة، ثم تنحدر انحدارًا فجائيًا نحو البحر فتقسم البلاد إلى جزائر وأشباه جزائر صغيرة في مساحتها وإلى سهولة ساحلية تقع على رؤوس الخلجان، أما في إيطاليا فنجد كتلة المرتفعات تنحني محدود به إلى الجنوب الغربي وتأخذ في الارتفاع شرقًا، أطارها الخارجي يواجه بحرًا ضحلًا ممتدًا إلى الشمال الغربي وقد امتلأ برواسب الصخور المتفتتة من الجبال فارتفع تدريجيًا حتى أصبح سهلًا مستويًا هو سهل لمبارديا، وقد خلت البلاد إلا من القليل من الجزائر وأشباه الجزر فيما عدا حيث تتقطع أوصال تلك المرتفعات عند اختفائها تحت سطح البحر في الجنوب، وليس هناك حاجز يقف عقبة كؤودا في سبيل المواصلات أو يصلح لأن يكون خطأ للدفاع، هذا على الرغم من وجود التلال داخل انحناءات الجبال: فنجد المرافئ تكثر في الجنوب ويقل عددها في الشمال، ومن ثم وجد المهاجرون من وراء البحار من الأسباب ما يحفزهم إلى الهجرة إلى جنوب إيطاليا متخذين منها موطنًا لهم ومقامًا، كما وجد كتلة اليابس من سكان القارة ما يغريهم إلى الهجرة جنوبً، ومن الطبيعي أن تتقابل الجماعتان في نقطة ما من الإقليم وأن تقوم حضارة حيث تتقابلان وأن يزكى شعلتها الجانبان في وقت معًا وهذا هو ما حدث تمامًا، فنجد اليوم سكان الشواطئ في شمال إيطاليا من سلالات الأقوام التي كانت تسكن إيطاليا من قبل التاريخ وقد اضطرت إلى استيطان تلك البقاع تحت ضغط الجماعات المهاجرة من الكتلة اليابسة بينما الوضع عكس ذلك في الجنوب، إذ نجد أقدم السكان هم الذين يقيمون في داخل البلاد.

ولم يكن التقاء هذه القوى في روما بالذات صدفة واعتباطا، وكذلك لم تكن نشأتها كقلب للحضارة الجديدة أمرًا عارضًا حتى تبز غيرها من المدن الصغيرة أو من الحكومات الأخرى، ونظرة واحدة إلى الخريطة ترينا أن جبال الأبنين الأترورية



الخريطة رقم ١٦

المدخل الشمالي من ناحية اليابس والسهل الجنوبي من ناحية البحر وواضح أيضًا أن سكان الجنوب هم في جملتهم طوال الرؤوس وسكان الشمال عريضو الرؤوس كما يتضح أن طوال الرؤوس على الشواطئ وعراض الرؤوس في الداخل – هكذا يبدو أن عراض الرؤوس باءوا من اليابس بينما جاء طوال الرؤوس من البحر.

تقل في ارتفاعها عن جبال الإبنين الليجورية إلى الشمال الغربي منها، كما تنخفض عن كتلة المرتفعات العريضة الواقعة بين روما والبحر الأدرياتي في الشرق، إلا أن كتلة المرتفعات الجنوبية تنحدر انحدارًا فجائيًا نحو البحر

لدرجة تضع العقبات في طريق المواصلات على طول السواحل الشرقية ويزيدها وعورة وجود المجاري المائية الكثيرة التي يتحتم على المسافر عبورها في انتقاله من الشمال إلى الجنوب، ولهذا اضطر المهارجون عند قدومهم برًا من البقاع الواقعة في شمال شبه جزيرة إيطاليا إلى عبور جبال الأبنين الأترورية متتبعين أودية الأنهار الموجودة فيما بين بولونيا ومتاروروس Metaurus وإذا ما عبروها وجدوا طريقهم ممهدًا على طول وادي نهر التيبر الممتد على الحافة الغربية لجبال الإبنين الوسطى ولو فرض أنهم عبروا بعيدًا عن التبير أي إلى الشمال منه كان نعليهم أن يتابعوا سيرهم بحذاء وادي الأرنو الأعلى ثم على طول السهل الساحلي الممتد بين الأرنو والتيبر، وعلى كل حال فما لاريب فيه أنهم واصلون إلى روما أو إلى موقع يقرب منها بين البحر والمرتفعات، ومن بين الرسم كيف أن روما تقع حيث تتقابل الطرق الآتية من الشمال وحيث يستطيع الجنوبيون الوقوف للدفاع عن أنفسهم.



الخريطة رقم ١٧ – موقع روما
يبين الرسم كيف أن روما تقع تقابل الطرق الشمال وحيث يستطيع الجنوبيون الوقوف للدفاع عن أنفسهم

المؤكد أنهم سيتصلون هنا بالمؤثرات البحرية الصادرة عن أشباه الجزر والموانئ الواقعة في جنوب إيطاليا، وهكذا تضافرت الظروف الجغرافية فأدت إلى اجتماع الأسباب التي مهدت للحضارات البحرية والقوى البرية أن تتقابل في إيطاليا، وفي مكان ما في وسطها، وعلى التحديد في موقع روما أو بالقرب منها.

وليس من الضرورة أن ندرس الأمر أكثر تفصيلا، ولكن هناك نقطتين توضحان تاريخ الإمبراطورية الرومانية توضيحًا ما، ومن الخير أن نلخصها، فإذا كانت لمنطقة لاتيم (Latium) ميزة على باقي إيطاليا فقد امتازت روما على هذه المنطقة بأجمعها، ذلك أنها تقف على نهر التيبر في موقع يمكنها من الدفاع عن نفسها وإن تعرضت دائمًا للهجوم، ومن الطبيعي أن يكون أهلها على أهبة الدفاع دائمًا حتى وإن تطلب الأمر منهم تضحيات، ومهما عظمت الآلام التي لاقوها على أيدي العصابات المغيرة في تجوالها فقد في لا تبلغ تضحياتهم مبلغ تضحيات سكان المدن الجنوبية، ولما كان أهل روما أشد قوة من جيرانهم آلت الزعامة لمدينتهم في منطقة لاتيم وعلى الرغم من أن تاريخ روما الأول يشوبه الغموض والاضطراب إلا أن هذا الغموض وذلك الاضطراب هما نتيجة متوقعة للظروف المحيطة بها، ومهما يكن من شيء فالحقيقة الوحيدة الموثوق بها هي أن نشأة للمدينة ترجع إلى استقرار جماعات من قبائل مختلفة، استوطنت بعض التلال التي تشرف على السهل المحيط بروما وأدركت تلك الجماعات أن خير وسيلة للدفاع عن نفسها هو الاعتماد على قوة سواعد أفرادها، وهكذا أدرك أهل روما ما لم يدركه أهل أثينا من أن الإنسان ليس مستقلًا بنفسه استقلالًا مطلقًا وإن عليه أن يضع موضع الاعتبار أفكار الآخرين وتصرفاتهم، ومن الجائز ألا يكون الرومانيون كأفراد قد أدركوا هذا المعنى، ولكنهم عملوا به كجماعات فوجدوا بالخبرة والتجربة أن من صالحهم ومن خيرهم أن ينحوا هذا النحو.

ولما بدأت مدينة روما تمد سلطانها ونفوذها على الجماعات المجاورة كانت أوفر مقدرة على إخضاعها، ولكنها أقل ميلا إلى التحكم فيها تحمًا لا مبرر له، فقد كانت روما المدينة الوحيدة على وجه التحديد في وسط إيطاليا جنوبي نهر التيبر وهي تفضل أثينا في موقعها، علاوة على أن السكان المحيطين بروما كانوا كأهلها تمامًا على قسط من المدنية، وبالتالي أصعب مراسا في إخضاعهم من الشعوب المتأخرة الأخرى التي كانت على اتصال بالقرطاجيين، وحين تم إخضاعهم عاملهم الرومانيون كنظراء لهم ومواطنين، وقد يبدو الرومانيون الأوائل في أعيننا قساة غلاظ القلوب، ولكن قسوتهم في غالب الأحيان تقل عن قسوة غيرهم، ولم تكن حبًا في القسوة لذاتها، أي بقصد إيقاع الأذى بالآخرين، ولكنها كانت قسوة وضعت خطتها وحسبت نتائجها من قبل مستهدفة الحكم الصالح وترى في غايتها البعيدة إلى توفير الجهود والطاقة، وهكذا كانت الحكومة الرومانية أكثر ثباتًا واستقرارًا من حكومات المدن اليونانية بل ومن حكومة قرطاجة أيضًا.

لقد رأينا كيف تضافرت الظاهرات الكبرى مع الظروف المحلية على أن تجعل من روما مقرًا لحضارة من طراز أسمى من أية حضارة ظهرت على الكرة الأرضية حتى ذلك الحين وعملت على ازدهارها فيها، ولولا هذه الظاهرات الكبر لما كان للعوامل المحلية أثر كبير، وبازدياد توسع السيادة الرومانية أخذت مجموعة أخرى من العوامل تظهر أهميتها المتزايدة، فإن لتنوع التضاريس في إيطاليا عن شبه جزيرة اليونان كما يبدو تباينها مع أشباه الجزر الأخرى كإسبانيا والدانمرك، فإسبانيا في غالبها مرتفعات،

والدنمارك في غالبها منخفضات وسهول، بينما تحوى إيطاليا المرتفعات والمنخفضات بنسبة متساوية تقريبًا، واختلفت نظرة أهل إيطاليا إلى الحياة باختلاف الظروف الجغرافية التي ترجع إلى البحر والبر، ولذا كان يقطن شواطئها الجنوبية جماعات من الإغريق ظلت على اتصالها بالبحر لدرجة استحقت تسميتها "باليونان العظمى" وكان سكان هذه المدائن تجارًا يعيشون في بحبوحة من الرخاء، بينما قامت في الأراضي الشمالية مدنية لم يلعب البحر فيها إلا دورًا بسيطًا، وتعرضت لمؤثرات ليس للبحر فيها شأن يذكر أضف إلى هذا أنه كان من بين سكان إيطاليا الجماعات الرعوية التي تعيش في أعالي الجبال والجماعات الزراعية التي تعيش في السهول ونشأت بين النوعين اختلافات كبرى: فإلى الشمال من قسط من المدنية، وبالتالي أصعب مراسا في إخضاعها من الشعوب المتأخرة الأخرى التي كانت على اتصال بالقرطاجيين، وحين تم إخضاعهم عاملهم الرومانيون كنظراء لهم ومواطنين وقد يبدو الرومانيون الأوائل في أعيننا قساة غلاظ القلوب، ولكن قسوتهم في غالب الأحيان تقل عن قسوة غيرهم، ولم تكن حباً في القسوة لذاتها، أي بقصد إيقاع بالآخرين، ولكنها كانت قسوة وضعت خطتها وحسبت نتائجها من قبل مستهدفة الحكم الصالح وترمي في غايتها البعيدة إلى توفير الجهود والطاقة، وهكذا كانت الحكومة الرومانية أكثر ثباتاً واستقراراً من حكومات المدن اليونانية بل ومن حكومة قرطاجة أيضاً.

***

لقد رأينا كيف تضافرت الظاهرات الكبرى مع الظروف المحلية على أن تجعل من روما مقر لحضارة من طراز أسمى من أية حضارة ظهرت على الكرة الأرضية حتى ذلك الحين وعملت على ازدهارها فيها. ولولا هذه الظاهرات الكبرى لما كان للعوامل المحلية أثر كبير، وبازدياد توسع السيادة الرومانية أخذت مجموعة أخرى من العوامل تظهر أهميتها المتزايدة. فإن لتنوع التضاريس في إيطاليا عن شبه جزيرة اليونان كما يبدو تباينها مع أشباه الجزر الأخرى كأسبانيا والدانمرك. فأسبانيا في غالبها مرتفعات، والدانمارك في غالبها منخفضات وسهول، بينما تحوي إيطاليا المرتفعات والمنخفضات بنسبة متساوية تقريباً. واختلف نظرة أهل إيطاليا إلى الحياة باختلاف الظروف الجغرافية التي ترجع إلى البحر أو البر. ولذا كان يقطن شواطئها الجنوبية جماعات من الإغريق ظلت على اتصالها بالبحر لدرجة استحقت تسميتها "باليونان العظمى" وكان سكان هذه المدائن تجاراً يعيشون في بحبوحة من الرخاء. بينما قامت في الأراضي الشمالية مدنية لم يلعب البحر فيها إلا دوراً بسيطاً، وتعرضت لمؤثرات ليس للبحر فيها شأن يذكر. أضف إلى هذا أنه كان من بين سكان إيطاليا الجماعات الرعوية التي تعيش في أعالي الجبال والجماعات الزراعية التي تعيش في السهول ونشأت بين النوعين اختلافات كبرى: فإلى الشمال من روما سكنت الجماعات الأمبرية "Umbrian والأترورية، وإلى الجنوب منها مدن تارنتم وتوري، وبالقرب من سهول وادي التيبر الأدنى وقفت تلال سابين Sabine وأراضي سامنيام Samuium المرتفعة قليلا: فلما اتسعت رقعة الدولة الرومانية كانت مشاكلها من طبيعة مشاكل مدينة روما ذاتها، فطبق أهلها

ما اكتسبوه من خبرة في المدينة فكانوا أقدر على خلق نظام للحكم، مما مكنهم من الاستفادة على قدر الإمكان من جهود الجماعات المتنوعة التي اعترفت بسيادة روما وسيطرتها.

وهكذا ولدت الظروف الجغرافية آراء وأفكاراً جديدة عن الحكم والحكومة وتركت هذه أثرها في التاريخ بطرق ثلاث:

فقد قامت الإمبراطورية الأشورية على فكرة الغزو بقصد الحصول على الجزية التي تجبي من البلاد المفتوحة، ولكن الأمر اختلف في روما عن الأزمنة القديمة حينما كانت تقاليد الحكم في دور التكوين، وكانت الفكرة العامة في روما صبغ الوحدات المختلفة بالصبغة الرومانية وجعلها كلا واحداً وإن اعترفت روما بالاختلافات فيما بينها في نفس الوقت، وسارت عملية الصبغ أو الإدماج بطيئة في بادئ الأمر، ولكنها في إتقان وكمال فيما بعد، حتى خلقت في وسط إيطاليا نواة صلدة تشعر شعوراً رومانياً خالصاً، وبسبب هذه الحقيقة أطلق اسم المدينة على الدولة الحاكمة. ولم تك قط متاعب الحكومة الرومانية راجعة إلى الثورات على روما نفسها، ولكنها كانت بسبب محاولات ترمي إلى اكتساب قسط أوفر من مزايا الحكم والنفوذ ولقد كانت روما شيئاً جديداً مختلفاً أشد الاختلاف عن قرطاجة أو أشور.

ولم تفتقر روما إلى الوحدة والانسجام في العمل كما افتقر إليها الإغريق أو الفينيقيون. ولم تك روما مجرد مدينة كصور أو صيدا، زعيمة بين

نظيراتها، ولا كأثينا مدينة تتزعم عصبة تربطها مصالح مشتركة، بل كانت أكثر من هذا وكان على أهالي روما عبء الدفاع عن أنفسهم، فليس لمدينتهم حماية ما، ولو أن موقعها يلائم الدفاع عنها كل الملاءمة. فهناك إذن فارق شديد، ذلك أن إحدى الظاهرتين تبعث على شدة المراس والأخرى لا تبعث عليها كما رأينا في مصر وبابل.

وقد اعترفت الحكومة الرومانية بضرورة احترام خصائص الأفراد ومميزاتهم. ولكن هذا الاعتراف لا يعني تطبعهم بالجبن والتخنث وإشاعة الرغبة في التخلي عن الواجبات التي يفرضها عليهم الموقع الجغرافي، فكان على روما أن تتولى مقام الزعامة والسيادة. ولم يقتصر هدفهم على تحقيق غاية مشتركة وهدف واحد بين المواطنين، بل تعداها إلى قيام حكومة مركزية موحدة.

كما يرجع اكتشاف الرومان وسائل توفير الجهود البشرية إلى نفس هذا المسلك العقلي. ويتفق هذا مع ما نراه من أن الطرق المعبدة المشيدة تشييداً أنشئت لأول مرة على أيدي الرومانيين لتخدم أغراضاً حربية أو تجارية. ويتفق هذا مع ما نراه من أن أبيس كلوديس[٦] الروماني الأصل كان أول من شيد طريقاً معبداً من روما عبر جبال أبيا ليصل إلى السهول المترامية وراءها لأن اقتصاد الطاقة الذي يهيئه وجود حكومة مركزية يقتضي أن يكون المركز سهل الاتصال بالأقاليم المجاورة. والطرق هي أسهل

---

(١) Apius Claudius.

وسائل المواصلات ما دام الانتقال محدوداً باليابس. غير أنه في ذلك الزمان الغابر حين لم تكن الطرق المعبدة معروفة في العالم كان الناس في بلاد الكلدان ومصر مضطرين إلى الانتقال من دولة إلى أخرى متتبعين الدروب المختلفة، وكان الإنسان والحيوان يقطعان المسافات مشياً على الأقدام، ويحمل الإنسان ما يحتاج إلى حمله على ظهور الدواب. ثم اكتشف الفينيقيون أن الانتقال على الماء أيسر جهداً من الانتقال على اليابس وأن الشراع والمجداف يأتيان بأفضل النتائج نير مجهود محدود. أما الرومانيون فقد توصلوا إلى اكتشاف من نوع آخر. ذلك أنهم أدركوا أن الإنسان والحيوان أسهل حركة على سطح صلب مستو ناعم منهما على سطح لين خشن غير مستو، وأن العجلات يمكن أن تأتي بفائدة أكبر لو أحسن استخدامها على نطاق واسع يعود إلى الرومانيين. والظروف الجغرافية مسئولة عن ذلك مباشرة أو غير مباشرة. فإن سهول مصر وكلديا الفيضية الرسوبية لا توائم تشييد الطرق إلا قليلا، وتنقصها الأحجار وعلى الأخص في كلديا، مما يجعل تشييد الطرق أمراً يكاد يكون مستحيلا. وليس هناك ما يحفز الإنسان إلى إنشاء طرق معبدة لأن حركة الانتقال في أحسن ظروفها كانت قليلة ضعيفة، وإذا ما أنشئت الطرق فإن رمال الصحراء سرعان ما تسفيها وتمحوها. وأهم من هذا كله أنه لم يكن هناك تركيز في الجهود يجدر معه إنشاء الطرق. ولم تكن أشور بأحسن حالا. أما الفينيقيون سواء كانوا في فينيقيا ذاتها أم في قرطاجة فإنهم حصروا نظرتهم إلى البحر باعتباره طريقاً لهم بدرجة لم تترك حيزاً في عقولهم للتفكير في إنشاء طرق على اليابس أما اليونان فإن افتقارها إلى الوحدة الجغرافية والسياسية كان سبباً كافياً لعزوف

اليونانيين عن إنشاء الطرق –لقد أرادوا أن يقصموا روابطهم بجيرانهم لا أن يزيدوها توثيقاً – أما في روما فهناك إغراء يدفع إلى إنشاء الطرق يقوم في أساسه على حقيقة واحدة هي انعدام وسائل الاتصال الطبيعية كالصحراء أو البحر. وكان وجود الأحجار عاملا جغرافيا مساعداً لتحقيق هذا الغرض.



الخريطة رقم ١٨

طريق آبيا

يتبع طريق آبيا أقل الجهات ارتفاعا في عبوره سلاسل الجبال.

وقد وقفت روما إلى توحيد شبه جزيرة إيطاليا بأجمعها تحت سلطانها بعد عام ٣٠٠ ق. م. بقليل ثم واصلت توسيع حدود التي اتبعتها من قبل والتي مكنتها من مواصلة التقدم. والواقع أن تاريخ السلطان الروماني يرجع

إلى تفاعل عاملين جغرافيين هما اليابس والماء، أو البر والبحر، فقد نمت القوة الرومانية على الرغم من اتخاذها روما مركزاً لها، ومن ثم كانت آثارها أكثر تعقيداً.

أولا: لقد اكتسبت إيطاليا أهمية جديدة بالنسبة لظروفها الخاصة بغض النظر عن ظروف المدينة التي قامت على نهر التيبر، لأن القوة الرومانية أصبحت شيئاً أكبر من مدينة روما بعد أن تحكمت في شبه الجزيرة بأجمعه. فإن مدينة روما تدين بمعظم الفضل في وجودها ونشأتها إلى تقابل مؤثرات البحر ومؤثرات البر في الموقع الذي قامت فيه. ولما أصبحت الدولة الرومانية مرادفة ومطابقة لشبه جزيرة إيطاليا بأجمعه اكتسبت هذه المؤثرات نفسها أهمية جديدة، إذ أصبحت الدولة الرومانية ذات علاقة مباشرة مع الشمال ومع الجنوب، فاتصلت من الجنوب ببحر فيه من الجزر ما يصلح لأن يتخذه العدو قواعد له في هجومه، وفي الشمال أصبحت ذات علاقات مباشرة بأراض، الهجوم منها ميسور لو قام به أعداء في أعداد وفيرة، يشنون على إيطاليا هجماتهم من أوطانهم الواسعة فيما وراءها، حتى وإن كانوا أقل مدنية وتحضرا. فاضطرت روما كما اضطرت فارس من قبل إلى إعداد أسطول تنتزع به سيادة البحر ممن يحتفظون بقواعد معادية قريبة من شواطئ إيطاليا. وفي الوقت عينه كان من الطبيعي أيضاً أن يتجه التوسع نحو اليابس ، وكان هذا الاتجاه جديداً في التاريخ.

ثانيا: ومع ذلك ظلت الظروف المحلية بحكم القصور الذاتي لها أكبر الأثر في التاريخ الروماني، لأن روما مازالت مركز الحكومة، ولتقاليد أهلها من الاعتبار ما يؤدي بغيرها.

أ- من ذلك أن البحر لم يكن غريباً على أهل روما كما كان بالنسبة لملوك فارس، لأنه يحف بشواطئ لا تبعد عنها أكثر من بضعة أميال – كما أن المدن الجنوبية التي خضعت لسيطرة روما كانت تعتمد اعتماداً كلياً على البحر. بل وأكثر من ذلك فإن الأساطير الرومانية تشير إلى نوع من الحكم القديم فرضته روما على المدن الواقعة على شواطئ منطقة لا تيم – ولولا هذه الألفة العريقة المستمرة بين الرومانيين والبحر لتملكنا الشك في أن يكون لوجود الجزر وأشباه الجزر الجنوبية هذا الأثر السريع وبالكيفيه التي تم بها.

ب- ومن جهة أخرى تختلف إيطاليا عن اليونان. فأن روما هي المركز الذي اعترفت له باقي إيطاليا بالسيادة والزعامة. ولم يتيسر لوما موقف كموقف مقدونيا – فليس الحكم فيها كله من صنع رجل واحد أو رجلين اثنين فقط – وكثيراً ما تطلب الأمر استدعاء عدد من المواطنين ليقودوا الجيوش أو ليتولوا مقاليد الأمور في الدولة ومن الطبيعي ألا يكون جميعهم جديرين بهذه المهمات. ولكن حقيقة واحدة تبقى واضحة، وهي أن الأكفاء من الرجال القادرين على مواجهة الأزمات قمينون بالظهور عند ما تتحرج الأمور. ولمثل هذه الأسباب كانت أداة القتال الرومانية أكفأ نسبياً من الأداة المقدونية.

وكانت حكومات الأقاليم الرومانية المفتوحة أكثر ثباتاً واستقراراً. ويرجع الفضل في استمرار هذه الأحوال في واقع الأمر إلى القصور الذاتي التاريخي وإلى اتجاه الظروف القائمة نحو الاستقرار والثبات.

(ج) أن المث العليا التي وضعها أهل روما نصب أعينهم في أيامهم الأولى أثرت في تاريخهم المتأخر فيما بعد. فلم تك روما كمقرطاجة هدفها التجارة بل كانت غيتها استمرار فرض السلطان الروماني على الأراضي التي تنتج المحاصيل الأساسية لمقومات الحياة.

هذه هي نتائج الظروف الجغرافية التي أثرت في تاريخ الدولة الرومانية فأدت إلى توسعها توسعاً عظيماً.

هذه العوامل جميعاً يجب أن نذكرها. فقد انغمست روما على التوالي في عداوة مع قرطاجة ومع اليونان بسب ارتباطها بالجزر وأشباه الجزر الجنوبية. وكانت جيوشها متفوقة على جيوش مقدونيا وقرطاجة، وأثبتت أساطيلها آخر الأمر تفوقها على الأساطيل التي عبئت ضدها، وما وافي عام ١٤٦ ق. م. إلا وقد دمرت قرطاجة دولا بحرية مستقلة خلا البحر ممن ينافس روما على سيادته، وأخذت البلاد المطلة على البحر المتوسط تسقط صرعي في يد القوة التي آلت إليها سيادة البحر ومع ذلك فلم يحاول الرومان احتراف التجارة إلا قليلا، وظلت جزيرة رودس بموقعها الجغرافي بين اليونانيين والفينيقيين والمقر الرئيس للجاليات التجارية لعهود طويلة، ولم تحاول روما أن تسحق هؤلاء التجار، فهم ليسوا منافسيها في

شيء. غير أن الفوضى كانت تشيع إذا ما غابت السيطرة الكاملة على البحر. وفي بادئ الأمر لم تكن الفوضى محسوسة، لأن تدبير الحملات العسكرية بطر يق البحر كان سهلا ميسوراً ، ولأن قرصان البحر الذين ظهروا من قبل كانوا يتجنبون مهما جمتها. ولم يجد الرومان ضرورة لتطهير البحار منهم إلا حينما بدأوا في جلب أغذيتهم ومؤونتهم من بلاد لا تخضع لهم. وعندئذ اتخذ هؤلاء القرصان من الجزر الشرقية مخابئ وقواعد لهم، وقد نمت القرصنة بسبب عزوف الرومانيين عن معالجتها في أول الأمر على الرغم من توفي القوة البحرية لديهم. ويبدو هذا واضحاً في أن القضاء عليهم لم يستغرق من القائد بومبى سوى فترة قصيرة لم تزد على أربعين يوماً، فقد كانت السيطرة على البحار في مقدور روما لو أرادت. ومن الواضح أن قوتها البحرية كانت أوسع نطاقاً مما كانت عليه قوة اليونان أو قرطاجة. وظل البحر المتوسط طيلة قرون عديدة وهو بحر روماني خالص. حقا دارت فيه معارك مشهودة ولكنها كانت بين متنافسين على السلطان في الدولة لا بين روما وأعداء لها من الخارج.

وهكذا أصبح الاتصال سهلا بين الممتلكات الرومانية، وعلى الأخص بطريق البحر وأن لم يكن ميسراً في جميع الأحوال. وأكثر من هذا فإن ممتلكات روما فيما وراء البحار لم تكن مجرد مساحات ضيقة من الشواطئ، ولكنها أقاليم واسعة برمتها يقتضي حكمها حفظ الاتصال بينها وبين الحكومة المركزية. وهكذا كان اليابس عاملا فعالا في التاريخ الروماني شانه كشأن البحر سواء بسواء.

ويحق علينا أن نزن عاملا جغرافيا آخر عظيم الأثر. فإلى جانب التباين العظيم بين اليابس والماء كان هناك تناقض آخر بين المرتفعات والمنخفضات ويلاحظ أن التباين هنا ليس تبايناً بين تلال ووديان ولكنه بين مرتفعات ومنخفضات. فهناك مناطق قد لا يرتفع مستوى الأرض فيها عن سطح البحر إلا قليلا، ومناطق يرتفع مستواها نحو نصف الميل أو الميل الواحد، بل قد يبلغ ارتفاع بعضها الميلين. وليس هذا البعد شيئاً يؤبه له لو إنه كان بعداً أفقياً. ولكنه ذو أهمية كبرى لأنه ارتفاع رأسي وهذا يؤدي إلى النتيجة الراهنة: وهي أن الحياة تختلف اختلافاً كلياً على سفوح المرتفعات، فهي أقل هواء وأقل حرارة وأقل رطوبة، وظروف الحياة في الأقاليم المنخفضة تظل دائماً مختلفة عن ظروف الحياة في المرتفعات وتؤثر حتى في أجسام البشر. فلا يستطيع الزنوج مثلاً الحياة طويلا على ارتفاع ثلاثة أربا ع الميل. وربما كانت العلة في ذلك اختلاف مقادير الهواء وهذا مظهر واحد من مظاهر التباين. كما تختلف ظروف إنتاج النباتات وظروف اختزان الطاقة في عمومها. فلسكان المرتفعات مهن وعادات وغذاء ومثل عليا وقيم حيوية وطرائق في التفكير تختلف عما لدي سكان السهول فإن وجد شعبان يعيشان في أراضي منخفضة على جانبي مرتفعات فلا تفصلهما عن بعضها الجبال فقط بل يفصل بينهما شعب يختلف اختلافاً بيناً عن كل منهما في كل منحى من مناحي الحياة. وهكذا يصبح كل شعب من الشعوب الثلاثة وحدة قائمة بذاتها. فجبال الألب مثلاً ترتفع في أعلى قممها إلى ثلاثة أميال وفي متوسطها إلى الميل الواحد، وتبلغ نحو ١٢٠ ميلا في عرضها. وهذا ينطوي في معناه على حقيقة عظيمة الأهمية،

فليست الألب سلسلة من الجبال بقدر ما هي منطقة من المرتفعات وليست سويسرة الحديثة والتيرول وسافوى سوى ولايات جبلية واقعة على الألب وأهلها يختلفون منذ الأبد عن الشعوب التي تعيش على كلا الجانبين.

والآن وقد رأينا إيطاليا مكونة من مناطق مرتفعة وأخرى منخفضة يتضح أن الاختلاف بين الشعوب التي حكمتها روما يرجع إلى التناقض القائم بين المرتفعات والمنخفضات كما يرجع إلى تناقض البر والبحر. وهكذا استطاع هذا العنصر من البشر الذي ربي في نفسه صفات الحكم على نطاق ضيق في إيطاليا – استطاع إنجاب طائفة الحكام لمختلف البلاد المفتوحة التي دانت له حتى أن الإمبراطورية الرومانية في أواخر أيامها ضمت وحدات كثيرة كان أهلها يتبادلون بطبيعتهم العداوة والبغضاء بيد أنها اتخذت في سبيل توحيد هذه الشعوب نفس الوسائل التي اتبعتها في توحيد إيطاليا. ولما كان البحر لا يصلح طريقاً مؤدياً إلى كل مكان، شيدت الطرق في جميع جهات جنوب أوروبا وغربها حتى أضحت مضرب الأمثال فقيل "أن جميع الطرق تؤدي إلى روما". ويلاحظ مرة أخرى الاتجاه نحو المركزية الحكومية، لأن جميع الطرق كانت تؤدي إلى روما وتتفرع منها في نفس الوقت، ولم تتقاطع إلا في مواضع قليلة مما قلل فرص اتصال مختلف الوحدات بعضها ببعض كلما أمكن، فندرت أو انعدمت فرص تضامنها وتآزرها في ثوراتها ضد السلطة الحاكمة وشيدت هذه الطرق بالطبع في أماكن تقل فيها مقاومة الطبيعة، أي أنها اتبعت الحد الأدنى للمقاومة.

وأنشأت حيث اقتضى إنشاؤها أقل طاقة ممكنة. ولهذا السبب كان لتوزيع المرتفعات والسهول في المناطق المحيطة بإيطاليا أهمية بالغة.

وأن نظرة واحدة نلقيها على خريطة أوروبا كفيلة بإظهار أن نطاقا من المرتفعات يمتد على طول المسافة الواقعة بين غربي البحر الأسود إلى وادي الرون ولا ممر فيها إلي السهول المترامية وراءها إلى بالصعود فيها إلى ارتفاعات عالية. فأسبانيا هضبة عالية، كما تقع في الثغرة بين جبال الألب والبرانس كتلة جبلية منعزلة بحافتها المنحدرة نحو الجنوب ولكنها لا تغلق هذا المدخل تماماً فتترك وادي الرون ليكون منفذاً إلى الأراضي الممتدة فيما وراء ذلك النطاق وهو الطريق البري الوحيد من البحر المتوسط إلى الشمال، ولما كانت مرتفعات الألب مسكونة بقبائل معادية لروما فليس بغريب إذن أن يحرص الرومانيون أشد الحرص على الاحتفاظ بهذا المدخل الذي هو في متناول أيديهم عن طريق البحر وأن تخضع منطقة فرنسا الحديثة بأجمعها إلى الحكم الروماني ثم امتدت الإمبراطورية شمالا بشرق وشرقاً حتى أنه في بدء التاريخ الميلادي أضافت روما إليها كل البقاع الواقعة إلى الغرب وإلى الجنوب من نهري الراين والدانوب. هذا إلى جانب ممتلكاتها التي كانت تحف بالبحر المتوسط والتي تمكنت بفضل سيادتها البحرية من فرض سلطانها عليها كما اعترفت بسلطانها آسيا الصغرى والأراضي الممتدة إلى الغرب من نهري دجلة والفرات. هذه هي الإمبراطورية الرومانية وقد هيأت لها السلم الروماني[٧] الذي سادها ثلاثة

---

(٢) **Pax Romana** كلمة السلم الروماني أصبحت تعني السلم المؤسس على القوة.

قرون أو أربعة الفرص لنمو حضارتها وازدهارها في مساحات مترامية متنوعة ليس بينها انسجام طبيعي سوى تلك الروابط التي نتجت عن خضوعها إلى القوة الرومانية والإدارة الرومانية فاستطاع أهلها أن ينعموا بالسلم والأمان وأن يفيدوا من المزايا التي هيأتها لهم طبيعة أوطانهم دون أن يضيعوا الجهود في الحروب.



الخريطة رقم ١٩ – مدخل وادي الرون
وادي الرون هام جداً لأنه المنفذ الوحيد السهل
من البحر الأبيض المتوسط إلى البلاد الشمالية

وقد قامت الإمبراطورية على سلطان تركز في روما، ومعظم الفضل في تماسكها وانسجامها راجع إلى العبقرية العسكرية والإدارية التي امتاز بها الشعب الروماني والتي هي وليدة عوامل جغرافية – ولما كان العنصر الروماني يمتاز بتلك العبقرية التي لم تقتصر على فرد دون فرد لم تكن الإمبراطورية الرومانية فترة عابرة في التاريخ مثل الإمبراطورية المقدونية – بل استمرت قوية واسعة النفوذ حتى القرن الخامس للميلاد. ثم استمرت

تحت اسم الإمبراطورية البيزنطية حتى سقطت بسقوط القسطنطينية في عام ١٤٥٣م. ثم استمرت اسما دون مسمي حتى جاء اسكندر جديد (نابليون) طوح بالتقاليد القديمة في أوروبا، وفي هذا تبدو قوة القصور الذاتي فبقدر ما كانت روما في قوتها بقدر ما عاشت إلى ذلك الزمن. ثم انحدرت الإمبراطورية الرومانية إلى نهايتها شأنها شأ|ن غيرها من الإمبراطوريات التي فرضت حكمها على العالم، ولكنها اقتربت من نهايتها تدريجياً كما نمت تدريجياً لأن العوامل الجغرافية العظمى بدأت تؤثر تأثيرها على نحو آخر.

(أ) ذلك أن البحر المتوسط ضيق على طوله. ومن ثم كانت الإمبراطورية الرومانية وهي المكونة من أراضي تحف بهذا البحر، طويلة ضيقة تصل في طولها إلى ضعف عرضها تقريباً كما أن الصحراء في الجنوب لم تترك بينها وبين البحر إلا شريطاً ضيقاً في أكثر الأحوال. لو قصرنا النظر على الأراضي الواقعة شمال البحر المتوسط باعتبار أنها هي الجزء الأهم من الإمبراطورية لوضح لنا عدم التناسب الكبير بين طولها وعرضها ومن ثم كان هناك اتجاه طبيعي نحو الانقسام إلى قسمين إذا ما بدأت السلطة التي تجمع بينهما في الوهن.

(ب) كما أن الطرف الشرقي للبحر المتوسط يختلف عن الطرف الغربي منه لمجرد بعده عن المحيط ولأنه يحوي واحات في الصحراء كمصر والعراق ولأنه يشمل اليونان بجزرها، ومن ثم اختلف الشرق عن

الغرب من نواحي كبيرة يسهل التعرف عليها. وظل الاختلاف بينهما قائماً على مدى الأيام بل لقد كان الاختلاف قائماً حتى قبل أن تتحول الجمهورية الرومانية إلى الإمبراطورية الرومانية وبقى مستمراً طوال التاريخ وليس من قبيل الصدقة العارضة أن تجري مواقع اكتيوم وليبانتو ونفارينو وأن تدور رحاها في غربي بلاد اليونان حيث تتقابل قوى غرب البحر المتوسط مع قوى الشرق منه.

لقد جمعت الإمبراطورية الرومانية الجزأين معا ولكنهما انفصلا حين وهنت قوة الروابط التي تجمعها.

(ت) ثم أن الصحراء وقفت إلى الجنوب من البحر المتوسط ولم يخش مع وجودها هجوم من تلك الناحية ووقفت المحيط إلى غرب وإلى الشمال الغربي من الإمبراطورية فلم يشن من هذه النواحي هجمات ما في العصور الغابرة.

غير أنه امتدت إلى الشرق والشمال الشرقي الكتلة اليابسة العظمى المكونة من قارتي أوروبا وآسيا، ولم تحكم منها روما إلا إطارها ومن هذه الأنحاء يستطيع الأعداء المجيء – وقد أتوا فعلا – وكان طبيعياً أن ينتقل مركز الحكومة إلى الشرق قريباً من الجبهة التي تتطلب الحماية والدفاع حتى يسهل الكفاح إلى الشرق قريباً من الجبهة التي تتطلب الحماية والدفاع حتى يسهل الكفاح عنها. غير أن مدينة روما ظلت على ما هي عليه، لأنها

عريقة في ماضيها وتاريخها ولم تتقهقر إلى مدينة من مدن الأقاليم أو الأرياف، فلما أنشأ قسطنطين عاصمته الجديدة أصبح في داخل الإمبراطورية مدينتان إمبراطوريتان، إحداهما في الشرق والأخرى في الغرب فأضافتا دافعا جديداً إلى الميل الطبيعي للانقسام.

(د) وأخيراً لما كانت روما تدين بفضل وجودها إلى مقدرة أهلها على الدفاع عن أنفسهم، ولما كانوا قد بعدوا عن مواطن الخطر ولم يتعرضوا لهجوم يشنه عليهم أعداؤهم من خارج الإمبراطورية فقد المتأخرون منهم تدريجيا مقدرتهم على الدفاع ومقدرتهم على الحكم – فلما تعرضوا لألوان من الهجوم أخيراً تجاوزت الجحافل الهمجية البربرية عن المدينة الفتية الحديثة (القسطنطينية)، وسقطت روما المدينة القديمة العتيدة تحت أقدامهم.

وهكذا انقسمت الإمبراطورية الرومانية تدريجياً إلى قسمين أخذ الانسجام بينهما يقل شيئاً فشيئاً فظل القسم الشرقي يحتفظ بالتقاليد القديمة بعد التعديل والتحوير مدى ألف عام ولكن القسم الغربي بسقوط أعوزته الحكومة وانفصل عن جسم الإمبراطورية الشرقية. ثم تطور إلى وحدات منعزلة وفي غالب الأحيان متعادية.

ثم أخذت العوامل الجغرافية توجه التاريخ بطريقة تختلف عما وجهته إليه من قبل لأن ميدان تحكمها أضحى مختلفا.

لقد ظلت إيطاليا بعدئذ ألعوبة في يد التاريخ قرونا عديدة وهي تقف بين قوات البر والبحر ولا تملك لنفسها نفعا ولا ضراً – فهي تارة تارة في يد هذه السلطة وتارة في يد الأخرى خضعت للإمبراطورية الشرقية حينا من الدهر كانت تستعيدها فيه كلها أو بعضها كلما استطاع رجال البحر أن يتخذوا منها موطئا ومرفئا وتفقدها كلما استطاع رجال البر أن يتخذوا منها مقراً – وقد تمزقت أوصالها بين القوط واللمبارد والتيوتون في الشمال وبين الوندال والعرب والبيزنطيين في الجنوب، وليس عجبا بعدئذ ألا يكون لإيطاليا تاريخ موحد، هذا بالإضافة إلى ميلها الطبيعي إلى الانقسام، الأمر الذي يغري به اختلاف المرتفعات عن المنخفضات ذلك الاختلاف الذي كان مصدر قوتها الأولى حتى أنه في الستين سنة الأخيرة ظلت العداوة المستعمرة بين الأجزاء التي تتكون منها إيطاليا الحديثة أكبر ظاهرة تلفت النظر في تاريخها.

كما أن تناقض المرتفعات والمنخفضات التي تتكون منها الإمبراطورية ذاتها لم يعد عاملا مسيطراً على التاريخ وموجها له فقد ظلت الوحدات على ما هي عليه واقتصر تاريخ العصور الوسطى على تسجيل تكوين هذه الوحدات وإعادة تكوينها ثم إعادة ترتيبها وهي تكافح في سبيل شيء من التوازن والاستقرار في أوروبا الحديثة. فقد تسبب الإمبراطورية الرومانية مباشرة أو غير مباشرة في خلق عدد كبير من الوحدات الجغرافية وولدت هذه الوحدات في عالمنا وكل منها على درجة من المدنية ولكنها تختلف الواحدة عن الأخرى، كما أن تاريخ العصور الوسطى بما فيه من خلط

وتشويش هو في أساسه تاريخ المحاولات التي بذلتها في سبيل استقرارها. هذه الوحدات الصغيرة المختلفة والممتلئة حقدا ومنافسة.

وقد تصادف أن كانت وحدات أوروبا الغربية صغيرة وعديدة لأن المنخفضات والمرتفعات موزعة على مساحات صغيرة نسبياً وسكانها يتبادلون الغيرة والبغضاء.

وينبغي ألا ننسى أهمية عامل القصور الذاتي في التاريخ. ولما كان التاريخ يعالج أموراً فكرية تنبت في عقول البشر فإن للآراء قوة تصنع التاريخ فقد خلقت الظروف من روما إمبراطورية، وتوصل الرومان إلى حقيقة كبرى وهي أن الحكومة المركزية تؤدي إلى توفير الجهود وظلت فكرة الإمبراطورية ووسائل الحكم فيها حية في عقول الناس كأنها المثل الأعلى وكان أثرها أكبر مساعد على ربط الوحدات المتفرقة ربطاً وثيقاً. ثم جاءت حقبة أخرى أضفت على هذه الفكرة أهمية جديدة، ذلك أن شهرة روما ومكانتها القديمة بالإضافة إلى ذيوع الفكرة الرومانية وتأصلها، كل ذلك وضع في يد أسقف روما قوة لا نظير لها، فلما أهملت السلطة الزمنية ظلت السلطة الدينية تنمو وتزداد ما دامت لا تجد ما يعارضها من السلطات الزمنية، ونما سلطان رجال الدين في الأقاليم في الوقت الذي انهارت فيه السلطة الزمنية انهياراً تاما، وقد كانت السلطتان مرتبطتين بعضهما أوثق الارتباط. وهكذا انتشر ت المسيحية في القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية أكثر مما انتشرت في القسم الشرقي منها وكانت المسيحية فيها ذات مذهب خاص روماني في سداه ولحمته.

هذا التزاوج بين النظامين المتحالفين – الإمبراطورية والكنيسة – ولد قائما على الاختلاف الطبيعي بين الوحدات المتنوعة وهو العلة الأولى والمسئول الأول عن تاريخ العصور التي أعقبت سقوط روما.

الفصل السابع

السهول والقبائل الغازية

إن التاريخ الذي تتبعنا مجراه حتى الآن يرجع في سماته العامة إلى تحكم عاملين جغرافيين في تصرف الإنسان، يضبطان اتجاهاته أو يحفزانه إلى اتخاذ مواقف معينة وهما البحر والصحراء، وقد كفل كل منهما الحماية بدائية في تنظيمها لم تكن ترتبط ببعضها في بادئ الأمر بروابط وثيقة. وقد ألمحنا إلى عوامل أخرى لم يتعد فعلها تخفيف أثر هذين العاملين العظيمين، وترجع نشأة الحضارات الأولى إلى هاتين الحقيقتين أي وجود مناطق خصبة تحيط بها الصحراوات ووجود جزر تحيط بها البحار.

ثم قامت مجتمعات أخرى تتصل بهذه المجتمعات المتقدمة وتدين بوجودها إلى الظروف الجغرافية ذاتها بصفة مباشر إلى حد ما، وكانت بحكم جيرتها للمجتمعات الأصلية قريبة من البحر والصحراء.

نعم لم تنشأ هذه المجتمعات في المناطق الاستوائية حيث الحافز إلى التقدم قليل الأثر، ولم تنشأ في الشمال ذي المناخ البارد حيث قست صعوبات المناخ على الإنسان الأول فلم يستطع بمفرده أن يصيب نجاحاً يذكر في التغلب عليها، بل نشأت في غالبيتها على طول شواطئ البحر

المتوسط، في الأجزاء التي استطاع الإنسان سكناها غير أنه قامت مجتمعات متقدمة أخرى إلى الشرق من البحر المتوسط ولعبت الإمبراطورية الرومانية دورها بعد ذلك إذ عملت على وصل غرب أوروبا وصلا مباشراً بالمدنيات القائمة وقتئذ في شرق البحر المتوسط، وهكذا لم يكن بد من أن تصبح أوروبا وعلى الأخص جنوبها هي البلاد التي لتاريخ شعوبها أهمية عظمى للعالم، وما ذلك إلا لأنه امتد هنا وهنا فقط نطاق من الصحراء ونطاق من البحار تبعثرت في الجزر وقسمته أشباه الجزر.

ولقد فرضنا أن توزيع اليابس والماء والبرودة والحرارة والمطر والجفاف كان كما هو اليوم – وظل ثابتاً طوال العصور التاريخية، هذا لو قصدنا بكلمة العصور التاريخية تلك العهود التي نعرف تاريخها غير أن هناك من الأسباب الوجيهة ما يجعلنا نفترض أن هذه الظواهر لم تكن ثابتة منذ ظهور الإنسان على الأرض، ولما كانت الأحداث التاريخية تؤثر دائماً فيما يتلوها كما رأينا من تاريخ القرطاجيين والرومان أصبح من الواضح أن الظروف الجغرافية فيما قبل التاريخ ولابد وأنها تركت أثرها في العصور التاريخية التي تلتها ولابد أنها وجهت التاريخ وتحكمت في مجراه على الرغم من أنها قد زالت من الوجود وحلت محلها ظروف أخرى أحدث منها عهداً – وقد يحسن بنا أن نلاحظ كيف أن أقاليم معينة نعرفها اليوم حق المعرفة خضعت لمؤثرات تختلف عما يسودها اليوم.

أما اليوم نرى. حسب الظروف القائمة. أوروبا تتصل اتصالاً مباشراً بكل من آسيا وأفريقيا، وأن لهذا الاتصال أهمية عظمى، ونرى أوروبا أوثق

اتصالا بالقارتين من أي منهما بالأخرى، ولو ألقينا نظرة على نموذج للكرة الأرضية لتبين لنا أن أوروبا وآسيا وأفريقيا تكون متوازياً للأضلاع عظيم المساحة، وأن أوروبا تقع بين جزء كبير من آسيا وجزء كبير من أفريقيا، كما يظهر لنا أن الأراضي التي نعني بتاريخها الآن تقع على محور يمتد بين زاويتين عبر الكتلة اليابسة الكبرى التي تتكون من آسيا وأوروبا وأفريقيا.



الخريطة رقم ٢٠

متوازي أضلاع العالم القديم

تقع البلاد ذات التاريخ القديم على محور الكتلة اليابسة الكبرى وبين آسيا وأفريقيا

وهكذا تصبح أوروبا – وهي مهد المدنية القديمة – بسبب موقعها بالنسبة إلى توزيع اليابس – معرضة لمؤثرات تصل إليها من اتجاهين من الجنوب أي من أفريقيا ومن الشرق أي من آسيا.وفي الوقت الحاضر كما

كان الحال طوال العصور التاريخية – يقف البحر المتوسط والصحراء حاجزين بين أوروبا وأفريقيا، وليس البحر المتوسط في واقع الأمر هو الحاجز المنيع، ولكنها الصحراء هي التي تفصل الجنس الأبيض عن الجنس الزنجي. وحتى الآن يستغرق عبورها من الإنسان نحو ثلاثة أشهر في أحسن الظروف المواتية، ونستطيع أن ندرك مدى كفايتها كعامل للحماية لو أننا لاحنا الحقيقة التالية: فإلى الجنوب من الصحراء تجوب القبائل المتنقلة طول القارة وعرضها كذلك لم يخل ميل مربع واحد في أوراسيا لم يردد أصداء خطى الجحافل الغازية، تغزو البلاد أينما حلت وتبحث عن مواطن جديدة لها، ولكن الصحراء بوقوفها عقبة كؤوداً لم تخترقها جماعات ذات خطر سواء أكان ذلك حرباً أم سلماً. هذا باستثناء أفراد قليلين جاءوا مسالمين فتمكنوا جاءوا مسالمين من عبور الصحراء.

وهكذا لعبت أفريقيا دوراً بسيطاً في تاريخ أوربا خلال العصور التاريخية، ذلك أن الشعوب الجنوبية الأفريقية وهي بطبيعتها متأخرة في مدنيتها بسبب افتقارها إلى الحافز الذي يدفعها إلى الرقي عجزت عن عبور الحاجز العظيم واقتصر تأثيرها على الدور الذي كان في استطاعتها فلم تقض على المدنيات التي نمت وازدهرت في الشمال منها، وهكذا كفلت الصحراء الحماية من العدوان لا لمصر وحدها ولكن لكل البلاد التي نشأت فيها مدنيات البحر المتوسط مثل فينيقيا واليونان وقرطاجة وروما.

ولكن الأمر كان على عكس ذلك في علاقة أوروبا بآسيا كما سنرى ذلك مفصلا فيما بعد وخصوصاً في الأزمنة التاريخية إذا لم يقف بينهما حاجز عسير العبور، فكان أهل آسيا قادرين على أن يقذفوا بأنفسهم إلى قلب أوروبا بتجشم شيء من الصعاب وأن تطلب ذلك منهم بعض المهارة والبراعة. وعلى كل حال فالموقف لم يكن كذلك في عصور ما قبل التاريخ بعد ظهور الإنسان على الأرض وكانت الظروف الجغرافية تختلف بعض الاختلاف عنها اليوم، لأن شمال أوروبا كان فيما يبدو وقتئذ أشد بردا عنه في الوقت الحاضر كما أن بريطانيا وايرلندا والنرويج والسويد وشمال أوروبا وروسيا وألمانيا وجميع البحار التي تفصل بينها كانت ترزح جميعا طوال عصور مديدة تحت غطاء كثيف من الجليد وامتد إلى الشرق وإلى الجنوب من هذا الغطاء الجليدي بحر عظيم لا تزال بعض بقاياه ممثلة في بحر الأرال وبحر قزوين واختلف الأحوال الجغرافية في الجنوب (أي في أفريقيا) عما نعهده فيها اليوم، فلم تكن الصحراء الكبرى جرداء كما هي الآن، ولكنها كانت أرطب مناخا، وهناك من الشواهد ما يؤكد أن البحر المتوسط لم يكن حاجزاً منيعا بين أوروبا وأفريقيا وأن الاتصال بينهما كان ميسورا، ومن هذا يتبين أن أوروبا كانت أكثر اتصالا مباشراً بأفريقيا وأقل اتصالا مباشراً بآسيا عما هي اليوم وأن شمال أوروبا كان أقل صلاحية لسكني الشعوب الأولى عنه في العصور المتأخرة.

وعلى كل حال فمما لا شك فيه أن جماعات تنتمي إلى جنس واحد هاجرت في عصور ما قبل التاريخ من الأقاليم المدارية الأفريقية واتجهت

شمالا إلى أوروبا – ولكنها لم تتصل بالجماعات الأسيوية – وهي تقل في عددها كلما اتجهنا شمالا أو كلما ازداد المناخ قسوة.

وبالطبع تنقصنا معلومات مسجلة عن هذه العهود فليس لها تاريخ يمكن الرجوع إليه، كما خلا المسرح من العوامل التي تحفز الإنسان في تفكيره وأعماله إلى التقدم فأنعدم بذلك أي احتمال للرقي والواقع أنه طالما لم توجد صحراء لم يولد تاريخ جدير بالذكر.

ولما بدأت الأحوال المناخية الحديثة تظهر في الوجود أخذت جماعات هذا الجنس المتجانسة قليلا أو كثيرا والتي تسكن أجزاء من أوروبا ومن أفريقيا – أخذت تنقسم عن بعضها وفصلت بينها ثلاثة حواجز كبرى وربما لم تكن هذه الحواجز الثلاثة إلا أعراض لظاهرة واحدة.

أولها:– أن الطريق الآتي من آسيا أصبح مفتوحاً إلى حد إلى أوروبا، وجاء إليها جنس بشري من سكان المرتفعات استقر في مرتفعات آسيا الصغرى والبلقان والألب وهكذا دق أسفين من سكان المرتفعات بين سكان السهول على كلا الجانبين.

وثانيها:– أن البحر المتوسط أصبح حاجزاً أكثر مناعة عما كان من قبل.

وثالثها:– أن الأحوال الصحراوية في الصحراء الكبرى أصبحت أكثر وضوحاً وبذا قامت أعظم العقبات.

هذه الحواجز الثلاثة قسمت السكان الأصليين إلى أربع مجموعات، تعرضت كل منها لمناخ مختلف ولمؤثرات جغرافية مختلفة فتأقلمت في بيئاتها وتميزت بخصائصها شيئاً فشيئاً.

(أ) فإلى الشمال سكنت الأقوام النوردية وكانت قليلة في عددها في بادئ الأمر ولم تسود بشرتها بسبب عدم التعرض لكثير من أشعة الشمس.

(ب) وإلى الجنوب من مرتفعات الألب سكن جنس في أقاليم امتازت بسمائها الصافية وبيئتها الطبيعية الجميلة فنمت فيه حاسة الذوق الفني وتقدير الجمال في الأجسام والألوان.

(ج) وظل البربر محصورين بين البحر المتوسط والصحراء الكبرى ولم تسمح لهم ظروفهم القاسية بالنمو والتطور كما سكن المصريون مصر وقد تأثروا بطبيعة النظام الحولي الذي يتبعه موردهم المائي.

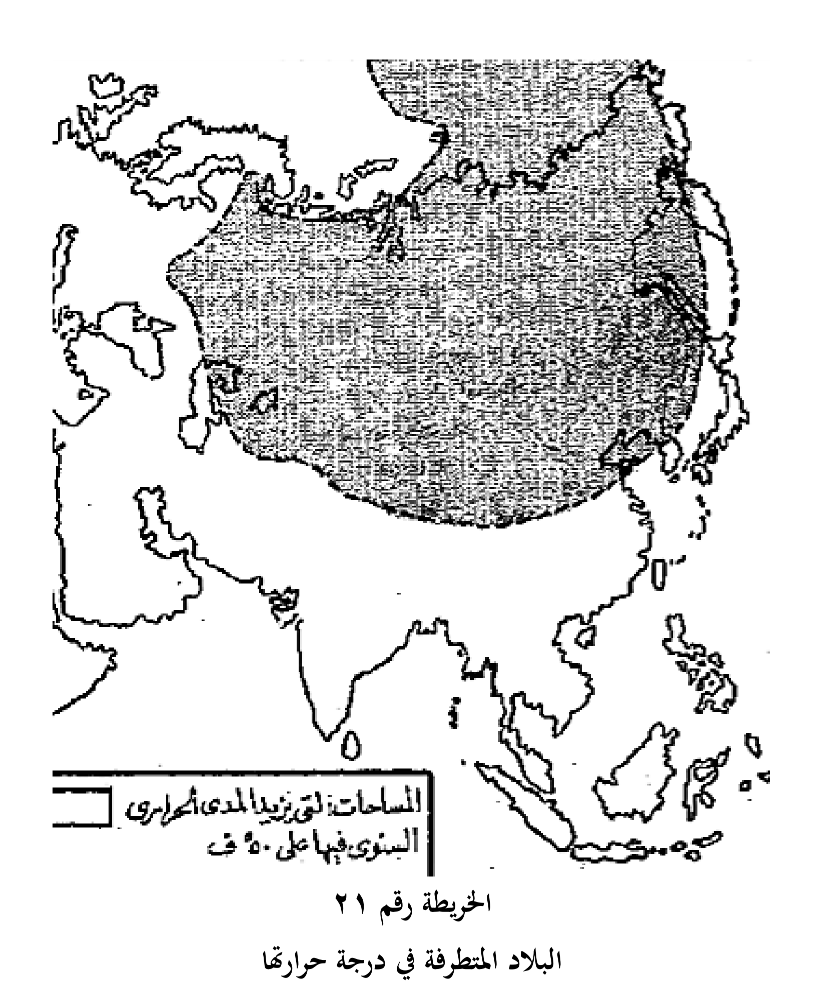
(د) وإلى الجنوب من الصحراء الكبرى قطن الزنوج وقد اسودت بشرتهم واستطاعوا مقاومة الشمس الحارقة.

وإنا سنتكلم فيما بعد عن الأراضي الفسيحة الممتدة جنوب الصحراء الكبرى وقد تكلمنا فيما سبق عن الأراضي الممتدة بين الصحراء الكبرى وجبال الألب، ولنلق الآن بنظرة على الأراضي الممتدة شمال جبال الألب.

لم يقتصر أثر تغيير الأحوال المناخية أن أصبحت أفريقيا الجنوبية كتلة منفصلة من اليابس بل أن أوروبا ذاتها قد انفتحت على مصاريعها للمؤثرات الأسيوية.

***

أن خرائط أوراسيا تظهر لنا أن نطاقاً عظيما من المرتفعات يحيط بحافاتها من الشرق والجنوب والغرب وأن سهلا عظيما مثلث الشكل تقريباً يقع فيما بين هذه المرتفعات معزولا عن البحر من جميع الاتجاهات إلا في الشمال المتجمد وأنه يرتفع قليلا عن مستوى ٦٠٠ قدم فوق سطح البحر، وهو أعظم سهول الدنيا، ولقد لاحظنا الفروق الأساسية بين المرتفعات والسهول فيما سبق – كما رأينا أن تنوع الظاهرات في أوروبا الغربية كان له أثره في التاريخ – ويجب أن نلاحظ أن الأحوال الجغرافية في آسيا هي بعينها في أوروبا غير أنها أكثر شمولا لمساحات شاسعة، فالسهل بعيد عن البحر وليس الأمر مقصوراً على البعد، بل أن نطاقا من



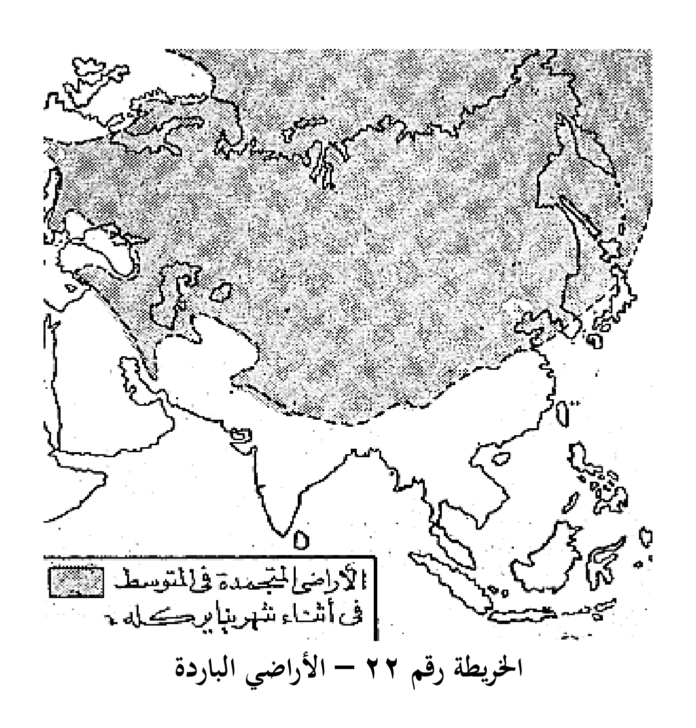
الخريطة رقم ٢١

البلاد المتطرفة في درجة حرارتها

المرتفعات يتدخل بينهما وهكذا تفقد الرياح الآتية من البحار جزءًا عظيمًا من رطوبتها قبل أن تصل إلى السهول ومن ثم يصبح المطر نادرًا في سقوطه على المنطقة بأكملها، فلم تنم فيها إلا الحشائش وأصبحت إقليمًا رعويًا، وللبعد عن البحر أثر آخر، ذلك أن الهواء لقلة الرطوبة فيه لا يخفف من حرارة الشمس حين تضيء ولا يحتفظ بحرارتها حين تختفي وهكذا عن المنطقة جميعًا نوع واحد من المناخ المتطرف.

ولقد أثرت هذه الأحوال في سكان السهول بخمس طرق مختلفة؟

١- إذ أوجدت في لسكان حافزًا يدفعهم إلى التقدم بسبب تتابع الفصول بانتظام فالصيف القائظ يمضي ليحل محله شتاء زمهرير – واقتضى الأمر أن عاش في السهل أناس ليسوا على درجة من الوحشية كأولئك الذين يسكنون السهول الاستوائية، بل كانوا شجعانًا ممتلئ الأجسام وهبتهم الطبيعة قسطًا من قوة الاحتمال البدنية.



الخريطة رقم ٢٢ – الأراضي الباردة

٢- ولما كانت الأراضي في تلك السهول هي مساحات واسعة منبسطة خالية من وسائل الدفاع الطبيعية كالتي كفلتها الصحراء لمصر أ، كالتي وهبتها المستنقعات لبابل – كما أنها خلت من المواضع التي

تصلح حصونا طبيعية مثل الموقع الذي استغله أهل روما في الدفاع عن مدينتهم، لذلك تحتم على هؤلاء أن يعتمدوا على أنفسهم في الدفاع عنها، كذلك الأحوال المناخية قد تقسو لدرجة تنشر الهلاك بين الأفراد والعائلات لو أنهم تركوا لأنفسهم، وتطلب منهم الدفاع عن أنفسهم وضد الأحوال المناخية نوعًا من التنظيم ومن ثم عاشت هذه الأقوام وهي تعيش إلى اليوم تتبع في حياتها نظام القبيلة.

٣- ولما كانت الحشائش هي النبات الرئيسي، وهي في معظم الأقاليم الإنتاج النباتي الوحيد كان من الضروري ألا تعتمد القبائل في حياتها مباشرة على ما تنتجه الأرض فقط، وتطلب الأمر أن تكون الشعوب قادرة على استغلال الموارد على أية حال بطريقة أكثر تركيزًا – أي أنهم اضطروا إلى أن يعيشوا على الحيوان، وما ينتجه – هكذا كانت هذه الأقوام – ومازالت – رعاة أغنام وماشية وراكبي خيول يعيشون على اللحوم والألبان والزبد.

٤- فإذا ما أصبح المرعى فقيرا في مكان ما وأتلفته الرمال التي تذروها الرياح القوية اضطرت القبائل إلى الهجرة من مرعى إلى آخر– رغم صعوبة الانتقال الطبيعية على الأرض بسبب احتكاك وسائل المواصلات بالأرض في غالب الأحيان – إلا أن هذه الصعوبة لم تقف أمام قوة أعظم منها شأنا، ألا وهي قوة الحرص على الحياة – ولما لم تمتز بقعة على غيرها في وسائل الدفاع لم توجد المغريات التي تحث على البقاء في مكان واحد بل وجدت الأسباب التي تدفع

القبائل دائما إلى الحركة والهجرة والتي تخلق فيهم روح الرعي والتجول وأصبحت هذه الصفات جزءًا من كيانهم.

٥- أما وقد حرموا كل حماية لهم في العصور الأولى عدا حمايتهم لأنفسهم فأنهم اضطروا إلى القضاء على أعدائهم الذين ينتصرون عليهم قضاء مبرما وذلك حتى يأمنوا الحياة لأنفسهم لو قلب الدهر لهم ظهر المجن، وهكذا كانوا جنسًا اشتهر بقسوته بين البشر.

وسواء أكان سكان هذه السهول الوسطى مدفوعين في تحركهم بالجفاف المتزايد أم أنهم هاجروا بدافع قلقهم الطبيعي فحسب، فأنهم ظلوا طوال العصور التاريخية، مبعث القلق بين الشعوب التي استقرت نوعًا ما واستوطنت جوانب هذا السهل، فكانت تظهر جموعهم من وقت إلى آخر المرة بعد المرة من وراء الحافة الجبلية وهي تنشر الخراب والتدمير لا الإنشاء والتعمير، ولقد رأينا أن الإمبراطورية الأشورية قد أصابها الضعف نتيجة لغزوات القبائل الشمالية وسرعان ما تقوضت دعائمها، وربما كان خطر هذه القبائل أسبق من أشور عهدًا، فقد تجمع لدينا من الآثار ما يدل على تقدم هؤلاء الرعاة من وراء الجبال نحو البلاد الواقعة إلى الشرق من مراعيهم، كما خضعت المدينة الإغريقية القديمة فترة ما لغزوات جاءت إليها من الشمال، ومهما كان الأمر فمما لا شك فيه أنا كلما أنعمنا النظر في الوقائع التاريخية الثابتة في العالم وجدنا أثر هذه القبائل المهاجرة أكثر وضوحًا وظهورًا.

الآن وقد عرفنا أن أوربا كانت منعزلة إلى حد كبير عن آسيا أبان عصور ما قبل التاريخ ولم يكن السهل سهلا واحدًا بل سهلين منفصلين ومن المشكوك فيه أن تعرضت الجماعات في كلا السهلين في هذه العصور السحيقة لأحوال متماثلة ولدت فيهم الصفات التي تميز بها سكان المراعي – وهم ينتمون إلى أجناس مختلفة – فكان الغزاة المتدفقون من السهول على نوعين، سكان شمال أوربا وهم من ذوى اللحي ويسمون بالتيوتون، وسكان آسيا وهم مرد الذقون ويعرفون باسم التتار والمغول، هذا الاختلاف في الجنس صاحبته اختلافات أخرى مردها أسباب وعوامل جغرافية – فإن شعوب النصف الأوربي من السهل – كما حدث فعلا – كانوا أكثر أتصالا بالمؤثرات الحضارية عما كان عليه سكان النصف الأسيوي، على حين لم يصب سكان جنوب آسيا تقدمًا يذكر لأسباب سنتولى مناقشتها فيما بعد، وعلى أية حال فإن نطاق المرتفعات في آسيا أكثر عرضًا عنه في أوربا مما يجعل منه حاجزًا أشد مناعة أمام حركات الإنسان وأمام انتقال الثقافات، فاشتدت عزلة النصف الأسيوي من السهل عن مراكز الحضارة الأخرى كما أن الأحوال المناخية تشتد في قسوتها في الشرق عنها في الغرب، والكتلة الأسيوية أعظم اتساعًا من كتلة أوروبا، وهكذا بعد قلب آسيا كثيرًا عن مؤثرات البحر وتطرفت فيه درجات الحرارة والبرودة – كما حال اتساع المرتفعات الأسيوية وارتفاعها دون وصول الأمطار إلى داخل القارة إلا في كميات قليلة كما أن البعد عن المحيط وخصوصًا المحيط الغربي جعل سقوط الأمطار أقل حدوثًا في آسيا عنه في أوربا.

وهكذا أصبح سكان السهول في أوربا – ولو أنهم على درجة من التأخر – أكثر رقيًا أو بعبارة أخرى أقل همجية من إخوانهم الأسيويين، فكانت الخصائص المميزة لسكان السهول أقل بروزًا فيهم وأصبحوا أكثر ارتباطا بالأرض من الآخرين وبالتالي قل ميلهم إلى الهجرة – وقد يخيل إلينا أن الأوروبيين كانوا أعلى صوتًا في العصور السحيقة من غيرهم ولكن هذا يرجع في أغلب الظن إلى أن غزوات الجحامل الأوروبية في معظم الأحوال كانت بسبب اضطراب الرعاة الأسيويين الذين كانوا يضغطون على مؤخرتهم أكثر مما ترجع إلى أية رغبة جامحة فيهم نحو الهجرة.

وما من قبيلة من هذه القبائل الرعوية كانت كثيرة العدد ويتحتم عليها أن تكون على شيء من التنظيم لا غنى عنه لبقائها نفسه، وليس من المحتمل أن تبلغ عصابة متنقلة درجة عالية من التنظيم بحيث تضم عددًا كبيرًا من الأفراد دون أن يعتريها شيء من الفوضى ونجد من الخير لها أن تعمل على توفير المرعى لعدد أقل نسبيًا من قطعان الماشية التي تتوقف عليها حياة أفرادها ومهما كان عدد القبيلة صغيرًا فهو يفوق عادة عند نقطة وصولها أعداد القاطنين من الشعوب المستقرة، فيضطر هؤلاء المستوطنون إلى أن يخضعوا أو يستسلموا ثم يضغطون بدورهم على آخرين وقد يفضل هؤلاء المستوطنون إلى أن يخضعوا ويستسلموا ثم يضغطون بدورهم على آخرين وقد يفضل هؤلاء الانسحاب أمام ذلك الهجوم.

وهكذا بقدر ما تكون هذه القبائل عريقة في بداوتها بقدر ما تسبب دمارًا بين الجماعات المستقرة وتقضى على نظمها وتترك طابعًا ضئيلا تافهًا في التاريخ، لقد مروا كالعاصفة الهوجاء وسرعان ما اختفوا.

فإذا تذكرنا كل هذه النتائج المتمخضة عن الظروف الجغرافية فلننظر الآن إلى التاريخ في تفاصيله.

ليس لدينا قبل ظهور روما إلا فكرة غامضة مشوشة عن أثر هؤلاء الناس في تاريخ البلاد المتمدينة – وقد سمعنا حقًا عن القبائل الشمالية الغامضة التي كان المتحضرون القدماء من أمثال الأشوريين والفرس واليونان ينظرون إليها نظرة خشية وخوف، ثم نجحت روما أبان سطوتها ولعدة قرون في إيقاف تيار البرابرة وصده وراء أنهار الراين والطونه، ولما انقسمت الإمبراطورية إلى جزأين، وحلت القسطنطينية محل روما مرقت هذه القبائل كالسهم إلى جميع الأراضي التي كانت تدين لروما بالولاء إما لأنها اضطرت إلى ذلك اضطرارًا بحكم تحرك القبائل الهمجية فيما وراءها، وإما لأنها اجتذبها إلى الإمبراطورية أمل في السرقة والنهب.

وكان من الطبيعي أن تجيء القبائل الجرمانية أولا مثل قبائل شاتي واللماني والقوط وألواندال – وكانت غارات هذه القبائل الضربة القاصمة التي وجهت إلى القوة الرومانية الغربية فأسسوا في داخل الإمبراطورية الغربية مما لك تدين بالولاء في أول الأمر لرئيس روماني، ولكنها أخذت

تفصم تدريجيًا تلك الروابط التي كانت تربط أجزاء الإمبراطورية بعضها ببعض.

وفي القرن الثالث جاءت قبائل الفرنجة وأشاعت التفرقة لفترة من الزمان في إيطاليا وإسبانيا، ولكنها سرعان ما اختفت في معمعان بقية الشعوب، وإنا لا نستطيع الجزم، أي من هذه القبائل الأولى المهاجرة كانت متأثرة إلى حد كبير بضغط واقع عليها من السهول فيما وراءها، ولكنا نعلم أن القوط في أواخر القرن الرابع بدأوا يضغطون على الفرنجة والألمان والرومان وأنهم كانوا بدورهم واقعين تحت ضغط أخطر شأنًا وهو ضغط قبائل الهون عليهم وفي بداية القرن الخامس غربًا القوط بقيادة ألمرك إيطاليا ونهبوا روما باسم الولاء للنظام والقانون، ولما مات ألمرك وكانت روما لا تزال تحتفظ بقية من الاحترام والرهنة انسحب خليفته إلى جنوب بلاد الغال وإلى شمال إسبانيا مؤسسًا مملكة عمرت ثلاثة قرون، كانت تعترف بسلطان روما طالما بقى للمدينة الإمبراطورية ظل لسلطان، ثم جاء الهون من الشرق في واسط القرن الخامس تحت قيادة أتلا وهو المعروف باسم (سوط الله) وسار بمجموعة مخترقا أوروبا حتى قلب فرنسا الحديثة إلى أن تصدت له قوات أوربا فردته على أعقابه في معركة شالون وهي من أعظم المعارك العالمية شأنًا.

ثم جاءت من الشرق موجة أخرى من القوط بعد خمس وعشرين سنة من هذا التاريخ وأقامت في إيطاليا مملكة لهم على أنقاض الإمبراطورية الرومانية.

في خلال القرن السادس ظهرت الجماعات السلافية على حدود الإمبراطورية الشرقية وانتشرت في الأراضي الواسعة الممتدة شمالا إلى بحر البلطيق ولم يكد هؤلاء يظهرون حتى برز وراءهم الآفارو هم أخطر الغزاة الذين أغاروا على أوربا وأمعنوا في النهب والتخريب، وقد جاءوا إليها قادمين من مسافات بعيدة فأوقفوا امتداد المستعمرات الألمانية على الدانوب وطردوا قبائل اللومبارد من مساكنهم فاضطروا هؤلاء إلى عزو إيطاليا حيث أفاءوا ملكا واطلقوا اسمهم على السهل الممتدين جبال الألب والأبنين الشمالية – أي سهل لمبارديا وقد كان احتلال الآفار لسهل المجر وتكوينهم مملكة عاشت حتى القرن التاسع بمثابة دق أسفين بين السلاف الشماليين والسلاف الجنوبيين لقد هاجر السلاف الجنوبيون إلى جنوب الدانوب في داخل الإمبراطورية الرومانية وكانوا لها درعا واقيا لها ضد أعداء أشد منهم مراسا، وكان هذا بداية تكوين سلسلة من الدول السلافية الصغيرة بقت حتى اليوم، تارة مستقلة وتارة خاضعة لسلطان قوة أكبر منها وما الصرب وكرواتيا وكارنثيا ودالماسيا إلا مستعمرات صقلبية ترجع في أصلها إلى السلاف الذين جاؤا في القرن السابع وكانوا على درجات متفاوتة من الاستقرار، وتعاصر غزوات الآفار تقريبا حركات قبيلة البلغار التي أسست مملكة في الأراضي الواقعة بين الدانوب وأرض هايموس ولا تزال يطلق عليها اسم هذه القبيلة، ومنذ ذلك الوقت أحرز سكان هذه البلاد حريتهم مرار وأسسوا ممالك بلغارية استمرت سنين عديدة ولكن البلغار – مثلهم مثل الآفار ومثل النورمانديين في إنجلترا – فقدموا مميزاتهم واختلطوا بالشعوب التي سيطروا عليها.

وفي القرن التاسع حدثت حركات أخرى كان مصدرها الأول مراعي الأستبس الأسيوية ولكنها أثرت في التاريخ الأوروبي تأثيرا ماديا، فقد قدمت من الشرق قبائل الخرز فطردت أمامها الياتزناك من إقليم الفلجا الذي استوطنوه قبل ذلك بخمسين عاما، وساق هؤلاء أمامهم المجريين وطردوهم غربا، وهكذا اضطرب العالم الغربي مرة أخرى بسلسلة من الغزوات – وتميز هجوم المجريين أو (الهنغاريين) بالنهب والسلب وبعد فترة قصيرة قامت بينهم حكومة منظمة في سهل المجر وهو أشبه بجزيرة من المراعي تحتضنها جبال الكربات – وقد بقى فيه المجريون إلى اليوم ورغم أنهم شعب شرقي الأصل غير أنهم دخلوا في حضيرة الأمم التي تدين بمثل الحضارة الغربية، أما الباتزناك والكومان الذي حلوا محل المجريين في جنوب روسيا فقد استمروا حتى القرن الثاني عشر قوة تخشاها الإمبراطورية القائمة على شواطئ البوسفور ولكنهم اندثروا بعدئذ.

وفي القرن الثالث عشر خضع السهل بأجمعه لسلطان رجل واحد هو جنكيز خان العظيم –وقد احتفظ خلفاؤه لمدى ثلاثة قرون بالسيطرة على مساحات اتسعت كثيرا أو قليلا في أواسط آسيا، كانوا يرسلون الجيوش المتعاقبة لنهب الدول القائمة على حافة هذا السهل ولتخضعها مددا طالت أم قصرت وقد أجتاح روسيا وبولندا والمجر قائد من قواد الخان الأكبر فخربها تخريبًا، وبعد قليل غزا العراق (قبلاي خان) وهو لا يقل عن الخان الأول سمعة وشأنا، أما في القرن الرابع عشر فقد حكم تيمورلنك جزءًا كبير من آسيا وفي القرن السادس عشر غزا أحد أحفاده الهند وأسس بها الدولة المغولية الكبرى.

وأخيرا جاء الأتراك مفضلين طريق مراعي آسيا الصغرى على الممر الواقع بين جبال الأورال وبحر قزوين[8] ولم ينتصف القرن الحادي عشر حتى سيطروا على هذه البلاد بأجمعها، وحدث أبان العصر الذي حكم فيه وليم الفاتح إنجلترا أن أضاف الأتراك إلى ملكهم مساحة كبيرة من الأراضي امتدت جنوبا حتى مدينة القدس. وكان هذا سببا في بدء الحروب الصليبية في ذلك الوقت وعدا هذا لم يؤثروا في السياسة الأوروبية حتى وقت متأخر جدا –لأن قوة البيت الحاكم التركي الأول – أي الأتراك السلاجقة – كانت قد أضعفتها غارات المغول على جبهتهم الشرقية في القرن الثالث عشر ولم يستأنفوا تقدمهم نحو أوربا إلا على أيدي الأتراك العثمانيين حين قاموا كعصبة تخدم السلجوقيين في أول الأمر ي كفاحهم مع المغول ثم قبضوا على السطلة بأنفسهم، وعلى الرغم من أن جزءًا كبيرًا مما يسمى الآن بتركية أوربا سقط في أيديهم قبل منتصف القرن الرابع عشر إلا أنه مرت مائة عام قبل أن يستولوا على القسطنطينية ويقضوا قضاء نهائيا على الإمبراطورية الرومانية الشرقية في عام **١٤٥٣** وفي القرن السادس عشر خضعت المجر للحكم التركي وبقيت خاضعة لهم حتى نهاية القرن السابع عشر عندما استردت حريتها.

وهكذا نرى ظاهرة تتكرر دائما ألا وهي خروج جماعات من السهول تنشر الذعر والاضطراب بين القانطين على حافاتها لا في أوربا فحسب بل وفي غرب آسيا وفي الهند وفي الصين.

---

[8]– ربما كان السبب في هذه الحركة هجرة الخزر الذين كان لهم أثر فعال في بدء غزوات المجريين.

واستمر ذلك منذ عصر ما قبل التاريخ حتى قبيل بدء عصرنا الحالي ببضعة قرون – ولو أننا استعرنا تعبيرا كميائيا لقلنا أن رعاة السهول كانوا يقومون بدور السائل المذيب للشعوب المستوطنة على إطار هذا السهل – وأن عملية التبلور تتأخر بذوبان البلورات التي سبق تكوينها قبل ذلك الحين ولا تلبث أن تتكون بلورات جديدة أكبر حجما من السابقة، وهكذا تحل وحدات جديدة أقل عددا وأكبر حجما محل الوحدات القديمة المتعددة، وتسكنها شعوب مستقرة وتسودها حكومات ثابتة.

ولقد تأثرت مصر قليلا بالرعاة بسبب بعدها عن السهل الأعظم ولكن أشور واليونان وروما كما رأيناها كانت تنظر في هلع نحو الجبال الواقعة على حدودها الشمالية خشية أن تظهر من بين ممراتها ودروبها شعوب مدفوعة في تحركها بحافز من بيئة المراعي التي تركوها وراءهم، وكانت الإمبراطورية الرومانية أكثر الدول القديمة تعرضًا لغزوات هذه القبائل لأن حدودها ترامت إلى الشمال وإلى الشرق وراء جبال أوربا الجنوبية وبقيت جبهاتها أكثر تعرضًا للهجوم من أي من الإمبراطوريات القدمية، ولهذا أصبح تاريخ روما المتأخر وثيق الارتباط بتاريخ الشعوب القاطنة في ذلك السهل وحتى بعد أن تكونت دول عظيمة في غرب أورباظل شرق أوربا قرونا معرضًا لهجوم القوات القادمة من المراعي، كما أن الإمبراطورية الشرقية كان مصيرها كشقيقتها الغربية الانهيار أخيرًا تحت سنابك غزوات الرعاة.

ويبدو دور هذه الشعوب في تاريخ العالم واضحًا، لأن ظروفا جغرافية متعددة الألوان تضافرت فأدت إلى هذه النتيجة، ولبر الآن هل أصاب البشر تقدما؟ وهل استطاعوا فعلا توفير الطاقة واختزانها؟ لا شك أن هناك مجهودًا ضائعًا، فقد تهدمت الإمبراطورية الرومانية بنظمها العتيدة العظيمة فهل عوض عنها البشر خيرًا؟ هل كان تدمير جزء كبير من الإمبراطورية الرومانية عبثًا ضائعًا؟ أو أنه كان بمثابة إزالة آلة مهملة كان من الواجب إزالتها قبل أن تركب مكانها آلة جديدة أفضل منها؟

لقد حدث التقدم في ثلاث نواحي:

أولا: أن البرابرة الأسيويين والغربيين كانوا شجعانا أقوياء البنية وكانت أغلب الشعوب القديمة كالمصريين والبابليين واليونان والرومان والفينيقيين تعيش في أحوال جغرافية موانية، غير أن الرعاة من سكان السهول كانوا يعيشون تحت ظروف جغرافية قاسية، قاسية لأن السهل بامتداده شمالا نقل فيه الثروة الطبيعية، فاتصف الناس فيه بصفات أسمى من صفات سكان الجنوب، إذ أهلتهم هذه المميزات لإحراز قسط أوفى من التقدم والرقي، لأن الشجاعة الفردية لازمة للإنسان في صراعه مع المناخ وقسوته كل يوم، وفي جهاده مع التربة الجافة، كما تلزمه في قتاله مع أعدائه من البشر، وبالجملة فإن الأجناس الشمالية كانت تفوق في شجاعتها سادة إيطاليا بعد القرن الثاني الميلادي، فقد نسى هؤلاء منذ أمد بعيد كم تفيد شجاعة الفرد الشخصية ومدى أثرها كعامل عظيم في استقرار الدولة.

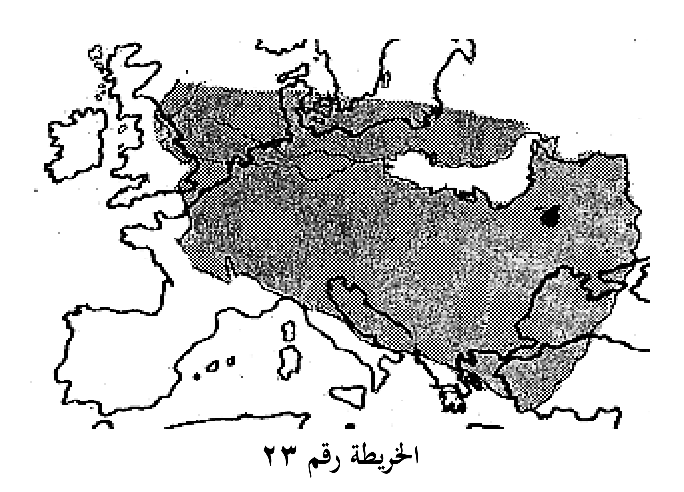
ثانيًا: كذلك برزت الروح الفردية بين الأمم التيوتونية في مظاهر شتى، فإن حرية الفرد على ضرورتها يجب أن تخضع للصالح العام إلى حد ما – وحدث مزج بين الفكرتين ي زمان متأخر أبان نمو النظام الإقطاعي، فكرة احترام الحرية الفردية وفكرة التضحية بها في سبيل الصالح العام، وكانت الظروف الجغرافية الأولى ملائمة لنمو المسلك العقلي الذي يشجع على الحرية الفردية تحت نظام الحكم الإغريقي ثم سايرت الفكرة نظام الحكم الروماني – وتتجلى الروح الفردية في خلق صفات خلقية أخرى تدعو إلى التقدم فإن حب العائلة بما ينطوي عليه من فضائل أكثر ظهورًا في الشمال عنه في الجنوب.

ثالثًا: أن غزو البرابرة الأسيويين على الرغم مما خلفوه من تدمير لم يمض دون أن يترك أثره في خلق مادي عظيم فقد اتسعت النظرة إلى العالم وأدخلت هذه الغزوات إلى عقول الأمم الغربية فكرة أخرى عن العالم وهي أنه أكبر اتساعا من بلاد البحر المتوسط، ووصل الرحالة فعلا إلى الصين وعادوا يقصون القصص عنها، وأصبح العالم الذي يهتمون به متسع الأرجاء، ونمت بنموه كمية الطاقة التي تصلح للاستغلال، وليس بكثير أن قلنا أن القبائل الغازية بإشاعتها تلك النظرة كان لها أثر بارز في خلق مجموعة من الظروف أدت إلى الاكتشافات التي قام ها كولومبس وإتباعه.

الفصل الثامن

الواحات والإسلام

لقد رأينا في الفصل السابق كيف أثر السهل الأعظم في مجرى التاريخ وهناك مراع أخرى (أستبس) لا تصل في مساحتها إلى مساحة السهل الأعظم على كبر حجمها، وقد أثرت بدورها في مجرى التاريخ ولكنها تركت فيه أثرًا مختلفًا بسبب اختلاف الأحوال الجغرافية، إذ أن الصحراء تشغل من السهل الأعظم جزءًا بسيطًا بالنسبة لما تشغله مساحات المراعي الواسعة أو التي تفضلها نوعا ما – ولكن البلاد العربية على النقيض من ذلك تحتل الصحراء فيها مساحات واسعة ويكاد يكون الباقي كله من المراعي.



الخريطة رقم ٢٣

مقارنة مساحة بلاد العرب بالنسبة لأوروبا (مقياس الرسم واحد فى الحالتين)

تبلغ بلاد العرب ١٥٠٠ ميل في طولها تقريبًا أي نحو طول المسافة من لندن إلى بلاد القوقاز، وتبلغ في عرضها نصف ذلك البعد تقريبًا، وهي ليست كلها صحراء بل أن جزءًا كبيرًا منها مراع جافة، وفي داخلها بقاع من الواحات على درجات متفاوتة من الخصوبة، وفي بعض الأماكن تتدرج المراعي شيئًا فشيئًا إلى أن تصبح صحراء جرداء، هذه هي الجزيرة العربية، أي بلاد العرب وهي مجموعة من الواحات والأراضي الجافة، ولهذه الظروف الجغرافية نتائج عدة



الخريطة رقم ٢٤ – بلاد العرب هي صحراء ومراعي

ولما كانت بلاد العرب مراعي في غالبها كان من الطبيعي أن يصبح أهلها رعاة.

١- ولكونها أشد جفافًا من مراعي آسيا لم تحتمل أن تعول من السكان إلا عددًا قليلًا نسبيًا لو قورنت بغيرها من المناطق المشابهة لها.

٢- ولأنها تحوي بعض الواحات فقد رغب بعض السكان في الاستقرار بها.

٣- وهكذا وجدت طبقتان متميزتان، البدو والحضر أي سكان البادية وسكان الواحات ولم يكن الآخرون بالعدد الكبير على أية حال ليتركوا في مجتمعهم أثرًا كبيرًا فتركزت السلطة غالبًا في أيدي البدو الذين سادوا المراعي الواقعة فيما بين الواحات، ولما كان الرعاة العرب يعتمدون في حياتهم بعض الاعتماد على واحات معينة فإن سكان المراعي منهم أصبحوا أكثر ارتباطًا ببقعة معينة من الأرض عما جرت عليه عادة الرعاة الخلص، ومن الطبيعي أن تقوم هنا وهناك سلطات صغيرة تفرض سيطرتها لفترة ما على بضع واحات وعلى المراعي التي تتخللها.

٤- ونظرًا لأن المراعي في الجزيرة العربية محاطة فعلا بالصحراء وبالبحر وكلاهما كان عسير الاجتياز في العهود القديمة أصبح سكان بلاد العرب شعبًا منعزلا، وتوفرت لهم وسائل الحماية من الغزو الأجنبي، كما أمسوا ضعاف الأثر في الشعوب الأخرى، عاجزين عن التدخل في الشئون الخارجية ما دامت السلطات القائمة في المراعي ضئيلة ولا انسجام بينها.

وليس بعجيب إذن أن يترك سكان السهل الأعظم أثرًا محسوسًا مستمرًا في التاريخ لعدة قرون وألا يؤثر سكان بلاد العرب في تاريخ العالم إلا في زمن متأخر من العصور التاريخية، على الرغم من قرب مواطنهم من مصر وفلسطين وبابل وبلاد اليونان، هذا على الرغم من أن العرب كانوا يميلون إلى الانتشار في البلاد المجاورة إلا أن هجرتهم إليها كانت متغيرة متقلبة ولم تتخذ شكلًا محددًا.

وقد يعترضنا السؤال الآتي: "ولماذا ترك العرب إذن في التاريخ أثرا؟" ولأن نجيب على هذا السؤال يجب أن نزن النحو الآخر الذي جرت عليه الظواهر الجغرافية، وقد رأينا أن الناس قد يتقدمون أو يتأخرون بسبب الأحوال الجغرافية التي تؤثر في أجسامهم وبالتالي في صفحات عقولهم، وقد رأينا أن حماية الصحراء التي كفلت الرخاء المادي للمصريين القدماء وللبابليين أوحت آخر الأمر إليهم بالثقة في حمايتها لهم، كما رأينا أن الأحوال الجغرافية السائدة في بلاد الإغريق، وما تمخض عنها من نشأة حكومات المدن العديدة مستقلة بعضها عن بعض، رأيناها تؤثر في عقول اليونانيين وتخلق منهم رجال سياسة.

كذلك أثرت الأحوال المادية بالطريقة عينها في عقول العرب وكان تأثيرها مباشرًا فإن تنقلهم في بطء شديد من واحة فوق مراع وصحاري مع تكرار المنظر الطبيعي ونمطيته حيث تخلو الطبيعة من كل ما يلفت النظر أميالا وأميالا، كل هذا دفع بهم إلى التأمل والتفكير، فهم أن حلوا بالصحراء شعروا شعورًا آليا ودون وعي منهم بعجز الإنسان الشديد، وأن

حلوا بالواحات أدركوا أنها تقبل الإصلاح والتحسين وأنها تستجيب للمجهود الإنساني الذي يبذل فيها فترد الجميل إنتاجًا متزايدًا، بينما الصحراء لا تستجيب لمجهود ما ولا يمكن التغلب عليها قط، هنا شعر العر بوجود ظاهرة عظمى صامتة تسمو على كل عظيم من الأشياء، وأدركوا – تحت ضغط ظروف الحياة – إدراكا متفاوت الدرجات، أنهم ليسوا أحرارًا فيما يريدون، والناس دائمًا على مختلف ألوانهم يعتنقون ديانات يحاولون أن يفسروا بها في وضوح تتفاوت درجته ما عجزوا عن إدراكه من أسرار العالم المحيط بهم، ويفسرون على الأخص الغاية التي خلقوا من أجلها، وأغلب الأجناس والقبائل تحس أنها معرضة لمؤثرات مختلفة وأن أمامهم حقائق شتى تتطلب منهم تفسيرًا وحقائق عديدة تبدو لارتباط بينها في ظاهرها، وهكذا عبدوا آلهة متعددة، إلا أن الظواهر الطبيعية في الصحراء كان تأثيرها ساحقا على سكانها حتى أنهم في الوقت الذي كانوا يعترفون فيه بآلهة متعددة كان اتجاههم العام يسير بهم نحو الاعتراف بإله واحد عظيم، وليس مما يبعث على الدهشة أن تخرج من بلاد العرب أو من البلاد المحيطة بها الديانات العالمية الثلاث الكبرى التي تدعو إلى التوحيد، ألا وهي اليهودية والنصرانية والإسلام، وليس بعجيب أيضًا أن تكون أبرز تعاليم إحداها موجزة في عبارتين اثنتين "عليك أن تفعل هذا وإياك أن تفعل ذاك" وهي مجموعة من الأوامر والنواهي[٩] كما أدرك سكان الصحراء أن التقدم متعذر في بعض نواحي الحياة ورأوا في الدين قبسا يضيء لهم سرها، كما رأوا أن جهود الإنسان في نظرهم عبث ضائع ما لم توجه توجيهًا معينًا وأن العقل

[٩]– يقصد الديانة اليهودية ووصاياها العشر.

الإنساني الذي يتحكم في استعمال الطاقة يجب أن يربى تربية خاصة تتجه به نحو إدراك هذه الفكرة عن الحياة.

وليس المفروض دائمًا أن يتمسك الناس بعقائدهم لدرجة تجعلهم متعصبين يرغبون في تحويل البشر كافة إلى دينهم، فإن المتوحشين الذين يحترمون آلهتهم خوفًا ورهبة لا يحاولون نشر دياناتهم عادة، وتختلف درجة حماس الناس في نشر دينهم بقدر ما يرون في بعض الأشياء منكرا يجب النهي عنه لأنه خطأ أو لأنه عبث لا طائل تحته بمضي الزمن، وبقدر ما يرون أن بعض الفضائل يجب أن يتحلى بها الناس لأنها صواب أو لأنها توفر لهم الجهود لو طال بهم الأمد، وكلما تعمقوا في إدراك معنى الحياة أي كلما زاد القدر الذي يفهمون به دينهم، كلما اشتدت رغبتهم في أن ينبذ الآخرون دياناتهم وأن يقبلوا على اعتناق أسلوبهم في التفكير، هذه الفكرة لا تكاد تخطر ببال الهمج المتأخرين، وعلى الرغم من أن النشر شنوا حروبًا عديدة في الأيام الخوالي إلا أن الحروب الدينية البحتة كانت قليلة العدد – وكلما تقدم بنا التاريخ وجدنا الحروب والخلافات الدينية تزداد عددًا، وقد يبدو في هذا نكسة لتقدم الإنسان، ولكن الأمر عكس ذلك، لأن هذه الظاهرة تسجل حقيقة واضحة وهي أن الناس أخذوا يدركون ولو في غموض أن للحياة هدفًا، وأن أوجه استخدام الطاقة وتوجيهها أكبر قيمة من الطاقة في حد ذاتها من هذا ترى لماذا نجحت الديانات الراقية في اجتذاب عدد كبير إليها، بينما ل عدد من يتحولون إلى الديانات المنحطة، ونرى بوجه خاص لماذا خرج العرب من ديارهم يبغون نشر الدعوة المحمدية عندما اقتنعوا بما آمنوا به تحت تأثير تعاليم النبي مُحَمَّد (صلعم)..

ولقد عرفنا لم كان العرب شعبًا منعزلا ولماذا آمنوا بديانة تقوم على التوحيد، ولماذا برزوا ليبشروا بهذا الدين ينشرونه وينشرون معه سلطانهم الزمني وأن جاء ذلك عرضًا ولكنه أمرًا لازمًا – هذه كلها نتائج لظروف جغرافية – وعلينا أن نلاحظ الآن في دقة كيف نجح العرب في تحقيق ما رموا إليه.

لندرس أولا الزمان الذي بذلوا محاولتهم أبانه وظروف العالم الذي كان مسرحًا لهذه المحاولة، فقد فشل في نشر الإسلام في العالم أجمع، بسبب عوامل القصور الذاتي الجغرافية وبعض هذه العوامل طارئ، وبعضها دائم، ولقد رأينا آنفًا أن فلسطين تدين في أهميتها لموقعها الجغرافي بين مصر وبابل، ويبدو طبيعيًا أن قلنا أنها أمة نصف شرقية في طبيعتها لأنها تحف بالبحر الأعظم، وأهلها منذ فجر التاريخ ينظرون غربا كما ينظرون شرقًا، وفي الأيام السحيقة أرسلت فينيقيًا بحارتها يجوبون الغرب البعيد كما دخلت فلسطين في حظيرة الفتوحات الإغريقية وأتخذ أهلها اللغة الإغريقية لغة لهم إلى حد كبير، فلما ظهرت المسيحية في الوجود لم تكتب الكتب المقدسة بالإغريقية فحسب بل إن البلاد ذاتها كانت جزءًا من الإمبراطورية الغربية العظمى – إمبراطورية روما – وإذا كان من المقدر أن تنتشر المسيحية كان من الطبيعي أن تنتشر في داخل الإمبراطورية الرومانية وبفضل سبقها أصبح أسقف روما معترفًا به كرئيس ينافسه في الواقع بطريرك الإمبراطورية الشرقية في القسطنطينية فانتشرت المسيحية على اختلاف مذاهبها شرقًا وجنوبًا: شرقًا إلى العراق وبلاد فارس وعبر السهول العظمى إلى الصين، وجنوبًا إلى الحبشة والهند وسيلان ولا يزال حتى اليوم في الحبشة والملبار

مسيحية من مذهب ما، حقًا اختلفت المسيحية التي انتشرت في داخل الإمبراطورية عن المسيحية التي انتشرت خارجها ونظمت السلطة الكنسية في داخل الإمبراطورية على منوال حكمة الإمبراطورية ذاتها، وبقيت قوية زمنًا طويلاً حتى بعد أن زالت قوة روما وأصبحت اسمًا على غير مسمى.

هذه المسيحية التي انتشرت في بلاد الإمبراطورية هي مسيحية من مذهب واحد متجانس على غير ما انتشر منها على حدود الإمبراطورية كالشام ومصر حيث ضعف الولاء لكل من الكنيسة والدولة وأصبحت المسيحية في خارج الإمبراطورية تتعارض مع المسيحية المنتشرة في داخلها مارقة على تعاليمها غير متأصلة في نفوس أهلها جميعًا.

لقد كان الدين في هذه البلاد كنسيًا تبشيريًا هزيلاً نتيجة لهذه العوامل كما أدى اختلاف الظروف اختلافًا طبيعيًا إلى تحوير في المسيحية وإلى ضعفها وانقسامها ولذا نجحت البلاد التي كانت رومانية في مقاومة الإسلام بينما استسلمت له البلاد الأخرى.

ثم أثر القصور الذاتي الجغرافي في تاريخ تلك الفترة على نحو آخر ولعل المسيحية أثرت علما في تفكير النبي مُحَمَّد فجعلته يدرك معنى الحياة وأوحت إليه بالبدء برسالته[١٠] على أنها لم تك إلا الثقاب الذي أشعل النور لا في قلب الرسول فحسب، بل وفي قلوب من تبعه، ولولا أن عقولهم كانت مهيئة لوحي الصحراء مدى أجيال طويلة لما تقبلوا الدين

---

(١٠) لا يزال يبدى المؤلف تعصبة للمسيحية – وقد تكرر ظهور هذا الشعور في مواضع مختلفة – المترجم.

الجديد القبول الذي حدث، ويجب أن نلاحظ أيضًا أن البلاد العرب – ونقصد جزيرة العرب نفسها – توفرت لها الحماية من المؤثرات الخارجية .

ولابد أن تكون المسيحية التي وصلت إليها مسيحية مشوشة ممسوخة. لقد عاشت طويلاً تلك المسيحية التي انتشرت في الملبار مثلاً، على الرغم مما أصابها من تحوير في بيئتها الجديدة لمجرد أنها امتازت على الأديان الموجودة فيها. كذلك سما الدين الجديد الذي أتى به مُحَمَّد على أي دين وجد في الأراضي المحيطة ببلاد العرب.

والآن يجب أن نفرق بين انتشار الإسلام وبين الفتوحات العربية فإن الإسلام انتشر في بلاد تفوق في مساحتها رقعة الأراضي التي فتحها العرب على عظم اتساعها، وقد زود الإسلام العرب بقوة دافعة فانتشروا يبغون غزو العالم، وترددت فيهم رغبة في نشر الإيمان بالله الواحد الذي يحاسب الناس جميعًا عن حياتهم وعما يأتونه من خير أو شر؛ واستمر الإسلام ينتشر حتى بعد أن وصل العرب إلى ذروة فتوحاتهم فانتشر بين الكفار ممن سيطروا على العرب بدورهم، وإن ما نهتم به في المقام الأول ليس انتشار الإسلام بقدر اهتمامنا بالفتوح العربية.

لقد قاوم سكان جنوب أوربا الفتح العربي لأنهم كانوا مسيحيين ولأنهم كانوا قد نظموا أنفسهم ليقاوموا هذا التقدم. أما في الشرق فلم تكن الدول المسيحية على شيء من التنظيم، فكانت مقاومتها هزيلة تافهة، وما هذه الحالة سوى نتيجة للظروف السياسية التي سبقت هذا

العهد وعوامل القصور الذاتي الجغرافي أما الفتوحات العربية إلى الجنوب الغربي من بلاد العرب فقد خضعت لعامل جغرافي بحث هو وجود الصحراء التي يصعب على أية جماعة من الناس اختراقها، لهذا اقتصر نفوذ العرب السياسي على الامتداد على طول حافة أفريقيا الشمالية.

وهكذا اتجه الفتح العربي شرقًا وغربًا وكان شاذًا في سرعته عبر مراع متفاوتة في جفافها ونباتها وتلائم الحركات التي ألفها العرب في موطنهم الأول، فإن العربي لا تربطه بالأرض رابطة، سريع التنقل معتمدًا في غذائه على الحيوان الذي يحمله ويحمل متاعه، وما دامت البيئة الجديدة بيئة مراع فهي مألوفة له تطيب له فيها جميع منازلها، فكل منزل عنده لا يفضل الآخر، هكذا كانت الأراضي التي غزاها العرب في أول الأمر محددة بحكم جغرافيتها وبحكم ماضيها التاريخي.

ولنبحث الآن الوقائع التاريخية: لقد توحدت بلاد العرب تحت زعامة الرسول في الثلاثين سنة الأولى من القرن السابع الميلادي وغزا العرب في العشرين سنة التالية مصر وسوريا والعراق وبلاد فارس وطوران وجزءًا صغيرًا من الهند وحولوا أهلها جميعًا إلى الدين الإسلامي ثم توقفوا قليلاً أمام بعض العقبات، ولما كانت آسيا الصغرى على النقيض من سوريا قد تحولت تمامًا إلى المسيحية وخضعت لسيطرة الإمبراطورية الشرقية لم يستطع العرب قط أن يوطدوا أقدامهم بصفة مستمرة في الشمال الغربي من جبال طوروس، أضف إلى هذا أن العرب في أساس عنصرهم رجال برو الهجوم، من البر على دول شمال إفريقيا وما وراءها أمر عسير خاصة وأن

الإمبراطورية الشرقية كانت لا تزال تملك أسطولاً وتستطيع أن تسدي بعض المعونة لمستعمراتها البعيدة ولهذا تأخر فتح العرب لها إلى أن بسطوا سيطرتهم على مهد الملاحة البحرية في مصر وفينيقيا وتمكنوا بعد مرور خمسين عامًا أخرى أي في أوائل القرن الثامن. من أن يضيفوا إلى سلطان الخلفاء الساحل الشمالي لإفريقيا بفضل حملاتهم البحرية، وأكثر من هذا، لقد عبر العرب مضيق جبل طارق وفتحوا إسبانيا في سنين. قليلة، وهي أبعد بقاع الإمبراطورية عن الحكم الروماني المركزي، وفرضوا سلطانهم على كل البلاد الإسبانية ما عدا أجزاء جبلية في شمالها الغربي استمسكت بالمسيحية، وكان لهذا الاستثناء هنا أهمية خاصة.

أقيم هذا الملك العريض في الفترة تقل قليلاً عن قرن من الزمان، وكانت بلاد الجزيرة العربية هي مهده، ثم لم تعد ملائمة لما تلي ذلك من ظروف السلطان. والسيادة شأنها في ذلك شأن غيرها من المهاد، فاختيرت على التوالي دمشق وبغداد كعواصم للحكم الإسلامي.

وكان هذا الملك طويلاً ضيقًا بسبب وجود الدول المسيحية إلى الشمال والصحراء الكبرى إلى الجنوب، وأنه لمن الصعوبة بمكان أن تحكم البلاد الطويلة الضيقة من مركز واحد، مثلها كمثل مصر القديمة والإمبراطورية الرومانية، ويزيد الأمر صعوبة أن مقر الحكم لي سفي وسط هذا الملك العربي فكان من الطبيعي أن ينقسم إلى جزأين كل منهما تحت إمرة خليفة يدعى أنه الوارث الشرعي للنبي مُحَمَّد والحاكم لجميع أراضي المسلمين وكان هذا في أواسط القرن الثامن حين انفصلت إسبانيا عن بقية

الدولة العربية واستقلت في نفس الوقت بلاد البربر استقلالاً حقيقيًا وهي التي تفصلها عن العاصمة مسافة شاسعة، وقد بقيت رغم هذا الانفصال تعتنق الدين الإسلامي، وفي أقل من قرن ونصف من الزمان استقلت بلاد العرب وما تبقى من البلاد الإفريقية وكونت بذاتها خلافة ثالثة شمت اسميا ولايات البربر فترة من الزمان.

وهكذا انقسم العالم الإسلامي إلى أربعة أقسام وهي إسبانيا وبلاد البربر ومصر وباقي الخلافة الشرقية، وسار كل قسم منها في تاريخه الخاص لا يربط بينها إلا عقيدة واحدة وإنها كانت في يوم من الأيام إحدى الفتوحات العربية. ولم يكن الغزاة المسلمون لهذه إلا جزاء جميعًا من عنصر واحد بقدر ما كانوا من عناصر متفرقة قذفت بهم الفتوحات السابقة فاختلطوا بالجحافل العربية المغيرة، ولقد ازدادت الفروق الطبيعية الناشئة عن العوامل الجغرافية وتجسم التناقض بين الوحدات واشتعلت نار العداوة بينها ولم تتمكن وحدة الدين من إطفائها.

ولقد عمرت الخلافة العربية في إسبانيا واستمرت قوية حتى بداية القرن الحادي عشر حين تفتت إلى دويلات صغيرة عديدة وظلت تنتقص من أطرافها على الدوام أمام تقدم الدويلات المسيحية في الشمال حتى لم يتبق منها في النهاية إلا مملكة غرناطة في الجبال الجنوبية وقضى عليها نهائيًا في أواخر القرن الخامس عشر وعادت شبه الجزيرة بأكملها إلى حظيرة الحكم المسيحي.

أما في الخلافة الشرقية فقد استمر الحكام العرب يمارسون سلطتهم من مقرهم في السهول القاسية المحيطة ببغداد ولهم ظل من السيطرة الاسمية على الأقطار المختلفة حتى سنة ٨٠٠ ميلادية حين اضطروا إلى الاعتماد شيئًا فشيئًا على العصابات المرتزقة من الأتراك ممن استأجروهم ليخضعوا بهم البلاد ا لتي كانت تشق عصا الطاعة دائمًا. وانتقلت السلطة بطبيعة الحال من أيدي العرب إلى الأتراك، واستأثر الولاة الأتراك تدريجيًا بالسلطة الفعلية، ومارسوا سلطاتهم بأسماء مختلفة بل وقامت دول تركية مستقلة في الهضبة الإيرانية على الرغم من أن الخلافة العربية ظلت قائمة في بغدد حتى منتصف القرن الثالث عشر حين قضى عليها القضاء الأخير، ولقد رأينا أن الأتراك في هجرتهم من السهل الأعظم جاءوا كفرة زنادقة ومن أسعده الحظ عنهم تلقى بعض الوعظ المشوش في الدين المسيحي. فلما اتصلوا بالإسلام اعتنقوا الدين الجديد ورحبوا به، وهكذا لم يؤد تقويض الحكم العربي إلى زوال السلطة الإسلامية بل كان امتدادًا لها في آسيات لا صغرى التي لم يفتحها العرب قط إذ أصبحت تدريجيًا بلادًا تركية إسلامية، كما أن الأتراك الذين نزلوا بالهند أقاموا بها حكمًا إسلاميًا ثابتًا أكثر استقرارًا من الحكم الذي أقامه العرب بها.

ولما لم يعد البحر المتوسط بحيرة رومانية ظلت الأراضي الإسلامية الممتدة على طول شمال أفريقيا وكذا شبه جزيرة العرب ردحًا طويلاً من الزمان وهي بعيدة عن الاتصال بالأمم المسيحية كما أنها لم تكن قوية السلطان فتمد سيطرتها الزمنية على الصحراء الكبرى، ولكن الدين الإسلامي وهو دين سكان الصحراء أخذ ينتشر فيها تدريجيًا من مرعى إلى

مرعى ومن واحة إلى واحة فازداد الحاجز الصحراوي مناعة على مناعته أمام الأمم المسيحية بسبب وجود قبائل معادية، وزاد الطين بلة أن اعتنقت هذه القبائل المعادية دينًا مناهضًا للمسيحية أيضًا.

وهكذا تغيرت وظيفة البحر المتوسط، لقد كان في الأيام الخوالي حاجزًا ثم أصبح فيما بعد طريقًا تجاريًا عند الفينيقيين وكان بمثابة حصن دفاع عند اليونانيين ثم اتخذه الرومان قاعدة لأساطيلهم البحرية التي أخضعوا بها كل البلاد التي تحف بشواطئه، ثم ضعفت القوة البحرية بضعف روما ذاتها، وما تحولت إسبانيا وبلاد البربر إلى الحكم العربي إلا لأن الأساطيل البحرية للإمبراطورية الشرقية لم تتوافر لها القوة الكافية لتسيطر على البحر كله، كما لم يستطع المسلمون أن يحرزوا لأنفسهم السيادة البحرية، ومن ثم أضحت الحال شبيهة بالأيام الأولى التي استعر فيها النزاع بين روما وقرطاجنة، وأصبح البحر المتوسط كالخندق الذي يفصل بين عدوين، ورجحت كفة كل فريق حينًا من الدهر، وتوالى على الجزر الواقعة بينهما الحكم الإسلامي تارة ثم الحكم المسيحي تارة أخرى، واستولى المسلمون على كريت وصقلية عدة قرون قبل أن يستعديهما الحكم المسيحي إلى حظيرته فيما بعد.

أما الخليج الفارسي والمحيط الهندي فقد جدت عليهما ظروف جديدة إذ خلا الجو فيهما للأساطيل العربية من كل منافس لها، وقد كان لانتشار الحكم العربي في أول الأمر في مساحة واسعة تمتد من شواطئ المحيط الأطلسي إلى البحر المتوسط وإلى الخليج الفارسي و البحر الأحمر

وإلى المحيط الهندي كما كان للسيطرة العربية على مفاتيح الطرق بين الشرق والغرب البرية منها والبحرية أكثر الأثر في أن يحترف العرب التجارة من أي نوع كانت، وهكذا أصبحت سيلان في القرن الثامن مركزًا للتجارة العربية على الرغم من أنها لم تخضع قط لحكم عربي.

وظلت التجارة العربية مزدهرة لم تتأثر بتمزق القوة الإسلامية أو انقسام الخلافة أو استقلال مصر وبلاد العرب وبلاد البربر استقلالاً فعليًا، إلا أنه لما ضعفت الخلافة الغربية في الأندلس في بداية القرن الحادي عشر قامت حكومات مدن جديدة كجنوا وبيزا والبندقية على أنقاض الإمبراطورية الرومانية وأخذت تستأثر بالتجارة البحرية وتبني الأساطيل البحرية، الأمر الذي كان وقفًا على العرب حتى ذلك العهد، وقد مكنتها هذه السيادة البحرية من أن تنقل بطريق البحر حملات الصليبيين لتهاجم القوة الإسلامية في فلسطين ذاتها حين حل الحكم التركي الغاشم محل الحكم العربي.

ومع ذلك ظل المسلمون في الجزائر ومراكش يسيطرون سيطرة من نوع ما على غرب البحر المتوسط ومارسوا فيه أعمال السطو والقرصنة لعدة قرون. وأهم من هذا كله أن التجارة العربية لم تقابل منافسة ما في المحيط الهندي فترة من الزمان لأن حاجزًا من اليابس وقف يفصل بين

الشرق والغرب، والواقع أن زوال ذلك الحاجز في الأيام الحديثة هو الذي أدى إلى انهيار التجارة العربية نهائيًا(١١).

وهكذا نرى تأثير الصحراء على التاريخ فإن النطاق الصحراوي الكبير كان وما زال منبع الدين الإسلامي ومصدر قوته بامتداده من الصحراء الكبرى إلى بلاد العرب إلى قلب آسيا، والأصل في وجوده يرجع إلى الظواهر المناخية الطبيعية، وقد أعقب الفتوحات الإسلامية تقدم في استغلال الطاقة لأنه أتيحت لقوة واحدة السيطرة على البحر المتوسط والمحيط الهندي في آن واحد فألف رجال الغرب الطرق البحرية إلى الشرق كما سبق أن ألفوا الطرق البرية إليه بسبب الغزوات التي شنها رجال السهول على أوربا، وهكذا نمت الموارد الصالحة للاستغلال والفضل في هذه النتيجة هو لموقع الصحراء بالنسبة للطريق المائي الواقع على امتداد محور الكتلة اليابسة الكبرى المكونة من أوربا وآسيا وأفريقيا. ولما كان النطاق الصحراوي متداخلاً في هذا الطريق المائي ومقطعًا إياه إلى أجزاء، ونظرًا لأن اليابس كان كتلة متصلة في ذلك الأوان بعكس البحار ظلت القوة البحرية في أيدي العرب، ومن الطبيعي أن تؤثر الصحراء على عقول ساكنيها بتعرضهم لمؤثراتها عهودًا طويلة، وهؤلاء يؤثرون بدورهم في غيرهم من الجماعات التي لم تتعرض لمثل هذه المؤثرات، وقد حفز ذلك الاحتكاك الناس إلى أعمال الفكر واتساع النظرة إلى العالم عما ألفوه من قبل فأخذوا يبحثون في علل الأشياء، وهكذا جرى التاريخ في تطوره الحديث.

---

(١١) يقصد المؤلف اكتشاف الأوربين لطرق الملاحة الكبرى في نهاية القرن الخامس عشر.

الفصل التاسع

المحيط: الاكتشافات: إيبريا

إن لشكل الأرض دائمًا أهمية كبرى في التاريخ لأن توزيع الحرارة والبرودة والمطر والجفاف والغابات والمراعي متوقف في أساسه على الكيفية التي تدور بها الأرض حول محورها وعلى موقعها بالنسبة للشمس، وقد وصلنا الآن إلى مرحلة يصبح فيها شكل الأرض ذا أهمية في تاريخها على نحو آخر.

يتضح مما سبق أن الإنسان لم يهتم حتى المرحلة السابقة في قليل أو كثير بشكل الأرض سواء كانت مسطحة أم كروية – بل كانت مسطحة في نظر معظم الناس تقريبًا – غير أن الراسخين في العلم كانوا يعرفون أن العالم كروي الشكل حتى أن أراتوستينس الإسكندري حسب أبعاده وكانت فكرته عن شكل الأرض أدق من فكرة كولومبس عنها وكانت عملة حساب حجمها عنده يسيرة سهلة لأن المسافة بين مدينتي سين (أسوان) والإسكندرية كانت معروفة على وجه الدقة لأن مصر بتربتها الغالية الغنية وفيضانها السنوي في حاجة دائمة لتعرف مساحة أراضيها بدقة وعناية. ومهما يكن من شيء، فإن شكل الأرض لم يكن ذا أثر مباشر في التاريخ إبان عهد أراتوستينيس. بل كان حقيقة علمية ليس لإدراكها أهمية عملية

في حياة البشر. ولما أصبح الناس قادرين على الإفادة من معلوماتهم عن كروية الأرض بدأ شكلها يتحكم في التاريخ على نحو آخر.

غير أن اكتشاف شكل الكرة الأرضية كان ذا أهمية لأنه اتصل بحقائق أخرى – ذلك أن سيادة العرب كما رأينا كانت تعتمد اعتمادًا جزئيًا على سيطرتهم على البحار التي امتلكوا ناصيتها – وكانت الإمبراطورية الرومانية تدين بعظمتها لنفس هذه الحقيقة كما اعتمدت سيادة الفينيقيين واليونانيين اعتمادًا يكاد يكون تامًا على أساس إتقانهم فنون الملاحة البحرية – وكان البحر المتوسط هو منبع هذا النشاط الملاحي وإن كانت السفن تشق طريقها بحذاء السواحل الأخرى ومن الجائز أن تكون السفن الفينيقية قد أبحرت نحو الهند ومن المؤكد أن التجار العرب قد وصلوا إلى الصين ودار أجريكولا بنفسه حول إسكتلندا وعبر قراصنة بحر الشمال إلى الجزائر البريطانية وأيسلند وربما وصلوا إلى جريلند أيضًا وأسسوا في أوائل العصور الوسطى مستعمرات على جميع شواطئ أوربا الغربية دامت قليلاً أو طويلاً.

ولاكتشاف البحار أثر بعيد في تاريخ العالم، ولقد تكلمنا آنفًا عن سهولة الحركة على الماء بمقارنتها بالحركة على اليابس ولكنها كانت محدودة بحدود، فإن الملاحين القدماء اقتصروا في رحلاتهم على البحار الداخلية والملاحة الساحلية على هامش المحيطات بسبب ما تردد في نفوسهم من رهبة البحار المجهولة، وأهم البحار لديهم هو البحر الذي يقع وسط أجزاء اليابس، وهكذا كان لتوزيع اليابس أثر يتحكم في التاريخ ومنذ أربعمائة

عام بسبب قصور المعرفة الإنسانية، كان اليابس كتلة واحدة والبحر بحارًا عدة والكتلة اليابسة المكونة من أوربا وآسيا وأفريقيا تمعن في امتدادها شمالاً حتى لا تجد في حافاتها الشمالية ممرًا خاليًا من الجليد، وتعمد أفريقيا جنوبًا حتى خشى الناس خطر المغامرة في الدوران حولها على الرغم من أن كثيرًا من قدماء الجغرافيين اعتقدوا بسهولة ذلك، حقًا كانت هناك فكرة أن العالم كتلة من اليابس يحيط بها "إطار من المحيطات" ولم يخطر ببالهم قط أن أرضًا واسعة تقع في أحضان ذلك المحيط وكانوا يفرضون دائمًا في تحقيق جميع أغراضهم العملية وجود محيطين عظيمين تفصلهما كتلة من اليابس.

وليست الأعمال التي تمت في نهاية القرن الخامس عشر مجرد كشف طريق إلى جزر الهند أو مجرد كشف أمريكا أو مجرد دوران مجلان حول رأس هورن، بل أن رحلات فإسكودى جاما ومجلان أثبتت أن البحار متصلة ببعضها البعض كما أثبتت رحلات كولومبس وماجلان أن المحيطات مأمونة العاقبة في عبورها، وهكذا اكتشف شكل الرض ووحدة المحيطات، ومن ثم تراجعت الملاحة الساحلية إلى المرتبة التالية بعد الملاحة المحيطية. وفي ميدان السياسة احتلت سيادة المحيطات المكانة التي كانت لسيادة البحار. وهكذا كان لهذه الاكتشافات نتائج مختلفة بعضها ظهر عقب إتمامها مباشرة وبعضها لم نحس به إلا في صدر العصر الحاضر. وعلينا الآن أن ندرس كيف أن شكل الكرة الأرضية وحقيقة اتصال المحيطات ببعضها البعض تحكمتا في مجرى التاريخ.

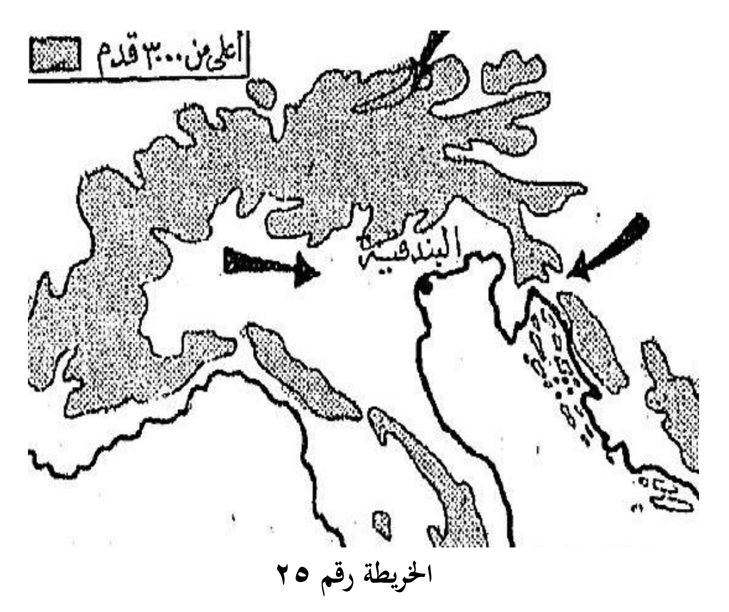
لقد رأينا كيف اتسع العالم تدريجيًا، وكيف نمت المعرفة الإنسانية فوسعت بحارًا وأراضي جديدة وكيف استفاد البشر في جميع أنحاء العالم من حاصلات البلاد المختلفة، لقد نجحت غزوات القبائل المغيرة في نشر بعض الأفكار عن كنه هذا العالم، كما نجح العرب في نشر المعلومات عن البحار الشرقية، وحفز تقدم العلم في هذين الميدانين العقول البشرية على التفكير ولكن فكرة الوصول إلى الشرق عن طريق البر والبحر، كانت أفعل تأثيرًا في مجرى التاريخ، لأن الحركة على الماء أسهل منها على اليابس، لقد قام ماركو بولو برحلته الخالدة إلى الشرق متخذًا طريق البر في ذهابه والبحر في إيابه كلما أمكنه ذلك.

ويجب ألا يغيب عن الذهن أن قوة العرب الزمنية، وقوة المسلمين عامة لم تقم على القوة العسكرية فحسب بل قامت على أساس التحكم أو السيطرة في مساحة واسعة ذات أهمية تجارية، وكان هذا التحكم ممكنًا لأن كتلة اليابس كانت متصلة والبحر غير متصل اتصالاً ينفع كل أغراضهم العملية، وكان تحكم العرب في هذه المنطقة التجارية شاملاً باحتلالهم الأراضي ذات الموقع الهام بين البحر المتوسط من جهة والخليج الفارسي والبحر الأحمر من جهة أخرى.

وفي واقع الأمر لقد ورث العرب كل أعمال نقل التجارة التي مارسها الرومان والأشوريون والفرس وأهالي أواسط آسيا وشمال شرق أفريقيا، ولو قارنا تجارة الماضي بتجارة الحاضر لوجدنا الأولى قليلة الحجم نسبيًا لأن النقل في تلك الأزمان كان أعسر منه في هذه الأيام، وعلى أي الأحوال

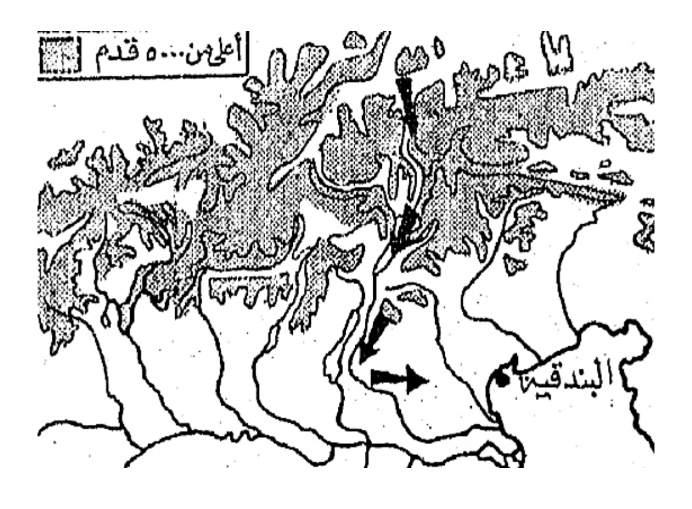
لقد جمع العرب في أيديهم تجارة العالم كيفما كانت ثم أخذت التجارة تنتشر باطراد وأخذ البشر يدركون فوائدها، وقد وجدوا بالتدريج أنه من الخير أن يتبادلوا منتجات إقليم بمنتجات إقليم آخر، وأن هناك وفرًا في الطاقة لو بذلوا بعض الجهود في نقل الحاصلات من إقليم إلى آخر عما لو أنتجت جميع الحاصلات في الأقاليم ذاته حتى ولو كان ذلك ميسورًا وأخذت تطرق عقولهم فكرة وجود طريق مائي بحت إلى الهند وجزرها.

أضف إلى هذا أن الامبراطورية الرومانية كانت قد تحضرت وقد نشأ زعماؤها وبطانتهم على الترف والنعيم وأسرفوا في استغلال الطاقة لتحقيق أغراضهم الخاصة كما ألفوا جمع الموارد والثروات بدرجة تفوق مقدرتهم على استيعابها، وعلى الرغم من سقوط روما سياسيًا إلا أن بضع مدن إيطالية ظلت تعيش في بحبوحة من الرخاء والترف واعتاد أهلها التنويع في المأكل والملبس والمسكن والأثاث، مما يتعذر إنتاجه في إيطاليا واستوردوه بوساطة التجارة العربية من أقصى أطراف المعمورة.



الخريطة رقم ٢٥

تقع البندقية بعيدًا في الداخل ويمتد وراءها سهل لمبارديا وتتصل بالبلاد المنخفضة الشمالية عن طريق الممرات التي تعبر جبال الألب أو نلتف حولها ممر برنر هو أكثر الممرات الألبية انخفاضًا – وهو يسهل الاتصال بمدينة البندقية.



الخريطة رقم ٢٦ – موقع البندقية

كما أن أوربا والت تقدمها في سلم الحضارة، وظهرت بالتدريج دول على أنقاض الإمبراطورية الرومانية، تكونت مباشرة بسبب تهديد جماعات الرعاة من الشرق وهجوم العرب من الجنوب ورجال البحر الأشداء من أشباه الجزر الشمالية، وأخذ مستوى المعيشة في هذه الدول الناشئة يرتفع تدريجيًا، ووجد أهلها بمرور الزمن أن اللحم المقدد الذي كانوا يختزنونه للشتاء حين تعجز الأرض عن الإنتاج يصبح لذيذ الطعام مستساغًا لو أنهم أضافوا إليه بعض البهارات، وعلى الأخص الفلفل، وأن النشاط الذي يبعثه الطعام يمكن أن يزيد لو استثيرت شهية الإنسان للأكل وزادت قدرته على هضمه، وهكذا أصبح لتجارة التوابل التي كانت في أيدي العرب شأن أي شأن، ومن ثم اختصت التجارة بما خف وزنه وقل حجمه وغلا ثمنه حتى توازن تكاليف نقلها لا بالبحر وحده بل وفي البر أيضًا وعلى ظهور الإبل والجياد، وهكذا جنى العرب أرباحًا طائلة من نقل هذه التجارة الثمينة.

ولكن العرب لم يفتحوا أوربا وقد نشأت بها مدن تجارية في مواقع ملائمة وتجمعت لها قوة عظيمة، وكان من الطبيعي أن يكون شمال إيطاليا أكثر البقاع ملاءمة لنشأتها حيث البذخ والترف على أشده وحيث تجد التجارة لها أسهل المنافذ إلى أراضي أوربا الشمالية. فقامت البندقية في ظل حماية مستنقعاتها الرملية، آمنة من العدوان عليها من البر أو البحر ومارست تجارة عظيمة لسنوات عديدة. وكذلك نشأت جنوة وبيزًا جمهوريتين تجاريتين هامتين أيضًا، ونظرًا لحاجة العدد الوفير من سكان شمال إيطاليا إلى مقادير كبيرة من البضائع يستوردونها من البلاد المجاورة كانت

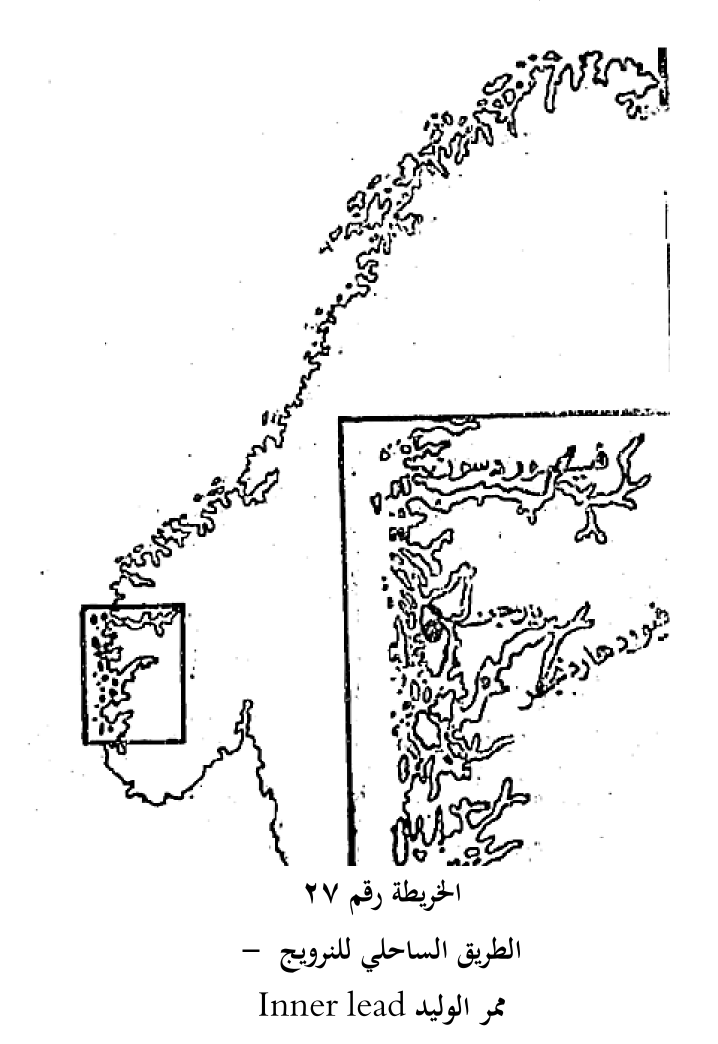
السفن تأتي إليهم محملة بالبضائع على كل حال وأضحت البندقية، وجنوة الثغور التي تستقبل بضائع الشرق الثمنية وفاقتا المواني الأخرى في حجم التجارة الواردة إليها، وهكذا نمت هذه المدن وأضحت موانئ هامة لأن مثل هذه التجارة وإن صغر حجمها كانت تدر أرباحًا طائلة على من يمارسونها بنجاح.

ولما كانت الهند وجزائر الهند هي المصدر الوحيد لهذه البضائع الثمينة تخيل سكان الأمم الغربية بطبيعة الحال أن الهند بلاد غنية وترعرعت في صدورهم رغبة جامحة للوصول بأنفسهم إلى هذه الأراضي الجديدة حتى يتيسر لهم استحضار كنوزها دون أن يدفعوا للعرب عليها مكوسًا.

ويجب أن نلحظ الآن أن الأراضي التي تحف بالمحيط، ولنسمها بأسمائها الحديثة كالبرتغال وإسبانيا وفرنسا والأراضي الواطئة وألمانيا والدانمرك والنرويج وبريطانيا، قد استقبلت جميعًا أما مباشرة وأما غير مباشرة أضواء الحضارة من مواطنها في البحر المتوسط ولكنها ظلت تعيش حتى اكتشاف المحيطات على هامش هذا العالم وظل البحر المتوسط هو مركز الثقل في العالم على الرغم من سقوط الإمبراطورية الرومانية، وتركزت فيه جميع طرق المواصلات وفي الطرف الشرقي منه بوجه خاص حيث ازدهرت أعمال التجارة في أعظم مقاديرها.

ويبدو لأول وهلة أنه كان من المحتمل جدًا أن توفق إحدى هذه البلاد إلى اكتشاف المحيط قد وفق فلاً النرويجيون إلى كشفه فقد اضطرهم

فقر تربتهم إلى الهجرة بحثًا عن الأسماك، فأصبح ممر Inner lead هو الطريق الشمالي الأعظم في ظل



الخريطة رقم ٢٧

الطريق الساحلي للنرويج –

ممر الوليد Inner lead

حماية الجزر العديدة الممتدة بحذاء الساحل وقد تفرعت منه فيوردات[١٢] لا حصر لها فكانت النرويج ببيئتها خير مدرسة لتربية رجال البحر الأشداء، ولا يبعث على الدهشة إذن أن يخرج أهلها متجهين غربًا ليعبروا المحيط وأن يتجهوا جنوبًا على طول السواحل إلى حيث يستقرون لصيد الأسماك أو لامتلاك الأراضي التي يحلو لهم أن يتخذوا منها مقرًا، أما الدانمركيون والسكسون فهم بطبيعتهم أقل ميلاً للملاحة، ولكنهم عبروا بحر الشمال مضطرين بحكم الضغط الواقع عليهم من خلفهم من جراء هجرة القبائل الرعاة من الشرق، أكثر من أنهم هاجروا استجابة لحنين طبيعي فيهم إلى البحر، فأنشأوا إمبراطورية بحرية في بحر الشمال تحت قيادة سويين وكونوت لم تدم إلا قليلاً ولم يوفقوا إلى اكتشاف حقيقة اتصال المحيطات ببعضها ووحدتها، لقد كانت إمبراطوريتهم شبيهة بالإمبراطورية الرومانية الأولى التي قامت على شواطئ البحر المتوسط ولكنها أقل سكانًا وأفقر موارد مما يصلح للاستغلال، لقد كانت لمحة عابرة في التاريخ حتى أن اكتشاف النورسمن[١٣] لأمريكا لم يترك في مجرى التاريخ أثرًا ما، لأنها كانت في نظرهم أرضًا بعيدة مهجورة منعزلة عن العالم ذات مناخ بارد فقيرة في مواردها ولم يهتموا وقتئذ ولا بعد ذلك إن كان الماء محيطًا واحدًا منفصلين لأن هذه الحقيقة لم تكن لتؤثر في حياة البشر اليومية.

---

(١٢) خلجان ضيقة في بلاد النرويج.

(١٣) أهل الشمال.

وكم عاش ملاحون وصيادو سمك آخرون على الشواطئ التي تحف بالمحيط وكانوا يجوبون في قواربهم الخفيفة الساحلية من خليج إلى آخر من بين الخلجان التي تتعمق كثيرًا في اليابس غير أن ملاحتهم لم تتصل بالشريان الأكبر للتجارة العالمية بسبب سيطرة العرب على مضيق جبل طارق فظلت تجارة هؤلاء محلية في مجموعها.

على ضوء هذه الحقائق الجغرافية كان من الطبيعي أن يكون كشف المحيطات من إيبريا وأن تكون هي البادئة بجني فوائده، وقد رأينا من قبل أن معظم شبه جزيرة إيبريا تقريبًا قد افتتحه المسلمون وحين وصلوا إلى الغرب كانوا قد فقدوا كثيرًا من النزعة إلى الكفاح المرير وسفك الدماء فتركوا أهل إيبريا يعيشون وقد فرضوا عليهم الخضوع لسلطانهم.

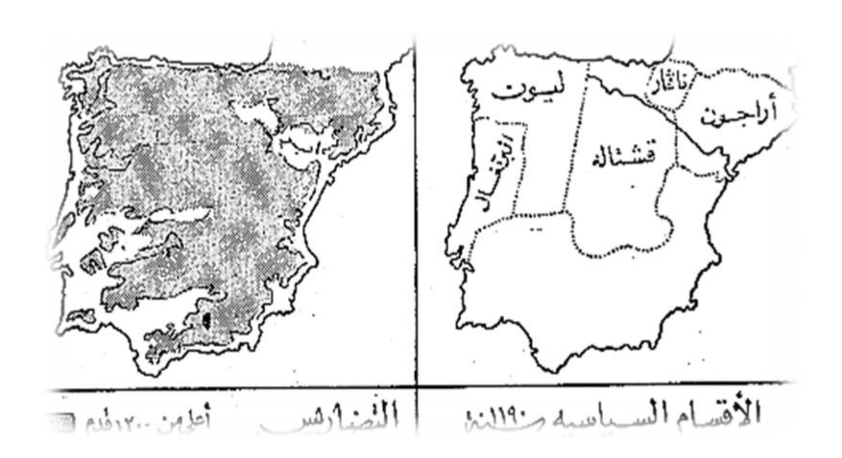
أما في الشمال من أسبانيا فقد التجأت قلة لم تغلب على أمرها إلى غابات جبال البرنس وشعاب الجبال الكنتبرية حيث يتعذر على خيالة العرب وفرسانهم أن يطاردوهم وبقيت هذه القلة مسيحية في ديانتها، فقامت دويلة ليون في الجبال الكنتبرية ودويلة نافار في أودية البرانس المعتزلة.. ونجحت الدويلتان في أن تعودا الهجوم على المسلمين في أسبانيا وأن تعيداها إلى حظيرة المسيحية. وكلما ازدادت أهمية كل من الدويلتين كلما كان من الطبيعي أن تبرز الفوارق الطبيعية بين السهل والجبل.

أما الأراضي المنخفضة الواقعة غربي ليون فقد استقلت وأصبحت نواة لدولة البرتغال، وخرج من ولاية نافار وادي نهر الأبرو[١٤] وامتد شرقًا مكونًا أمارة أراجون كما ظهرت أمارة قشتالة في الهضبة الغربية وبقي م الدويلة الأصيلة في الجبال الشمالية بقية صغيرة تحمل اسم نافار، ثم اتحدت امارتا قشتالة وليون مكونتين قشتالة الكبرى، وهكذا أصبح في شبه جزيرة إيبريا في مطلع القرن الرابع عشر ثلاث دويلات مسيحية كبرى وكانت قشتالة وحدها هي التي تجاور حدودها الدولة الإسلامية الوحيدة الباقية ألا وهي دولة غرناطة.

لقد نجحت البرتغال في تخليص بلادها من حكم المسلمين وهكذا ولدت البرتغال دولة مسيحية، خلقت وهي تحارب المسلمين، ومن الطبيعي أن تتابع الاتجاه الذي وجدت نفسها تسير فيه منذ مولدها لأن أهلها المسيحيين قد تعودوا محاربة المسلمين دفاعا عن عقيدتهم، فبدا طبيعيا أن يستمروا في حروبهم الصلببية ضد المسلمين حتى ولو اقتضى تطور الحرب أن يعبروا البحر إلى أفريقيا، وهكذا تكونت لهم قبيل منتصف القرن الخامس عشر ولاية برتغالية على شواطئ أفريقيا تسمى "بالغرب فيما وراء البحار" (Algarve beyond the sea) ومن ثم تهيأت لهم ظروف مواتية لكشف المحيط.

(١٤) نهر أبرة.

وكان للبرنس هنري الملاح أكبر الفضل في السير بخطى حثيثة في الكشف من المحيطات، وهو برتغالي الأصل أوتى الحكمة وبعد النظر، ولأعماله أكبر الأثر في الإسراع بأحداث التاريخ الطبيعية في مسراها المقدر لها، لقد شب الأمير هنري الملاح وهو يرى أمامه دائمًا قوة العرب في تجارتهم، فبنى في عام ١٤١٨ مرصدًا على قمة جبل ساجرس الشامخة إلى جوار رأس سنت فنسنت، وأخذ يرسل منذ العام التالي السفينة وراء السفينة وكلما تسمى جنوبا على طول الساحل الإفريقي وهي تهدف إلى تحقيق الغرض العاجل: أي كشف طريق بحري إلى الهند.



الخريطة رقم ٢٨

مرتفعات ايريا وكيف تتحكم في تقسيمها إلى ولايات .. لاحظ كيف أن قشتالة وليون مرتفعات وارجوان والبرتغال منخفضات

وكان تقدمهم بطيئًا في أول الأمر لأن الصحراء الكبرى تمتد فيما وراء البلاد المراكشية، والصحراء وهي أرض المسلمين تصل في امتدادها إلى حافة المحيط وتهب الرياح التجارية هبوبا ثابتًا نحو الجنوب الغربي قد خلت من رطوبتها فلا تسقط من الأمطار شيئًا يبعث بالحياة النباتية إلى هذه الصحراء، أضف إلى ذلك أن الشاطئ الأفريقي فيما بعد مراكش ينبعج نحو الجنوب الغربي، والرياح التجارية في هبوبها في ثبات وانتظام تقذف بالسفن بعيدًا عن الساحل مما يبعث بالخوف في صدور البحارة الأوربيين خشية أن يعجزوا عن العودة، لو أنهم اتبعوها ولن يجدوا رياحا تعيدهم إلى أوطانهم ثانيًا، وبدا لهم رأس نون (non) وكأنه يقف بالمرصاد لأولئك الجسورين من البحارة الذين تجرأوا وغامروا حتى وصلوا إليه ويقول لهم: "كلا، لا تتقدموا".

من هذا يتبين لنا كيف تجمعت الأسباب الوجيهة التي حالت دون أن يدور البشر حول أفريقيا حتى ذلك الأوان، ولكن تشجيع البرنس هنري والرغبة في اقتسام خيرات الهند هذه كلها تضافرت فدفعت بالكشف البحري إلى الأمام. وفي عام ١٤٤٧ أعلن رسميا عن أهداف أعمال الاكتشافات حتى يكون جميع المسيحيين في الأرض على بينة منها، إذ سمح البابا للبرتغال بأن تضم إلى تاجها كل الأراضي التي يتم كشفها بين رأس نون وأرض الهند سواء تم كشفها في ذلك الوقت أو في مستقبل الأيام، ومن الأهمية بمكان أن نعرف ما تمخضت عنه هذه المنحة في سير التاريخ، فإن التاريخ كما رأينا توجهه عوامل جغرافية وتتحكم في غيره.

ولم يطل الأجل بالأمير هنري ليرى نتائج مشروعاته وقد تكللت بالنجاح فلم تمض ثمانون عاما على احتلال ساجرس حتى كان البحارة البرتغاليون يجوبون بسفنهم على طول ساحل أفريقيا وحتى دار دياز حول رأس الرجاء الصالح ووصل فاسكودي جاما إلى الهند وعاد منها محملا سفنه بالتوابل والإفاوية ليثبت لمواطنيه كشف الطريق إليها، ومنذ ذلك الوقت لم يعد هناك محيطان منفصلان، بل أضحت مياه الأرض محيطا واحدا متصلا، واحتكر حارة المحيط أعمال التجارة منذ ذلك الوقت لأنهم استطاعوا توفير الطاقة بفضل نقل البضائع في طريق مائي بحت، وهكذا تمت خطوة أخرى عظيمة في تقدم الحضارة، ففي أقل من خمس سنوات بعد عودة دي جاما من الهند كانت السفن التي اعتادت نقل البهارات من موانئ بيروت والإسكندرية تدخل ميناء البندقية وهي خاوية، كما لم يمض على عودته اثنا عشر عاما حتى تم غزو جزر الهند الشرقية وهزيمة العرب في البحر العربي وفي ملقا، وهكذا توطد النفوذ البرتغالي على طول سواحل الهند.

لقد وفقت البرتغال إلى القيام بطلائع أعمال الكشف والارتياد بفضل موقعها الجغرافي وبفضل همة الأمير هنري، ولما كان أهل ايبريا مسيحيين من المذهب الكاثوليكي أي كاثوليك من أتباع الكنيسة الرومانية الذين تملأ قلوبهم الحماسة الدينية لم يمر منشور البابا دون أن يثير غريزة المنافسة في نفوس أهل قشتالة، وأهتموا جميعا بالكشف البحري جنوبا وعلى الأخص حين وصلت البعوث إلى ساحل غينا وأخذت تنقل منتجاتها إلى أوربا.

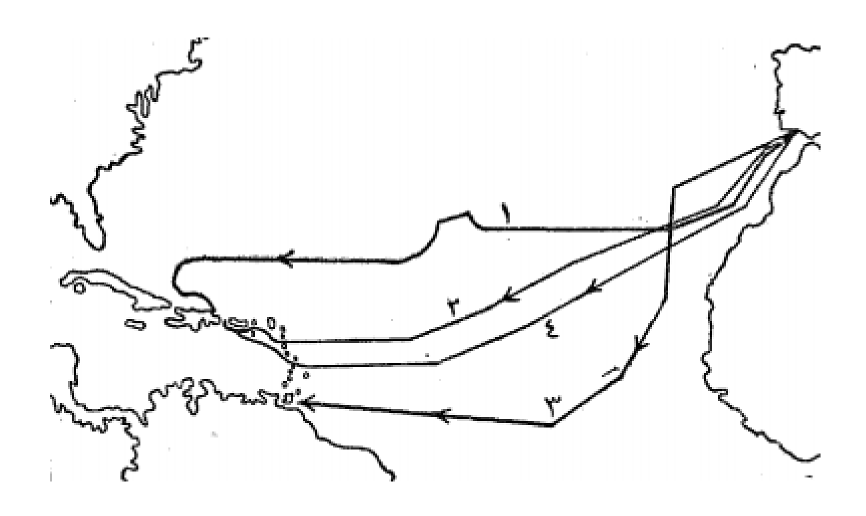
حينئذ وحينئذ فقط أضحت حقيقة كروية الأرض ذات أهمية عظمى، فما دامت الأرض كروية فلا بد أن يكون هناك طريق آخر إلى الهند بالاتجاه غربا وهو طريق مفتوح لكل رائد يجرؤ على ارتياد مجاهله، ولما كانت إيبريا تقع على الطرف الغربي للبحر المتوسط الذي عاش حوله جميع البحارة ممن عملوا على نقل التجارة العالمية، كان من الطبيعي جدًا أن يبحث البحارة من أهل جنوا والبندقية وبيزا عن عمل لهم تحت قيادة السلطات البرتغالية بعد أن بدأت البرتغال عهدًا من التوسع فيما وراء البحار وعلى الأخص حين لم يكن هناك من الدوافع ما يحفز البرتغاليين لاحتراف الملاحة في العصور الأولى، فليس بعجيب إذن أن يفكر كولمبس في أن رحلة إلى الغرب جديرة بالمغامرة، وهو الرجل الجنوى الأصل الذي ألف أعمال التجارة والذي أقام سنين عدة في البرتغال وقد انتشرت في أجوائها الأحاديث عن التجارة العالمية، أضف إلى هذا أنه ملاح قدير شقت سفنه عباب البحر إلى جزر أزورس وإلى إيسلند، ودرس الكثير عن النظريات التي تعالج شكل الأرض.

ولكن البرتغال لم تهتم بالكشف غربًا وهي التي خصصت جهودها لاكتشاف الطريق الشرقي إلى الهند وهو الطري الذي انفتح أمامها، أما الولايات الإيطالية فكانت لا تزال تفضل استمرار البحر المتوسط كحلقة في سلسلة الطريق إلى الشرق مفضلة إياه على أن تساهم في فتح طريق جديد، أما بريطانيا لم تكن تدرك بعد معنى التجارة العالمية، وكانت قشتالة هي البلاد الوحيدة التي وجد فيها كولمبس عطفا ملحوظا على أفكاره، ويجب ألا ندهش من أنه استغرق سنين عديدة ليزيل عن الناس خوفهم من

المحيط الذي سيطر على عقولهم أحقابا طويلة، وكولمبس مثله كمثل الأمير هنري قد استغرقت منه المحاولة وقتًا طويلا على الرغم من أنه في كلا الحالين تمت المحاولة على يد رجل واحد، وربما لو قدر لغيرهما أن يقوم بها لأتمها في زمن أقصر مما قدر لأيهما ولكن كليهما كان المثل الذي خلقته الظروف الجغرافيا لأداء هذه الرسالة.

وسرعان ما أدركت دول أوروبا قيمة اكتشاف كولمبس إذ لم تمض ستة أسابيع على عودته في عام ١٤٩٣ حتى أصدر البابا منشورًا يؤيد كروية الأرض ويمنح نصف الكرة الغربي لإسبانيا كما سبق أن منح النصف الشرقي للبرتغال، ولم تكن الأراضي التي اكتشفها كولمبس في محاولته للوصول إلى الهند بلادا يهتم بها البشر آنئذ، فقد اقتصر البرتغاليون على تحميل سفنهم بالتجارة الهندية التي اعتاد العرب نقلها من قبل، أما في العالم الجديد فلم يجد الإسبان تجارة أ، بحارات ينقلونها، بل أن الإسبان الذين جاءوا في أعقاب كولمبس في أعداد وفيرة كانت تساورهم ثلاث أفكار هي القتال والتبشير بالمسيحية واقتناء الذهب والفضة، ولم تشغل التجارة حيزًا من تفكيرهم، ويجب ألا يبعث هذا على الدهشة لأن أهل قتشالة اعتادوا القتال منذ قرون مضت في سبيل نشر المسيحية، هذا بالإضافة إلى أن الهضبة التي يعيشون على سفوحها تنتج المعادن الثمينة ولا تلائم التجارة.

وعلى الرغم من أن نصف العالم الغربي منح لإسبانيا إلا أن الإسبان لم يفتحوا كل أراضيه، وتحكمت العوامل الجغرافية في تحديد الأراضي التي دخلت في نطاق



الخريطة رقم ١٩ – رحلات كولومبس

نفوذهم، فإن نظرة إلى الخريطة ترينا كيف أن الرياح التجارية في المحيط الأطلسي تهب في ثبات وانتظام إلى الجنوب الغربي، ولهذا لم يعبر كولمبس المحيط في اتجاه غربي تمامًا بل اتخذ اتجاهه غربي الجنوب الغربي فوصل إلى الجزائر التي نطلق عليها الآن جزائر الهند الغربية، ووصل في الرحلات التالية إلى أمريكا الجنوبية والوسطى، ولما كان برزخ بنما ضيق العرض فقد سمع كولمبس من الأهالي بوجود المحيط الهادي وبعد بضعة أعوام عبر الإسبان برزخ بنما سفنهم على شواطئ المحيط الهادي وهكذا جهل كولمبس وجود أمريكا الشمالية جهلا تاما وأنتشر الاستعمار الإسباني غربًا من جزائر الهند الغربية نحو المكسيك وجنوبًا على طول شاطئ المحيط

الهادي في أمريكا الجنوبية بما فيها الأجزاء الجبلية حيث وجدوا سبيلا إلى استخراج المعادن الثمينة، وكانوا يبيدون الوطنيين أ، يجبروهم بحد السيف على تغيير دينهم وساقوهم رقيقا يباع في الأسواق ليخدموا أسيادهم الجدد، وهكذا تطورت البلاد التي افتتحها الإسبان فأصبحت إسبانية حتى في لغتها.

وبينما كان الإسبان يخضعون المكسيك كان ما جلان يحاول إتمام العمل الذي بدأه كولمبس، فأبحر غربا يبغى الوصول إلى جزائر الهند الشرقية جريا وراء تجارة الأفاوية والتوابل، ومجلان برتغالي المولد سبقت له زيارة جزر الهند الشرقية وربنا كان قد وصل في رحلاته إلى جزائر مولوكا Moluccaa وأدرك أن تجارة التوابل تدر ثروات طائلة، وقد رأينا آنفا أن البرتغاليين لم يهتموا بالطريق الغربي إلى الهند وأن الإسبان لم يهتموا بالغا بتجارة البهارات غير أن منافستهم للبرتغال حفزتهم إلى مساعدة مجلان كما ساعدوا كولومبس من قبل.

كانت مهمة مجلان هي شبيهة بالجمع بين أعمال دياز وكولمبس، فهي شبيهة بمهمة دياز ومن سبقوه حينما حاولوا أن يجدوا ممرا حول الطرف الجنوبي لكتلة عظيمة من اليابس تفصل بين محيطين، وهي شبيهة بمهمة كولمبس إذ كان عليه أن يعبر محيطا خضما لم يسبق لأحد ارتياده بل أن مهمة مجلان تفوقهما مشقة فالظروف تحتم عليه ألا يغال جنوبا إلى مدى أبعد مما بلغه دياز وعليه أن يعبر محيطا أ،سع من المحيط الذي قطعه كولمبس، ولكن الحقيقة الراهنة ظلت ماثلة أمامهم وهي أن مثل هذه

الصعاب أن ذللت كان النجاح أكثر احتمالا وكان بحارة ما جلان راغبين في الاستمرار في رحلتهم على الرغم من أن الصعوبات الفعلية التي لاقوها كانت تفوق نظائرها في الرحلات السابقة.

وهكذا نجحت محاولة ماجلان على الرغم من أن الرجل قضى نحبه أبانها فأن الطريق الغربي إلى جزر الهند الشرقية قد تم ارتياده وأمكن لتجارة البهارات والعطور أن تصل إلى إسبانيا وأصبحت بعض أراضي الشرق الأقصى تخضع لها وطبعها الاحتلال الإسباني بطابعه الخاص ولا تزال جزائر الفلبين تحمل اسم ملك إسبانيا وقد بقيت إسبانية مدة أربعة قرون، وظلت في خلال ثلاثة قرون منها تستقبل السفن التي أبحرت إليها من إسبانيا وقد اتجهت غربا ولا تستقبل السفن الآتية من البرتغال وقد اتجهت شرقا، وقد ورثت حتى الآن شرور حكم اسمى كسيح عاجز منحه البابا لإسبانيا حين كانت قوة تحارب المسلمين.

غير أن الطريق الإسباني إلى جزائر الهند الشرقية لم يحرز نجاحا، لا لمجرد كونه أنه يزيد في طوله كثيرًا عن الطريق الشرقي بل لأن هذه المسافة الشاسعة ترجع إلى أن الطريق يمر عبر مساحة واسعة من المحيط تبلغ نحو نصف محيط الكرة الأرضية تقريبًا[١٥]. وقد خلا هذا المحيط الشاسع من البقاع اليابسة، وبالجملة فإن الانتقال على المحيطات أسهل بطبيعته ويقتضى مجهودًا وطاقة أقل مما يبذل في النقل على اليابس ولكن اليابس

---

[١٥]– يبدو هذا واضحًا إذا عرفنا أن شمال الصين يقع قريبًا على الطرف الآخر للمحور الأرضي الممتد بين الصين وجنوب أمريكا الجنوبية.

يمتاز بأنه المكان الوحيد الذي يستطيع الإنسان أن يستقر فيه وأن ينتج ويجعل الطاقة في متناول يده، بينما يتعذر إنتاج أي شيء في المحيط، ومن ناحية أخرى فإن بلاد الهند الشرقية على الجانب الآخر من العالم لا تقدم للمكتشفين غير التوابل التي اعتز بها البرتغاليون أيا اعتزاز ولم يعرها الإسبان قسطا من اهتمامهم واحتقروا تجارتهم وانصرفوا عنها إلى اقتناء الذهب والفضة.

وهكذا نرى أن اكتشاف وحدة المحيطات واتصالها أدى إلى تسلط البرتغاليين على مفاتيح التجارة العالمية وحلولهم محل العرب في السيطرة عليها على حين أدى الكشف عن شكل الكرة الأرضية إلى تسلط الإسبان على معظم أمريكا غير أن جزءًا من القارة الأمريكية وهو البرازيل وقد وقع في قبضة البرتغاليين باعتبار أنه واقع في نصف العالم الذي كان من نصيبهم.

الفصل العاشر

المحيطات – سيادة المحيطات – هولندا وفرنسا

لقد اقتسمت إسبانيا والبرتغال لفترة من الزمان ثمرات كشف المحيطات وظهرتا كأنهما ستظلان تقتسمان هذا النفوذ إلى الأبد ما دامتا حائزتين لتأييد البابا – غير أن البابا ليس في مقدوره أن يغير الظروف الجغرافية ولا أن يعدل من سلطانها على عقول البشر.

وقد سبق أن رأينا كيف أن فوائد النقل البحري تربى على فوائد النقل البري وأن الطريق البحري يمتاز بإمكان نقل البضائع لمسافات طويلة وبتكاليف نقل كثيرا عما يتطلبه نقلها بالطريق البري – ورأينا أن ايبريا تواجه المحيط مباشرة غير أنها شبه جويرة منعزل تقريبا عن باقي أوربا وأنها بهذا الوضع لا تصلح لأن تكون مرفأ مناسبا للجزء الأكبر من البضائع المرسلة إلى القارة، وقد امتد وراء مدينة البندقية سهل لمبادرياو وهو بلاد عمرت بالسكان بفضل ثروتها وبفضل تاريخها الماضي الذي تحدثنا عنه حتى الآن، بينما لا يقطن فيما وراء لشبودة عدد وفير من السكان وليس في إسبانيا ما يشبه سهل لمبارديا، فهي هضبة جرداء في معظم أراضيها، ونشأ عن ذلك أن أصبح أغلب البهارات والتوابل التي تصل إلى لشبونه

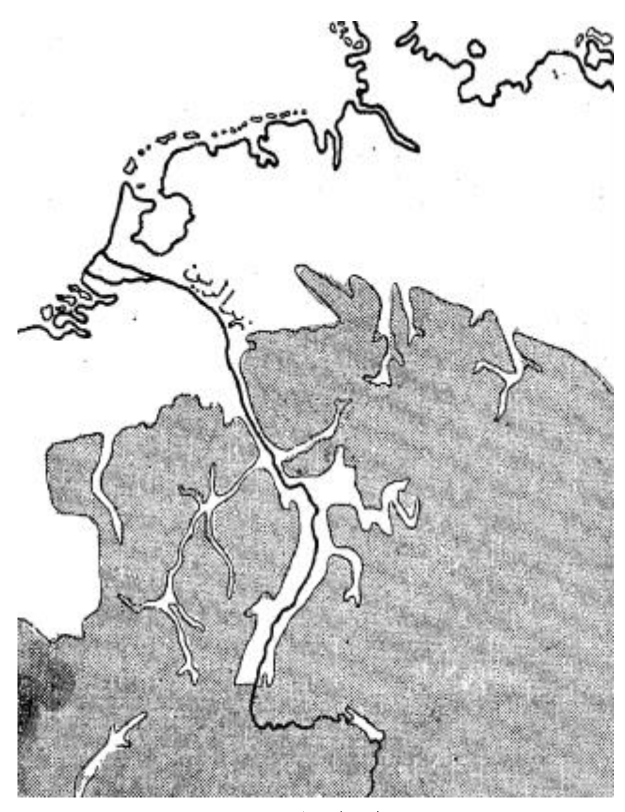
مصيره النقل مرة أخرى إلى داخل القارة متوخيا أرخص الطرق وأيسر سبل المواصلات.

وليس المجال هنا مجال الحديث بإفاضة عن أسباب حركة الإصلاح الديني أو النهضة التي كان الإصلاح الديني مظهر من مظاهرها فإن كلاهما راجع إلى حد كبير إلى النظرة الشاملة التي نظر بها الناس إلى العالم والتي أوحت بها إليهم الأحداث التاريخية، وقد رأينا التاريخ مسيرا بفعل العوامل الجغرافية، ولكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن النهضة وإن عم أثرها أوربا جميعا إلا أن الإصلاح الجيني كان أعمق أثرا في البلاد التي كانت أبعد ما تكون عن مواطن الكنيسة الكاثوليكية، مثله هنا كمثل المسيحية في انتشارها وتأصلها في البلاد التي لم تمسسها اليهودية من قبل، فقد عم الإصلاح الديني هذه المنطقة بالذات التي تسكنها شعوب لم تستسغ طرائق التبشير بأصول المذهب الكثوليكي استساغة الشعوب التي خضعت لسلطان روما منذ أمد بعيد، والتي عاشت في بيئات جغرافية تختلف نوعا ما عن البيئات التي سادها الإصلاح الديني، ومن ثم اختلف التطور التاريخي في شمال القارة عنه في جنوبها وأصبح الموقف شبيها بالآلهة التي لم تهيأ تماما لظروف استخدامها، وتولد عن هذا الاختلاف بين الشمال والجنوب احتكاك متزايد، كما أدى اختراع الطباعة في البلاد الشمالية إلى توفير عظيم في طاقة أهلها وانطلق الناس يوجهون جهودهم إلى ميادين أخرى فانتشرت بصفة خاصة المذاهب الحديثة انتشارا أسرع كثيرا مما لو لم يقدر للطباعة أن تظهر، وهكذا تمكنت العداوة في النفوس بين أهل الشمال والجنوب، وظلت كامنة تنتظر الشرارة الأولى فتنطلق من عقالها

وليس بعجيب بعد ذلك أن يستغل الناس أسباب العداوة فتندلع الثورة البروتستانية الهولندية من جراء تصرفات الإسبان الكاثوليك[١٦].

والعوامل الجغرافية أكبر الأثر في تكييف ميول أهل الأراضي الواطئة وعليها توقفت قدرتهم ورغبتهم في تحرير أنفسهم لم يكن بد من أن جرى اتصال إبان العصور الوسطى بين شمال أوربا الذي كان يسير تدريجيًا في طريق المدنية وبين جنوبها العريق في مدينته، وكان المسلمون يضعون أيديهم على بوغاز جبل طارق ولم تكن هناك طرق توصل بين الشمال والجنوب ومن أصبح للأنهار الأهمية الكبرى ونهر الراين هو دون الأنهار الأوربية الوحيد الذي يستمد مياهه من منابعه الألبية في جنوب أوربا، أضف إلى ذلك أن واديه يبدو في خريطة أوربا الغربية كما لو أن الطبيعة قد قدته في الهضبة المحيطة به وهبطت به إلى مستوى لا يزيد عن بضع مئات من الأقدام فوق سطح البحر، هذا الوادي كان الطريق الرئيسي في أوربا الغربية الذي انتقلت عليه الأصواف المستوردة من إنجلترا، وإنجلترا في تلك الأيام كانت

[١٦]- يلاحظ أن الأراضي الواطئة كانت في هذا الوقت تحت حكم الإسبان.



الخريطة رقم ٢٠

وادي الرين

وادي الرين هو جزء من السهل منعزل تقريبا تحيط به المرتفعات

تقوم بدور في تجارة الأصواف شبيه بالدور الذي تأميه أستراليا اليوم، فكانت ترسل أصوافها إلى المدن الصناعية في شمال إيطاليا من أمثال فلورنسه وبيترا، وهما المدينتان المزدحمتان بسكانهما الذين كانوا على مستوى رفيع من العيش يمكنهم من أن يدفعوا الثمن الذي يتطلبه شراء الكماليات من الملابس الصوفية الجيدة وصحبت تجارة الصوف – وهو سلعة كبيرة الحجم – أنواع أخرى من التجارة وبمضي الزمن قامت مصانع

لنسج الصوف في الأراضي الوطيئة وهي التي تقع في طريق نقله من إنجلترا، ثم نشأت مدن صناعية فيما نسميه اليوم بلجيكا

وازدادت أهمية هولندة بنمو بلجيكا، ذلك أن أهل بلجيكا لم يكونوا رجال بحر على حين شب أهل هولندة بحارة بطبيعة سكانهم الجزر المنتشرة بحذاء ساحل بلادهم الضحل، واضطرتهم بيئتهم إلى الاعتماد على صيد الأسماك في معاشهم المتواضع، وكابا تجمع السكان تدريجيًا في الغرب (أي في بلجيكا) ولكما ازدادوا غنى وثروة، كلما جنى البحارة الهولنديون أرباحًا طائلة من صيد الأسماك التي كانوا يزودون بها الجماعات الصناعية، فازدهرت حرفة صيد الأسماك ونمت بنموها ثروة الهولنديين وزاد عدد من يحترفونها، وأدى هذا التفاعل المزدوج بطبيعة الحال إلى استعانة التجار البلجيكيين بصيادي الأسماك الهولنديين في نقل بضائعهم بالبحر، أما في إسبانيا والبرتغال فإن نسبة ضئيلة فقط من سكانهما كانت تحترف الملاحة البحرية، كما احتاجت إسبانيا إلى عدد قليل من السفن لنقل تجارتها من بهارات أو ذهب أو فضة إلى إيبريا، بينما امتلكت هولندة عددًا كبيرًا من السفن. فلما بدأ اليأس يخيم على أهل هولندة في صراعهم مع إسبانيا وينذر بفشلهم في سبيل حريتهم اقترح بعضهم بصفة جدية أن تقوم السفن بنقل جميع السكان من البلاد باحثة لهم عن وطن جديد فيما وراء البحار – وهكذا سكنت في الأراضي الوطنية جماعات قوية من التجار وإلى الجنوب منها يجري أبدع طريق مائي إلى قلب قارة أوربا، وليس من الغريب بعدئذ أن تصبح مدينة أشورب البلجيكية ذات مركز تجاري رئيسي في أوروبا وأن يضيف الهولنديون إلى جنبة حرفهم حرفة نقل البهارات وأن

يجدوا ورائها أرباحا طائلة، حقًا كان للأراضي المنخفضة البلجيكية منفذ إلى البحر ولكن كان سكانها تجارًا وصناعًا أكثر منهم ملاحين وبحارة، ومن ثم أخذت ثروة الهند والشرق تجد طريقها إلى البلاد الهولندية التي لم يكن الدفاع عنها سهلا، حتى أنه لما شبت الثورة الهولندية كان أول ظهور لها في أبعد جزيرة في مصب نهر الراين وهي التي استطاع أهلها فعلا أن يغمروا أراضيهم كي يغرقوا أعداءهم ولكي يمكنوا لسفنهم المفلطحة القاع من أن تقترب من مدنهم المحصورة، وسرعان ما وجد الهولنديون أنفسهم يملكون زمام البحر، أما بلجيكا فقد حرمت كل هذه الميزات وبقيت خاضعة للحكم الإسباني، ولم يقتصر الأمر بالهولنديين أن أصبحوا أمة من التجار بل إنهم تسلطوا على سيادة المحيطات العالمية فترة من الزمان.

ولقد ارتكب الإسبان خطأ فاحشًا، ذلك أن الذهب والفضة وما يتبعهما مما يسمى أحجارًا كريمة ليست ثروة في حد ذاتها وإنما هي توم مقام قدر معلوم من الطاقة حسب ما جرى عليه العرف والتقاليد، وهي ليست طاقة في حد ذاتها، فلم يحدث أي استغلال لموارد الطاقة في البلاد التي افتتحها الإسبان، كما أن هذا الفتح لم يزد في ثروة إسبانيا الحقيقية إلا قليلا – يتضح لنا ذلك لو أدركنا أن إقليم الأراضي المنخفضة الصغير كان يغل للخزانة الإسبانية دخلا يقدر بأربعة أضعاف ما كانت تغله جميع أراضي المكسيك وبيرو، ففي الأولى كانت الطاقة تستغل استغلالا طيبًا ويفيض منها الكثير بينما لم تستغل الثروة إلا قليلا في العالم الجديد ولم يفض منها شيئًا.

واعتمدت السيادة المحيطة الإسبانية على الذهب فقط، على حين قامت القوة البحرية الهولندية على أساس الإفادة من الطاقة التي يملكونها والتي يسخرونها في سبيل الحصول على قسط أكبر منها، فازدادت الثروة التي تجمعت في أيديهم وتسربت آخر الأمر إلى هولندة نسبة كبيرة من الذهب الذي جلبه الإسبان من جزر الهند – وليس من شك في أن مجرد الغزو العسكري لأي إقليم لا يترتب عليه ازدياد في الثروة أو اقتصاد في الطاقة لدى الفاتحين.

ولم تقتصر إسبانيا على غزو أقاليم فيما وراء المحيطات بل أنها تسلطت أيضا على البرتغال فترى من الزمان وقضت على نفوذها وعلى قدرتها في تنمية ثروتها بالتجار في التوابل والبهارات التي تكرتها حتى ذلك الوقت على الرغم من أن موقعها الجغرافي لم يكن يلائم التجارة مع باقي دول أوربا كما يلائمها موقع هولندة فما وافي عام ١٥٧٨ حتى فتنصت هولنده هذه الفرصة السانحة وقامت بقيادة وليم الصامت وخلعت عنها كل قيد للسلطة الإسبانية، واندفع البحارة الهولنديون في عدائهم مع إسبانيا يجوبون البحار ولا يعترفون للبابا بمنحته السابقة وينتصبون من أعدائهم كل أرض يستطيعون الاتجار معها، وكانت هذه الأراضي من الممتلكات البرتغالية في أغلها، ولم يفرق الهولنديون عندئذ أن كانت تلك الأراضي تابعة للبرتغال أو لإسبانيا، ولم يكد يمضي على ذلك نصف قرن آخر حتى كان

الهولنديون يجوبون البحار في أربعة أركان المغمورة، وبعد بضعة أعوام أخرى حين بلغت قوتهم ذروتها كانوا سادة جزائر الهند الشرقية بلا منازع، وأسسوا مستعمرات لهم في البرازيل وفي غيانه وارتادوا رأس هورن[17] وداروا حوله واطلقوا عليه اسم قرية صغيرة من قرى بلادهم التي اشتهرت بصيد الأسماك، وامتلكوا محطات تجارية على شواطئ غينا في أفريقيا وأسسوا المستعمرات في مدينة الرأس في طريقهم إلى الهند وامتلكوا جزائر موريس واطلقوا عليها اسم أميرهم كما امتلكوا جزيرة سبيلان ووضعوا أيديهم على مدخل أمريكا الشمالية عند مدينة نيو أمستردام[18]، أضيف إلى ذلك أنهم قاموا بالجزء الأكبر في نقل التجارة بين دول أوربا كما نقلوا البضائع بين إسبانيا وفرنسا وأمريكا، ولقد جعلوا من أنفسهم عمال الشحن في البحار كما سموا أنفسهم وهكذا انتقلت إليهم سيادة البحار التي كانت لإسبانيا والبرتغال وأن ظلت إسبانيا محتفظة بثمرات فتوحاتها.

غير أن السيطرة البحرية الهولندية كان لابد وأن تدول لأسباب جغرافية، كما دالت من قبل السيطرة البحرية الإسبانية والبرتغالية، وقد تقدمت وسائل استغلال الطاقة وأصبحت منتجات البلاد البعيدة في متناول الجميع بأثمان رخيصة نسبيًا.

ولكن الضرورة تدعو إلى شيء أبعد من ذلك، ولنضرب مثل الآلة السابق ذكره توضيحًا لهذه الحقيقة، فكل آلة في حاجة لبعض العناية

[17]- في أمريكا الجنوبية.

[18]- نيويورك الحالية.

لصيانتها لتحول دون تسرب طاقتها حتى تؤدي عملها كما يجب، ولتحول أيضًا دون تأثير العوامل المضادة تأثيرًا ضارًا فيها، ولكي نوفق إلى هذه النتيجة يجب أن توجه الطاقة لتصرف في وجوه نافعة، والخير كل الخير أن تقل الطاقة المتسربة ما أمكن، وهولندة ليست بطبيعة تكوينها قادرة على أن تبذل من جهود هاما يكفي لحمايتها، ذلك أن دلتا الراين صغيرة جدًا ولا تستطيع أن توفر الغذاء والحياة لعدد كبير من السكان، ومن ثم قل عدد أفراد المجتمع الذين تربطهم صلات المصلحة المشتركة وممن

تتجاوب مشاعرهم وعواطفهم، قلما استمر الصراع بين الإسبان وهم رجال بر والهولنديين وهم رجال بحر آلت سيادة البحار للأمة البحرية، ولكن لما نشب الصراع بين الهولنديين وبين أمة بحرية أخرى تدخلت اعتبارات أخرى في تقرير المصير.

أضف إلى هذا أن المستنقعات التي تكثر بدلتا الراين والقنوات التي تتخللها كان لها أكبر الفضل في توفير الحماية للدولة الناشئة، شأنها هنا كشأن المستنقعات التي أحاطت بمدينة البندقية أو كالمستنقعات التي أحاطت ببابل – وبفضلها أحرزت هولندة استقلالها في صراعها ضد إسبانيا – وبواسطتها تمكنت هولنده من الدفاع عن نفسها ضد الغزوات الفرنسية بعد قرن من الزمان – غير أن حدود هولندة وحاجتها الدائمة إلى الدفاع تقتضي تخصيص جزء من قوتها البشرية – وهي في الأصل ضئيلة – لتحرس حصون دفاعها، فلما هاجمها الأعداء من البر لم يكن استسلامها أمرًا عجيبًا.

وعلينا الآن أن نقف قليلا عند جغرافية الدولة التي كانت عاملا فعالا في إسقاط هولندة والتي بذلت في الوقت عينه محاولات مختلفة لتحرز السيطرة على المحيطات: ذه الدولة هي فرنسا.

وقد رأينا فيما سبق كيف امتدت الإمبراطورية الرومانية فشملت كل بلاد غربي أوربا وأيبريا وبلاد الغال وجنوبي بريطانيا، ومن ثم اكتسبت هذه الأراضي وهي في ظل السلطان الروماني أهميتها في نظر التاريخ العالمي – وكذلك رأينا أيضًا كيف انهارت القوة الرومانية تحت أقدام القبائل المغيرة التي انطلقت عليها من خارج حدودها وكيف قامت آخر الأمر دولة في الشمال من القبائل الجرمانية التي لم تدخل قط تحت الحكم الروماني واعترف بها البابا في روما وسميت بالإمبراطورية الرومانية المقدسة لأنه اعترف بها على أساس أنها تعيد إلى الأذهان ماضي الإمبراطورية المجيد، وشملت هذه الإمبراطورية الجديدة فيما شملت ما يعرف الآن باسم فرنسا وألمانيا ولم تشمل بلاد أيبريا لأنها كانت في ذلك الوقت دولة أندلسية إسلامية، ثم

انقسمت هذه الإمبراطورية انقساما طبيعيًا –في بادئ الأمر – إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الغربي وهو الذي كان تابعًا لروما، والجزء الشرقي الذي لم يكن قط رومانيا، والجزء الأوسط وهو الذي كان يتنازعه الاثنان، وكان الجزآن الأولان يزيدان في أهميتهما بطبيعة الحال عن الجزء الأخير الذي كان يدخل إلى حد ما في إطار هذه الوحدة آنا وفي إطار تلك الوحدة آنا آخر، فظهرت فرنسا تدريجيًا من القسم الغربي، غير أنه يجب أن يلاحظ أن

فرنسا الحديثة لم تولد في العهود الرومانية ولم تولد إبان إمبراطورية شرلمان الأولى، حقًا كانت الأراضي التي تتكون منها فرنسا اليوم بلادًا متمدينة سواء في العهد الروماني أم إبان الإمبراطورية التيتونية، ولكنها لم تولد كدولة حتى ذلك التاريخ.

ومن الضروري أن نعرف ماهي الوحدات الطبيعية التي تتكون منها فرنس؛ وقد عرفنا من قبل مبلغ أهمية ممر مرسليا أو وادي الرون في العهد الروماني فقد أخضعه الرومان لحكمهم قبل أن يفتحوا سهول لمبارديا وكان وادي الرون أول الأقاليم المفتوحة خارج شبه الجزيرة الإيطالية، وهنا تمتد سلسلة من السهول تتكون على التوالي من السهل الساحلي ثم من وادي الرون والساؤن والممر الواقع بين جبال البرانس والهضبة الجنوبية وقد وقفت مرتفعاتها في الثغرة الواقعة ببين جبال الألب وجبال البرانس، وامتازت هذه الهضبة بالخصائص الاقتصادية التي تسود أقاليم المرتفعات عادة، فتناقضت تناقضًا بينًا مع المنخفضات على كلا الجانبين وما جبال السفن سوى الحافة الجنوبية الشرقية لهذه المرتفعات في انحدارها ويسير خط تقسيم المياه متتبعًا أعلى قممها الوسطى ومتجهًا نحو بريتاني وتمتد على طول هذا الخط مرتفعات الأوفرن وعلى جانبيها يقع سهلا اكوتانيا وشمال فرنسا، وتتكون ترتهما من مخلفات الرواسب المختلطة التي تخلفت عن فتات صخور متنوعة، ولهذا امتازت بخصوبتها وعلى الأخص تلك الطبقات الرسوبية التي تملأ وادي اللوار والجارون مخترقة ممر بواتييه وتيسر سبل الاتصال بين السهلين.

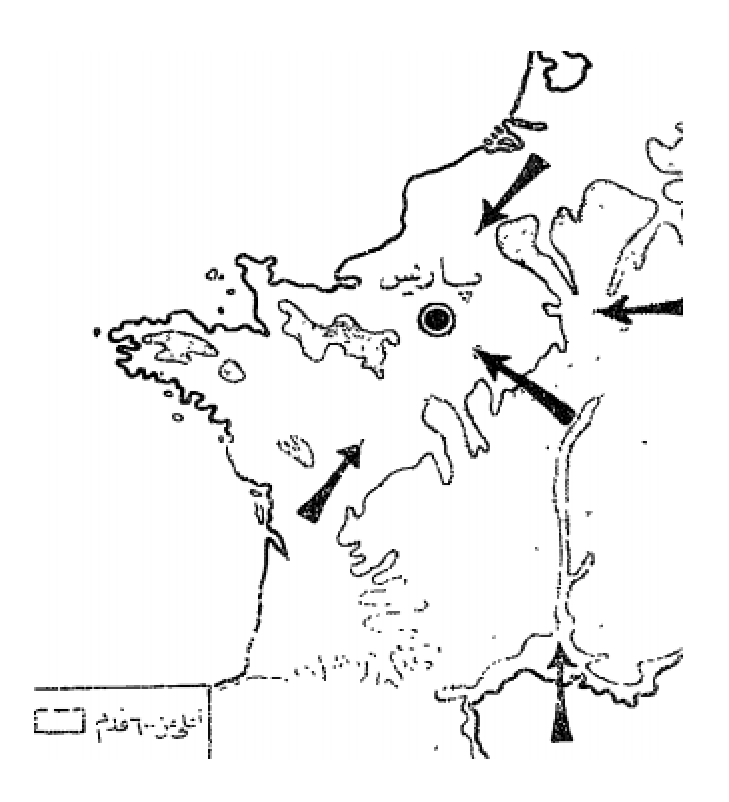


الخريطة رقم ٣١ – تضاريس فرنسا

وقد خلت البلاد في العصور الوسطى من الطرق، لأن الطرق الرومانية قد أصابها التهدم والإهمال، فجرى معظم النقل في الأنهار حتى أن الملاحة في ذلك العهد استخدمت أنهارًا تناهت في الصغر ولا نفكر اليوم قط في استخدامها، وكان أثر الطرق المائية عظيما في تطور السهل الشمال، فإن نهر السين وروافده تكاد تصلح للملاحة حتى منابعها، فيأتي نهر الوازمن الشمال الشرقي ويتصل بالسين بعد باريس مباشرة كما يجرى نهر المارن من الشرق ويتصل به قبل باريس مباشرة، ويجرى نهر يون Yonne من الجنوب متجهًا إلى باريس أيضًا، وهكذا نجد شبكة من الطرق المائية تتركز خطوطها حول باريس، وأكثر من هذا أن نهر اللوار يغير اتجاهه عند مدينة أورليانز فأصبح بمثابة طريقين مائيين يؤديان إلى

باريس أحدهما يتجه من مصبه إلى أورليانز والآخر يتجه من منبعه إليها مما أدى إلى اتصال باريس بسهول أكوتانيا وبالوديان الجنوبية التي تتخلل مرتفعات الجنوب، كما نجد أن وادي الرون والساؤن يهيئان على طول امتدادهما منفذًا سهلا إلى سهول لانجدوك الجنوبية ويمسكان باريس من الاتصال بها عبر مرتفعات كوت دور Gote d'or وهكذا أصبح من الميسور حتى لهذه المنطقة البعيدة أن تكون على اتصال بباريس.

وهكذا تمت فرنسا حول باريس كما نمت الإمبراطورية الرومانية حول روما وكما أن روما اكتسبت أهميتها حين جاء الغزاة البربيون من الشمال واستولوا على جنوب إيطاليا، كذلك اكتسبت باريس أهميتها لأول مرة حين جاء النورسمن أو أهل الشمال يمخرون عباب البحار على طول سواحل أوربا ثم يدخلون إلى نهر السين ويصمدون فيه حتى يصلون إلى جزيرة صغيرة في وسط مجراه، وهنا كان الوطنيون قد وجدوا في هذه البقعة خير مكان لعبور النهر فأقاموا جسرًا فوقه، والجسر بطبيعة الحال يمنع مرور القوارب وهنا وجد رجال البحر من النورسمن عقبة تجول دون تدمهم في غزواتهم، وهكذا نجحت باريس في مقاومة أهل الشمال فاكتسب موقعها بعض أهميته.



الخريطة رقم ٣٢ – موقع باريس – تؤدي الطرق البرية الطبيعية إلى باريس

ثم أصبح حكام هذه العناصر النور ماندية غزاة لإنجلترا وحكاما لأجزاء متعددة من غربي فرنسا ومن عادة سواد الشعب ألا يهتمون بمن تكون له الغلبة أو بمن سيتولى أمورهم ولكنهم لم يثقوا في ملكهم لمجرد نقله العرش إلى إنجلترا، وكانوا يفضلون لو أنهم أخلصوا في ولائهم لحاكم يتخذ باريس له مقرا، وبالتدريج اعترفت الوحدات المختلفة بحاكم باريس كسيد لها، ومما زاد في هذه الخطوة سرعة ونضوجا تصرف ملك إنجلترا وممثليه لأنهم كانوا ينظرون بغير وعي منهم إلى البلاد الواقعة في الساحل الجنوبي لبحر المانش نظرتهم إلى إقليم اجنبي، ولنضرب لذلك مثلا "الأمير الأسود

الذي أعمل السلب والنهب في الساحل الغربي من بوردو جنوبا لا لسبب الحصول على الأسلاب والغنائم".[١٩]



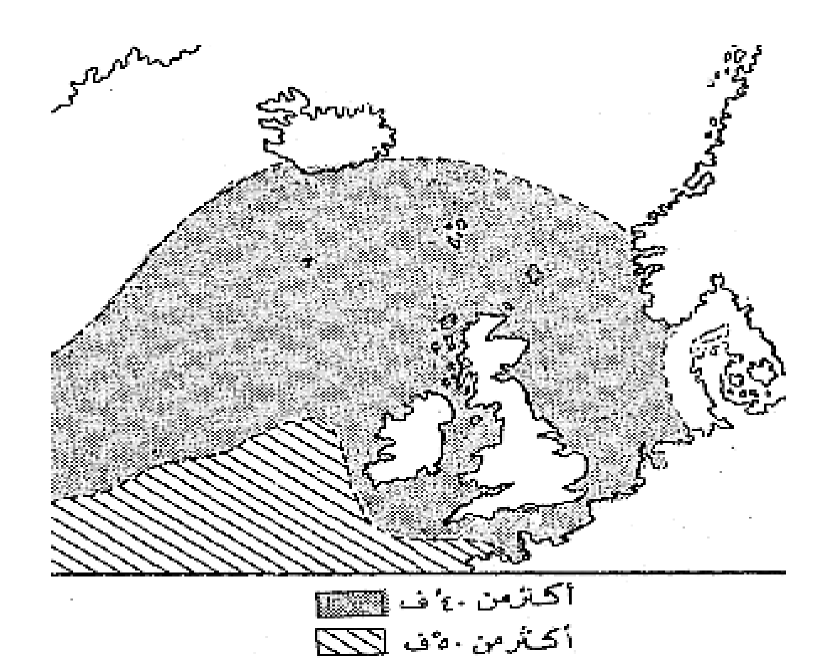
الخريطة رقم ٣٣ – الطرق الآتية في السهل الشمالي لفرنسا كلها تؤدي إلى باريس

١٩- The Black Prince

الفصل الحادى عشر

المحيط – الإمبراطورية المحيطية – بريطانيا

هناك فارق واضح بين بريطانيا والبلاد الأخرى التي تعرضنا لها حتى الآن، ذلك أن بريطانيا وحدها جزيرة أو بالأحرى جزيرتان لهما مساحة لا بأس بها وعلى درجة من الكفاية تمكنهما من أن تعولا عددا كبيرا من السكان.

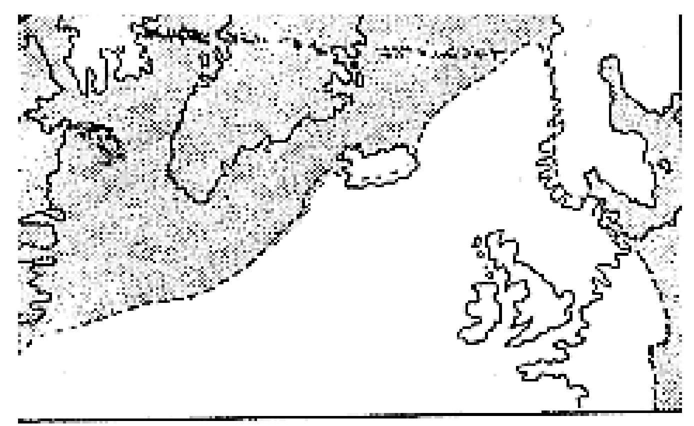


الخريطة رقم ٣٤ – حرارة المياه في المياه البريطانية في شهر يناير

وهناك عوامل جغرافية أخرى يجب علينا دراستها قبل أن ندرك الدور العجيب الذى لعبته بريطانيا في التاريخ حتى اليوم.

أولا – المناخ: تتمتع بريطانيا كغيرها من البلاد التي تطل على المحيطات بمناخ معتدل ليس فيه تطرف. فالرياح الغربية السائدة تجلب إلى شواطئ شمال أوربا الغربية طبقة من المياه تبلغ في عمقها نحو نصف الميل وهي على درجة من الحرارة تزيد عن المألوف في مثل هذه العروض مما يحول في الشتاء دون تجمد المياه في التربة وفي الأنهار وعلى الشواطئ.

ثم أن بريطانيا توغل في موقعها صوب الشمال مما يجعل مناخها في الصيف دفيئا لا حارا مع استمرار خضوعها لمؤثرات المحيط.



الخريطة رقم ٣٥ – خليج الدفء.

تظهر الخريطة الوضع الشاذ لمناخ بريطانيا

وهكذا أصبح العمل في بريطانيا ميسورا في كلا البر والبحر وعلى مدار السنة فهي تمتاز بشتاء يبعث برده على النشاط لا الألم والعجز، وفي صيفها حرارة لا تبعث على الضعف والخمول فيمكن استغلال الطاقة في كل وقت. أضف إلى هذا أن الرياح الغربية في هبوبها تجلب معها الأعاصير التي تسبب سقوط الأمطار فتنمو الأعشاب في كل فصل، ولا احتمال للجفاف فيها إبان فصل الصيف، بل إن التقلبات الجوية التي تعاب على جو بريطانيا لتحفز أهلها إلى العمل دائما وتبعث بالنشاط إلى نفوسهم.

ثانيا – التضاريس : نجد في جزيرة بريطانيا العظمى إقليمين من المنخفضات أكبرهما يقع إلى الجنوب الشرقي مكونا الجزء الرئيسي من إنجلترا وأصغرهما يقع بين نهر الفورث والكلابد مكونا الجزء الرئيسي من اسكتلندا[٢٠].

كما تمتد الأراضي المنخفضة في إيرلندة شرقا وغربا في أواسط الجزيرة ومن ثم صلحت مساحات واسعة للزراعة في هذه المنخفضات – وكانت وحداتها كبيرة المساحة نوعا ما – حتى أنه ليتسنى لنا مقارنة الأراضي المنخفضة في إنجلترا بالأراضي المنخفضة الفرنسية على الرغم من أن تاريخ بريطانيا في مراحلة الأولى امتاز بوجود وحدات سياسية صغيرة عزز الاستقرار فيها إلا أنه حين تقدم السكان في مدينتهم وخضعوا جميعا

[٢٠] هذه الأجزاء هي أراضي واطئة وليست سهولا.

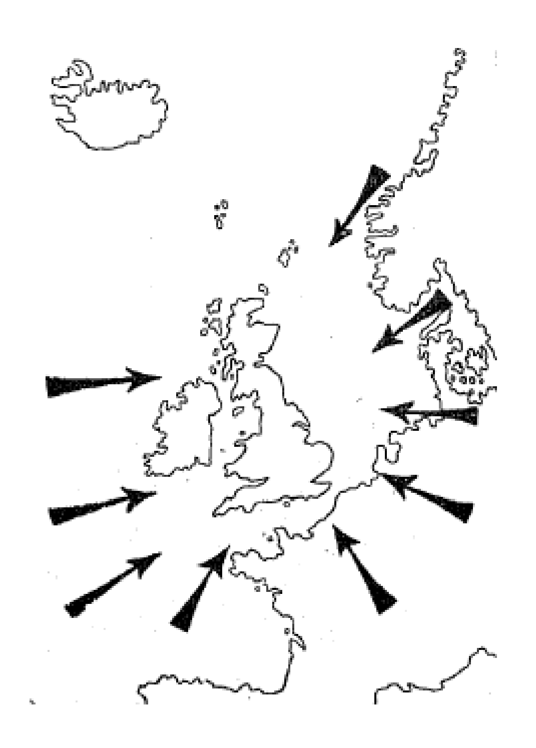
لحكومة واحدة يسود نفوذها كل الأراضي السهلة أصبحت تلك الحكومة موطدة الأركان منسجمة العناصر.

ثالثا — المد والجزر: ولننظر الآن إلى خريطة لشمال أوربا الغربية مبينا عليها أعماق البحار أي تضاريسها فيما تحت مستوى الماء، فنرى أن بريطانيا تقع على رصيف القارة وهو بروز لا يكاد تغطيه مياه البحر، ولو أصاب الأرض ارتفاع يقرب من ستمائه قدم أو نحوها لاتصلت بريطانيا بالقارة، لا عن طريق مضيق دوفر فحسب، بل عبر بحر الشمال وبحر المانش أيضا، ولهذه الحقيقة نتائج هامة — فإن موجه المد الناشئة في المحيط الجنوبي حيث يحيط الماء بالكرة الأرضية إحاطة السوار بالمعصم هذه الموجة تكتسح محيطات الهندي والهادي والأطلسي بسرعة كبيرة ولكنها لا تسبب لمستوى الماء ارتفاعا أو هبوطا أكثر من قدم واحد تقريبا. وحين تقترب هذه الموجة من شاطئ ضحل تنقص سرعتها ولكنها تزداد ارتفاعا — فإذا ما اتسع هذا الشاطئ الضحل وبلغ عرضا كبيرا زاد ارتفاع المد وهبوط الجزر زيادة عظمى — وإذا ما اقتربت موجة المدن من قارة تهبط سواحلها بانحدار مفاجئ إلى عمق كبير تحت سطح البحر فإن شواطئها تكاد لا تحس بالزيادة مطلقا، بل وقد لا توجد حركة المد والجزر إطلاقا. ولهذه الأسباب لا تجد مدا أو جزرا من أي ارتفاع كان على سواحل النرويج وإسبانيا — ومن الواضح أيضا أن البحار المقفلة — كالبحر المتوسط وبحر البلطيق — تخلو من موجات المد والجزر لأن الموجة المحيطية تعجز عن الدخول إليها، وهكذا نجد ان شواطئ بريطانيا والشواطئ المقابلة لها من الجانب الآخر من القارة ابتداء من ميناء هامبرج حتى رأس خليج هسكاي

هي وحدها من بين شواطئ أوربا التي تنتظم فيها حركة المد والجزر مرتين يوميا فتطهر مصلت الأنهار من رواسيها – وتمكن للقوارب من أن تدخل وتخرج إلى عرض البحر وأن تدور حول التعاريج التي يصعب أو يتعذر على السفن الشراعية المرور فيها – ولهذا امتازت بريطانيا وشمال فرنسا وغرب ألمانيا بمصبات خليجية واسعة يمكن أن تدخل إليها السفن من عرض البحار وتنقل فيها البضائع لمسافات طويلة في داخل اليابس فيقل المجهود الذى يبذل في نقلها، و كان لذلك أكبر الفائدة إبان العصور الوسطى حين نسى الناس كيف يشيدون الطرق وقبل أن يفكروا في اختراع السكك الحديدية.

رابعا – موقع بريطانيا بالنسبة للعالم القديم. كذلك تشارك بريطانيا غيرها من بلاد شمال غرب أوربا ميزة الموقع الجغرافي. فهي تقع على الحافة الخارجية للعالم القديم الذى كان موضع اهتمام الناس في تلك الأيام قبل اكتشاف أمريكا – فكانت بريطانيا واقعة في نهاية العالم وليس وراءها شيء ولا يؤدى الطريق إليها إلى مكان ما بعدها، فلم تر سواحلها سكان المراعي عند مجيئهم من الشرق ولم تر المسلمين عند مجيئهم من الجنوب – على الرغم من أن العرب قد وصلوا في زحفهم إلى بواتيبة وعلى الرغم من أن البلغار قد تقدموا حتى عبروا نهر الراين – إلا أن بريطانيا تركت وشأنها فلم تك مثلا كصقلية؛ جزيرة خليقة بأن يكون لها تاريخ خاص غير أنها لم تكن كذلك نظرا لأنها تقع بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب، وبين الأغريق والفيليقيين؛ وبين الرومان والقرطاجيين؛ وبين المسيحية والإسلام؛ وبين النورمانديين والعرب؛ وبين الأتراك والإسبان – ولهذا كان تاريخ سقلية

هو مجرد تاريخ الصراع القائم بين القوى المختلفة التي تقابلت فيها وكانت ميدان المعركة المشترك لها جميعا لأنها تقع وسط العالم المحيط بالبحر المتوسط إبان العصور القديمة والعصور الوسطى.



الخريطة رقم (٣٦) – منافذ بريطانيا

تظهر الخريطة أنه يمكن الوصول إلى بريطانيا بسهولة من أكثر من نصف دائرة محيط بها. وليس الشمال النرويج أهمية تذكر في هذا المجال.

وهكذا بقيت بريطانيا بلادا منعزلة حتى اكتسب المحيط أهميته فجأة بفضل اكتشاف البرتغاليين والإسبان، وحتى اليوم لا تدين بريطانيا في أهميتها لموقعها في قلب الكتلة اليابسة. هذا ولو وازنا بين الطرق التي

تتخذها السفن في ذهابها إلى بريطانيا وخروجها منها لم نجد نقلا ما يجرى في نحو نصف دائرة تحيط بها من الغرب إلى الشمال ثم إلى الشمال الشرقي لأن الطريق إلى الشمال منها لا يؤدى إلى هدف ما – والهجوم من ذلك الجانب هو أبعد الاحتمالات.

هذه العوامل السابقة جميعا تحكمت في تاريخ بريطانيا مجتمعة تارة ومتفرقة تارة أخرى.

ولما كانت بريطانيا قابعة في نهاية العالم فقد بقيت لدى عصور طويلة الملاذ الأخير، الذى تلجأ إليه القبائل المهاجرة مارة بزاريتها المواجهة للقارة عند دوفر، ثم اضطرت هذه القبائل إلى الانتقال إلى الشمال الغربي منها رويدا روبدا كلما ضغط عليها مهاجرون جدد – وأننا لا نستطيع أن نتحدث حديث الواثق عن الدوافع التي حدت بهؤلاء الناس إلى أن يعبروا البحر إلى بريطانيا وهم يبصرون شواطئها من سواحل القارة – بل أن حديثنا عن دوافعهم هو من قبيل الحدس والتخمين، ومهما كان الأمر فقد توالت عليها موجات الهجرة، وكل موجة من المهاجرين أرقى مدنية من سابقتها وأقدر على استخدام الطاقة في كلا الحرب والسلم، ولا شك أنهم اقتبسوا وسائل استخدامها واستغلالها من آخرين – فكانوا مجرد مقلدين. وتركوا أثرا ضئيلا في التاريخ. ثم أصبحت السهول الإنجليزية في آخر الأمر جزءا من الإمبراطورية الرومانية ومن ثم دخلت بريطانيا في نطاق العالم المتمدن وسارت في موكب الحضارة.

واستمر تأثير جغرافية بريطانيا على تاريخها باعتبارها جزيرة حتى بعد جلاء الرومان عنها، فلما لم يكن بها حكومة مركزية منظمة شن عليها رجال البحر هجماتهم من كل ناحية، وقد جاؤا إليها من وراء بحر الشمال، فهاجمها السكسون والجوت والإنجلز والدنمركيون والنورسمن من جميع الجهات من الجنوب والشرق والشمال والغرب، وأقاموا بها دويلات صغيرة وأدخلوا إليها عادات وطرائق في الحياة لا يزال يشعر أهل إنجلترا بأثرها حتى اليوم – بل وقد أقيمت إمبراطورية على شواطئ بحر الشمال عاشت لبضعة أعوام كانت تشمل فيما تشمله جميع الأراضي السهلة في بريطانيا.

وأخيرا عبر النورمانديون بحر المانش مرة أخرى وحكم وليم وأحفاده السهل الإنجليزي بيد من حديد – وتركز الحكم بطبيعة الحال في لندن وهي على رأس خليج تصل موجة المد إلى نهايته، وتقع على أول أرض صلبة وسط مستنقعات الشاطئ الشمالي لخليج التيمس – ولهذا اعتبرت لندن موضع العبور الذى تتفرع منه الطرق المختلفة إلى أنحاء وادى التيمس الأدنى كما اعتبرت المرسى الذى تأتى إليه السفن من البحر ولا ينافسها في ذلك مدينة أخرى في تلال الدونز و الشيلترن سوى الخليج سوثهمبتون حيث يقوم فيه ميناء آخر هو ونشستر وبدأ لفترة من الألمان كما لو قدر لسهول فرنسا الشمالية والغربية من أن تدار دفتها من العاصمة الإنجليزية. إذا امتدت مملكة إنجثمنِ علثرهي من تلال شفيوت حتى البرانس، إلا أن جغرافية بريطانيا باعتبارها جزيرة تحكمت في تاريخها بطريقة أخرى. ومن الطبيعى أن تظهر العداوة التقليدية بين أقوام تتكلم لغات مختلفة ولهذا فإن كراهية أهل فرنسا للملك الجالس في باريس والذى

يتكلم الفرنسية كانت أقل بالطبع من كراهيتهم للملك المتربع في لندن فيما وراء بحر المانش والذى يتكلم الإنجليزية، ولهذا اتحد الفرنسيون حول باريس واتخذوا منها عاصمة لهم وكونوا الأمة الفرنسية – فيما عدا الجزر الواقعة في بحر المانش والتي لم تخضع لفرنسا قط فقد استمسك بها النورمانديون من قبل فتحهم لإنجلترا وبقيت تذكر البريطانيين لعدة قرون بأن البحر لا يكفل الحماية فقط بل أنه وسيلة الانتقال في نظر رجال البحر أيضا.

ثم أخذت الحكومة المركزية القائمة في السهول الإنجليزية تمد سيطرتها تدريجيا إلى ما وراء السهول غير أن مرتفعات ويلز ظلت منعزلة لأجيال طويلة وتميزت بخصائصها كما ظلت سهول إسكتلندا بحكومتها المركزية الخاصة ذات كيان مستقل محتمية وراء مراعيها الواسعة والتي اتخذتها أوكارا لها عصابات اللصوص التي كانت تسطو على الماشية في كل مكان في شمال إنجلترا وجنوب إسكتلندا – ولم تمكن بريطانيا دولة موحدة أيام الحكم الروماني واستمرت كذلك إلى أكثر من ألف عام بعد ذلك – والمرتفعات هنا، كما هو شانها في كل مكان، تولد بطبيعتها ظروفا سياسية تختلف باختلاف اقتصادياتها – ثم أصبحت الجزيرة بحكم تطور الحوادث تضمها وحدة سياسية واحدة وتحكمها حكومة مركزية يحيمها البحر وتستخدمه كوسيلة للدفاع عنها.

وظلت بريطانيا تجمع الثروات وتختزن موارد الطاقة في كل العهدين – عهد الوحدة السياسية وعهد انفصال السهول عن بعضها – فكان السكان ينتجون الأصواف من الأغنام التي تربى على الحشائش وهي هنا

تنمو طوال العام – وأمكن الاحتفاظ بالأغنام وتربيتها لأن الحكومة القومية أمنت الأهالى ضد الغزو والعدوان، كما أمنتهم شر الفوضى الداخلية فباعوا أصوافهم إلى التجار فيما وراء البحار وازدهرت تجارتهم شيئا فشيئا وجمعوا الطاقة واستخدموها في سبيل الحصول على قسطا أكبر منها، وذلك بفضل الحقيقة الراهنة وهي أن العمل ميسور طوال العام، وأن السفن تستطيع أن تدخل في الخلجان إلى مسافات بعيدة في داخل اليابس لكى تفرغ شحناتها أو لكى تحمل بضائعها – وهذا الرقى كان ميسورا لا لمجرد احتماء البلاد بالبحر من جميع جهاتها فحسب، ولكن لأن البلاد خضعت لحكومة مركزية وطيدة الأركان، وهكذا أصبحت إنجلترا في واقع الأمر أول دولة أوربية ذات حكومة مركزية في العصور الحديثة.

ولقد ظلت طيلة هذه الأيام وهل في نهاية العالم، ثم تغيرت الحال باكتشاف المحيط وارتياد أمريكا فأحدث فيها هذا الكشف أثرين مختلفين: –

أولا – وجدت بريطانيا نفسها تواجه المحيط مباشرة وتتعرض لمؤثراته، مثلها في ذلك كمثل البرتغال وإسبانيا وهولندة وفرنسا، وأبحر الناس منها بسهولة كما كانوا يبحرون من غيرها وخرجوا يبغون الدوران حول العالم، بل حاولوا فعلا الوصول إلى الهند وجزائر الهند الشرقية. وقبل أن يبدأ كولمبس رحلته بأثنى عشر عاما أرسل تجار بريستول بعثاتهم وسفنهم بقصد اكتشاف الجزر التي تصلح لأن تكون محطات في الطريق إلى أرض التوابل في الشرق الأقصى.

ثانيا – وكلما ازدهرت حركة النقل في المحطيات إلى الهند وإلى أمريكا أصبحت هذه البلاد وثيقة الصلة بشواطئ بريطانيا الجنوبية بينما ظلت شواطئها الشمالية الغربية منقطعة عم كل تجارة وبعيدة عن كل هجوم.

ونستطيع أن نستتنج سير الأحداث في بريطانيا – كما جرت عادتنا دائما – بتتبع تاريخها الماضي وبدراسة أحوالها الجغرافية، فقد نهضت إنجلترا واحتلت مكانتها بين الدول الناهضة في العصور الوسطى بفضل دفاعها عن نفسها على متن البحار المحيطة بها – كما أدى قيام حكومتها المركزية إلى ازدياد ثروتها وتوطيد الأمن فيها، فاشتغل جزء كبير من أهلها بالملاحة وأدرك تجارها أنهم يجنون ثروات لو مارسوا التجارة فيما وراء البحار – ومن ثم أصبحوا عماد ثروتها المتزايدة والمدخرة ولم يكن البحر شيئا مجهولا بالنسبة لبريطانيا إلا أنها تفد كثيرا من اكتشاف طريق الهند إذا اغتصبت البرتغال من الجمهوريات الإيطالية اللجوء الأكبر من التجارة الشرقية – ثم تبعتها هولندة بعد ذلك، واستولت إسبانيا على البلاد ذات المعادن الثمينة – حقا أن بحارة الإنجليز أثبتوا تفوقهم على الجنود الإسبان الذين جاءوا إليهم في حملة الأرمادا الجبارة والذين لم يألفوا البحر. وإذا كانت السفن الإنجليزية أصغر من الإسبانية حجما إلا أنها كانت أسلس قيادا، إذ بنيت في أساسها لتكون سفنا تعمل في البحر ويعيش على ظهرها بحارة، بينما بنيت السفن الإسبانية كالقلاع العائمة تحمل جنودا وتحميهم وهم يقاتلون في عرض البحر وكأنهم يقاتلون في معركة برية.

وقد حاول البحارة البريطانيون من أمثال والي ودريك أن يجلبوا إلى الوطن البريطاني كنوزا اغتصبوها من الممتلكات الإسبانية في الغرب ولكن حكام بريطانيا آنئذا، بعكس حكام إسبانيا، لم يقتنعوا بفكرة التوسع والغزو ولم تفتنهم شهوة امتلاك المستعمرات فيما وراء البحار خاصة وأن امتلاك فرجينيا لم يعد عليهم بكبير فائدة، فقد أسسها والى مدفوعا بشهوة الحصول على الذهب الذى لم يجد منه فيها شيئا. واقتصرت فائدة فرجينيا بعدئذ على أن غدت مثلا يضرب للأجيال القادمة لتشجيعها على الهجرة فيما وراء البحار لزراعة الأراضي.

وهكذا لم يتأثر رخاء بريطانيا في التو بفكرة التجارة كما تأثر رخاء البرتغال وهلوندا من قبل وقد عرفنا أن البرتغال كانت تحتكر التجارة في بادئ الأمر قبل عهد الإصلاح الديني بمقتضى منشور الباب، ثم تحفز الهولنديون إلى احتراف النقل البحري وسيطروا على مفاتيح الطرق الرئيسية التي كانت تمر بها البضائع الهندية في طريقها إلى أوروبا الشمالية — وجمعوا من الثروة والقوة ما مكنهم من الحصول استقلالهم عن إسبانيا. وبلغت الأمتان هذه الغاية قبل أن تتاح الفرصة لبريطانيا

وهي بمعزل عن الطرق التجارية الواضحة. غير أنه نظرا لشدة قرب بريطانيا من هولندا فإن التجار البريطانيين سرعان ما حاولوا جلب البضائع الثمينة من مواطنها البعيدة بأثمان رخصية، و هكذا وجدوا أنفسهم ينافسون الهولنديين وجها لوجه • وقامت العداوة بين الدولتين بطبيعة الحال فانزلقت بريطانيا إلى حرب مع هولندا ثم مع فرنسا، ولم يمض عليها

قرن من الزمان عدت قوة بحرية ضخمة لا في البحار المحلية فحسب بل القوة البحرية الأولى في العالم والقوة الأولى في المحيطات.

وقد استمر الصراع من نهاية القرن السادس عشر حتى أوائل القرن الثامن عشر غير أن النصف الأول من تلك الفترة كان سلما مقنعا – فقد ظلت التجارة البريطانية تنتشر شيئا فشيئا وتسارع التجارة الهولندية وإن لم تمتشق الحسام معها، وقد بدأت تلك المنافسة من عام ١٦٠٠ حين رفع الهولنديون سعر الفلفل من ٣ شلنات للرطل إلى ٦ شلنات وأجاب البريطانيون على ذلك بتأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية واستمر الصراع دائرا إلى أن أصدر كرومول قوانين الملاحة في عام ١٦٥١. ويجب ألا يغيب عن الذهن أنه في خلال هذه الفترة التي ازداد فيها التوتر العلاقات بين الجانبين حاول ريشيلو أيضا في الفترة من ١٦٢٨ إلى ١٦٤٢، أن يبنى لفرنسا أسطولا بحريا. ولما لم تكن المحاولة صادرة من أعماق الفرنسيين ولم تنبعث من نواحى نشاطهم الطبيعية كما أنهم لم يتابعوا الخطة ذاتها في مثابرة وإصرار لم تؤد محاولاتهم إلى نتائج عظيمة كما كان منتظرا.

ولنعد إلى قوانين الملاحة في إنجلترا افقد نصت على أن جميع البضائع المستوردة من إنجلترا أو مستعمراتها – وهي التي كانت تتسع تدريجيا – يجب ألا تحملها إلا سفن إنجليزية أو سفن الدولة التي تنتجها صانعة أو زراعة، وكان هذا تحديا للهولنديين تبعه بالطبع نشوب الحرب بينهما،

واستمر النزاع على سيادة البحار ستين عاما ويمكن تقسيمه إلى أربع مراحل محددة تحديدا واضحا.

١- مرحلة الحرب بين بريطانيا وهولندا منفردتين.

٢- مرحلة الحرب بين بريطانيا من جانب وبين هولندا وفرنسا متحالفتين.

٣- مرحلة الحرب بين بريطانيا وفرنسا متحالفتين ضد هولندا.

٤- مرحلة الحرب بين بريطانيا وهولندا متحالفتين ضد فرنسا.

١- لبثت المرحلة الأولى من عام ١٦٥٢ إلى عام ١٦٦٥ - وفي تلك الحرب كانت كفة إنجلترا ترجح قليلا في عهد الأيام الأولى للجمهورية وفي عهد الملك شارل الثاني كانت بريطانيا فائزة بوجه عام، غير أن قوتها الحقيقية لم تظهر إلا عرضا ومن قبيل الصدفة ذلك انه في خريف ١٦٦٥ انتشر مرض الطاعون في إنجلترا فلم تستطع أساطيل بريطانيا أن تظهر في البحر على الرغم من تفوقها البحري - وعندئذ ظهر الفارق بيننا وبين مراكز الفريقين لأن بريطانيا استغلت ثروتها المتجمعة فاستأجرت جنودا مرتزقة لتهاجم بهم هولندا من البر.

٢- وكان هذا سببا في استئناف القتال في المرحلة الثانية لأن الهولنديين التجأوا من فورهم إلى فرنسا يطلبون نجدتها لتحمى لهم جبهتهم - غير أن هذه المرحلة لم تدم طويلا - إذا دامت عامين اثنين فقط هما

عاما ١٦٦٦، ١٦٦٧ وعلى الرغم من أن بريطانيا كانت أفضل مركزا من هولندة إلا أن كلا من الطرفين أدركا أن فرنسا تستغل خسائرهما التجارية فعقدا صلحا بل وتحالفا لبضعة سنين.

٣- ثم جاءت فترة أخرى بذلت إبانها فرنسا بإرشاد كولبير إحدى محاولاتها العصبية لتصبح قوة بحرية فاتبعت الأسلوب الفرنسي الذى يمتاز بطابع التنظيم والمركزية ونسقت الإنتاج القومي وسار جنبا إلى جنب مع برامج بناء الأساطيل وتأسيس المستعمرات، مما بشر بأن فرنسا سوف تحتل مكان الصدارة كقوة بحرية عظمى - غير أن ماضيها التارخي وأحوالها الجغرافية عادت فأثرت في مجرى الأحداث التاريخية، ذلك أن الفرنسيين من ناحية جروا على الأسلوب الذى ألفوه في الحياة فلم يفيدوا لتوهم من مزايا التنظيم الذى أدخل على الحكومة كما أغرت الأحوال الجغرافية الحكومة الفرنسية إلى معاودة التفكير في التوسع فيما وراء الجبهة الشرقية - وأن ترجع عن هذه الإصلاحات قبل أن تؤتى ثمراتها المرجوة - خاصة وأن الأراضي الهولندية المنخفضة تتاخم هذه الجبهة البرية حيث توجد أسهل الطرق للخروج من فرنسا نحو الشمال الشرقي وكانت بلجيكا وقتئذ لا تزال خاضعة لإسبانيا التي أصابها الوهن والانحلال فانهارت قواتها لتوها أمام الجيوش الفرنسية الزاحفة، فأحدق الخطر بهولندة واتفق هذا مع الأغراض البريطانية خصوصا وأن فرنسا لم تكن تنافس بريطانيا تجاريا، على الرغم من أن أسطولها ازداد في أهميته عن ذي قبل - وفي عام ١٦٧٢ تحالفت إنجلترا وفرنسا وأعلنتا الحرب على هولندة وبعد فترة من الجهاد الشاق الذى كابدته إنجلترا بمفردها أحرزت نفوذا متزايدا في البحر - وفي

خلال هذه الحرب ساعد هولندة بعض حلفائها الذين خففوا عنها ضغط الهجوم على حدودها البرية نظير معونة مادية قدمتها إليهم مما جنته من أرباح تجارية – كما أمكنها أن تؤمن بلادها من النزول المباشر من البحر بفضل قوة أسطولها البحري وقد شعرت هولندة بالحاجة إلى بذل هذه المعونة المالية بسبب صغر مساحتها وتعرضها في البر لهجوم قوات برية عظيمة مركزة كما أن قوتها البحرية أخذت تضعف ضعفا ظاهرا أمام أساطيل بحرية لم يقع عليها عبء الدفاع عن حدود بلادها البرية وتفرغت للهجوم وحده فلما انسحبت بريطانيا من الحرب عام ١٦٧٤ كانت سيادتها على البحر – أمرا معترفا به فيليستر Finisterre [٢١] حتى النرويج – ولم تقف المزايا التي اكتسبتها بريطانيا عند ذلك الحد لأنها بقيت محايدة في الفترة الباقية من الحرب التي ظلت حتى عام ١٦٧٨ فتحول نقل التجارة البحرية من السفن الهولندية إلى سفن إنجلترا لأنها كانت أكثر أمنا في أسفارها في عرض البحار من السفن الهولندية التي مازالت مهددة بالأساطيل الفرنسية.

أما فرنسا فإنها انتهجت سياسة مرسومة بإمعان ففضلت عمدا وبإصرار انتهاج سياسة بريبة على اتباع سياسة بحرية، فسمحت لبريطانيا عمليا بان تضع يدها على البحر – بل أن بريطانيا ادعت سيادتها على البحار منذ أيام الملك جيمس الأول واعترفت لها فرنسا بهذه السيادة – ولو قدر لمشروعات كولبير النجاح أو لو استمع ساسة فرنسا لنصيحة

[٢١] ما يسمى لندز إند أي الطرف الغربي للجزيرة البريطانية.

ليبتز لأدى موقعها الجغرافي بمزاياها إلى إنشاء امبراطورية بحرية فرنسية، كان يستحيل على هولندة أن تقاومها، وكان يصعب على بريطانيا أن تتغلب عليها – ولو أن فرنسا استفادت من جبهتها التي تطل على البحر المتوسط الذى خلا وقتئذ من الأساطيل البحرية ولو أنها اتجهت إلى حكم مصر مثلا لاستولت على الجزء الأكبر من تجارة الهند وبلاد المشرق ولاضطرت أن تحتل القواعد على كلا الساحلين المصريين ولأصبحت ذات قوة بحرية أشد بطشا من قوة هولندة ولأحتلت بالتدريج مكان حليفتها وغدا موقعها أعظم تدعيما وأمست على كل حال منافسا خطيرا لبريطانيا.

٤- وهكذا تأتى المرحلة الرابعة التي حاربت فيها بريطانيا متحالفة مع هولندة، ولكن هولندة كانت الحليف الضعيف بل الضعيف جدا – فأمسكن لبريطانيا في هذه الحرب القضاء على بحرية فرنسا وأسطولها التجاري وقد استمرت الحرب من عام ١٦٨٨ إلى عام ١٧١٣ شغلت فيها فرنسا أيضا بنزاع في قارة أوربا في حروب حلف أجزبرج وجرب الوراثة الإسبانية – وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن مجرد امتلاك الدولة لأسطول بحرى قوى لا يتيح لها السيطرة البحرية. ففي بداية الحرب كان لفرنسا أسطول قوى يتفوق عدده وعدده على أساطيل بريطانيا وهولندة مجتمعتين ولكن كان ينقصها التجارة البحرية التي هي مصدر الثروة، فكانت بريطانيا تستطيع أن تعوض خسائرها بسرعة بينما لم تستطع فرنسا أن تعوض خسائرها المستمرة التي استنزفت معظم مواردها في استمرار القتال على حدودها البرية وزودت بريطانيا أعداء فرنسا بالأموال التي كانوا يحاربون بها وعلى الرغم من أنه لم يجر تال بحرى هام بعد العام الأول

تقريبا ولع بالرغم من أن بريطانيا كانت تبدو وكأنها لا شأن لها بشئون الإدارة الأوروبية إلا أن هذه الفترة كانت من أهم عصور التاريخ البريطاني. وكان ذلك الإرهاب الصامت الذى تنشره وأنها البحرية المتزايدة عنصرا فعالا في مصير الصراع كله حقا لقد قاست التجارة البريطانية بعض الخسائر على يد القراصنة الفرنسيين غير أن هذه الخسائر لم تكن جسيمة محسومة بالنسبة إلى الرواج الزاهر الذى حققته في تجارتها وقد جنت أرباحا وثروات طائلة مكنتها من أن تحول دون استنزاف مواردها كما مكنتها من أن تمول الصراع البرى حتى انهكت قوى فرنسا.

وفي أثناء ذلك القتال لم تعد هولندة قوة بحرية على الإطلاق، فلم تستطع أن تعوض خسائرها في البحر كما عوضتها بريطانيا – لأن مواردها استنزفت في حروبها البرية شأنها شأن فرنسا تماما – ثم أخذت تعتمد شيئا فشيئا على قوة بريطانيا البحرية ولم تكسب في معاهدة أو ترخت شيئا يستحق الذكر وفقدت إلى الأبد وظيفتها في نقل التجارة كما فقدت تفوقها البحري. وانتقلت كل هذه المزايا إلى بريطانيا واضحت ميزتها الكبرى نمو تجارتها نموا كبيا، إذ سيطرت على تجارة البرتغال وأضافت إلى ممتلكاتها جبل طارق وميناء ماهون في البحر المتوسط وجزيرة نيوفوندلاند ونوفاسكوشيا عبر المحيط الأطلسي فهيأت لها قواعد مختلفة ساعدتها على نشر تجارتها وحمايتها من كل عدوان.

وقد أدت العوامل الجغرافية وكيفية الإفادة منها إلى نتائج أخرى في تجارة بريطانيا فلم يقتصر الأمر على أن أصبحت السفن البريطانية أكثر

أمنا وسلاما في نقل التجارة عن غريها من سفن الدول المنافسة لها بل تحول نقل التجارة العالمية إلى الأيدى البريطانية.

ولما أصبحت الأراضي البريطانية جميعها أكثر الدول تمتعا بالسلم والأمان عادت عليها التجارة بأوفر الأرباح وتطلبت ممارستها أقل نفقات ممكنة.

ومن المعروف أن استعمال النقود المعدنية في تبادل السلع كان خطوة كبرى في تقدم الحضارة لأن الأشياء المراد استبدالها كانت ضخمة الحجم عسيرة الحمل وقد يحدث أن يحتار شخص بما معه من فائض البضائع فلا يجد الراغب في شرائها وإن وجد فقد لا يجد ما يتوق هو إلى اقتنائه.

وهكذا سهلت العملة المعدنية التداول بقبولها من الجميع وزادت القدرة على الإنتاج بازدياد تبادل البضائع وسهولة الحصول عليها.

ثم حدث في ذلك العهد الذى نحن بصدده تقدم آخرهم جميع البلاد المتحضرة وعلى الأخص بريطانيا، إذ لم تعد العمليات التجارية – فيما عدا البيع بالتجزئة – تتطلب نقودا وعملات تدفع من شخص لآخر بل بسطت تجارة البلاد تبسيطا كبيرا بإدخال نظام الحسابات الجارية بالبنوك، فيفتح الشخص أو المؤسسة اعتمادا بمبلغ من المال في بنك من البنوك بضمان ثروته وممتلكاته ليواجه ما قد يؤديه من خدمات أو عمليات تجارية، وهكذا امتد النشاط التجاري في كل حقل، فإذا رغب شخص في شراء

شيء ما حرر للبائع صكا (شيك) بقيمة البضائع ويستطيع هذا بدوره أن يحوله إلى آخر، ولن يتيسر هذا إلا في دولة انتشر فيها الأمن وتوافرت الثقة بين أهلها، وحيث لا يبذل مجهود في غير موضعه. ولم يكن إنشاء بنك إنجلترا في العقد الأخير من القرن السابع عشر وليد الصدفة وهو حجر الأساس في هذه الثقة الشامخة وليس مركز لندن المالي مجرد صدفة عارضة وقد انفردت بكونها نظير صك يكتبه الإنسان على نفسه معترفا فيه بهذا الدين(٢٢). لقد أصبحت لندن وستظل قلب التجارة العالمية لأن التجارة فيها تجرى في أمن يقتضى نفقات نقل كثيرا عن غيرها من الأماكن(٢٣).

وهكذا نظمت التجارة على نطاق واسع في بداية القرن الثامن عشر حين أصبحت بريطانيا دولة بحرية. "وفضيحة البحار الجنوبية" التي حدثت في عام ١٧٢٠ دليل على ازدهار الظروف السائدة وقتئذ وتظهر أن كان في البلاد تجمع عظيم من فائض الثروة اى راس المال، كما تظهر من ناحية أخر بدء تنظيم استغلال رؤوس الأموال فيها على نطاق واسع – ثم كل هذا بفضل توطيد الأمن والسلام في البلاد، فقد تكونت في عام ١٧١١ شركة البحار الجنوبية قبل انتهاء الحرب الدائرة حينئذ ويرجع تكونيها إلى أن الحكومة رغبت في تخفيض سعر الفائدة التي كانت تدفعها عن الديون

---

[٢٢] هذا بعد استيفاء الشروط الأخرى طبعا.

[٢٣] الذهب عند بعض الناس يزيد في قيمته على أوراق النقد لأن قيمته المصطنعة يعترف بها على نطاق أوسع من قيمته الذاتية وليس للذهب ولا لأوراق النقد طاقة في حد ذاتها ولكنهما مجرد رموز لطاقة معينة.

التي تقترضها، ثم بذلت في عاك ١٧١٩ محاولة أخرى لإجراء تخفيض جديد في سعر الفائدة لفت أنظار الشعب إلى طرائق أخرى لاستغلال أموالهم. وتمحض الأمر بعدئذ عن سراب خادع أو فقاعة خاوية لا لأن الثقة الكافية لم تتوافر للشركة، بل بالعكس لم تهبط قيمة السهم الواحد من أسهمها عن ١٧٥ جنيها وفي حين أن قيمته الإسمية كانت ١٠٠ جنية ولكن عنصر الثقة والاطمئنان وإن اعتمد على سيادة البحار إلا أنها تجاوز حده دون مبرر وتناول أشياء هي أبعد ما تكون عن السيطرة البحرية (٢٤).

ولم يخل القرن الثامن عشر من تحدى الدول الأخرى لسيادة بريطانيا على البحار ولتفوقها التجاري، وكانت بريطانيا تخرج دائما من كل صراع وهي أكثر اتساعا في مستعمراتها وأعظم رواجا وازدهارا في تجارتها ولم تلحقها خسارة خطيرة إلا في حرب الاستقلال الأمريكية.

فقد اشتبكت بريطانيا في حروب مباشرة أو غير مباشرة مع فرنسا وإسبانيا في فترتين الوالي في عام ١٧٣٩ إلى ١٧٤٨ والثانية من عام ١٧٥٦ إلى ١٧٦٣ وذلك بسبب اتساع التجارة البريطانية وفي كل من

---

[٢٤] تتلخص قصة هذه الفضيحة فيما يلى : **Sout sea Bubble** فضيحة البحار الجنوبية هي مضاربة مالية أدت بالبلاد إلى خسارة فادحة فقد أسس بعض الماليين شركة منحت امتيازات جمة في التجارة في البحارة الجنوبية نظير شروط خاصة لاقراض الحكومة قرضا بشروط أكثر سخاء مما ألفه الجمهور. وفي عام ١٧٢٠ اقترحت الشركة أن يحول إليها الدين الوطنى العام الذى يبلغ مقداره ٣١ مليون جنية وقتئذ بفائدة قدرها ٥ % ووعدت الشركة أن تدفع لمساهميها ربحا قد يصل إلى ٦٠ % من قيمة أسهمهم ثم اتضح استحالة الوفاء بهذه الوعود. فلم يثبت أن حل الإفلاس المؤكد بها بعد بضعة شهور. وحل بحلوله القضاء على آلاف من صغار الممولين وقدم المديرون للمحاكمة بتهمة النصب والتوير. وتناول التحقيق والاتهام وزير المالية وآخرين من ذوى المركز العالية — المترجم.

هذه الحروب كانت هاتان الدولتان مشتبكتين في مناعات القارة الأوربية. وفي كل مرة حالفت بريطانيا أعداءهما وزودتهم بالأموال التي تجمعت لديها من أرباحها التجارية فاستنفدت الحرب البرية موارد الأعداء في الوقت الذى تفتحت فيه أبواب جديدة للتجارة البريطانية وكلما ازدهرت التجارة كان لبريطانيا منها أكبر نصيب.

حقا نمت التجارة الفرنسية في الهند بإشراف شركة الهند الشرقية الفرنسية وكذلك في كندا وفي جزائر الهند الغربية ولكنها تركت دون أسطول يحيمها وسرعان ما سقطت في أيدى البريطانيين أو وقعت في نطاق نفوذهم فتحولت تجارتها إلى أيديهم.

لقد كانت الممتلكات البريطانية خارج الجزائر البريطانية حتى ذلك الوقت مجرد محطات تجارية أو قواعد بحرية للأسطول. وكان المثل الأعلى عند البريطانيين في تكوين إمبراطوريتهم أقرب إلى مثل الفينيقيين منهم إلى الرومان. هدفهم الأول التجارة لا الفتح أو الغزو. غير أن مستعمرات حقيقية نشأت تدريجيًا حيث هاجرت إليها جماعات من أصل بريطاني واستقرت فيها ولم تفكرني العودة ثانيًا إلى موطنها الأول فأسست على الساحل الشرقي من أمريكا الشمالية ولايات إنجلترا الجديدة (نيو انجلند) حيث تواجه البلاد المحيط الأطلنطي مباشرة وحيث المناخ هنا أكثر اعتدالاً من الأجزاء الأخرى للساحل الشرقي الأمريكى (نوفاسكوشيا) واستقروا بها وامتد الاستعمار البريطاني غربًا وجنوبًا من قاعدته الأولى في مستعمرة نيويورك ومن المستعمرة القديمة في فرجينيا إلى المستعمرات الحديثة في

كارولينا وجورجيا – وبلغ تعداد سكان هذه المستعمرات نحو مليون نسمة وبدت حاجتهم ماسة إلى التوسع فكان طبيعيًا أن يشتكوا في صراع مع الفرنسيين الذين دخلوا القارة الأمريكية عن طريق النهرين العظيمين وهما السنت لورنس والسيسبي، ولو أن عدد الفرنسيين كان ضئيلاً لا يصل إلى ٢٠/١ من عدد البريطانيين إلا أنهم كانوا يعملون على فرض سيطرتهم على جميع المساحات الشاسعة التي تصل إليها هذه الطرق المائية العظيمة، غير أن الأسطول البريطاني قطع الصلة بينهم وبين فرنسا فسقطت كندا وأضحت من نصيب الاستعمار البريطاني.

أما في الهند فقد سارت المنافسة التجارية جنبًا إلى جنب مع المنافسة في الغزو والفتح، غير أن أطماع الفرنسيين كان نصيبها الفشل أيضًا لأنها لم تلق تأييدًا من أسطول بحري – ففي نهاية حرب السبع سنوات سمح لفرنسا بأن تحتفظ ببعض المحطات التجارية فقط بينما أضيفت كل ممتلكاتها في الهند إلى بريطانيا – ثم ضعفت أهمية هذه المحطات التجارية لأن نسبة كبرى من التجارة ذهبت بطبيعة الحال إلى الموانئ البريطانية المجاورة. وهكذا نرى في عام ١٧٦٣ أن بريطانيا أضحت ذات ممتلكات واسعة نمت أما سلمًا بشكل مستعمرات أي سكنها مهاجرون بريطانيون وأما استولت عليها بريطانيا حربًا، وهكذا تحولت ممتلكات بريطانيا العظمى إلى الإمبراطورية البريطانية فعلاً وظلت التجارة البريطانية تتابع نموها وازدهارها.

ولم يخل الحال من أخطاء ارتكبتها بريطانيا في إدارة دفة الحكم في المستعمرات، كما حدثت أخطاء حينما لاقت التجارة رواجًا فجائيًا أيام

فضيحة البحار الجنوبية فإن هذه المستعمرات بحكم ظروفها تحتاج إلى استيراد الكثير من البضائع البريطانية أكثر مما تستطيع تصديره إلى بريطانيا فكان ميزانها التجاري دائمًا في غير مصلحتها وبعبارة أخرى كانت مواردها تتسرب منها – وكان على أهلها أن يعوضوا هذا العجز بوسائل أخرى منها التجارة غير المشروعة مع المستعمرات الإسبانية في الجنوب وأمدادها بالكثير من المنتجات التي تشعر بحاجتها الماسة إليها ولا تستطيع زراعتها.

وبدأ هذا التوتر بتدخل السلطات في الأمر عندما حرمت التجارة غير المشروعة ونفذ هذا التحريم بالاستعانة بالأسطول الحربي، كما اشتد عندما طلبت بريطانيا إلى هذه المستعمرات المساهمة في الضرائب التي لم يكن يسهل عليها دفعها للخزانة البريطانية – وعلى الرغم من أن حادثة جباية الضرائب أصبحت بتطور الحوادث هي محك الاختبار غير أن وقف التجارة هو المسئول الأول عن بدء هذه المتاعب.

وقد أدركت فرنسا قبل ذلك الأوان أن مشروعات توسعها الاستعمارية كانت تفشل دائمًا بسبب تدخل بريطانيا بقوتها البحرية فبدت لها الفرصة سانحة لمنازلة بريطانيا مرة أخرى وهي في موقف تستنزف فيه مواردها في حرب برية في القارة الأمريكية. وفضلاً عن ذلك أدركت فرنسا أن قوة بريطانيا هي قوة بحرية في جوهرها وعزفت هي عن الانغماس في الحروب التي كانت بريطانيا تعمل على إشعال نيرانها في القارة الأوروبية ولهذا أخذت إنجلترا على غرة وكان موقفها سيئًا – فإن بريطانيا في أيام السلم الماضية كانت تعتبر كل بنس لا يصرف على أغراض التجارة مالاً

ضائعًا، ولهذا كان الأسطول البريطاني عندما أعلنت الحرب أقل من الأساطيل الفرنسية والإسبانية مجتمعة إلا أن بريطانيا خرجت من الحرب ولم تفقد إلا مستعمراتها الأمريكية، لأن للتاريخ الماضي حكمه والتاريخ كما نعلم تسيره الجغرافيا، فقد استقرت في الأسطول البريطاني تقاليد بحرية عميقة الجذور وليدة سلسلة من الانتصارات، بينما سادت الأسطول الآخر روح من عدم الألفة مع البحر، حقًا ارتكب الطرفان أخطاء، غير أن الحليفتين ارتكبتا أخطاء أكثر حمقًا مما كان لها أبعد الأثر في سير الحرب حتى أنه عندما عقد الصلح في عام ١٧٨٣ حصلت بريطانيا على شروط ملائمة لها جدًا بينما ظلت فرنسا تعاني الإجهاد المالي.

ولم يقتصر الأمر أن أصبح للأسطول البريطاني تقاليد بحرية عريقة في ماضيه بل أضحت له تقاليد التفوق في استخدام قدرته في البحر وتوفير طاقته، فقد خبر البحارة البريطانيون فنون القتال في البحر أكثر من أعدائهم، وفي الأيام الأولى حين كان القتال يجري وجهًا لوجه وذراعًا لذراع وكانت هذه هي الوسيلة الوحيدة لمنازلة الأعداء.

كذلك كان الحال في الحرب البحرية كبير الشبه بالحرب البرية – فكانت تتجه الأساطيل المتعادية رأسًا إلى قلب سفن الأعداء وتسير السفن متقاربة جنبًا إلى جنب وهي تحمل على ظهورها عددًا كبيرًا من المقاتلين فتهيئ لهم فرصة الهجوم على الأعداء الذين قد تشيع في صفوفهم الفوضى والاضطراب، مثلهم في ذلك كمثل الفيالق الإغريقية المتراصة متتبعين أساليبها حين كانت تشق طريقها إلى قلب جيوش أعدائها. وأهم

الصفات الواجب توافرها فيمن يقاتلون قتالاً بحريًا هي ألفتهم للبحار وإلمامهم بأحوالها وقدرتهم على تسيير دفة السفن فيها، فإذا نشب قتال بحري بين رجال بحر ورجال بركان التفوق حتمًا من نصيب رجال البحر لأنهم يعرفون كيف يديرون دفة سفنهم فيه، وقد رأينا كيف فقد الإسبان، وهم لم يكونوا بحق رجال بحر، السيطرة البحرية وانتزعها منهم الهولنديون ثم الإنجليز.

وفي أبان الستين سنة التي تلت عام **١٦٥٣** ظهر مبدأ جديد في القتال البحري يوائم الظروف السائدة حينئذ وبمقتضاه أصبحت الكفة الراجحة من نصيب أولئك الذين يستخدمون قواتهم المقاتلة استخدامًا يتجلى فيه الاقتصاد التام.

فالسفينة بطبيعة تكوينها تزيد كثيرًا في طولها عن عرضها – وفي الأيام السابقة كانت السفن تسلح بعدد وفير من المدافع الصغيرة ومن الميسور توجيه أكبر عدد من المدافع في آن واحد من أحد جانبي السفينة لتصب نيرانها على هدفها أكثر مما يمكن توجيهه من مدافع المقدمة أو المؤخرة، ولهذا كان هجوم السفن أشد تأثيرًا لو أنها تمكنت من إطلاق نيرانها الجانبية، ولكي يضمن أسطول أحسن النتائج في حربه، يجب أن تخلو صفوف الأعداء من وجود سفينة صديقة له فيما بينها، ومن ثم تحتاج الفن المقاتلة أبان اشتراكها في المعركة إلى الحركة في خط يتقاطع تقاطعًا عموديًا مع اتجاه خط القتال – ويجب أن يكون ذلك الخط قويًا في جميع مواضعه بل ومتساوي القوة في جميع وحداته ولهذا وجب أن يتكون من سفن ذات

قوة معينة. وهي عادة السفن الحربية الضخمة من المدرعات Liue of Battle ships والتي تحمل أكبر قوة من المدافع وهكذا اختلف القتال عما كان مألوفًا من قبل ولم يعد مجرد الاندفاع في خطوط الأعداء. واقتضى الأمر لتطبيق الخطة الجديدة دراسة أحوال الرياح والعناية بها عن ذي قبل. فإذا كان سير الأسطول نحو سفن الأعداء يتفق واتجاه الرياح توفرت له ميزة المبادأة وأصبح في يده حرية اختيار الاشتباك في المعركة أو عدم الاشتباك فيها. فإن اختار الهجوم فهو قمين بأن تصادفه بعض المعاكسات منها أنه مضطر إلى أن يبحر رأسًا نحو سفن الأعداء فيقل في هذه الحالة عدد المدافع التي يمكن إطلاقها عليهم وقد لا تجد مدفعه كلها فرصة العمل ألا تدريجيًا وقد تصاب السفن الأولى التي تسير في المقدمة بأضرار جسيمة. وإن دارت عليه الدائرة ولحقته الهزيمة ضاقت معه فرص الهروب وأما إن تجنب اتجاه الريح لم يجد الفرصة سانحة للهجوم – وإن زادت مع هذا فرصة الهروب والنجاة لو خانه الحظ – بل وقد يستطيع أن يوقع بالعدو خسارة فادحة لو اختار العدو مهاجمته وهو في هذا الوضع.

ومما له مغزى هام أنه حتى في حرب الاستقلال الأمريكية حين كانت فرنسا تهاجم الأساطيل البريطانية كانت الأساطيل البريطانية تختار عادة فرصة اتجاه الرياح نحو العدو – بينما كان الأسطول الفرنسي يختار الوضع المعاكس لهذا دائمًا.

وليس هذا الاختلاف الذي اتصف به الفريقان في أسلوب العمل وليد الصدفة فهو راجع في واقع الأمر إلى أن رجال البحر البريطانيين بحكم

أنهم أكثر خبرة وتجربة كانوا أكثر دراية بالحروب البحرية وأسسها، فاختاروا مواضع عسكرية هامة لأنها عظيمة الفائدة في كلا الدفاع والهجوم وهذا طبعًا وليد البيئة المحلية – وقد سبق لنا أن رأينا أن بلادًا كمصر والكلدان حمتها الطبيعة فأحاطتها بالصحاري أو المستنقعات كما قامت مدن كروما وباريس في مواقع يرت لها رد العدوان دون كبير مشقة. ولكن البحر تتساوى مواقعه فلا يمتاز في الدفاع موقع على موقع بل وإن اتخذنا فيه التعبير العسكري الصحيح لقلنا إنه ليس فيه مركز استراتيجي وقد تعلم البريطانيون هذا الدرس نتيجة لتجاربهم العظيمة – كما تعلموا من قبل سواء عن قصد أم عن غير قصد – ونتيجة لإلمامهم بهذه الدروس – تعلموا أن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع وأن الهجوم يجب أن يوجه لا إلى شواطئ الأعداء بل إلى أساطيلهم حيثما وجدت، لأنها هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تغزي بها بريطانيا. كما تعلموا أن النفقات العظيمة في بادئ الأمر توفر عليهم الكثير فيما بعد، بينما مال الفرنسيون إلى اتباع سياسة أكثر حذرًا فاحتفظوا بأساطيلهم مخبأة في موانئها إذا لم يعوزهم الأمر فعلاً إلى استخدامها، بل ولا يستخدمونها في الهجوم إلا إذا وثقوا من الانتصار – وهكذا حاولت بريطانيا جهدها في أن تزيد في القوة الكامنة بالصرف عليها ورعايتها واستخدامها بينما مالت فرنسا إلى اختزان ما في حوزتها. ووجدت بريطانيا أن الخطة الأولى تعود عليها بأحسن الثمرات في التجارة والحرب معًا.

كما هيأ تفوق البريطانيين في البحر وخبرتهم العملية فرصة أكبر لاكتشاف الأساليب التي تجعل الهجوم يأتي بأفضل النتائج وكيف أن قوة

صغيرة قد تهزم قوة كبيرة بالإفادة من الرياح ومن قوة تحرك السفن في سيرها.

لقد وضعت حرب الاستقلال الأمريكية أوزارها لأن مواردها فرنسا – أي مواردها المختزنة – قد أصابها الإفلاس ولم يكن هذا طارئًا عليها. وقد رأيناها تستنزف مواردها باستمرار مدى قرن من الزمان دون أن تستطيع تعويضها بالقدر المناسب – فإن الحكومة الفرنسية المستقرة في باريس احتفظت بمظاهر الفخفخة مغتصبة المواد الضرورية من الكادحين المنتشرين في الأراضي الزراعية مما جعلهم يزدادون فقرًا على فقرهم وعجزًا عن استخلاص خيرات أرضهم، وقاست معهم الطبقات الفقيرة في المدن لأنها لم تجد بالطبع حاجتها من الطعام ومن ثم أدت هذه الحالة إلى الثورة التي أطاحت بالملكية. وعلى الرغم من أن الجمعية التأسيسية تحولت إلى الجمعية الوطنية وفقدت ظاهريًا السلطات التي تجمعت لها إلا أن سلطة باريس المركزية وهي أساس سلطة الملك من قبل قد أحدثت في الحكومة تطورًا جديدًا فتجمع لباريس نفوذ مطلق في طول البلاد وعرضها، ولم تتهيأ فرصة النجاح لأية ثورة نشبت سواء تلك التي نشبت في وادي الرون أم في بوردو أم في بريتاني وسواء قامت ضد مبادئ الجمهورية ذاتها أم ضد الحكومة القائمة على السلطة في ذلك الوقت – فكل ثورة قامت عُزلت وحيل بينها وبين الاتصال بباقي مراكز الثورات وقضت عليها حكومة باريس قضاء مبرمًا.

ثم تحكمت الجبهة البرية الشرقية في سياسة فرنسا الخارجية مرة أخرى إذ لم تتجه رغبة الحكومة الجديدة في بادئ الأمر إلى امتلاك الأراضي بقدر ما اتجهت إلى نشر الآراء الجديدة عن الحرية والمساواة والإخاء. ولكن سرعان ما ضاع الهدف في سبيل الوسيلة، فإن التوسع في فتح الأراضي كان في أول الأمر وسيلة لتحقيق نشر الأفكار الجديدة ثم أضحى غاية في حد ذاته. فقد قررت الدوائر الحكومية الفرنسية تطبيق النظام الفرنسي على جميع البلاد التي تحتلها الجيوش الفرنسية وسرعان ما ضاعت فكرة نشر النظام الفرنسي في محاولة احتلال البلاد المختلفة – وفي هذه المحاولة عادت الظروف القديمة سيرتها الأولى لأن الأقاليم التي يسهل غزوها واحتلالها هي تلك التي تقع فيما وراء جبهة فرنسا الشرقية.

وقد كادت فرنسا تخضع القارة جميعًا لسيطرتها بفضل الحماس الجارف الذي أظهره الشعب الفرنسي ثم بفضل القيادة البارعة لأعظم قائد أنجبه التاريخ الحديث ولولا وجود قوة بحرية عظيمة لتحكمت فرنسا بكل تأكيد في مصير العالم أجمع لعدة سنتين، ولكن قوة بريطانيا البحرية وقفت لها بالمرصاد فكثيرًا ما واجهتها وكبحت جماحها. فقد حدت بريطانيا من التوسع الفرنسي باستخدام أسطولها وباتباعها طريقتها القديمة في تقديم الإعانات المالية لحلفائها وهي التي تيسر لها جمع ثروتها بفضل تجارتها، ولما آلت الأمور إلى نابليون اتضح له جليًا أن بريطانيا وتجارتها الزاهرة هي عدوه الألد.

ويمكننا تمييز أربع مراحل محددة فيما ولى ذلك من صراع بين الأمتين وتبين كل مرحلة أهمية التجارة البريطانية فيما وراء البحار وهي بالتالي إحدى نتائج قوتها في المحيطات.

١ – المرحلة الأولى: ظن نابليون في أول الأمر أن الهند هي سر تفوق بريطانيا التجاري ومصدر ثروتها وعماد مقاومتها، ولهذا استلهم عبقريته الخارقة في السياسة والحرب، وقام في الفترة ما بين ١٧٩٥ إلى ١٩٩٧ بإخضاع عدد من الدويلات الصغيرة المتناثرة في إيطاليا وعلى شواطئ البحر الإدرياتي، كلا على حدة، ومؤسساتها جمهوريات صغيرة على نمط الجمهورية الفرنسية ثم قام بحملته على مصر بما تبقى له من السفن الحربية الفرنسية، وقد تم له إخضاع تلك البلاد العريقة في تاريخها وأخذ في تنظيمها بل وحاول أن يفتتح بلاد الكلدان التي تماثلها في عراقة حضارتها، وقد داعبه الأمل في أن يتخذ من هذه الفتوحات قواعد يقفز منها إلى الهند. أما بريطانيا في هذا الوقت فإنها –كما يبدو بل وفي الواقع أيضًا– فقدت كثيرًا من جراء الفتوحات الفرنسية في شواطئ أوربا الجنوبية بحرمانها من قواعد لأساطيلها، إلا أنه على الرغم من ذلك أرسلت أسطولاً بقيادة نسلون وقد أخذ هذا يبحث عن صيده في شرق البحر الأبيض بأجمعه، واستغرق بحثه ستة أسابيع متوالية وهو يجهل جهلاً تامًا مشروعات نابليون وحركاته حتى رأى الأسطول الفرنسي رأسيًا في خليج أبو قير، وبعد قتال لم يستغرق أكثر من ساعة أو ساعتين انقطع نابليون تمامًا عن أوربا حتى أنه لم يتسلم رسالة واحدة في الفترة التي انقضت من ٩ سبتمبر سنة ١٧٩٨ إلى ٥ فبراير سنة ١٧٩٩ وذهبت مشروعاته في غزو الشرق هباء إذ لم يستطع

أن يترك عكا خلفه دون إخضاع وهي التي وقفت تقاوم هجماته في عناد ولا يساعدها سوى سفينتان مدرعتان حتى أن نابليون هرب شخصيًا في السر إلى فرنسا وترك جيشه بعيدًا عن مسرح الحركات الحربية في أوروبا وبقى هذا الجيش حتى سمح له بمغادرة البلاد قبيل الصلح المؤقت الذي عقد في عام ١٨٠١.

٢ – المرحلة الثانية: حاول نابليون في المرحلة الثانية أن يوجه ضرباته إلى التجارة البريطانية في شمال أوربا وكانت التجارة بطبيعة الحال موقوفة بريطانيا وهولندا وأراضي الراين، وبقيت الأنهار الواقعة إلى الشرق من الراين كالويزو والإلب وبحر البلطيق مفتوحة أمام التجارة البريطانية، لأن الدول التي تستخدم هذه الطرق المائية عزفت عن فرنسا وبقيت على الحياد. فكانت سفنها آمنة على نفسها في حيادها وفضل التجار لهذا السبب نقل بضائعهم على ظهور هذه السفن.

ولما حاولت بريطانيا منع فرنسا من اختزان الموارد وجمعها طلبت إلى الدول المحايدة الامتناع عن مساعدة فرنسا بالتوقف عن نقل التجارة الفرنسية على سفن هذه الدول، وأن تمتنع عن تزويد فرنسا بالمواد التي تمكنها من إنشاء أساطيل لها كالأخشاب وأقمشة قلوع المراكب التي كانت تستوردها فرنسا عادة من بلاد البلطيق فأثار هذا الطلب امتعاض الدول المحايدة وسخطها. فلما رجع نابليون من مصر وهزم بخططه الحربية البارعة جيوش دول وسط أوربا التي تجمعت لمحاربته عمل على استثارة دول شمال أوربا ضد بريطانيا كبروسيا والدنمرك والروسيا والسويد حتى أفلح في

ديسمبر من عام ١٨٠٠ أن تتحد هذه جميعًا في حياد مسلح وأعلنت استعدادها لمقاومة ادعاءات بريطانيا بالقوة إذا اقتضى الأمر، وهكذا تركت بريطانيا من بين دول أوربا وحيدة في مواجهة فرنسا، غير أن الحياد المسلح لم يدم طويلاً إذا انفرط عقده على أثر تدمير الأسطول الدنمركي في كوبنهاجن وعلى أثر مقتل القيصر الروسي بسبب القيود المفروضة على التجارة الروسية، ورأت كل دولة منها إنها تستطيع أن تخدم مصالحها في هذه الظروف القائمة، على الرغم من القيود المفروضة عليها وإنها تستطيع أن تجني أرباحًا لها لو أنها ضالعت المطالب البريطانية واستمرت تزاول نشاطها التجاري. فلم يكد ينتهي عام ١٨٠١ حتى عادت إلى بريطانيا صداقتها مع كل دول أوربا عدا فرنسا.

ثم دفع نابليون بجيوشه إلى جنوب إيطاليا في محاولة أخرى ليصل إلى مصر ولكن جهوده ذهبت إدراج الرياح، لأن بريطانيا مازالت قابضة على ناصية السيادة البحرية وتاق نابليون إلى عقد الصلح فأمضيت الشروط الأولى في أكتوبر سنة ١٨٠١ ووقعت معاهدة أمين في مارس سنة ١٨٠٢ غير أن نابليون ظل مقتنعًا بأن إنجلترا وحدها لا تستطيع مقاومة فرنسا ووضحت نيته في تجاهل شروط المعاهدة مما أدى إلى تجدد الحرب في عام ١٨٠٣.

٣ – المرحلة الثالثة: ولما فشلت هجمات نابليون على مصر وفشلت أيضًا محاولاته لخنق التجارة البريطانية في الشمال صمم على أن يوجه ضرباته إلى قلب بريطانيا واعتقد أن هذا الهجوم هو الضربة القاضية

فعلاً إن أمكن القيام به — فأخذ يقوم بإعداد المعدات اللازمة لغزوها وظل يتبع الأساليب القديمة في الهجوم فدفع بجيوشه إلى جنوب إيطاليا وكان هذا عبثًا لا طائل تحته لأن بريطانيا ما زالت مسيطرة على البحار — واحتل نابليون بجيوشه مقاطعة هانوفر وأغلق مصبات أنهار الإمز والويزر والإلب حتى ميناء كوكسبهافن واحتلها بجيوشه ليحكم إغلاق الألب في وجه التجارة البريطانية، وقد قام بهذه الأعمال دون أن يستشير الدول صاحبة الشأن أو تسمح لجيوشه باختراق أراضيها واحتلالها، ونابليون مدرك في هذه الآونة أن بريطانيا هي عدوه الأوحد وليس للدول الباقية وزن ما وكانت قوة بريطانيا تكمن في حقيقة واضحة وهي أن نابليون في محاولته الوصول إليها اضطر إلى أن يخلق من شعوب الدول الأخرى أعداء له.

وكان عليه أن يرتب الخطط لينقل جيشًا عظيمًا قوامه مائة ألف رجل ليغزو بريطانيا ومن الطبيعي أن تعجز وسائل النقل العادية عن القيام بهذه المهمة. فلم تدخل في نطاق تفكيره لأنها غير كافية في جميع أنحاء فرنسا — وقد أصاب تجارة فرنسا الكساد وتعذر عليه بناء مثل هذه الأساطيل اللازمة حيث توقف ورود الخشب وأن تيسر له بناؤها فليس في موانئ فرنسا متسع لمأواها وإن أمكن بناؤها واستعمالها فإن إنزال الجيوش منها على الشواطئ البريطانية لا بد وأن يكون بطيئًا — وهكذا تحتم على هذه الحملة المديرة تدبيرًا تعسفيًا أن تكون في عدد هائل من القوارب الصغيرة التي يمكن إنزالها إلى البحر في سرعة كبيرة وتستطيع معها القوات الغازية النزول منها إلى البر في الحال بأعداد وفيرة للتغلب على أي جيش يقف في مواجهتها. قد تستطيع هذه القوات التحرك مستترة بالضباب وفي هدوء

البحر حين تعجز السفن الحربية عن الحركة — وقد اهتم نابليون بتأكيد هذه الحقيقة، وظن أن النجاح في هذه الحالة أكثر احتمالاً لو أن الفرنسيين دان لهم زمام الأمر في البواغيز ولو لبضع ساعات — وقد أدرك نابليون في دخيلة نفسه ضرورة وجود أسطول قوي يزود عن القوات الغازية ويمدها بتأييده وحمايته.

غير أن هذه المحاولة للقضاء على بريطانيا لم تتمخض عن شيء ما، لأن هذه الوحدات المختلفة من الأسطول الفرنسي الجديد والتي أمكن بناؤها بجهد بالغ في موانئ فرنسا المتعددة في ظل حماية قوية لم تتح لها الفرصة قط لأن تلم شملها وتتجمع فتكون أسطولاً مركزًا تكفي قوته لحماية السراب العديدة من القوارب الخفيفة التي جمعت في بولونيا بتجشم كثير من المشاق. ذلك لأن بريطانيا في هذه الآونة أحرزت تقدمًا جديدًا في فنون الحرب البحرية، واكتشفت أن خير دفاع عن شواطئها وتجارتها بل أن أقل أنواع الدفاع كلفة هو الحيلولة دون خروج الأساطيل الفرنسية من موانئها حيث خبأها الفرنسيون على طريقتهم في اختزانها، وإن يمنع الفرنسيون من أن يألفوا البحر ويعتادوه، وفي هذه الأثناء قلما ترك رجال البحر البريطانيون سفنهم لعدة سنوات فصلب عودهم وخشنت نفوسهم وتدربوا على إدارة سفنهم — حتى أن نلسن نفسه لم يترك السفينة التي عقد عليها لواؤه لمدة عامين كاملين فلما جد الجد وتطلب الأمر خبرتهم في تسيير السفن إبان المعارك البحرية ظهر تفوقهم على أعدائهم في وضوح.

وهكذا حوصرت الموانئ الفرنسية منذ بداية الحرب في عام ١٨٠٣ – وقد أفلتت بعض القطع البحرية ولكن مثل هذه الفلتات لا يمكن إحكام زمامها فلم تتجمع منها قط مجموعات في أعداد كافية لكي تسود المضايق الإنجليزية ولم تتوافر لها سرية الحركات فتتجنب مراقبة السفن البريطانية التي سرعان ما كانت تتبعها

وتطاردها – وكان مفتاح الموقف كله في ميناء برست حيث تجمع فيه الجزء الرئيسي من أسطول نابليون ووقف له الأميرال كورنواليس بالمرصاد، ولم يهيئ له لحظة واحدة للإفلات من مكمنه. ومن وجهة النظر الحربية تتوقف مزايا مثل هذا الحصاد المضروب على الموانئ الفرنسية على اختلاف بيّن بين البحر والبر – فالناس يعيشون في كل مكان تقريبًا على اليابس فيما عدا الصحاري التي يتعذر اختراقها ويستحيل على جيش ما أن يتحرك لأية مسافة دون أن تعلم حركاته وتعرف أمكنة وجوده بينما يسهل على الأسطول أن يبحر لمسافات بعيدة وعلى الأخص في المحيطات دون أن تتكشف حركاته وأهدافه – ولنا في هذا مثل بارز حينما أبحر نابليون إلى مصر عبر البحر المتوسط. وقد وقع الاختيار في بادئ الأمر على جزر الهند الغربية بسبب وقوعها على بعد سحيق في المحيط لتكون مركزًا لتجمع وحدات الأسطول الفرنسي المتفرقة – غير أن هذه الوحدات ظلت مختبئة في موانئها مما اضطر معه نابليون إلى أن يحاول جمعها في خليج بسكاي، ولو تجمعت هناك لسهل على الأسطول البريطاني في معرفة أخبار تجمعها واتخاذ الأهبة لملاقاتها – حقًا أفلت القائد الفرنسي فيلينيف من

طولون بجزء من وحداته — ووصل إلى جزائر الهند الغربية ولم يلحق به أي قسم آخر بل على العكس من ذلك تتبعه نلسن وطارده.

وأدرك نلسن تمامًا ماذا تتركه هذه المطاردة من أثر حتى أنه تنبأ بعودة فيلينيف في الحال بل وتنبأ بالطريق الذي سيسلكه في عودته. فاختار نلسن طريقًا آخر مستخدمًا لأقصى حد الرياح الغربية فوصل إلى المياه الأوروبية وبقي فيها منتظرًا عودة الأسطول الفرنسي — وأخيرًا بذل فيلينيف محاولة يائسة لينضم إلى الأساطيل الراسية في برست غير أن شجاعته خانته ففضل الإبحار جنوبًا إلى قادس وحينئذ فقط اقتنع نابليون بعقم فكرة غزو بريطانيا ونقل جيوشه المعسكرة في بولوني بعد أن طال عليها أمد الانتظار.

والواقع أن معركة الطرف الأغر لم تجر وقائعها إلا بعد أن زال عمليًا خطر الغزو بثلاثة شهور — وجرى القتال فيها بسبب فشل فيلينيف السابق إذ صدرت

له الأوامر بعزله وعلم هو بأمر هذا العزل قبل أن يصل إليه خلفه الذي كان من واجبه أن يعود بالأسطول إلى البحر المتوسط — غير أن نلسن كان في انتظاره هناك فدمر جزءًا كبيرًا من الأسطول الفرنسي وحال بذلك دون تجدد تهديد الغزو مرة أخرى.

وهكذا استخدمت بريطانيا البحر كوسيلة للدفاع، وأحسن استخدامه أولئك الذين عرفوه حق المعرفة ضد أناس من أمثال نابليون ممن

عجزوا أن يدركوا المميزات الخاصة بالقتال البحري وهكذا أسست بريطانيا بلادها ضد الغزو والعدوان لمدى قرن من الزمان.

٤ – المرحلة الرابعة: فلما عجز نابليون عن نقل جيشه عبر القنال الإنجليزي لم يجد بدًا من محاولة السيطرة على المحيط عن طريق البر. ولأن يحقق هذا الهدف كان عليه أن يجمع كل أجزاء الدنيا الهامة في محالفة ضد بريطانيا فنصب من نفسه دكتاتورًا تخضع أوروبا لإرادته. بل إنه في الوقت الذي جرت فيه موقعة الطرف الأغر كانت جيوشه قد وصلت لي قلب أوروبا وبعد بضعة أيام خرت النمسا خاضعة تحت قدميه، ثم استسلمت له بروسيا في نهاية عام ١٨٠٦.

وهكذا تحول الصراع إلى صراع موارد وطاقة مدخرة، فحاول نابليون أن يعزل بريطانيا ويحرمها كل كسب لها في أسواق القارة بل صادر كل سفينة تأتي من بريطانيا ولو كانت غير بريطانية وحاولت بريطانيا بدورها أن تعزل فرنسا وفتوحاتها عن كل نقل بحري ما لم تكن البضائع مصدرة من ميناء بريطاني ودفعت عنها الإتاوة لخزانتها، وفي عام ١٨٠٧ كان الحصار البحري قد أصاب نجاحًا باهرًا لأن نابليون كان مشغولاً في محاولته أن يجعل روسيا تساير سياسة الدول الأوربية الأخرى، ولم يستطع الاستغناء عن جيوش فرنسية لتنفيذ أوامره لمنع التجارة – كما انسحبت الأساطيل الدنمركية والبرتغالية من جانبه تحت إغراء إنجلترا قبل أن تفترسها الجيوش الفرنسية نهائيًا.

فلما سيطر نابليون على كل أوربا باستثناء السويد وتركيا بدا موقف بريطانيا داعيًا إلى اليأس غير أنها أعلنت أن كل تجارة خارجية يجب أن تمر بالموانى البريطانية وأن تدفع لها الرسوم المقررة ونفذت هذا الوعيد بقوة أسطولها، وهكذا ازدادت بريطانيا قوة بحصولها على نسبة مئوية عن جميع تجارة أوربا الخارجية وأضعف ذلك نابليون بطريقتين – الأولى أن أهالي شمال أوروبا كان من صالحهم الإتجار مع بريطانيا على الرغم من القيود البريطانية المفروضة على تجارتهم – فجرى التعامل بين الطرفين كما استثار نابليون سخطهم حين حاول استخدام القوة في إيقاف هذه التجارة غير المشروعة (في نظره). والثانية أنه شعر بضرورة الحيلولة دون وصول التجارة البريطانية إلى شمال أوروبا فاضطر إلى أن يبعثر جيوشه على طول الشواطئ الأوربية في نطاق عرضه خمسون ميلاً مما حال بينه وبين إرسال قوات كافية يصد بها الهجوم الإنجليزي في شبه جزيرة إيبريا.

وهكذا ذرت الأزمة قرنيها فلو أنه سحب قواته من شمال أوروبا ليقاوم بها البريطانيين في إسبانيا لأفادت بريطانيا من ذلك وانتعشت مواردها بالإتجار مع دول الشمال ولو أنه احتفظ بجيوشه في الشمال – كما فعل – لعجز أن يرسل إلى البرتغال جيوشًا تطرد البريطانيين منها. فتبعثرت موارده من الرجال وضعف أثرها وازدادت فرنسا فقرًا على فقر وارتفعت أسعار الحاجيات كلما اقتربنا من حدود فرنسا وعلى العكس كان يسهل استيراد البضائع ويزداد ثمنها رخصًا كلما بعدت الشقة عن فرنسا.

بل ان تلك الحملة العسكرية التي كانت السبب المباشر في سقوط نابليون ترجع في علتها إلى السياسة التي اضطر نابليون إلى اتباعها بحكم أن بريطانيا جزيرة محمية، منافذها مفتوحة للمحيط فقط. ذلك أن روسيا على الرغم من بعدها عن فرنسا وعلى الرغم من أنها وافقت نابليون على استبعاد السفن البريطانية إلا أنها لم توافقه على استبعاد البضائع البريطانية التي تحملها سفن أخرى وكاد هذا الرأي يقلب مشروعات نابليون رأسًا على عقب – فنشب بينهما خلاف شديد مما استتبع حملة نابليون على روسيا فتشجعت حكومتا بروسيا والنمسا مؤيدتين من الشعب كله وهبتا للوقوف ضد نابليون – واستمر نابليون يفقد فتوحاته شيئًا فشيئًا لأن موارده المادية والبشرية قد نضبت حتى دخل الحلفاء باريس وانتهى الصراع بعد أن أثبتت القوة البحرية المحيطية أنها قوة لا تقهر.

الفصل الثاني عشر

الغابات

أولاً – روسيا

رأينا في الفصلين السابقين كيف بعث كشف المحيط بالنشاط الذهني إلى عقول الأقوام التي سكنت حافة أوربا الخارجية، وكيف أمكن لهذه الشعوب أن تفيد من المزايا التي هيأها لها ذلك الكشف البحري فاكتسبت الوحدات الطبيعية التي تحف بالمحيط أهمية بالغة. وكان لهذا النشاط الذهني أثر بعيد في هذه الوحدات عن أحد طريقين إما لأنها قد بدأت في تبلورها ونضوجها، وإما لأنها أسرعت في تطورها، وقد جاء بطبيعة الحال كشف المحيطات الذي قامت به الأمم الغربية بكل ما استتبعه من نتائج جاء على أثر اتصالها بقبائل السهول من جهة وبالعرب والأقوام التي دخلت في الإسلام من جهة أخرى.

وقبل أن نستطرد في متابعة هذه القصة ينبغي أن نلقي بنظرة إلى الوراء لنرى كيف أن دولاً أوربية أخرى أخذت تحتل مكانتها بين الدول العظمى، ولكي ندرك هذه الحقيقة يجب أن ندرس ظاهرة جغرافية أخرى لا تقل في أهميتها عن غيرها من الظواهر، ألا وهي ظاهرة الغابات وخصائصها.. والغابات أنواع متعددة ولكنها تشبه بعضها بعضًا من نواح عدة:

أولاً: أنها صعبة الاختراق. نعم قد يسهل اختراقها على الجماعات الصغيرة والأفراد دون الجماعات الكبيرة العدد وقد يسهل السير فيها للسائر على القدمين أكثر ما يتيسر للفارس على صهوة جواده، وهكذا تتناقض الغابات مع المراعي تناقضًا أساسيًا حيث نرى الحركة ميسورة في جميع الاتجاهات وحيث للحياة في جماعات كبيرة العدد مزايا واضحة سواء في الحل أم في الترحال.

ثانيًا: أنه قد يمكن اجتثاث بعض أجزاء الغابات فيستقر فيها بعض السكان تحميهم الأجزاء الكثيفة من حولهم، غير أنه في مثل هذه الظروف البدائية لا ينتشر العمران بسرعة إذ يعجز عن أن يمتد إلى مناطق واسعة، وما دامت الغابات تزود سكانها بالثمار الطبيعية البرية فليس هناك ما يغري على الاستقرار في مكان واحد بعينه أو ما يستثير شهوة الإنسان في جمع الممتلكات وإحرازها.

ثالثًا: إن الجماعات التي تستقر في مناطق الغابات تفضل احتراف الزراعة على الرعي لأن وجود الغابات دليل على أن الإقليم يخلو في مناخه من فترة جفاف طويلة أثناء السنة وهكذا يمكن زراعة بعض المحاصيل والإفادة من التربة بدرجة أكبر منها في بيئات المراعي الجافة.

رابعًا: وينتج مما سبق أن مناطق الغابات قليلة السكان يعيشون مبعثرين في أرجائها وإن وجدت بها جماعات زراعية فإنها تميل إلى اتباع نظام القبيلة ولا تثق بالغرباء أو الدخلاء عليها.

وهكذا تختلف ظروف الحياة في الغابات عن أي نوع سبق لنا دراسته حتى الآن، فلم تتصف البلاد العريقة في مدينتها بغزارة الأمطار ولم تبلغ بها الأشجار حدًا من الكثافة يؤثر في انتقال الإنسان لدرجة كبيرة أو يكفل الحماية للمجتمعات التي تستقر فيما بينها.

وعلى الرغم من أن السهل العظيم في العالم القديم يبدو على خريطة تضاريسية وكأنه سهل واحد إلا أنه في الحقيقة ينقسم قسمين تبعًا لوجود الغابات وانعدامها فإن الجزء الشمالي والشمالي الغربي منه – بسبب وقوعه تحت تأثير الرياح الغربية – أصبح أكثر رطوبة من القسم الجنوبي والجنوبي الشرقي من السهل. فهو ألطف جوًا في الصيف الأمر الذي تقل معه كمية البخر. وهكذا اقتصر إنتاج القسم الجنوبي والشرقي من السهل على الأعشاب والحشائش على حين أصبح الشمالي والغربي

منه منطقة غابات كست فيها أشجار الصنوبر المساحات ذات الشتاء البارد الجاف. وسادت الأشجار النفضية القسم الغربي الأكثر اعتدالا الواقع إلى الجنوب من بحر البلطيق وإلى الجنوب الغربي منه. وهنا نجد مساحة واسعة يصعب عبورها كما يصعب حكمها بل ويصعب توحيدها في دولة واحدة يسودها الانسجام والتجانس، وهكذا تأخرت روسيا نسبيا في ظهورها على مسرح التاريخ قبل أن تصبح دولة ذات أهمية.

وقد سبق أن لاحظنا أن السلاف كانوا من بين القبائل التي ظهرت حركاتها وقت انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية، وكانت تنقلاتهم –شأنها كشأن القبائل الجرمانية – مبعثها الضغط الواقع عليهم من الشرق أكثر من صدورها عن رغبة في نفوسهم تدفعهم إلى التحرك والانتقال أو عن حافز طارئ عليهم من فعل بيئتهم التي تحيط بهم، ومن ثم لم يذهبوا بعيدا في اندفاعهم وتحركهم.

ومهما كان الأمر، فإنهم استقروا أخيرا في المنطقة الواقعة بين بحر البلطيق في الشمال وبلاد البلقان في الجنوب وقد سكن بعضهم السهول كما سكن بعضهم المرتفعات. ومن ثم انقسموا فريقين بعد هجرة الرعاة الذين جاءوا من الشرق وظلوا يتتبعون في هجرتهم مناطق الرعي الوسطى. وقد تكلمنا فيما سبق عن السلاف الجنوبيين الذين سكنوا شعاب الجبال، وسنحصر كلامنا الآن في السلاف الشماليين.

في هذه الغابات التي احتلها الشماليون وجدت الجماعات الرعوية المتنقلة ظروفاً مغايرة لم تكن تألفها ولم تعرف كيف توائم حياتها تبعاً لها، فلم تصل قط جماعات الآفار وغيرهم من الرعاة إلى هذه المناطق ووجد السلاف الشماليون بعض الحماية في استقرارهم حيث اجتثوا الأشجار الصنوبرية وعاشت جماعاتهم في وحشة وعزلة وقد نأت بها مواطنها إلى الشمال فبعدت عن المؤثرات الحضارية التي أضاء نورها حول البحر المتوسط، ولذا استغرقت قبائل السلاف بطبيعة الحال زمناً طويلا قبل أن

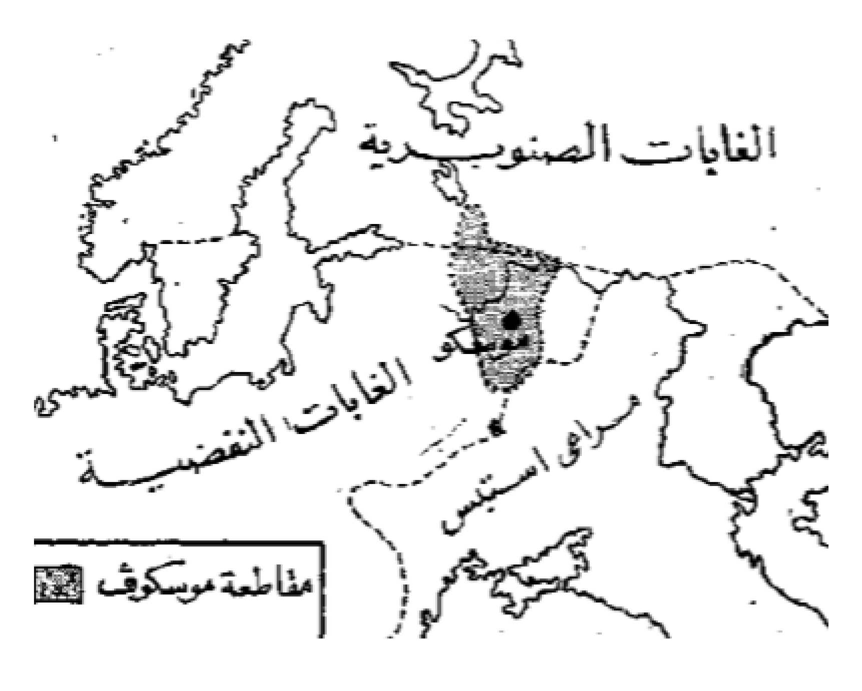
تتمكن من احتلال مكانتها في العالم المتحضر وجاءت إليها أولى مؤثرات الحضارة – كما هو منتظر – عن طريق البحر.

وقد حدث حوالي عام ٨٠٠م نتيجة لامتداد الإمبراطورية الألمانية العظمى التي سنلمح إليها فيما بعد –أن نشط سكان الدانيمارك واسكندناوه الحاليتين ولفت فتوحات شارلمان في البلاد السكسونية أنظار الشعوب الشمالية إلى ما كان يجري في الجنوب منهم فالتهبت نفوسهم رغبة في السلب والنهب وداعبتهم أحلام في تكوين ممالك في المناطق الشمالية القليلة السكان والتي تبعثرت فيها جماعات مختلفة يرجع صغر عددها وانعزالها إلى صعوبة الحصول على كميات وافرة من الغذاء في مكان واحد يعينه، فشب الشباب منهم وهم يألفون هجرة ذويهم ويألفون ارتكاب المشاق والأخطار في سبيل الحصول على ضرورات الحياة من البر والبحر – وقد تعودوا الاستقلال في التفكير والعمل بأنفسهم بمساعدة عدد قليل منهم – فتوافرت صفات الزعامة بين الكثيرين وقل بالتالي عدد من ينقادون منهم لغيرهم – ولهذا انتشروا في مدى قرنين من الزمان في كل جهة تقريباً، فرأينا من بين النور سمن أو النورمانديين من قاموا بارتياد المناطق المجهولة أو من خاضوا المعارك أو أسسوا المستعمرات.

وآل الحكم في إنجلترا وفي غيرها من البلاد إلى أسر عديدة منهم، وإذا كان طابعهم في بادئ الأمر مخرباً مدمراً حيثما أغاروا على البلاد العريقة في مدنيتها إلا أنهم كانوا أيضاً ومن أول الأمر معمرين منشئين في البلاد التي تقل عنهم حضارة ورقياً كالمناطق التي سكنها السلاف

الشماليون مثلا، فبرزت مدينة نوفجورد Novgord حيث كان من أيسر الأمور على هؤلاء البحارة الوصول إليها وبذت جميع مستعمراتها الأخرى في هذه الغابات. واتسعت تدريجياً المنطقة التي تدين بالولاء لحاكم نوفجورد حتى امتدت روسيا جنوباً إلى منطقة الانتقال بين الغابات والمراعي أو ما يسمى منطقة المراعي الغنية الممتدة على حافة نطاق الغابات ولم تمتد إلى أبعد من هذا ولكنها مع ذلك اتصلت بالحضارة البيزنطية وبالكنيسة اليونانية وتأثر أهلها بكليهما.

والانقسام الداخلي أمر طبيعي في أقاليم الغابات حيث يتعذر الاتصال بين الوحدات المختلفة فكان هذا سبباً في انقسام الدولة الروسية في إبان القرن الحادي عشر. وتناوبت الوحدات الصغيرة أو الكبيرة الظهور على المسرح التاريخي فكانت تبرز هذه الوحدة آنا وتبرز تلك آنا آخر. وظلت الروابط التي تربط بينها واهية متقطعة الأسباب كما هو منتظر، ثم وحد بينها فيما بعد نوع من الارتباط تحت حكم المغول —وحتى هذا الشعب الرهيب على الرغم من أن أفراده كانوا منن خيرة الفرسان الذين يجيدون ركوب الخيل إلا أنهم عجزوا عن التوغل في تلك النواة العتيدة في نوفجرود – هنا في قلب الغابات احتفظت الأمة الروسية بنواتها سليمة، كما ظلت نواة أسبانيا مختبئة في شعاب جبال البرانس في بيئة لم يألفها فرسان المسلمين.



الخريطة رقم ٣٧

موقع مقاطعة موسكوف واتساعها – يتضح من الخريطة موقع مقاطعة موسكوف ومدى اتساعها في القرن الرابع عشر وعلاقتها بمنطقة الغابات

وحين انهار الحكم المغولي قامت ولاية المسكوف تتخذ من مدينة موسكو مركزاً تبني حوله، إذ نشأت بالقرب من حافة الغابات وإن ظلت في داخلها وازدهرت بفضل تأييد الجزء الشمالي من روسيا الذي لم يتناوله الغزو والفتح –وقامت بدور الوسيط بين المغول في الخارج والروس في الداخل بعد أن اضطرتهم الأحداث الخارجية إلى الاتحاد والتضامن وفي نهاية القرن الخامس عشر نزعت ولاية موسكوف عن نفسها قيود الحكم المغولي وأصبحت موسكو نواة روسيا فنشأت دولة ذات حكومة مركزية مستقلة استقلالا فعلياً.

وبعد أن تأسست الحكومة المركزية لم تستغرق وقتاً طويلا لتدرك سر قوة سكان المراعي ولنعرف أن قوتهم كامنة في اتحادهم وسهولة انتقالهم — بل وإن حركتهم قد تكون في نفس الوقت مصدر ضعفهم لعدم وجود مركز ثابت يرجعون إليه. فلو تمكنت حكومة مركزية مستقرة من تنظيم قوة ميزتها سرعة الحركة تواجه بها أولئك الرعاة لانتصرت وفرضت سلطانها عليهم، وقد تم ذلك فعلا لروسيا فم تمض خمسون عاماً على قيامها إلا وقد امتد الحكم الروسي إلى الجزء الأكبر من مراعي الاستبس في جنوبها، وقبل نهاية القرن السابع عشر امتد حكم روسيا إلى سهول آسيا الوسطى الفسيحة الأرجاء التي كانت حتى ذلك الأوان مصدر خطر يتهدد جميع المدنيات التي تحف بجميع نواحي السهل المترامي الأطراف الواقع في وسط آسيا وهكذا قضى نهائياً على عناصر الاضطراب التي ظلت لقلق بال المدنية والحضارة طوال عصور التاريخ ثم تناولها الروس بالتنظيم فأصبحت مصدراً للقوة والتعمير لا وسيلة للتخريب والتدمير.

وهكذا أشرفت روسيا على تنظيم السهل بأجمعه ابتداء من نطاق الغابات في الشمال وأخذت تعمل على نشر العمران تدريجياً في تلك المساحات التي اكتسحها الرعاة من قبل وتركوها قاعاً صفصفاً، وأمكنها بفضل استخدام وسائل الري زراعة أراض فسيحة كانت جحافل الرعاة لا تجد فيها غير الأعشاب الفقيرة لقطعانها — وشيد الروس الطرق الحديدية عبر أراضي خلت من الأحجار وتعذر فيها تعبيد الطرق — وأصبحت موسكو لا بطرسبرج المركز العصبي لحياة عدد كبير من الشعوب المتنوعة.

وروسيا بهذا الوضع –أي باحتلالها الجزء الأوسط من أوراسيا تلك القارة العظيمة – بعيدة عن المحيطات فيما عدا المحيط المتجمد الشمالي العديم الفائدة ولهذا أضحت سياستها الخارجية لمدى قرنين من الزمان هي محاولة للوصول إلى البحار الدافئة المفتوحة تارة عن طريق خليج فنلندة وبحر البلطيق، وتارة عن طريق البوسفور والبحر المتوسط، وتارة عبر أفغانستان وإيران، وتارة بالتوسع جنوبا على حدودها الشرقية البعيدة المطلة على المحيط الهادي –غير أنها حتى الوقت الحاضر لم توفق توفيقاً كبيراً – لأن الدول الغربية قد سبقها إلى النضوج والتبلور وأصبحت قوة ثابتة، كما يقع إلى الجنوب وإلى الشرق من روسيا ذلك الحاجز الجبلي الذي يكاد يتعذر اجتيازه.

غير أن لروسيا ميزتها الخاصة فهي تحتل مساحة واسعة لا تزال مخلخلة السكان وتكفل الحياة لعدد عظيم من البشر. وقد شمل أقاليمها تنظيم بارع ومازالت تتدرج في مدارج الرقي حتى تبلغ درجة عظيمة من الاكتفاء الذاتي أو الاستقلال الاقتصادي كما تمتاز باحتلالها قلب العالم القديم واكتسب شعبها ميزة الشجاعة ومتانة البنية والقدرة على تحمل قسوة المناخ. هذه البقاع المتوسطة في موقعها والتي تتكون منها روسيا – مهما حدث لها من انقسام – هي وحدة طبيعية واحدة في أساسها ولم تبلغ بعد الحد الأقصى في استغلال مواردها.

ثانيا: ألمانيا

تتبقى بعد ذلك، المساحة الوسطى الشمالية من شبه جزيرة أوروبا إلا وهي ألمانيا على وجه التقريب – وهنا تتعقد الظروف الجغرافية تعقيدا عظيما وليس تاريخها بطبيعة الحال بأقل تعقيداً.

أولا: لعل أوضح الحقائق الجغرافية أن البلاد الألمانية ذات موقع متوسط ولا تقول متوسطاً بالمعنى الذي نقصد به توسط السهل الأعظم فالسهل الأعظم يحيط به اليابس من كل ناحية ما عدا الشمال – وتحول المرتفعات دون اتصاله بجميع البلاد المجاورة الهامة سواء في الشرق أو في الغرب – وأن لم يمنع هذا الحاجز قبائل السهول من أن تنفذ إلى الإطار المحيط به من حين إلى آخر. وفي الواقع الأمر لم يحدث هجوم مضاد لحركات القبائل حتى ظهرت روسيا في الغابات الغربية. وحتى روسيا نفسها تأثرت في الجزء الأكبر من تاريخها بثلاثة مؤثرات خارجية. النورسمن من الشمال الغربي، والحضارة البيزنطية والكنيسة البيزنطية من الجنوب الغربي والقبائل المغيرة من الجنوب الشرقي. أما قلب شمال أوروبا فد تأثر بمؤثرات عدة جاءت إليه من نواحي مختلفة.

(أ) فقد تأثر قلب أوروبا بالمؤثرات المختلفة التي نشأت في البلاد المتحضرة في غرب أوروبا وجنوبها منذ عصر الإمبراطورية الرومانية فصاعدا.

(ب) وتأثر مراراً وبطرق مختلفة بجميع المؤثرات التي كانت تصل إليه من البحر في الشمال ومن المحيط فيما وراءه.

(ج) كما تأثر بالمؤثرات التي وردت عليه من الشرق –لا من جراء هجرة القبائل التي جاءت من السهل فحسب، بل ومن جراء غارات الأقوام الهمجية التي وصلت إلى أوروبا عن طريق آسيا الصغرى. ولم يقتصر تأثير هذه العوامل على مجرد حدوثها مرة واحدة أو مرتين كما هو الحال في روسيا بل ظل قلب أوروبا واقعاً تحت تأثيرها على الدوام منذ العهد الروماني وظلت هذه العوامل ذاتها في تطور مستمر.

ثانياً: أن تضاريس وسط أوروبا معقدة جداً فالطرف الغربي للسهل يصل إلي البحر المكشوف مباشرة، وإلى الجنوب من ذلك اللسان السهلي ترتفع الأراضي وإن لم تخل من انخفاض مساحات كبيرة عن المستوى العام وقد تضيق بعض المنخفضات فتصبح ودياناً ضيقة نسبياً، وقد يتسع بعضها حتى تصبح سهولا، كالسهل الذي يمتد من مدينة بال حتى شمال فرنكفورت ويستمر في امتداده على طول الجزء الأكبر من مجرى الراين – وعلى العكس من ذلك نجد مرتفعات تزيد أو تقل في اتساعها وفي ارتفاعها كالغابة السوداء أو كتلك المرتفعات التي محيط ببوهيمياً – وتختلف هذه الوحدات التضاريسية اختلافاً بيناً في أحجامها – فليست كلها صغيرة كوحدات اليونان التضاريسية ولكنها سواء باتساعها أو بصغر حجمها – تخلق تنوعاً في أساليب الحياة لا يمهد بتاتاً إلى قيام وحدة كاملة.

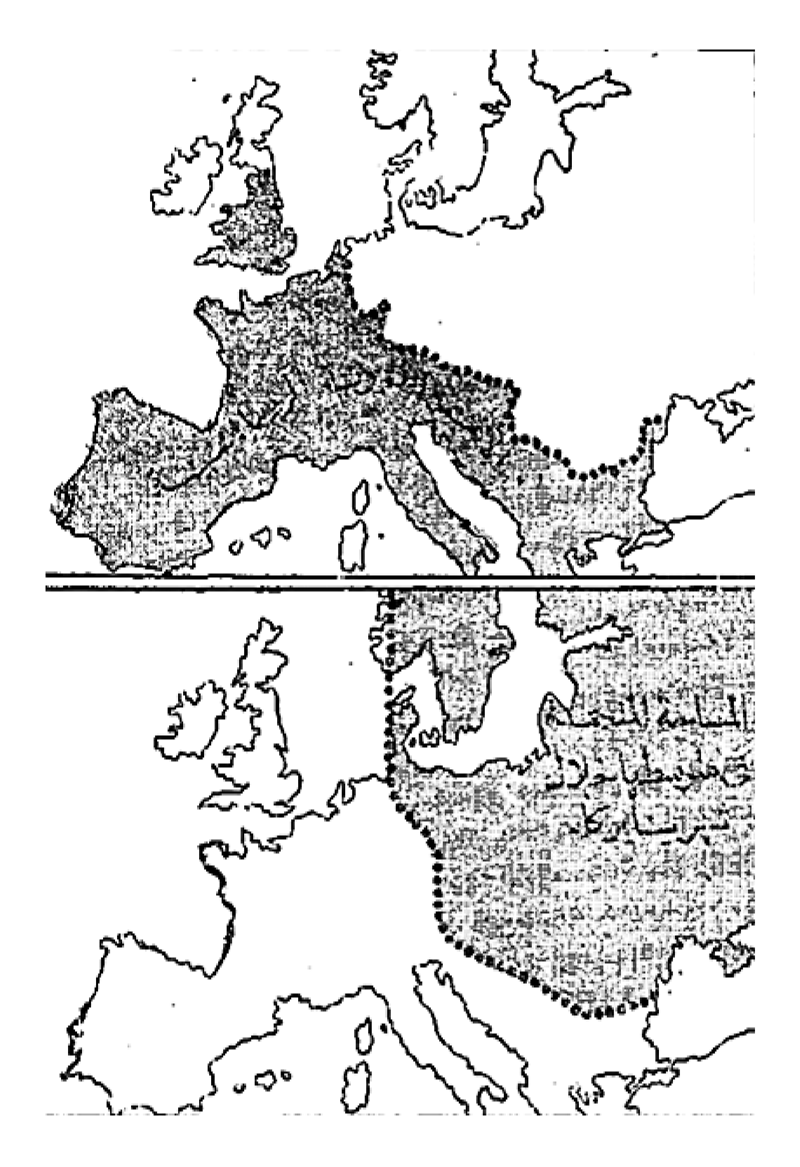
ثالثاً:وليس تنوع الحياة هو كل شيء فقد امتازت إيطاليا بالتنوع ولكن مرتفعاتها ومنخفضاتها تناسقت فجعلت من روما مركزاً طبيعياً لها، أما قلب شمال أوروبا فليس فيه مركز واحد يمكن أن يقارن بروما بالنسبة لموقعها في شبه جزيرة إيطاليا وهي ذات الحدود الواضحة بل ولا بباريس أو بلندن. وقد لا تكون روما عاصمة مثالية بالنسبة لإيطاليا الحديثة غير أن إيطاليا تخلو من مدينة أخرى تقف نداً لها. أما ألمانيا فقد حوت عدة مراكز لم يبرز منها مركز واحد ليفضل المراكز الأخرى في جميع الأحوال، وكلما اختلفت الظروف القائمة وكلما اختلفت المؤثرات التي تعرضت لها البلاد قام مركز أو آخر وازداد في ظهوره على المراكز الأخرى، غير أنه لم تتوافر له علو المكانة الدائمة أو ارتفاع الشأن حتى يكسبه قوة دافعة تضمن له الاحتفاظ بتفوقه في الظروف الجديدة. فقامت مراكز عدة احتل كل منها مكانته عهداً من العهود كمدينة فرنكفورت في الشمال الغربي، وميونخ في الجنوب الغربي وفينا في الجنوب الشرقي، وبرلين في الشمال الشرقي.

رابعاً:وفي العصور الغابرة كانت الغابات التي نشأت بروسيا في أحضانها تكسو السهل الشمالي وجزءاً كبيراً من المرتفعات في الجنوب منه، وقد ساعدت على عزل المجتمعات المختلفة التي عاشت بين ظهرانيها وشدت من أزر العوامل الأخرى التي دعت إلى التفرقة والانقسام مثلها كمثل العوامل الجغرافية الأخرى التي تكلمنا عنها آنفاً وقد تركت هذه الغابات على حالها الطبيعية تقريباً في الشرق أكثر منها في الغرب

واستمرت إلى عهود متأخرة مما نتج عنه سبق غرب ألمانيا في تحضره لشرقها بزمان طويل.

خامساً: وألمانيا عامة يشتد بردها في الشتاء عن أي إقليم آخر باستثناء السهل الذي تكلمنا عنه – ولقد عرفت بلاد آخري زمهرير الشتاء ولكن البرد القارس المستمر فيها أمر شاذ غير عادي، غير أن ألمانيا وعلى الأخص شرقها تبقى فيها الأراضي متجمدة فترة طويلة من العام.

وهكذا خضعت ألمانيا لعوامل مختلفة – فلم تعرف لها عاصمة واحدة معينة وقد أحاطت بالبلاد شعوب ذات أهمية بالغة وامتازت أجزاؤها بخصائص مختلفة وسكنها أقوام اختلفت وجهات نظرهم إلى الحياة وتعرضت لمؤثرات خارجية دخلت عليها من جميع الاتجاهات وتركت طابعاً مختلفاً في كل وحدة من الوحدات ومن ثم لم يتحد قلب أوروبا في ظل حكومة واحدة إلا إذا كانت هذه الحكومة على شيء كبير من العزة والمنعة.



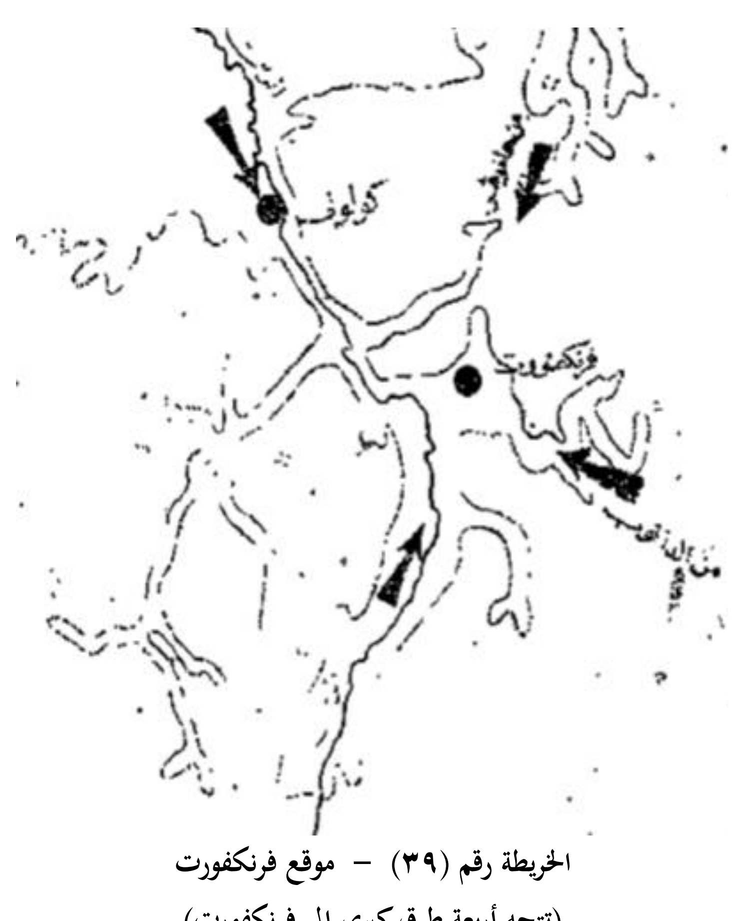
(الخريطة رقم ٣٨) – الإمبراطورية الرومانية ومنطقة البرد القارس
لقد تجنب الرومان البرد القارس

وقد ظلت البلاد الألمانية خارجة عن نطاق الإمبراطورية الرومانية، لأن الغابات من جهة كانت عسيرة في اختراقها على الجيوش، عسيرة في

حكمها على الحكومات، ولأن البلاد من جهة أخرى تقاسي من البرد القارس إبان الشتاء مما ألفه أهالي جنوب أوروبا – غير أن هذه الجماعات الألمانية تأثرت لمدى قرون عديدة بالإمبراطورية الرومانية وبالآراء التي تسربت منها وعم تأثيرها جميع القبائل سواء النيوتينية في الغرب أو السلافية في الشرق على الرغم من عزلتها في وسط غاباتها في الأماكن التي اجتثت منها الأشجار. وليس بأقل هذه الآراء أهمية فكرة الحكومة المركزية إلى جانب غيرها من مظاهر الحضارة التي نقلت من الإمبراطورية الرومانية كاستخدام الأسلحة والملابس.

ولما ضعفت القوة الرومانية كانت الجماعات التيوتونية أول من اندفع إلى بلاد تعترف بالسيادة الرومانية، أما لأنها اضطرت إلى ذلك اضطراراً تحت ضغط قبائل السهول وأما لأنها ضعفت أمام إغراء الرخاء والغنى الذي تمتعت به البلاد الرومانية في ظل السلام الروماني. فعبر السكسون البحر إلى بريطانيا وازداد نفوذ الفرنجة في بلاد الغال دون أن يهجروا وطنهم الأول حول مدينة فرنكفورت الحديثة – وهاجر البرجنديون إلى وادي الرون بينما اكتسح القوط والواندال واللمبارد أجزاء مختلفة من سواحل البحر المتوسط. وقد اندمجت هذه القبائل الأخيرة في الشعوب التي غوتها وسادتها فترة من الزمان – غير أن الفرنجة الذين لم يتركوا جميعاً وطنهم الأول واستمروا خاضعين للظروف التي ألفوها من قبل واستطاعوا – رغم ما اكتسبوا من جوارهم للإمبراطورية – أن يحتفظوا بالكثير من عاداتهم وتقاليدهم القديمة. انظر إلى موقع الفرنجة في وطنهم الأول تجدهم يسكنون ذلك الجزء من وادي الراين الذي يحيط بمدينتيماينز وفرنكفورت

– وهو منطقة من الأراضي الخصيبة دافئة نوعاً مت وبها من المنخفضات أو السهول ما يجعل الانتقال فيها ميسوراً في أربع اتجاهات رئيسية، فهي تتصل من ناحية الشمال الغربي عن طريق خانق نهر الرين بالسهول المفتوحة في واديه الأدنى ودلتاه، وتتصل من ناحية الشمال الشرقي عن طريق فيتراو بمدينة هانوفر الحديثة أو بسكسونيا القديمة، وتتصل من ناحية الشرق عن طريق وادي الين بالدانوب وبافاريا، وتصل من الجنوب عن طريق أعالي نهر الراين بمقاطعة سوابيا، فليس من قبيل الصدفة أن يكون الفرنجة – وبعضهم داخل الإمبراطورية وبعضهم خارجها – أول الشعوب التيوتونية في أخذها بتنظيم تلك الأراضي التي لم تكن قد اكتسبت أهميتها الكاملة بعد. فقد انتشروا عن طريق الراين الأدنى نحو المدنية الرومانية في بلاد الغال ثم مدوا نفوذهم في اتجاهات مختلفة فسادوا الشعوب التيوتونية الأخرى التي لم يتهيأ لها موقع مركزي ممتاز كالذي تهيأ للفرنجة.



الخريطة رقم (٣٩) – موقع فرنكفورت
(تتجه أربعة طرق كبرى إلى فرنكفورت)

وقد أسس الفرنجة الشرقيون دولتهم مرتين وكان بعض أجزائها في بلاد الغال وبعضها في ألمانيا فقام أولا تحت حكم كلوفس على أنقاض القوة الرومانية المتهدمة ثم أعيد تأسيسها بعد اضمحلالها من الجزء الشرقي فقط على يد بين وشارول مارتل وبين الثاني وشارل العظيم أو شارلمان وأقاموا بنيانها على أسس أمتن من الأسس الأولى ثم اعتنقوا المسيحية على مذهب الكنيسة الرومانية وقاموا بقيادة شارل مارتل برد العرب على

أعقابهم في هجومهم على أوروبا الغربية فأصبحوا أبطال الدفاع عن المسيحية واعترف لهم البابا بهذه الصفة وهو الوريث لما تبقى من سلطان روما. وهكذا أقام الفرنجة إمبراطورية أخرى تدين بمعظم سلطانها إلى هذا الاعتراف البابوي – وقد وطد شارلمان أركان إمبراطوريته ومد في حدودها جنوبا حتى شملت البرانس وسهل لمبارديا كما وسع حدودها إلى الشرق وإلى الجنوب الشرقي – غير أن هذا التوسع والامتداد حوى في طياته بذور الضعف وكانت أولى نتائجه اتصال قوات الفرنجة اتصالا مباشراً بأهل اسكندناوة وأوجد هذا الاتصال فيهم حافزاً إلى الهجرة من أوطانهم، كما بعث بالنورسمن الوثنيين يهاجمون جميع شواطئ شبه جزيرة أوروبا، وطالما كان الفرنجة في وادي الراين وهي البلاد الهامة الوحيدة خارج الإمبراطورية الرومانية الغربية كانت دولتهم بحكم قوتها وفتوتها قمينة بأن تتولى الزعامة، ولكن لما دخلت البلاد الأخرى بظروفها المختلفة في زمرة العالم المتمدن أضيف عامل جديد يعمل على تكوين دويلات صغرى.

وقد برز ذلك الاتجاه الطبيعي إلى الانقسام بين الغال وبلاد الفرنجة حتى قبل عهد شارلمان – حقاً بقيت بلاد الفرنجة كتلة واحدة إبان حكم شارلمان وبعد موته بوقت قصير ثم تفرقت أجزاء بعد بضع سنين، فانقسمت أولا إلى ثلاثة أقسام ثم إلى أربعة. قسمان منها كانا بمثابة النواة لكل من فرنسا وألمانيا الحديثتين وإن لم تتطابق حدودهما تماماً. والقسمان الآخران هما إقليما برجنديا وسهل لمبارديا في شمال إيطاليا. ثم اتحدت برجنديا ولمبارديا مرة أخرى ضمن الأراضي الألمانية التي انطوت تحت لواء الإمبراطورية في أحد أطوارها فيما بعد، غير أن الجزء الأساسي من برجنديا

أي وادي الرون والساؤن اندمج بمضي الزمن في فرنسا وبقى شمال إيطاليا طويلا ضمن الإمبراطورية يقاسي معها افتقارها إلى مركزية الحكم.

ثم أضحت عوامل التفرقة والانقسام الطبيعية بين الوحدات المختلفة أكثر ظهوراً داخل الكتلة الجرمانية تبرزها الفوارق الجغرافية والتاريخية وقد احتفظت بلقب الإمبراطورية لأنها حوت فيما حوته مقر الحكم الفرنجي أو الجرماني.

أولا: لما انقطعت سلالة الكارولنجيين عجزت أية قوة بمفردها عن أن تحل محل الفرنجة وتفرض سيطرتها على الولايات الباقية – ثم وفقت هذه الولايات أخيراً إلى الحل الوسط إذ ترك أمر اختيار الإمبراطور في أيدي عدد من الحكام الناخبين. ولعل تأخير تنظيم ألمانيا في وحدة واحدة عهداً طويلا مرجعه رجحان كفة عوامل الانقسام والتفرقة، إذ أضيف عنصر جديد مرجعه إلى العناصر الجغرافية والتاريخية، مما أدى إلى قيام هذه الحالة التي اقتضت بدورها قيام هؤلاء الناخبين، فهو من ناحية اعتراف بحاجة ألمانيا إلى الوحدة – وهو من ناحية أخرى تأكيد بأن نوعا من الانقسام المنظم ضروري ليربط بين أجزائها، وأن إمبراطوراً ينتخب بإرادة حكام الولايات سواء كانت هذه الولايات مساوية لولايته أو تفوقها أهمية لهو إمبراطور بالاسم فقط، يحكم بإذنهم، ولما ضعفت المنظمة المركزية بهذا الشكل أضحت سلطة الإمبراطورية في أغلب أجزائها سلطة اسمية بحتة. نعم قد يستطيع رجل أو أسرة أن تخضع الولاة الباقين فيحصل على أصواتهم بالحزم والشدة، غير أن هذه القدرة على الحكم لا تقوم في

أساسها على أنه إمبراطور بالاسم بقدر ما تعتمد على ما يتوافر له من قوة كحاكم مستقل وعلى مدى نجاحه في إظهار قوته حتى يصل إلى انتخابه، وقد ظل مجمع الناخبين قائماً خلال العصور التالية وكان بعضهم من رجال الدين الذين يمثلون السلطان القديمة في تطورها لتلائم مقتضيات الظروف الجديدة، وبعضهم من رجال السلطان الدنيوي أي من غير جال الدين، فكانوا يمثلون لدرجة ما الوحدات الطبيعية الكبرى وكان هؤلاء وهؤلاء يتقاسمون السلطة الفعلية فيما بينهم تاركين ظلا من السلطان فقط للسلطة الاسمية.

ثم جاء السكسون بعد الفرنجة، وبعدهم جاءت أسرة هو هنشتوفن أو أسرة سوابيا ثم مرت لم ينتخب فيها أي إمبراطور، سادت بعدها أسرة هابسبرج أو الأسرة النمساوية في النصف الأول من القرن الخامس عشر واحتفظت هذه الأسرة بسيادتها إلى قرب أوائل التاسع عشر(٢٥) إلى أن آلات أخيراً مقاليد الزعامة إلى بروسيا.

وقد كان كل إمبراطور يباشر حكمه من مقره الأصلي وهو مقر أجداده وينشر نفوذه منه إلى الحد الذي يمتد إليه سلطانه، وسبق لنا أن تبينا أن ألمانيا تخلو من وجود مركز طبيعي يمكن أن يقارن بلندن أو بباريس، فلم يباشر أباطرة ألمانيا حكمهم من مقر معين كما اضطر على ذلك ملوك انجلترا مثلا. فقد توالت على تاريخ انجلترا وفرنسا أسر مختلفة

---

[١] تنازل الإمبراطور نهائيا في عام ١٨٠٦ عن لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة في معاهدة الصلح التي عقدها مع نابليون. المترجم

غير أن مقر الحكم لم يعتره تغيير ما منذ أن حلت لندن محل ونشسر ومنذ أن قامت باريس مقام لاون – وقد اضطر الملك جيمس أن يهجر اسكتلندا إلى لندن على بعد الشقة بينهما ليكون ملكا على انجلترا ووقفت لندن وباريس ووراءهما تقاليد متأصلة عميقة الجذور. وليس الأمر مقصوراً في ألمانيا على انعدام المقر الطبيعي فحسب ، بل أن مجرد مباشر من مراكز مختلفة ينطوي على فكرة عدم تأصل التقاليد في أي منها، ومع ذلك فقد ادعي كل مركز من مراكزها دعواه التاريخية بأحقيته في اعتباره مقر الحكم في ألمانيا.

ثانياً:ومما زاد الطين بلة أن الأساليب الذي اتبعها الإمبراطور ليجعل حكمه نافذا كانت تتشكل طبقا لعوامل التفرقة من جهة أو نزيدها تأكيدا وظهورا من جهة أخرى، ولم تجب الحكومة الإمبراطورية أية ضرائب لتنشئ بها جيشاً إمبراطوريا ينفذ إرادة الإمبراطورية أو في خارجها، بل نما النظام الإقطاعي في هذه البلاد ووصل حدا لم يبلغه في البلاد الأخرى. ويتوقف نجاح هذا النظام على التقسيم وتوالى التقسيم إلى أقسام صغرى، وكان على ملاك الأرض الكبار من الناحية النظرية – ومن بينهم الناخبون – أن يقدموا القوات اللازمة لخدمة الإمبراطور ولكنهم استخدموا هذه القوات لتحقيق أغراضهم الخاصة حتى ولو كانت تتعارض مع أغراض الإمبراطور. وهكذا لم يزد هذا النظام من سلطان إمبراطورية ضعف سلطانه.

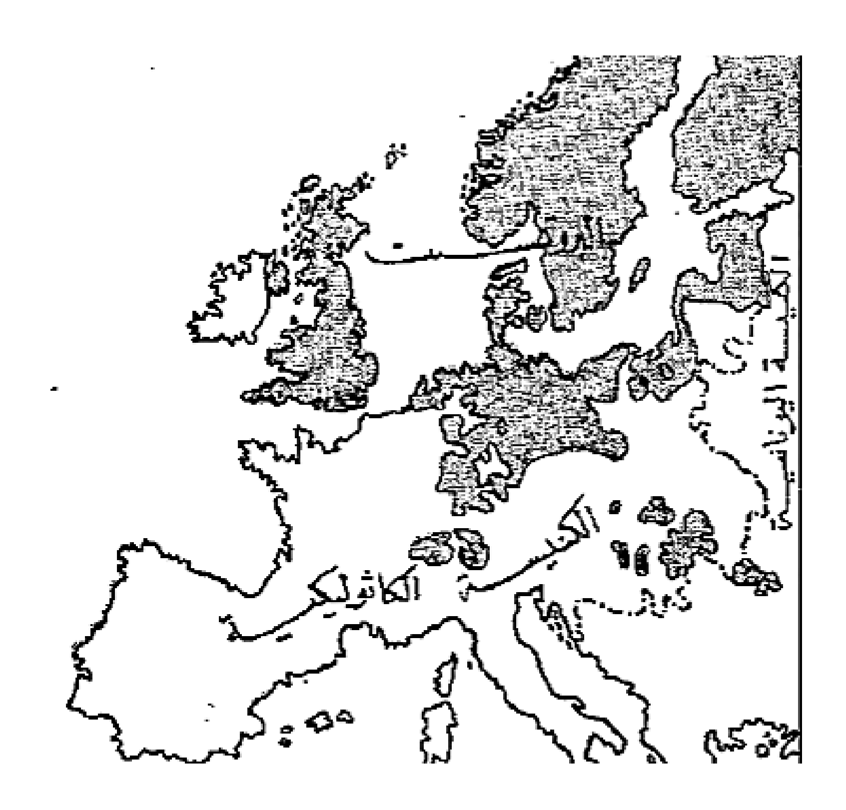
وأن أي حاكم يؤيد الإمبراطورية تأييداً اسميا، ويصدر في تأييده هذا عن ضعف، لقمين بأن ينكص العهد في تأييده في اللحظات الحرجة، ولن

يقتصر الضر على الإمبراطور وحده، فإن النبلاء العظام اعتمدوا بدورهم في جمع الجنود على من يلونهم من صغار النبلاء الذين يدينون بالولاء لهم، واقتدى هؤلاء بمتبوعيهم في نكوصهم عن أداء واجباتهم نحو الإمبراطور، فلم يؤدواهم واجباتهم نحو أسيادهم، واختلف مدى نجاح التقسيم إلى وحدات صغرى باختلاف الزمان والمكان والظروف القائمة وباختلاف أخلاق الحكام وشخصياتهم، وكانت النتيجة النهائية لهذه الحالة أن أصبحت الإمبراطورية التي قامت أبان العصور الوسطى مكونة في الواقع من دويلات مستقلة استقلالا فعليا وتتراوح في أحجامها من مدينة واحدة إلى أقاليم شاسعة يحكمها سيد دو باس وقوة.

ثالثاً: وفي مبدأ الأمر أي منذ القرن العاشر حتى أواسط القرن الثالث عشر لم تبرز عوامل التفرقة والانقسام بروزا واضحا، وكانت الإمبراطورية قوية متماسكة تحت قيادة الأباطرة الأشداء من السكسون أو من أسرة هو هنشتوفن، ولعل سبباً واحداً كان مسئولا عن هذه الحالة وهو قيام سلطة البابا ونفوذ الكنيسة فقد كانت تعمل في أول أمرها على الوحدة وجمع اشمل ولكنها عادت بمضي الزمن تبذر بذور الفرقة والانقسام، ولقد رأينا أن ملوك الفرنجة أصبحوا أباطرة بفضل اعتراف البابا بهم كأبطال للمسيحية، ويرجع الفضل إلى البابا وإلى استمرار اعترافه بهم في احتفاظ هؤلاء الأباطرة بسلطانهم سواء كانوا من الفرنجة أو من السكسون أو من أسرة سوابيا —ولما تجرأ هنري السكسوني وفردريك من آل هوهنشتوفن على تحدي البابا، لم يستطيعا الاحتفاظ بسلطانهما لأن الجماهير كانت تؤمن بالبابا، ولن تتوافر سلطة لمن لا يعترف به البابا أيا كان، وأخيرا لما

اشتد ساعد القوي العاملة على التفكك والانقسام جاء الإصلاح الديني فوجد الإمبراطورية ممزقة شر ممزق، وخلت البلاد من سلطة مركزية عليا تتولى زمام الأمر وتشكل النتيجة النهائية المحتومة كما حدث في انجلترا وفرنسا فتركت البلاد وشأنها، بعضها يتبع لوثر في مذهبه البروتستانتي وبعضها يتبع وبعضها يتبع المذهب الكاثوليكي الروماني، مما زاد في الخلافات القائمة والميول السائدة نحو التفرقة والانقسام.

رابعاً:وثمة سبب رابع يدعو إلى الانقسام نتج عن الطريقة التي تشكلت بها الإمبراطورية فإن أي اتساع يطرأ عليها بفضل جهود الحكام أو الأفراد لا يعتبر امتدادا للإمبراطورية ولا يزيد في حدودها لأن هذه البلاد الجديدة كانت تخص حكام الولايات أو الأفراد الذين ألت إليهم مقاليد الأمور فيها، ولنضرب لذلكمثلا الفرسان التيوتون في تنظيمهم لبروسيا الشرقية فقد بقيت خارجة عن نطاق الإمبراطورية ولا علاقة لها إلا بدوقية براندبرج فتضفي على ناخبها أهمية على أهميته، وقد استرد دوق النمسا مثلا المجر من الأتراك ونصب نفسه ملكا عليها وهو بوصفه ملك المجر لا يدين بالولاء للإمبراطور، وحدث بعد ذلك أن آل ملك بريطانيا إلى ناخب هانوفر ولكن بريطانيا لم تدخل في نطاق الإمبراطورية وهكذا أدى استحواذ هؤلاء الحكام على أقاليم تخرج عن نطاق الإمبراطورية إلى زيادة استقلالهم عن الإمبراطورية وبالطبع ازدادت الحالة ميلا إلى التفرقة والانقسام في أول الأمر، ولكن يجدر بنا أن نلاحظ أن بذور وحدة ألمانيا كمنت هذه الحقيقة التي ذكرناها الآن.



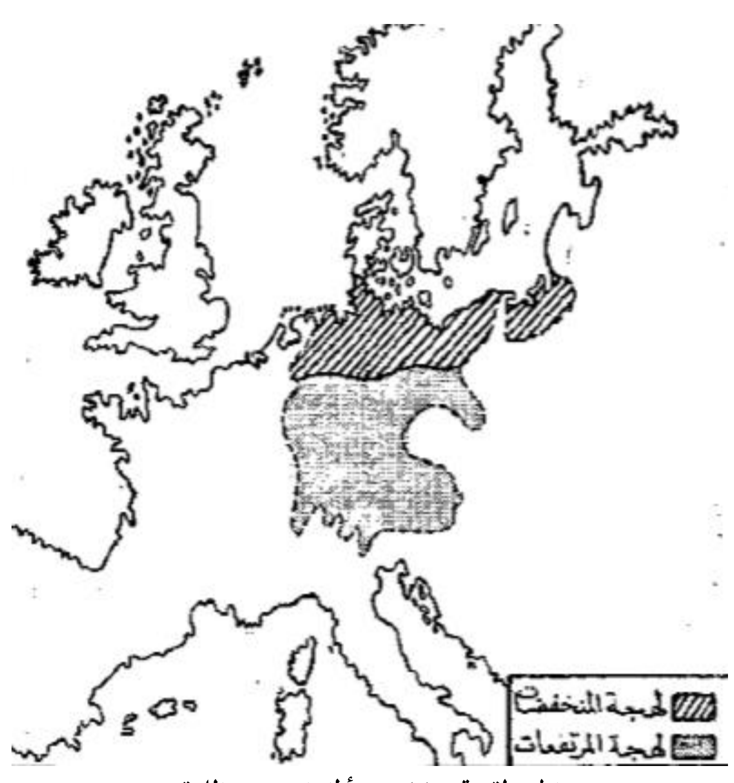
الخريطة رقم ٤٠ – أوروبا:توزيع المذاهب المسيحية الجزآن الشمالي والغربي من ألمانيا يسودهما المذهب البروتستانتي – والجزءان الجنوبي والشرقي منها يسودهما المذهب الكاثوليكي

ومما لا شك فيه أن تلك الحالة أدت إلى خسارة مؤكدة في الطاقة بسبب افتقار البلاد إلى حكومة قوية، وهذا في حد ذاته نتيجة للظروف الجغرافية، إلا أن البلاد أصابت تقدماً محسوساً في الإفادة من الطاقة واستغلالها وقد بدا هذا التقدم واضحاً منذ عهد الفرنجة حين أخذت البلاد التيوتونية بأسباب التحضر والرقي ولو أننا استعرنا التعبير الذي استعملناه من قبل لقلنا أن مساحات واسعة دخلت ضمن نطاق البلاد التي يحسب

لها وزن واعتبار وأصبحت الأراضي الواقعة على الحدود الشرقية دولا وقواعد تشع منها أضواء الحضارة وتعمل شيئاً فشيئاً على تحضير البلاد التي تليها شرقاً. وكان الفرنجة يجدون حكم تلك البلاد سهلا إلى حد ما طالما كانوا هم الشعب الممتاز. وكان السكسون والسوابيون في مركز يشبه بعض الشبه مركز الفرنجة ولا يطاولهم فيه أحد، وبات من الطبيعي أن يزداد الاتجاه نحو اللامركزية ظهوراً كلما أضحت البلاد الواقعة على الحدود قادرة على الاستقلال بذاتها، وكلما عمرت بعدد وفير من السكان الذين التأم شملهم ولم يعودوا يعيشون في جماعات منعزلة مبعثرة في أنحاء البلاد، كما كانوا من قبل، فكونوا ولايات تناظر الولايات الغربية التي استقوا منها حضارتهم، وهكذا كان من نتائج تقدم البلاد وتحضرها ازدياد الميل نحو اللامركزية في الحكم.

ثم تردد في ألمانيا شعور صادق ينادي بوحدتها -يرجع في بعض أسبابه إلى وجود لغة مشتركة وفي بعض أسبابه الأخرى إلى الإيمان بالفكرة الإمبراطورية أو إلى وجود كنيسة واحدة مشتركة في القرون الأولى كما رأينا. وغلى هذين العاملين الأخيرين يرجع الفضل في انتشار شعور الوحدة فيما وراء حدود الإمبراطورية. وتخلل جميع أنحاء العالم المسيحي الذي انحصر بين المطرقة والسندان أي بين المسلمين والنورسمن الوثنيين الذين كان لفتوحاتهم في الحقيقة الفضل في تكتل المسيحيين وتضامنهم، وقد عبر العالم المسيحي عن هذا الشعور بالتأييد الحماسي الذي أظهره للحملات الصليبية كما عبر عنه بنمو الجامعات العديدة وبتوطيد علاقات الصداقة فيما بينها- ويبدو الشعور الألماني الحق نحو الوحدة في نشأة المدن التجارية واتحادها.

وقد كان التقسيم في البلاد الألمانية تقسيماً حكومياً فقط إذ أن الولاية الواحدة تنقسم أجزاء بين أبناء الحاكم المتوفى كما تتحد أقاليم بزواج أمير من وراثة إقليم آخر –وبطبيعة الحال كان هناك إسراف في الطاقة بسبب افتقار الناس إلى الأمن والطمأنينة اللذين يكفلهما وجود حكومة قوية، غير أن الأمر لم يصل إلى حد الفوضى الضاربة فقد تعلم الناس تدريجا كيف يفيدون من جهودهم على خير وجه وأخذوا يجمعون الثروات، ومن الآثار الواضحة لتلك الاتجاهات التي تبعث على التفرقة والانقسام نشأة مدن الهنسا واستقلالها في السهل الشمالي بعيدة عن المركز الأسمى للحكومة الإمبراطورية، وقامت مبعثرة في أنحاء ألمانيا مثل برونزيك ومجد بورج في الداخل ومثل همبرج ولوبك وستتن من بين الموانئ الواقعة على الساحل ومثل وسبي وبرجن فيما وراء البحار فكانت بمثابة العامل الأولى للوحدة – إذ يتضح أن هذه المدن أحست بمزايا الوحدة فكونت فيما بينها اتحاداً، ومن بوادر التقدم أن يدرك قوم أنه لا يمكن مزاولة تجارة ما دون موارد ودون طاقة مختزنة ودون معرفة بأساليب اختزانها.



الخريطة رقم ٤١ – ألمانيا: توزيع اللغة

يتكلم أهل ألمانيا جميعاً لغة غير أن هناك فروقاً بين لغة أهل الشمال ولغة أهل الجنوب

والآن فلننظر كيف أصبحت ألمانيا أكثر تقدما وأمعن اقتصاداً في طاقتها وأبعد نجاحاً في تنظيمها السياسي، لم تتوافر لها الفرص المواتية في أول الأمر لتوسع في رقعة أرضها بل أن هذه الفرص كانت تتناقص بالتدريج بسبب الأسلوب الذي جرى عليه الحكم الإمبراطوري وقد أعوزته القوة العسكرية الإمبراطورية فلم يتيسر للأقاليم الجديدة أن تتخذ لها وضعاً في داخل الدولة، ولكن بعد أن استقرت الإمبراطورية في أوضاعها ظلت المسيحية في انتشارها نحو الجنوب الشرقي بين الأقوام الوثنية التي جاءت

ولا دين لها من مراعي آسيا السحيقة، كما انتشرت المسيحية إلى الشرق بين سكان الغابات الأوروبية غير أن البلاد التي تحف بالشواطئ الجنوبية لبحر البلطيق والذي تناثرت خلالها البحيرات المختلفة كانت منيعة أمام التقدم المسيحي، وبقى أهلها كفرة قروناً متوالية وهكذا وقفت ثلاثة أقاليم مختلفة تفصل بين الإمبراطورية الرومانية ذات المذهب الكاثوليكي في الغرب وبين الكنيسة البيزيطية ذات الحضارة اليونانية في الشرق، أولها المجر وهي تقع أحضان جبال الكربات وقد سكنها شعب اختلطت دماؤه من جراء تزاوج جميع الشعوب الرعوية التي سبق لها تهديد حضارة أوروبا، ثن اقتبس الشعب المجري الديانة المسيحية من روما وارتبط بالحضارة الغربية بحكم هذا الاتصال. وثانيها بولندا وقد تركزت في وارسو غير أنها عديمة الحدود الطبيعية وقد سكنتها القبائل الصقلية داخل الغابات – واتحدت قبائلها بعامل الخوف من الهجوم من الغرب ثم بفضل اعتناقها الدين المسيحي الذي نشرته بين البولنديين البعثات التبشيرية التي وجهتها الكنيسة الغربية إليهم، وأخيرا إقليم نومرانيا ولتوانيا – وهي الأراضي التي ظلت وثنية في الشرق وفي الشمال.



الخريطة رقم ٤٢

الأراضي التي وصلتها المسيحية حوالي عام ١٠٠٠ للميلاد – كانت الشعوب التي تسكن شواطئ البلطيق لا تزال وثنية

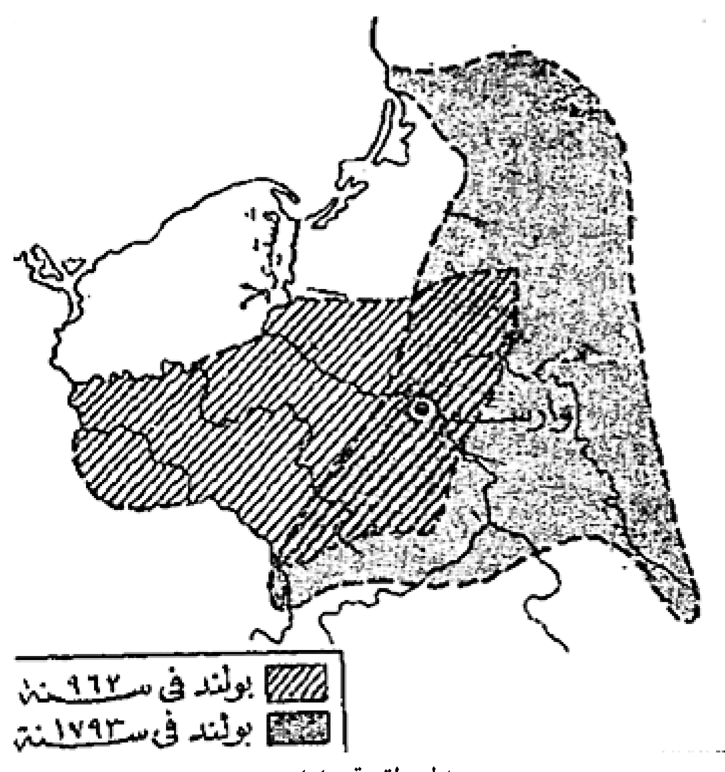


الخريطة رقم ٤٣ – الأقاليم الطبيعية الثلاثة الواقعة إلى الشرق من الإمبراطورية

وكلما طال بقاء هذه الأقاليم خارج نطاق الإمبراطورية كلما صعب ضمها إليها فقد سهل ضم بوهيميا مثلا إلى الإمبراطورية، وهي إقليم طبيعي يسهل حكمه من براغ وتسكنه شعوب صقلبية، ولما كانت بولندة تقع أكثر ايغالا في الشرق وأبعد منالا فإنها نظمت في الوقت المناسب تنظيما حال دون انضمامها في نطاق الإمبراطورية على الرغم من المحاولات الكبيرة التي بذلت لاعتبار بولندة إقطاعا بل وقد أصبح الجزء الغربي من الدولة البولندية الأولى جزءا تابعا لألمانيا.

بقيت هذه الأقاليم إذن خطرا دائما على الحدود الشرقية وكان خطرها يتأرجح زيادة ونقصانا، ومنم جهة أخرى هيأ ذلك الخطر الفرصة للتوسع نحو الشرق إذا ما تم غزو أراضيه لا من قبل الإمبراطورية، بل من قبل الولايات الداخلة في نطاقها، وليس من قبيل الصدفة العارضة أن تقوم المراكز الألمانية الأولى في الغرب بينما تنشأ الدول الأحدث عهدا في الشرق، فالخطر الشرقي أما أنه حال دون الانقسام أو أنه دفع بالاتحاد لمواجهته، وقد انتهز حكام هذه الولايات الفرصة السانحة فوسعوا حدودهم شرقا وازدادت ولاياتهم اتساعا فضمنوها بلادا تخرج عن نطاق الإمبراطورية، وقد قامت الأولى في السهل الشمالي والثانية في مرتفعات الجنوب، ونمت الدولة الخيرة في بادئ الأمر وحاول الإمبراطور شارل الخامس تنظيم قلب شبه جزيرة أوروبا، غير أن محاولته باءت بالفشل بعد أن داعبها النجاح. أما لدولة الأولى فقد استغرقت زمنا طويلا في نضوجها وإن حققت لألمانيا وحدتها في آخر الأمر وهي الوحدة التي طال عليها المد

قبل أن تتذوقها، ومع ذلك فلا تزال دولة النمسا حتى الآن خارجة عن هذا المنظمة السياسية.



الخريطة رقم ٤٤

المساحة الوحيدة المشتركة بين بولندة القديمة
وبولندة الحديثة هي الإقليم المحيط بوارسو



الخريطة رقم ٤٥

علاقة وارسو بمجموعة الأنهار

بولندة هي مساحة تتركز أساساً حول وارسو

وقبل أن تنشأ الطرق كانت للأنهار أهمية بالغة

إذ أن الطرق المائية في بولندة تتجه كلها نحو وارسو

النمسا

تظهر خريطة أوروبا كيف يمتد نطاق من المرتفعات عبر القارة مكونا من مجموعتي الألب والكربات وهو نطاق متصل غير منقطع إلا مسافة قصيرة في بقعة واحدة حيث تتقارب المجموعتان واحدة من الأخرى. ولهذا

صعب اجتياز ذلك الحاجز الجبلي إلا في ذلك الوضع السهل فاضطر إلى المجيء إلى هذا الممر كل من رغب في عبور تلك المرتفعات من سفح إلى سفح، حربا أم سلما، ولذلك انحنت جميع الطرق لتمر بفينا والأراضي المحيطة بها وأمكن من هذا الموقع صد فرسان الراعي في زحفهم من الجنوب الشرقي ومنه أمكن التوسع بعد أن تم إخضاعهم، وفينا تبين لأول وهلة الحد الطبيعي المناسب للإمبراطورية، ومن ثم أصبحت ذات أهمية بالغة، ومن الطبيعي أن تتحد هذه المنطقة والأراضي التي تمتد وراءها إلى الشمال الغربي كي تواجه الخطر المشترك، وقدر لحاكمها أن يكون رجلا مهما من بين رجال الإمبراطورية، فلا عجب بعدئذ أن يحتفظ بيت هابسبرج وهو الأسرة النمساوية في جدارة واستحقاق بالتاج الإمبراطوري قرونا متوالية، ثم أضاف الجالس على عرش النمسا إلى حكمه بلاد المجر بعضها بطريق الميراث والزواج وأغلبها بحق الفتح والغزو مما أضفى سلطاناً جديداً على سلطانه. وقد أصبح بمقتضى الزواج وريثاً لعرش المجر –ولما قضى الأتراك في آخر الأمر على الإمبراطورية الرومانية الشرقية واستولوا على المجر قام آل هابسبرج بردهم على أعقابهم واستعادوا تلك الأراضي إلى حظيرة العالم المسيحي وجعلوها ملكا خاصاً لهم، ولما أطاح نابليون أخيراً بالإمبراطورية الرومانية المقدسة بقيت دولة النمسا والمجر ملتفة حول فينا وهي عاصمة يسهل إدارة دفة الحكم منها بحيث يصل إلى أجزاء عديدة مختلفة.



الخريطة رقم ٤٦

موقع فينا

وقد نضجت النمسا مبكرة من بين الولايات الشرقية الألمانية لأن الخطر المطل عليها من الجنوب الشرقي كان أكثر وضوحاً وإلحاحاً عن أي خطر يصدر من أي اتجاه آخر ولهذا سببان، فإن وجود الإمبراطورية الرومانية الشرقية وقوة الدفع التي سارت بها المدنية في الجنوب الشرقي كان له أكبر الأثر في خلق جماعات منتظمة داخل القوس الكرباتي وفي مرتفعات البلقان. أضف إلى ذلك أن الأراضي التي عاشت فيها تلك الجماعات مازالت شبه رعوية فظلت معرضة لهجوم جحافل الرعاة من الشرق حتى برزت روسيا من غمار غاباتها وسدت الطرق في وجوههم، وقبل قيام روسيا كثيراً ما تجددت الغزوات من الجنوب وازداد خطرها كلما أصبحت أدق تنظيما وفاقت كل خطر يصدر من أي جانب آخر، فلا غرو بعدئذ أن تقوم هنا دولة تقاوم ذلك الهجوم.

بروسيا

أما التهديد الذي كان مصدره الغابات والمستنقعات الواقعة بين جبال الكربات وبحر البلطيق فلم يكن خطيراً قط لأن الانتقام في هذه المناطق كان عسيراً بقدر ما هو يسير في بلاد الاستبس والمراعي، ولها لم تك ثمة حاجة تدعو إلى الدفاع عن الحدود الشمالية الشرقية والاحتفاظ فيها بقوات كبيرة، وبمعنى آخر فإن الخطر الصادر من الجنوب الشرقي هو الذي أضفى في واقع الأمر بعض الأهمية على الجبهة الشمالية الشرقية لأن هجوم المجربين أثار شهوة الفتح عند هنري السكسوني وابنه أوتو الأكبر وبقية السكسون من بعده، إذ وجدوا بين أيديهم قوات يتصرفون فيها كيفما شاءوا، وقد خبروا تنظيم الجيوش والحكومات فحاولوا أن يفيدوا من خبرتهم وتجاربهم في جهات أخرى، ولهذا نظموا الإقطاعيات الشمالية حوالي عام ٩٣٠ وأسسوا أسقفية برندنبرج في منتصف القرن العاشر، وفي ختام ذلك القرن حاولوا نشر المسيحية بين أهل بروسيا الوثنيين الضاربين إلى الشرق منهم، غير أن محاولتهم باءت بالفشل ولم يحرزوا تقدماً في هذا المضمار إلا بعد أن سرت فكرة الحروب الصليبية خلال العالم المسيحي، وحوالي عام ١٢٠٠ للميلاد ارتاد المستعمرون والمبشرون بروسيا الشرقية، غير أن نتائج جولاتهم لم تكن مرضية فاستعانوا بالفرسان التوتونيون الذين خفوا يمدون لهم يد المساعدة، ونظموا البلاد وحولوا أهلها إلى الدين المسيحي واستقر الألمان في ظل حكمهم، بيد أنهم ظلوا يعترفون بسيادة بولندة لا بسيادة الإمبراطورية وحتى بعد أن بدأ القرن السادس عشر ظلت

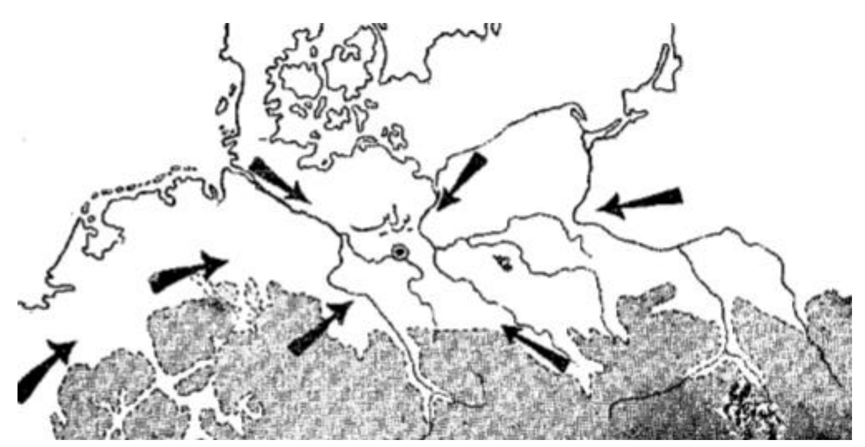
الولاية دوقية منفصلة تحت زعامة أمير من أسرة هوهنزلورن وهو القائد الأعظم للواء الفرسان.

واستمرت الحال على هذا المنوال، ولم يك أميرها حاكما مستقلا حتى بعد أن آلت دوقيه بروسيا إلى ناخب برندنبرج بعد قرن من الزمان، ولم يك بد من أن تتعرض لهجوم خطير من ناحية الشمال الشرقي حتى تتماسك الولاية بعضها ببعض، وقد جاء ذلك الهجوم من السويد وخرجت بروسيا من هذا الصراع دولة مستقلة كما ضعفت بولندا وفقدت سكسونيا أهميتها نهائياً ومما هو جدير بالذكر أن ناخبها كان ملك بولندة في نفس الوقت.

وفي أثناء ذلك بدأت حركة الإصلاح الديني والبلاد لا تزال مفرقة أيدي سبأ، وقد اعتنقت النمسا تحت قيادة آل هابسبرج المذهب الكاثوليكي العتيد لأنها ترتبط بروما بروابط تاريخية وجغرافية، بينما أصبح السهل الشمالي بروتستانيا، وظل كذلك لأنه أقرب إلى الوحدة بطبيعيته من مرتفعات الجنوب بالرغم من أنه لم تضمه قط وحدة قوية ناجحة حتى ذلك الحين، وهو بهذا الوضع أكثر استعداداً لتقبل المساعدة التي قد تأتيه من الخارج، وهكذا زادت الفروق بين الشمال والجنوب حدة على حدتها، وحلت المنافسة السياسية محل الحماس الديني ووقفت النمسا وبروسيا موقف العداوة السافرة، وتبع ذلك بطبيعة الحال قيام صراع بينهما، كانت تكسب فيه بروسيا ما تخسره النمسا حتى بلغت الأزمة ذروتها في عام ١٨٧٠ بعد هزيمة النمسا بأربعة أعوام، فتمكنت بروسيا من السيطرة على

السهل الشمالي ووحدت ألمانيا وأنف فرنسا راغم، وظهرت الإمبراطورية الألمانية في شكلها الحديث تحت قيادة بروسيا، تضم كل البلاد التي تتكلم الألمانية عدا النمسا والبلاد الواقعة في مصبات الراين والتي أحرزت استقلالها بعد اكتشاف تجارة المحيطات (هولنده).

هذه هي ألمانيا –دولة حديثة تحتل موقعاً متوسطاً في أوروبا نستمتع بمزايا طالما كانت تتمتع بحكم قوي حقاً.



الخريطة رقم ٤٧

موقع برلين

تقع برلين في السهل عند تقابل الطرق البرية الطبيعية الكبرى

وهكذا تكونت الدولة الألمانية ممركزة في برلين بمقاطعة برندنبرج عند تقاطع الطرق التي تجري بمحاذاة وديان الأودر والألب وحيث تتقابل الطرق الطبيعية المتجهة شرقا وغربا في السهل الشمالي مع الطريق القديم الذي يجري بين مصب الأودر وقاعدة الفرنجة القديمة –قم جرى تنظيم

الدولة الألمانية فيما بعد على أساليب حديثة وقلت بالتالي النظم البالية التي يجب التخلص منها كما كان الحال في إيطاليا أو فرنسا أو أسبانيا وفي بريطانيا أيضاً، بل ولعل خير مزاياها أنها قطعت الشك باليقين فاعتقدت بأن النظم القديمة يجب أن تزول. وسيطر عليها حكام أدركوا أن ألمانيا وحدة واحدة ولابد أن يجعلوا شعبها يدرك هذه الحقيقة.

ولما كانت ألمانيا قد بدأت تسير في مصيرها المقدور والانقلاب الصناعي يؤتي ثمراته فقد أخذت تنشئ الطرق الحديثة متجمعة في برلين وتشع منها إلى جميع الاتجاهات دون تحيز، مما جعلها قطب ألمانيا الجغرافي بلا منازع كما هي لندن بالنسبة لبريطانيا أو باريس بالنسبة لفرنسا، وهكذا أرغمت البلاد بالقوة لكي تصبح وحدة حربية واقتصادية. وقد نظمت صناعتها كي يسهل اقتصاد الطاقة واستغلالها، ووجه التعليم فيها بحيث يؤدي إلى تدريب الناس كيف يستغلون الطاقة على خير وجه وكيف يبحثون عن الأساليب الفنية الجديدة للإفادة منها، فتمت أعمال عظيمة بفضل الطاقة المستخرجة من مناجم فحمها، وتمت الأعمال الكبرى بأقل مجهود بشرى وبأحسن النتائج. وانقلبت الآية فبعد أن كانت لفظة "صناعة ألمانية" تقال من قبيل الذم أو القدح صارت شعاراً يحتذي وتنقش بحروف ضخمة على جوانب السفن الألمانية العظيمة وهي تمخضر عباب البحر وتتهادى في مياه سوثهمبتن بعد عودتها من رحلتها عبر المحيط الأطلسي.

وقد أعدت ألمانيا لنفسها جيشاً قويا يكفل الدفاع عن أرضها ضد أي هجوم يأتيها من البر وخضعت دون شك للحكومة المركزية وسلطانها،

ولأول مرة منذ أيام شارل الأكبر (شارلمان) حكمت ألمانيا من برندنبرج في بروسيا وبعبارة أخرى أديرت دفة شئونها لأول مرة في تاريخها من بلاد تتصل بالبحار أي بلاد العصبة الهنسية التي كانت قاعدة انجلوسكسونية في سابق الأيام —وقد بحثت ألمانيا عن نصيبها في عالم المحيطات أما اضطراراً وأما اختياراً فأنشأت قوة بحرية واستخدمت الأسطول والجيش في وقت معاً محتذية المثل الذي ضربته روما ومقدونيا من قبل.



الخريطة رقم ٤٨ –

يمكن تشبه السكك الحديدية في تقابلها في برلين

كما لو كانت بيتاً للعنكبوت

قد أحرزت ألمانيا تقدما دون شك وهو بكل تأكيد وليد تحكم عوامل معقدة بعضها جغرافي وبعضها تاريخي، واستهوت الكفاية المادية عقول الألمان فجرت منهم مجرى العقيدة والإيمان وكانت سببا في إشعال

نار الحرب العظمى واستنفدت العبقرية الألمانية جهود العالم أجمع لإخضاعها، وعلى الرغم من أن ذلك الصراع انتهى على ما انتهى عليه إلا أن ذلك لن يغير من وضع ألمانيا الجغرافي أو الخصائص التي امتاز بها الشعب الألماني.

الفصل الثالث عشر

أرض الأنهار ـ الصين

يبدو طبيعياً أن يجري التاريخ الذي بدأ بمصر على النحو الذي جري به، كما يبدو طبيعياً أيضاً أن ينشئ الإنسان في أوروبا طراز الحضارة الذي نسميه الحضارة الغربية بعد أن عرف كيف يسيطر على الطاقة التي أتاحتها له الظروف الطبيعية فيها.

ولنتيجة الآن في دراستنا نحو الشرق ولنبدأ بالشرق الأقصى أولا – أي بالصين – هنا ترى أن تاريخ الصين مسير بجغرافيتها بقدر ما كان تاريخ أوروبا نتيجة لتحكم جغرافيتها، ونرى تاريخ الصين مختلفاً أشد الاختلاف عن تاريخ أوروبا لأن الجغرافية في كل من الإقليمين تختلف اختلافا بينا، وبموازنة الفروق بين التاريخين يتضح كيف كانت جغرافية كل إقليم ذات أهمية بالغة، ولهذا ينبغي أن نلحظ السمات المشتركة في التاريخ والجغرافية في كل من الإقليمين وأي الظواهر تبرز في تاريخ أوروبا وجغرافيتها وتنعدم في تاريخ الصين وجغرافيتها وأي الظواهر تحضر في تاريخ الصين وجغرافيتها ولكنها تنعدم في أوروبا.

وتظهر خرائط الشرق الأقصى الحقائق الآتية:

أولا: تقع الصين في الجبهة الشرقية لقارة أوراسيا العظيمة بين خطي عرض ٢٠ و٤٠ شمالا فهي خاضعة للنظام الموسمي برياحه وأمطاره، وهي في حجم أوروبا تقريباً باستثناء روسيا أي ما يوازي نصف مساحة الولايات المتحدة[٢٦].

ثانياً: أن الصين تحيط بها مساحات عظيمة من المرتفعات من ناحية اليابس وتحف بها هضبة التبت من الجنوب وهي أعلى هضاب الدنيا.

ثالثاً: أن البحر يحيط بالصين على شكل قوس عظيم على هيئة ربع دائرة تقريباً، ولا يقع فيما وراء البحر أي أرض من أراضي آسيا بل ولا نجد بلاداً ذات بال قبل أن نصل إلى الشاطئ الآخر من المحيط الهادي[٢٧]. أضف إلى لك أنها خلت من وجود بحر داخلي كالبحر المتوسط.

رابعاً: أن الصين خلت من أشباه الجزر باستثناء شبه جزيرة شانتونج وهي تمتد في اتجاه شمال شرقي.

---

(٢) تظهر بعض الخرائط السياسية الصين متضمنة جزءاً من آسيا الوسطي، غير أن منغوليا قد تخلصت منذ زمن من سيادة الجمهورية الصينية.

(٣) تقع ببكين على محو أرضي تكاد تناظرها تماما فلباربزو في أمريكا الجنوبية، وهذا يعني أن المحيط الهادي يشغل نحو نصف عرض الكرة الأرضية.

خامساً: أن الصين تخترقها ثلاثة أنهار عظمى تنبع من الهضاب الداخلية وتجري نحو البحر. أبعدها شمالا هو نهر الهوانج هو وهو يجري في أكثر أجزاء جهات الهضبة انخفاضاً من جهة الشمال.

أما نهر اليانجتسي والسيكياتج فهما ينبعان من هضبة التبت العظيمة الارتفاع، وحينما ينحدر اليانج تسى فلا يمتاز فقط من بين الأنهار الثلاثة بأنه أعظمها طولا ولكن ميرته الكبرى في أنه يظل يجري في بلاد مرتفعة في الجزء الأكبر من مجراه، بعد انحداره من الهضبة، أما نهر السكيانج فيجري في واد يحف به من الجنوب نطاق من الجبال المرتفعة.

وكان لهذه الحقائق الطبيعية جميعاً أثرها في مختلف العهود في أسلوب يماثل تمام المماثلة الأسلوب الذي أثرت به الحقائق المشابهة لها في التاريخ الأوروبي.

وإنا لا نعلم كيف ظهرت تباشير الحضارة في الصين، بل ولا نعلم على وجه التدقيق متى بدأت، وعلى أية حال فمن الثابت أن تاريخ الصين بدأ متأخراً جداً عن تاريخ مصر ومتأخراً بعض الشيء عن بدء تاريخ بابل، وليس عسيراً تعليل هذا التأخير فليس في الوجود مكان كفلت له الطبيعة المثل الأعلى من الحماية كما كفلتها لمصر، وليس في الصين صحراء تولت حماية واد حماية كاملة كما فعلت الصحراء في حمايتها لوادي النيل، ومع ذلك فإن مبادئ الحضارة الصينية تسبه مبادئ الحضارة الغربية بالقدر الذي سمحت به الظروف الجغرافية.

لقد سبق أن ذكرنا أن سهلا عظيما مثلث الشكل يحتل جزءاً عظيما من أواسط قارة أوراسيا وتحف بأراضيه المنخفضة من جميع النواحي مجموعات من المرتفعات باستثناء الجانب الشمالي منها وتتسع هذه المرتفعات في القطاع الشرقي من آسيا فتغدوا أكثر من نطاق يحيط بالسهل، فترى هضبة مثلثة متسع الأرجاء تواجه الجنوب الشرقي والشمال الشرقي –وهي على ثلاثة مستويات مختلفة، هضبة التبت وهي أكثر ارتفاعا في الجنوب ويتراوح علوها من ميلين إلى ثلاثة أميال وثاني هذه المستويات المنطقة الممتدة حول بحيرة بيكال وتتراوح في ارتفاعها من نصف الميل إلى ثلاثة أرباعه، ثم باقي الهضبة ويبلغ من الارتفاع حداً يقل عن نصف الميل – وكل هضبة من هذه الهضاب تحف بها سلاسل جبلية. أما هضبة التبت فهي لا تصلح للسكنى دائماً عدا بقاع معينة منها وذلك بسبب عظم ارتفاعها وما يستتبعه من برد وجفاف.

وأكثر هذه القطاعات الثلاثة انخفاضاً تحف بها سلاسل الجبال من كل جانب مما يجعل جزءاً عظيما من الرطوبة التي تحملها الرياح في هبوبها على داخل القارة –يتكاثف قبل أن يصل إلى البلاد الداخلية – وأصبح سطح هذه المنطقة كسطح السهول الواقعة إلى الغرب منها –بعضه صحراء وبعضه تغطيه الأعشاب وليس فيه من المياه ما يكفي حاجته إلا عند سفوح الجبال حيث تنحدر المجاري المائية إلى الأراضي الأكثر انخفاضاً، وهكذا نرى الصين تحوى في النصف الجنوبي من حدودها الغربية مساحة واسعة من الأراضي يتعذر اختراقها تماماً. والنصف الشمالي من هذه الحدود هو شبه صحراوي ليس عسير الاختراق حقاً بدرجة تجعله حصناً

حصيناً في الدفاع عن الصين ولكنه يكفل لها حماية أقوى على أية حال. هذه الحصون الطبيعية في كلا الشمال والجنوب تمتد امتداداً بعيداً نحو الغرب.

ولو أننا دققنا النظر في خريطة الصين لرأينا أن نهر الهوانج هو حين يهبط من مرتفعات منابعه إلى السهل، يتصل برافد من روافده هو نهر وي أو "النهر الصافي" وقد حفر واد به عميقاً في الهضبة المحيطة به، هذا الوادي هو مهد الحضارة الصينية حيث استخدم قدماء الصينيين الفؤوس لأول مرة كما فعل إخوانهم أهل مصر والكلدان من قبل، ولم يقتصر استخدامهم إياها على عزق التربة بل واستعملوها في حفر الترع والخنادق.

هنا تكفلت الطبيعية بتزويد البلاد بقسط موفور من الحماية وأحاطتها بأراضي شبه صحراوية وفي هذا الركن من العالم كما هي الحال في مصر وبابل تبدو الفوارق الفعلية بين الشتاء والصيف أبرز ما تكون وفوارق الحرارة والبرودة أبرز وضوحا عنها في مصر وبلاد الكلدان إلا أنها لا نصل حداً من التطرف يبعث بالملل والإرهاق، والماء هنا ليس وفيراً حتى يوحي بالإسراف في استعماله. وهكذا توافرت الحماية الطبيعية واقترنت بحافز خاص يدفع الإنسان إلى إعمال الفكر حتى يفيد أكبر فائدة من الظروف المحيطة به فهو في بلاد مواردها الطبيعية ليست بالوفرة التي تقتل النشاط والتفكير وليست بالقلة بحيث يتعذر استغلالها، وليس من قبيل الصدفة إذن أن تظهر الحضارة لأول مرة فيما بين خطي عرض ٣٠، ٣٥ شمالا على سطح الأرض في مناطق مبعثرة بعدت الشقة بينها بعداً سحيقاً.

هذا ومع أن تباشير الحضارة الصينية كانت لدرجة ما من طبيعة بوادر الحضارة الغربية وخضعت لظروف تشبه تلك الظروف التي تحكمت في سير الحضارة الغربية إلا أنها ذات خصائص وصفات مختلفة، ومن ثم تطورت تطوراً مختلفا، وقد نكون أصدق قولا لو قلنا أن الحضارة الصينية ظلت تنمو طوال تاريخها على سنتها الأولى بينما تأثرت الحضارة الغربية كما رأينا بعوامل مختلفة فتأثرت بهذا العامل تارة وبذاك العامل تارة أخرى.

واختلاف الموقع مسئول عن هذا التطور لدرجة عظيمة، لأن الأراضي الصالحة للسكنى والاستقرار في مصر صغيرة المساحة ومحددة تحديدا واضحا لا ليس فيه، كمما أن الأراضي التي تحف بنهري دجلة والفرات ليست واسعة المدى وإن صلحت لتكون دولة صغيرة تفوق مصر في حجمها، وربما كان في هذه الأوضاع مزايا لسكني جنس بدائي من البشر أما في الصين فإن وادي نهر وي وامتداده في الوادي الأوسط من نهر الهوانج هو يؤديان إلى سهل دلتوى من أخصب سهول الدنيا قاطبة، وهنا يتسع المجال للراغبين في الاستيطان والاستقرار كما تسنح الفرصة لهم بعد أن يستقروا فيدرجون في سلم الحضارة والرقي إن ضاق بهم المجال في بلادهم الأولى. وإذا انتقلوا من الوادي إلى السهل فليس هناك ثمة داع يدعوهم لتغيير مهنتهم أو صناعتهم، وليس هناك من بلاد أخرى يتبادلون معها التجارة وبالتالي ليس ثمة ضرورة لوجود "طريق تجاري" يمكن أن يكون سبباً في خلق ظروف أخرى وحضارات أخرى. والدلتا تتطلب نوعا واحدا من الحضارة فحسب، وإن تناوله قليل من التحوير حتى يمكن الإفادة على

خير وجه من بلاد تكثر فيها المستنقعات وتمر خلالها مجاري طبيعية تحمل الماء إلى البحر وهي دائمة التقلب في مجاريها ولا تثبت على حال.

هذه هي الصين الأولى. وربما سكنها الإنسان الأول في عصر ما قبل التاريخ، وقبل أن تظهر بها تباشير المدنية التي نتحدث عنها الآن، وعاش في هذه البقعة —وربما إلى الجنوب منها – أناس لا يزال أحفادهم يعيشون في المناطق الجبلية المنيعة الممتدة إلى الجنوب الغربي، هجروا أوطانهم الأولى تحت ضغط الهجمات التي شنها عليهم جنس يفوقهم رقيا وحضارة.



الخريطة رقم ٤٩

وادي نهر وي وسهل الصين العظيم

وربما كانت هذه الجماعات هم العنصر الأول الذي توالد منه الصينيون الحاليون ذلك العنصر الذي تأثر أيضاً في طبائعه وخصائصه بفروع جنسية أخرى عديدة اتصلت به.

وقد اقتصرت الحضارة الصينية حتى القرن الثاني للميلاد على نموها في البقعة الأصلية من الصين أي البلاد الصفراء —الصفراء بتربة اللويس

المستمدة من منطقة المراعي القريبة – يرويها النهر الأصفر، وقد أصفر ماؤه بطمية الأصفر قاذفا بحمله من الرواسب إلى البحر الأصفر –وقد علته صفرة ترجع إلى نفس السبب – وقد استغرقت حضارة الصين في نموها مدى ألفين أو ثلاثة آلاف عام وهي ترقى في بطء شديد بالوسائل البدائية للحرث والري وهما لا يزالان إلى اليوم أهم مميزات الجنس الصيني.



الخريطة رقم ٥٠

إقليم اللويس

اللويس هو ذرات التراب الدقيقة التي يحملها الرياح الموسمية الشتوية الجافة

من الأقاليم الوسطى المجدية ثم تتجمع على حافة الهضبة

ولكن لماذا اقتصر الصينيون في سكناهم على شمال المنطقة التي نطلق عليها الآن اسم بلاد الصين؟ لابد أن البحر وقف أمامهم حاجزاً قبل بدء عهد المحيطات وهو أمر طبيعي جدا، ولابد أن الهضاب بوحشتها

قد صدتهم عنها فلم تغرهم باستيطانها، أما المناطق الشمالية الممتدة بين الجبال والبحار فلم تكن بأكثر جاذبية من الهضبة وإغراء. ويسهل الوصول إليها عن طريق شريط ضيق من الأراضي المنخفضة بين الجبال والبحر وهو في الزمن الغابر أضيق منه في الوقت الحاضر. ومع ذلك فلنتسائل لماذا لم يذهب الصينيون جنوبا؟ وقد يبدو السبب بينا في أن بلاد الصين الوسطى والجنوبية أي حوض اليانج تسكيانج والسيكيانج يختلفان في طبيعتهما عن حوض نهر الهوانج هو، وتظهر الخريطة أن أحواضهما تكثر بها التلال وبعض أجزائهما جبال عالية، وينبغي أن نلحظ أن سلسلة جبال تسن لنج تقع إلى الجنوب مباشرة من مصب نهروي ومن المجرى الأوسط لنهر هوانج هو، هذه السلسلة وامتدادها إلى الشرق كانتا تغطيهما الغابات عصورا مديدة فلم تجذب إليها الفلاح الصيني إلى أن اكتظ السهل بسكانه ووصل إلى الحد الأقصى من قدرته على استيعاب السكان –ولم يكن الأمر مقصورا على الجبال بما يغطيها من غابات بل أن جميع الأراضي الممتدة إلى الجنوب بفضل دفء مناخها ورطوبتها تكاثفت النباتات فيها حتى وصلت حد الغابات واقتضى الأمر اجتثاثها شيئا فشيئا قبل أن يتيسر للإنسان الإقامة بها إقامة مستقرة.



الخريطة رقم ٥١

الحد الجنوبي لدولة الصين القديمة

وكانت تمتد الغابات والأحراش جنوبي هذا الحد ولم تبذل محاولات جدية لتوسيع نطاق الحكم الصيني حتى يشمل هذه البقاع الأقرب نهاية القرن الثالث قبل الميلاد –على الرغم من أن المهاجرين الصينيين ظلوا طويلا ينشرون الحضارة الصينية في بطء نحو الجهات الجنوبية ولو أن عملية نشرها لم تتم نضوجا إلا بعد قرن أو قرنين من الزمان، ومما هو جدير بالذكر أن أول محاولة بذلها الصينيون ليحكموا الجنوب حكما ناجحا قامت بها أسرة "تسن" التي لم تعمر طويلا ومن اسمها اشتقت كلمة الصين التي نطلقها الآن على البلاد. وقد تركت هذه المحاولة ناقصة لتنمها فعلا أسرة "هان" التي حكمت الصين مدى أربعة قرون –قرنان قبل ميلاد المسيح وقرنان بعده – ولا يزال الصينيون يسمون أنفسهم "شعب هان" اشتقاقا من اسم هذه الأسرة.

وقد نتسائل مرة أخرى إذا كان جنوب الصين يختلف اختلافا بينا عن الشمال فلماذا استطاعت حضارة الشمال غزو الجنوب ولو في بطء شديد؟. وكيف استطاعت توحيد الشمال والجنوب حتى خلقت منهما دولة واحدة وأن كان ذلك تم في بطء؟ وبعبارة أخرى كيف كانت الصين وكيف لا تزال أمة واحدة متجانسة العناصر؟ – بجد الجواب فيما يلي:–

على الرغم من أن الجنوب بلاد جبلية إلا أنه احتوى عدداً من الأنهار والوديان –أنهار دائمة الجريان وإن اختلفت كمية ما تحمله من مياه تبعا لاختلاف الأمطار الموسمية، ومشاكل الري والزراعة في الجنوب – وإن كانت أكثر تعقيداً – لا تختلف في طبيعتها عنها في الشمال والزراعة على سفوح الجبال في الجنوب ميسورة وإن وصلت إلى ارتفاع يزيد بطبيعة الحال عما تصل إليه في الشمال وهكذا أصبح في الإمكان قيام حضارة واحدة في الشمال والجنوب – والصينيون قوم تأصلت فيهم خبرتهم بالزراعة والري منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام واستندوا إليها في إنماء حضارتهم فأصبح القصور الذاتي الجغرافي الذي تسير به حضارة الصين الشمالية قوة دافعة بحرف في طريقها بسهولة كل ما قد يقف أمامها من عقبات جدية.

ولو أن شعوبا أخرى ذات مثل وأخلاق مختلفة كالرومان مثلا وهبت فرصة الحياة في جنوب الصين لسارت في بناء حضارتها سيراً آخر إلا أن الصينيين ساروا بها في الجنوب على النهج الذي اتبعوه في الشمال فإذا ما تغلبوا على الصعاب الأساسية وجدوا كل بقعة من أرض الصين تصلح لأن تنمو فيها بذور الحضارة الصينية الخالصة وليس من قبيل الصدفة أن يذكر

اسم أول حاكم لإقليم ستشوان بعد ضمها للإمبراطورية الشمالية – فقرن باسمه أعمال الري العظمى التي أنشأها ولا تذكر له مشروعات الغزو والفتح التي قام بها، كما فاقه ابنه وخليفته من بعده في شهرته لنفس الأسباب فاستحق أن يقام له معبد من أفخم معابد الصين تمجيداً لذكراه.

وقد كانت أسرة هان تتربع على عرش الصين في العهد الذي ازدهرت فيه الإمبراطورية الرومانية وبلغت أوج عظمتها – وقد واجهت الإمبراطوريتان مشاكل كل متشابهة على الرغم من اختلافهما من عدة وجوه. ففي كلا الحالين نرى إمبراطورية متسعة الأرجاء يتطلب حكمها من وسائل الاتصال ما يربط أجزاءها ببعضها، وقد رأينا كيف كانت الطرق اختراعا رومانيا، أما أهل الصين فقد تعودوا الملاحة في الأنهار، ومن الطبيعي أن يتجه تفكيرهم إلى نهر اليانج تسى العظيم بروافده باعتباره مجموعة من أعظم الطرق المائية في العالم – الأمر الذي ساعد على ربط كيان الإمبراطورية الصينية ببعضها وبدونه لتفتتت أجزاء متفرقة – حقا نوجد وحدات صغرى على طول أحواض الأنهار الصغيرة والكبيرة ولكنها جميعا تتطلع إلى النهر الأعظم الذي يربطها جميعا ربطا محكما – ويلعب نهر السكيانج في الجنوب دوراً مماثلا لدور اليانج تسي وإن لم يصل إلى مرتبته في الأهمية.

ولهذه الظاهرة نتيجة مزدوجة – إذ نجد الأحواض الصغرى للأنهار تكون الأقسام السياسية الصغرى وهي اهرة تبدو دائماً طول التاريخ الصيني، كما تكون أحواض الأنهار الكبرى الأقاليم الريفية الكبرى التي

تظهر وتختفي ثم تعاود الظهور بأسماء مختلفة، كلما تناولها التنظيم على فترات متعاقبة. ومن ناحية أخرى تجد أهل الصين ينظرون إلى الأنهار على أنها الوسيلة الطبيعية الوحيدة لنقل التجارة – وقد سيطرت فكرة الانتقال بالطرق المائية على عقولهم لأن بعض أنهار الصين كان المثل الأعلى في صلاحيته للملاحة، فأخذ الصينيون يبذلون جهوداً متوالية لا تنتهي بقصد إخضاع الأنهار الصغرى وجعلها تساير أغراض الملاحة على الرغم من أنها لم تكن تلائم مثل هذا النقل، ولا يخلو من مغزى خاص أن الصينيين يسمون الطرق البرية – هذا إن وجدت – "بالطرق الجافة" وهو استطراد طبيعي لفكرتهم في أن الطريق هو في الأصل طريق مائي أو بعبارة أخرى هو نهر من الأنهار.

ويتضح من هذا أن الصين هي أرض الأنهار لا من حيث أن الأنهار تجري خلالها، بل بمعنى أن الأنهار هي الظاهرة المسيطرة التي تركت في تاريخها أثراً عميقاً كما سبق لنا أن رأينا ظاهرات أخرى سيطرت على بلاد أخرى فوجهت تاريخها توجيها خاصاً.

ومما له دلالة خاصة أنه لما أنهار حكم أسرة "هان" في عام ٢٠ للميلاد انقسمت الصين أجزاء، كما انقسمت الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس ولكن الصين لم تتفتت إلى وحدات تكاد لا تقع تحت حصر، بل اقتصرت في انقسامها على ثلاث وحدات فقط.

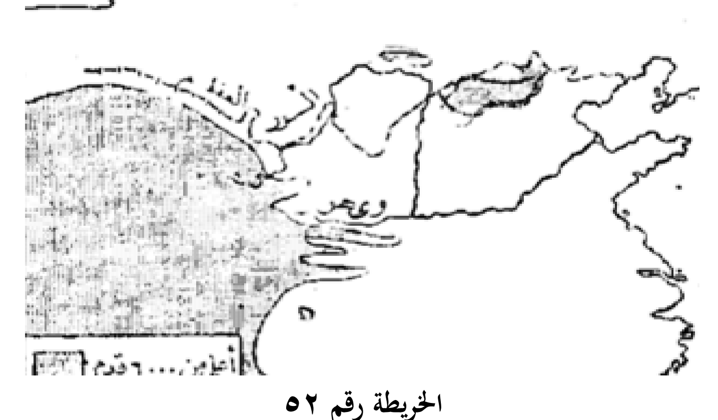
١– الصين الأصلية في الشمال.

٢- وادي نهر اليانج تسى الأدنى.

٣- ولاية ستشوان وهي التي تفصلها عن وادي اليانج تسى الأدنى سلسلة كبيرة من المساقط عند مدينة اتشانج الحديثة.

ومما له دلالته أيضا أن هذا الانقسام لم يعمر طويلا فلم يطل أجله إلى أكثر من جيل واحد. غير أن الصين لا ترتبط أجزاؤها بفضل وجود سلطة حاكمة تنشر حكمها من مقرها، ولكنها ترتبط ببعضها بفضل وحدة سكانها الذين انفقت أفكارهم ومثلهم في الحياة وتآلفت مشاربهم وعاداتهم، وما ذلك إلا لأن الحقائق الجغرافية كانت في أساسها واحدة أو أنها وجهت لتعمل على تحقيق وحدتهم.

ثم أن ظروف الصين كانت شبيهة بظروف روما على نحو آخر فقد انهارت روما تحت ضغط الهجوم الذي شن عليها من السهل بطريق مباشرة وغير مباشرة - ودافعت روما عن نفسها باتخاذها نهري الرين والطونة خطوط دفاع لها وبإنشاء الحصون لتحول بالقوة الحربية دون استقرار القبائل المغيرة في ربوعها. كذلك تعرضت الصين لظروف مماثلة فاضطرت حتى في زمن يرجع إلى أسرة "تسن" أن تبني جداراً هائلا على طول جبهتها الشمالية الغربية لتذود عن حدودها الوحيدة المفتوحة هجوم القبائل المتنقلة الضاربة في الهضاب الجافة التي تشبه الصحراوات.



الخريطة رقم ٥٢

سور الصين العظيم

بني السور العظيم ليحمي البلاد فقط من ناحية الشمال

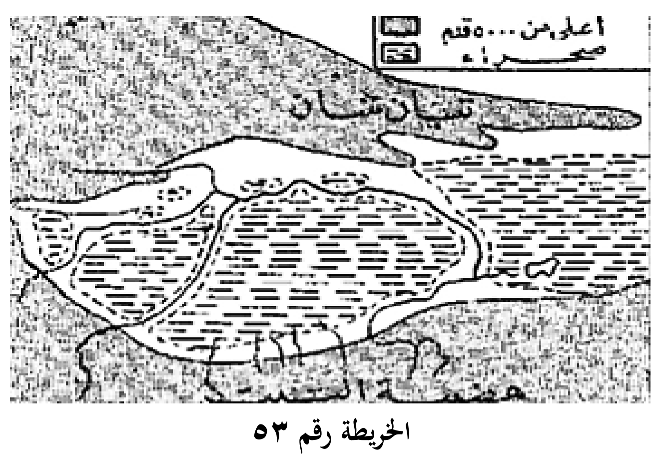
وقصد منه أن يحرس الطريق المؤدي إليها من الغرب

عن طريق وادي وي

ومن ناحية أخرى تزيد هذه الدلالات في أهميتها فتكشف عن المسلك العقلي للصينيين فترى أنهم لم يثقوا في نهر الهوانج في واديه الأعلى باعتباره خطاً للدفاع عن الغرب فهو في هذا الجزء لا يصلح تماما للملاحة والري ولكنهم وثقوا كل الثقة في السور الذي بنوه.

ولندرس الآن أثر النهضة في تاريخ الصين في شيء من التفصيل. فالهضبة في قسمها الشمالي ليست صحراء جدباء كالصحراء الكبرى ولكنها أقرب إلى أرض المراعي وقد تخللتها صحاري واسعة امتدت امتداداً عظيما. وبطبيعة الحال عاشت القبائل الرحل في البقاع التي تقل جدباً – ومنذ بدء التاريخ أخذت تتسلل إلى سهل الصين متبعة الطريق الوحيد المؤدي إليها أي طريق واديي وي وهوانج هو وقد رأينا من الشعوب الرحل

أمثلة في دولة أشور القديمة أو في البلاد التي اكتسحها المسلمين في غزواتهم أو في أراضي روسيا الحديثة، ورأيناهم يتصفون بجرأة نادرة ويتحلون بمقدرة على تحمل المشاق، وهما صفتان أصيلتان فيهم وليدتان لحياتهما الرعوية التي تجعلهم قديرين بصفة عامة على فتح البلاد الزراعية وحكمها.



الخريطة رقم ٥٣

حوض تاريم

أن حوض تاريم محمي بطبيعته وتتوافر فيه المياه على جوانبه

حقاً نستطيع أن نتبع أصول الحضارة الصينية حتى نصل إلى الأيام التي نبتت فيها بذورها في وداي نهروي، فارتفعت بسكانه قليلا عن مرتبة الهمجية. وينبغي "أن نلاحظ إن الركن الشمالي الغربي من هضبة التبت العالية تحيط به جبال عظيمة، تستدير في قوس كبير نحو سلسلة تيان شان، تضم فيما بينها قطاعاً من اليابس أقل ارتفاعاً عنها وتعزله المرتفعات عما يجاوره من ناحية الشمال الغربي ومن الجنوب. كما تحف به من الشرق صحراء –وتستدر الجبال العظيمة الارتفاع المحيطة بهذا القطاع بعض

الرطوبة من الهواء الجاف، ولهذا ترى عند سفوحها السفلي سلسلة من الواحات تمتاز بخصبها - فإذا كانت الحماية الطبيعية ميزة فيجب أن نتوقع أن يكون مثل هذا الموقع مهداً لأصول حضارة عريقة — وليس هذا جائزاً فحسب، بل هو يعدو مرحلة الاحتمال إذ أن مبادئ الحضارة الصينية بميزاتها تدين بفضل وجودها إلى هؤلاء الذين اتخذوا طريقهم من هذا الوادي السحيق مستظلين بالستار الجبلي الذي يحف بشمال هضبة التبت نازحين إلى الوادي الحبيب إلى نفوسهم - وادي نهروي.

ولكن هذه الهجرة لم تكن المرة الوحيدة طبعا التي انحدر فيها سكان الهضبة إلى السهل، وليست صدفة عارضة أيضاً، فإن من جاء بعدهم من الغزاة كانوا رعاة رحل أكثر منهم زراعا مستقرين في أراضيهم. ولهذا شعر الصينيون بأن هؤلاء المغيرين خطر داهم يهدد حياتهم، كما يبدو ذلك في وجود السور الذي بنوه ليحتموا وراءه، وفي نفس الوقت لم يخل اختلاط مثل هذه الأجناس الشديدة البأس من مزايا. فمن الملحوظ أن سكان وادي الهوانج هو هم أمتن بنيانا من سكان الجنوب ولا ترجع قوة أجسامهم إلى مناخ هذا الإقليم وحده وكونه أشد بردا، فهم الذين تحملوا وطأة هجوم الغزاة وهم الذين أفادوا إلى أكبر حد من امتزاج دماء جديدة بدمائهم. ومن الجائز أن مثل هذا الاختلاط قد حدث في بادئ الأمر أبان الحروب وحدث بعضه الآخر أبان السلم، ومع كل فإن تلك القبائل المازحة من الهضاب والتي دخلت البلاد فاتحة منتصرة ذات جميعاً وامتصتها كتلة الشعب الصيني.

وحوالي عام ١٠٠ ق. م أي قبل الميلاد بحوالي قرن واحد أدرك الصينيون أن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع، فنجحوا أولا في توسيع رقعة حكمهم ولو لفترة قصيرة فأخضعوا سكان الهضبة، وقد رأينا أن البلاد انقسمت أجزاء عند انهيار أسرة "هان" وبطبيعة الحال فقدت الصين سيطرتها على الهضبة – فلما استقر الأمر أخيراً واتحدت البلاد بعد عام ٦٠٠ للميلاد تحت حكم أسرة "تانج" القوية كان من الطبيعي أن تبذل محاولة أخرى لمد حدودها وتوسيع رقعتها – وفي كلا المحاولتين نرى أن الهدف الأول لاتساع الصين كان حوض تاريم. وفي كلا المرتين حالت المسافة الشاسعة التي تفصل بين الصين وحوض تاريم – وهي صحراء جرداء منيعة يصعب اختراعها – حالت دون نجاح الحكم الصيني في هذا الوادي فكان حكما اسميا لم يدم طويلا.

وعلى أية حال فكلا الحالتين جديرة بالذكر، لأنهما مهدتا للصينيين فرصة الاتصال بالأمم الغربية، مهما بدا هذا الاتصال تافها، وعلى الرغم مما وقف بينهما من حوائل كالهضبة ذات العرض الشاسع والسهل العظيم الامتداد. وأشد هذه العقبات مناعة عداوة الشعوب التي تعيش في ربوعها.

وقبل أن نبدأ في دراسة أحدث آثار هذه الهضبة وإن كان أعظمها أهمية من بعض النواحي يجب علينا أن ندرس ظاهرة أخرى وثيقة الصلة. فقد رأينا في أوروبا أن وجود مركز للحضارة خليق بأن يثير الحماس في نفوس سكان المناطق المجاورة التي تقل عنه مدنية، وإن كانوا أشد قوة، فيدفعهم إلى العمل، وعلين الآن أن نلحظ نفس الحقيقة في الصين، فإن

منشوريا تقع إلى الشمال من الصين ويفصلها عنها خليج يتشيلي العميق وهو يتوغل في اليابس حتى أنه لا يترك إلا عنقا صغيرا من الأرض يمتد بين ساحله الغربي وحافة الهضبة. ومنشوريا بحكم وقوعها في شمال الصين أشد بردا وأقل جاذبية لأن تقوم بها حضارة عريقة، ومهما يكن من شيء فقد أقام بها سكانها، وبمضي الزمن أوحت إليهم الحضارة المجاورة حماسا إلى العمل، وإن فصلتها الظروف الجغرافية عن الصين فصلا بعث في نفوس أهلها الشعور بالاستقلال بل وممارسة هذا الاستقلال فعلا. وقد قامت قبيلة من هؤلاء المانشو من تتر "كيتان" فمدت حكمها جنوبا، وما وافى عام ٩٠٠ للميلاد حتى وجدنا فيها حكما شبه أجنبي في مظهره يسيطر على شمال الصين في ذلك الوقت. غير أن حكم هؤلاء التتار لم يمتد قط إلى معظم بلاد الصين، ولكنهم أناروا خيال الرحالة القلائل الذين أتوا من الغرب فكتبوا عنها كثيراً حتى أطلقوا على بلاد الصين إبان العصور الوسطى اسم – كاثاي – المشتق من اسم هؤلاء التتار – كيتان.

لقد كانت نهضة منشوريا هذه حدثاً جديداً في تاريخ الصين وتبرز جدته في اقترانه بتأسيس مدينة بكين في هذه الآونة وقبل هذا الزمان كانت عاصمة الصين تتأرجح هنا وهناك في وادي نهروي أو في الجزء الأوسط من وادي هوانج هو. وظلت بكين منذ ذلك الوقت مقر الحكم في الصين باستثناء فترة قصيرة. وينبغي أن نلاحظ المعنى الذي ينطوي عليه موقعها في داخل السهل الشمالي، وبقرب حافته فقط، عند مبدأ الطريق الضيق من منشوريا المحصور بين مرتفعات الغرب وخليج بتشيلي في الشرق. وقد قامت بكين كقاعدة منشورية يصدر عنها تنظيم البلاد كما قامت فينا

فاتخذها النمساويون مركزاً لتنظيم المجر وكما كانت لندن المركز الذي أنشأه الغزاة الأوروبيون لحكم إنجلترا وكما اتخذت أدنبرة عاصمة لتنظيم اسكتلندا من قبل الفاتحين الذين جاءوا إليها من إنجلترا وكما قامت دبلن لتكون مركز حكم ارلندة، يشرف منها على النظام هؤلاء الحكام الذين جاءوا إليها من الجزائر الإنجليزية. وقد تابعت منشوريا الناهضة إرسال الجحافل تلو الجحافل لتزيد نصيبها من أراضي الصين مما اضطر السلطة الصينية الخالصة أن تتراجع إلى الجنوب شيئاً فشيئاً حتى اقتصر حكمها على حوض اليانج تسى والسيكيانج أي على الأقاليم الجبلية فقط.

وأخيراً غمرت أهل الهضاب الخارجية موجة من الحماس إلى العمل ربما يكون مرجعها الأول أثر الحضارة الصينية فيهم وقد يكون مرجعها انتشار الإسلام بينهم إذ سيطر على الهضبة برمتها في أول الأمر جنكيز خان وساد شعوبها جميعاً من موطنه في جبال التاي ثم هبط بجحافله المغولية من الهضبة إلى السهول المحيطة بها شؤقاً وغرباً. وتابع ابنخ وحفيده من بعده الغزو والفتح حتى أخضعا أهل الصين والتتار على السواء، ولما كان المغول أجانب عن البلاد لم يعيروا اهتماماً للحدود السابقة التي كانت تفصل البلاد عن بعضها فظلوا يتابعون الفتح والاستعمار فيما وراءها وصادفوا نجاحاً ملحوظاً في فتوحاتهم البرية، ومما يجدر ملاحظته أن هذه الإمبراطورية في جيلها الثالث بقيادة كبلاي خان بذلت محاولات بحرية لإخضاع اليابان غير أن مثل هذه المحاولة كان مآلها للفشل فقد رد اليابانيون العدوان عن بلادهم. وإنا لنرى مرة أخرى كيف إن إمبراطورية عظمى تكمن قوتها في رجالها البريين يقابلها رجال البحر الأشداء

ويفسدون عليها خطتها في بوغاز تسو شيما كما ردا جزر سيس من قبل على أعقابه في موقعة تبعد بضعة أميال عن مثل هذه اليواغيز.

لقد كان هذا الغزو الذي قام به المغول مجرد فتح حربي شأنه شأن الفتوحات الأخرى التي تمت على أيدي أقوام أقل حضارة من الشعوب المغلوبة على أمرها - وكمنت قوتهم في صلابة عودهم وفي جرأتهم وإقدامهم ثم انتهي الأمر إلى أن انغمس الفاتحون في صنوف الترف وفقدوا سلطانهم ثم ذابت عناصرهم في محيط الشعوب المغلوبة.

والصين بحكم ظروفها الجغرافية محاطة ببلاد لم تصل شعوبها إلى درجة من المدنية توازي مدنية الشعب الصيني نفسه وأن فاقته في جرأتها وبسالتها البدنية، ولهذا لم يكن من نصيب الصين قط في غضون تاريخها الطويل أن دخلها غزاة أرفع من أهلها مدنية وحضارة. وتمثل الشعب الصيني دائما جميع الغزاة والفاتحين، وليس الغزو المغولي للصين في القرن الثالث عشر بأقلها شأنا فهو يحدد مرحلة أخرى من التقدم الملحوظ، إذ أضاف المغول إلى ملكهم باسم الصين أقاليم واسعة وبقيت فتوحاتهم في يد الصين حتى بعد أن اندثر الغزاة إلى الأبد.

وبعد أن تم للشعب الصيني امتصاص المغول وهضمهم وتمثيلهم، نصل بحق إلى الفترة الثالثة المجيدة من تاريخ الصيني الخالص تحت أسرة "منج" الذي استمر من القرن الرابع عشر حتى السابع عشر، وقد بذلك في هذا العهد محاولة لجعل مدينة نانكين مقر الحكم، وهي ذات موقع أكثر

توسطاً من وادي نهروي أو المدخل الشمالي للبلاد، غير أن نانكين لم تدم عاصمة للبلاد إلا لبضعة أعوام وسرعان ما تنحت عن مكانتها لبكين مرة أخرى، على أن اختيار مثل هذا الموقع ليكون مقراً للحكم لا يخلو من دلالة على تطور الأفكار في الصين، لقد نشأت بكبن في موقعها لتكون أقرب ما يكون للمداخل المعرضة للغزو من الشمال، وكان منشؤها له ما يبرر بعد نظرهم، لأن تتار منشوريا في القرن السابع عشر حاولوا للمرة الثالثة والأخيرة فتح جميع بلاد الصين وأصابوا نجاحاً في هذه المرة، ولم يأت هذا الغزو فجأة لأنه مر جيلان منذ أن ازدادت أهمية أسرة "تسنج" في جبال منشوريا الشرقية حتى أصبحت قادرة على الاستيلاء على بكين، كما مر جيل آخر قبل أن تدين لها الصين جميعاً. وكان إقليم فوكين في الجنوب الشرقي آخر أقاليم الصين الأصلية في الاعتراف بالولاء لها، وكما أخذ المانشو ينشرون الحكم الصيني ويوسعون رقعته كما نشره المغول من قبل وظلوا يتابعون فتوحاتهم فيما وراء حدود الصين الأصلية يغزون منغوليا ويوطدون سلطانهم فيها ثم مدوا نفوذهم إلى ما وراء هضبة التبت في عهد متأخر جدا أي في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر بل وقد امتد سلطانهم عبر جبال الهملايا وبقى أهل نيبال يعترفون بسلطانهم حتى بدء القرن العشرين.

وعلينا الآن أن نطبق ما سبق لنا بحثه قبل أن تستطرد في بحث المجموعة الأخيرة من الحقائق الجغرافية الكبرى التي تحكمت في تاريخ الصين فنخلص إلى النتائج العامة التالية ومنها أن الصين يقطنها شعب واحد متجانس بفضل وجود الأنهار الثلاثة الكبرى وهي أثر من آثار العوامل

الجغرافية الأعمق جذوراً أي التضاريس والمناخ، ويدعم وحدة الشعب في أساسها وجود هضبة ذات عرض شاسع في الغرب من الصين. هاتان الظاهرتان، أي مجموعة الأنهار والهضبة هما أهم العوامل التي تحكمت في تاريخ الصين.

وهناك ظروف جغرافية أخرى أدت إلى نفس النتيجة فإن موقع الصين في مواجهة المحيط الواسع حيث لا يؤدي الطريق البحري إلى إقليم ما، بالإضافة إلى عدم وجود بحر داخلي في الصين كالبحر المتوسط، كل هذه الحقائق كانت في ذاتها عوامل جبارة صامتة تقوم بدور سلبي وتعمل بدرجة عظيمة لتؤكد للصينيين أخلاقهم وعاداتهم كشعب بري وتمنعهم من أن يكونوا شعباً بحرياً. ولم يضطر الصينيون إلى ركوب البحر كما اضطر النورسمن تحت ضغط الفاقة والبرد وجدب أوطانهم ولم يقعوا تحت ضغط شديد من ورائهم كما حدث للسكسون، ذلك أن الصين بلاد شاسعة، ولو حدث وتعرضت لموجات الهجرة الصادرة من الهضبة أو من منشوريا لانتشرت موجات المهاجرين وتوزعت قبل أن تصل إلى ساحل البحر وقلما شعرت الأجزاء الجنوبية بهذه الموجات، وقد خلت بلاد الصين من طريق بري عظيم يؤدي إلى البحر كالطريق الذي امتازت به فينيقيا، وساحل الصين هو قوس عظيم مستدير يخلو من أشباه الجزر التي تغري بركوب البحر كما هو الحال في بلاد اليونان، ولهذا لم تكن الصين دولة بحرية قط فليس بها ما يغري أهلها لأن يكونوا شعباً غير بري، اعتمادهم الأول على الزراعة يتصفون بنفس العادات وطرائق التفكير التي سرت في دمائهم خلال أربعين قرناً، وكثيراً ما مرت بالصين أزمات مستحكمة ولكنها ظلت

تحتفظ بوحدتها ولم تتفتت إلى أجزاء لا حصر لها – كالإمبراطورية الرومانية – حين تعرضت لهجوم قبائل الرحل النازلة إلى سهولها من سفوح الهضبة على الرغم مما أصاب الصين من مذابح دامية أودت بحياة الملايين من السكان.وظل تجانس الشعب الصيني حقيقة بارزة وهذا في حد ذاته نتيجة لظروف جغرافية إلى حد كبير(٢٨).

لقد خلق كشف المحيطات الذي قامت به الحضارة الغربية بالتدريج عاملا جديدا هاما أثر في تاريخ الصين، فحتى ذلك الأوان كان اليابانيون هم الشعب البحري الوحيد الذي يتصل به أهل الصين. وحضارة اليابانيين مقتبسة في أصولها من حضارة الصين، ولم يكن اتصالهم بهم اتصالا وديا لأن اليابانيين الأوائل –الذين سمعنا عنهم – كانوا قد اقتصروا في زياراتهم الشواطئ الصينية على الإغارة عليها كما اعتاد النورسمن الإغارة على شواطئ أوروبا وكانت آخر سلسلة من هذه الغارات التي شنوها وربما أهمها تلك التي حدثت في أوائل القرن السادس عشر أي قبل أن يدرك الصينيون النتائج الأولى الهامة التي تمخض عنها كشف الأمم الغربية للمحيطات، واقتصر أثر هذه الغارات في تلك العهود على طرد السكان من البحر إلى الداخل فالبحر هو المجال الوحيد الذي ينفرد فيه البحارة

(٤) لا يمكننا أن نتجاهل أثر وجود الكتابة التصويرية (الرمزية) فهي التي مكنت أهل الصين من أن يفهم بعضهم بعضا في جميع نواحي البلاد ولها دون شك أثر عميق، ولكن ينبغي ألا يغيب عن الذهن أن وحدة اللغة بل ووحدة اللهجة أيضا لم تمنع ألمانيا وإيطاليا من الانقسام إلى ولايات مستقلة كما لم تمنع النرويج والدانمرك من أن تنفصلا ولم تحل دون استقلال الولايات المتحدة الأمريكية عن بريطانيا. فإن العوامل الجغرافية كانت دائما أقوى أثرا من وحدة اللغة.

بشعور الأمن والطمأنينة. ومن الحقائق ذات المغزى أن الصينيين لم يسمعوا قط بوجود جزيرة فرموزا حتى القرن الثالث عشر مع أنها لا تبعد عن شواطئ البلاد الأصلية بأكثر من سبعين ميلا بل ولم يستولوا عليها إلا في عام ١٦٨٢ بعد أن أسس بها البرتغاليون الأوائل والهولنديون محطات تجارية، وحتى في هذه الآونة كان السبب الأول في الاستيلاء عليها ارتقاء أسرة جديدة أجنبية عرش البلاد وقد راودها الطموح إلى غزو ممتلكات أخرى، فلما تم لها فتح فورموز الم تقدر حكومات الصين المتعاقبة أهميتها حق قدرها طوال المائتي عام التي احتفظت الصين خلالها بالجزيرة.

وكلما ضعفت قبضة حكام المانشو بازدياد انغماسهم في الترف والملذات وكلما ازداد اندماج إتباعهم في طبقات الشعب كلما تركت الصين شيئاً فشيئاً تتنازعها قوتان متعارضتان. قوة مصدرها اليابس كتلك التي تعرضت لها من قبل وقوة مصدرها المحيط وقد جاءت إلى التاريخ الصيني بعناصر جديدة. ولابد للقوى الأوروبية الأصل الآتية عن طريق البحر من أن تقرب بلاد الصين من الجنوب فقامت لذلك ظروف وأحوال جديدة، وحتى ذلك الأوان كانت المواقع ذات الأهمية الإستراتيجية متجمعة في السهل الشمالي وكانت العواصم تقع عادة في إحدى زوايا ثلاث تكون مثلثاً، إما في بكين لتحرس مداخل البلاد من ناحية الشمال حول خليج بتشيلي وأما في مدينة سيان لتحرس المداخل الغربية عن طريق وادي وي وإما أنها على حافة السهل الصيني ولكنها على اتصال بمجموعة الأنهار الجنوبية كما هو الحال في نانكين. فلما تسرب إلى البلاد نفوذ الدول البحرية وجاء إليها من الجنوب اكتسبت الموانى الجنوبية

الصينية أهميتها ولذا كانت الموانى التي فتحت للتجارة بمقتضى معاهدة ١٨٤٢ جميعها من موانى الجنوب الجبلي اثنتان منها في مقاطعة فوكين والثالثة تقع وراء حدودها الجنوبية مباشرة ومن ثم أصبحت مداخل الصين هي كانتون وشنغهاي وليست بكين أو سيان.

غير أن سيان وبكين مازالتا مفاتيح البلاد، حقاً قد اختفى المانشو من ظهر الأرض، وفقد المغول جسارتهم القديمة بعد أن روضتهم الديانة البوذية، غير أن السهل الأعظم لازال قائماً وراء الصين بكل ما ينطوي عليه من إمكانيات، وتصل القوى الصادرة عنه إلى منشوريا عن أقصر طريق عبر الهضبة وكانت روسيا قاب قوسين أو أدنى من دخول الصين من بوابتها القديمة حول خليج بتشيلي، وقد أحكم إغلاق هذا الطريق في الوقت الحاضر، وقد لا يدوم إغلاقه ولا يزال هناك الطريق القديم الأخر المار بسيان خلال ممر زنجاريا بين جبال التاي وتيان شان في ظل الجبال، غير أن هناك طريقاً آخر مطروقا عبر الأراضي الرعوية الممتدة من بيكال إلى بكين رأساً متخللا الممرات الجبلية السهلة في الشمال —من هذا يتبين أن الموقف السياسي في الصين دقيق للغاية وقصة الصين لم تتم فصولا والزمن وحده كفيل بإظهارها ما ستتمخض عنه هذه الحقائق.



الخريطة رقم ٥٤

عواصم الصين

هذه المدن الثلاث تقوم في الأركان الثلاثة للسهل المثلث الشكل

ومهما يحدث، فلن نعدو الصواب أن قلنا أن الشعب الصيني لا يزال حياً مهما كانت الصفات التي اتصف بها حكامه من المانشو أو من غيرهم، ومن ناحية أخرى فإن التاريخ الصيني تسيره عوامل جغرافية وقوى تأتي إليها من البر والبحر وخصوصاً وأن تفاعلها سوف يؤدي إلى ازدياد الميل نحو توحيد البلاد وجعلها أكثر انسجاماً من أي عهد مضى وأن القاطرة الحديدية والباخرة وهما قوى حديثة لعبور الفيافي والبحار كل منهما تكمل الأخرى، وتعملان على توحيد البلاد وهما على وشك تحقيق هذا الهدف.

وسوف يكون للصين خط حديدي رئيسي لا يوجد مثله في دولة أخرى يجري من بكين إلى هانكو وكانتون أي من عاصمة الشمال إلى عاصمة الجنوب يغذيه البحر في كلا الطرفين كما تغذيه في الوسط الملاحة النهرية في اليانج تسي. وليس مدخل الصين عن طريق سيان بأقل خطراً فلابد أن ينشأ خط حديدي عبر الهضبة ماراً بسيان وممر زنجاريا ليتصل بالخط الرئيسي في الصين ويغذيه من جهة اليابس.

هذه الخطوط الرئيسية وما يتفرع عنها من خطوط إضافية يجب أن تعد لتكمل مجموعة المواصلات المائية ولابد وأن تؤدي في النهاية إلى اتحاد الصين وحفظ وحدتها – وسوف يهدف اتحادها إلى زيادة استقرارها حتى يتوافر أهلها على التحكم فيما بين أيديهم من موارد الطاقة واستغلالها على خير وجه.

الفصل الرابع عشر

الأرض الدفيئة ـ الهند

لو أننا استعرضنا ما درسناه حتى الآن –تمهيداً لما يلي من بحوث – لتبين لنا أننا تتبعنا نمو حضارتين مختلفتين أثرت كل منهما في ربع سكان العالم. نشأت إحداهما في أوروبا والأخرى في الصين واتخذت إحداهما مظاهر عدة لأنها تأثرت بعوامل جغرافية مختلفة، من عدة نواح، أما الأخرى فظلت تنمو نمواً متصلا وهي تسير على نهج واحد لأنها خضعت لمجموعة واحدة من العوامل ذات الأثر البالغ. وتأثرت كلتا الحضارتين بما نشأ من ثقافات رعوية في المنطقة الشاسعة الواقعة في قلب العالم القديم. ويبدو أن نشأتهما كانت تتوقف على توافر الظروف التي سمحت بتطور البذور الأولى للحضارة وهيأت الفرصة لنموها فيما بعد بأن كفلت لها الحماية اللازمة لمجتمعات الصغيرة فيسرت لها أن تقتصد في موارد طاقتها.



الخريطة رقم ٥٥
المساحات الثلاثة المزدحمة بسكانها
في العالم القديم

ولو أننا نظرنا إلى المساحة الثالثة من العالم القديم التي تزدحم بعدد غفير من السكان ألا وهي الهند لراعنا وجود حضارة من نوع خاص يجوز لنا أن نطلق عليها لفظ الحضارة الهندية . غير أننا نرى من جهة أن الهند لم تنتظمها وحدة شاملة نشأت فيها نشأة داخلية كما انتظمت الصين وحدتها لعدة قرون. ومن جهة أخرى لم تنجح حضارة الهند في الانتشار حول العالم كما نجحت الحضارة الأوروبية. هذا وقد تعددت مظاهر الحضارة الهندية تعدداً فاق مظاهر الحضارة الصينية والأوروبية أيضاً —أضف إلى هذا أننا نرى أن الحضارة في أوروبا تبدو متصلة الحلقات نمت من بذورها الأولى في مصر وبابل ونرى حضارة الصين تنمو نمواً طبيعياً من أصولها الأولى في وادي نهر وي غير أننا نعجز عن استقصاء بوادر الحضارة الهندية ولا نستطيع أن نعود بها إلى أبسط عناصرها الأولى ونجد للهند تاريخاً نتحكم فيه عوامل خارجية عدة وتؤثر فيه تأثيراً عظيما.

ولنقف الآن قليلا عند الحقائق الجغرافية.

إن الهند مثلها كمثل الصين وعلى النقيض من أوروبا، بلاد تخلو من وجود بحر داخلي كالبحر المتوسط، ولم تتجمع بالقرب من شواطئها جزر عديدة، كما امتازت أرضها بدفء المناخ ووفرة الإنتاج عموما فليس بها ثمة ما يغري أهلها بركوب البحار كسكان شواطئ البحر المتوسط – وليست الهند على درجة من الفاقة كأرض اسكندناوة حتى يطر أهلها لأن يولوا وجوههم شطر البحار يخاطرون بركوبها – فبقى أهل الهند قوماً لم يتعدوا المرحلة الأولى من سكني اليابس وشعبها لم يعرف ركوب البحار.

كما جمعت الهند بين السهل والجبل أو بين المرتفع والمنخفض فترينا الخريطة أن جبال الهملايا العظيمة الارتفاع إلى الشمال والشمال الغربي تستند إلى هضبة التبت ثم تستمر في اتجاهها نحو الشرق ونحو الجنوب الشرقي على شكل سلاسل جبلية متعددة تفصلها عن بعضها وديان شديدة الانحدار كثيفة الغابات – أما الهملايا في ناحيتها الغربية فهي تنتشر على شكل مروحة وتأخذ في الانخفاض حتى تصل إلى مستوى هضبة إيران —ونرى في شبه جزيرة الدكن هضبة أخرى أكثر انخفاضاً وأوسع عرضاً – شديدة الانحدار في حافتها الغربية بينما تنحدر انحداراً هيناً نحو الشرق وقد مزقتها الأنهار إلى حد كبير واتخذت هذه مجاريها نحو الشرق تبعاً لانحدار الهضبة العام —وهناك سهل ضيق على الشاطئ الغربي وآخر أوسع منه نوعا ما على الساحل الشرقي – ويقع بين الجبال الشمالية والهضبة الجنوبية سهل فيضي عظيم يمتد نحو ألفي ميل من مصب نهر الكنج حتى

مصب السند –وقد خلا سطحه من الأحجار والصخور باستثناء الجهات القريبة من مقدمات سفوح الجبال وهو يرتفع ارتفاعا هينا بمعدل قدم واحد في كل ميل لدرجة لا تلحظها العين المجردة، فلا نجد في هذا الإقليم تنوع التضاريس الذي نراه في إيطاليا أو في البلقان – ولا نجد شيئاً من المركزية الجغرافية التي خلقت دولة فرنسا.



الخريطة رقم ٥٦
أوراسيا: توزيع درجات الحرارة
أن الهند أدفأ في الشتاء من كل من الصين أو أوروبا

بل أننا إذا أدخلنا الأحوال المناخية في اعتبارنا لرأينا ثمة تماثلا يتجلى في حياة أهل الهند. حقاً قد يقال أنها تجمع بين كل نوع من أنواع المناخ على الرغم من أن هناك بعض المواضع الجبلية المنعزلة في طول الهند وعرضها تستمتع بجو بديع في معظم أيام السنة أو في فصل من فصولها فقط، غير أنه تبقى حقيقة واضحة وهي أن هذه المواضع هي استثناء تشذ عن المناخ العام الذي يسود الهند، فالبلاد في عمومها حارة لا في الصيف وحده بل وفي الشتاء أيضاً –ونجد الهند بوجه في عمومها حارة لا في

الصيف وحده بل وفي الشتاء أيضاً – ونجد الهند بوجه عام أكثر دفئاً في الشتاء من أي جزء من أجزاء الصين وأدفأ طبعاً من أية بقعة في أوروبا وهذا فارق عظيم بين الهند والساحتين الأخريين اللتين تزدحمان بالسكان، وهو فارق يفسر لنا إلى حد بعيد اختلاف التاريخ في كل منها، فهنا في الهند قلت الضرورة التي تدعو إلى توفير الطاقة البدنية بارتداء الملابس في أي فصل من فصول السنة.

هذا القول العام يقتضي بعض التفسير، ذلك أن الحدود الشمالية الغربية هي أبرد أجزاء الهند. وفي الشتاء نجد إقليم البنجاب هو أبرد أجزاء الهند على حين نجد السند ومرتفعات بلوخستان في الغرب رغم شدة حرارتها في الصيف وبخاصة أثناء النهار تتعرض للصقيع في الليل بل حتى في بعض ليالي الخريف. وهكذا يجب أن نتوقع هنا تعديلا في طراز الحياة الهندية الذي يسود هذه المنطقة.

وإذا درسنا سقوط الأمطار وأثر كمياتها إلى جانب أثر الحرارة في الحياة النباتية لرأينا المدخل الشرقي للسهل تعمره الأمطار الغزيرة وهو لا يرتفع في مستواه كثيراً عن سطح البحر فتجد مياه الأمطار صعوبة في الجريان فوق أراضيه وتنتشر على سطحه مكونة مستنقعات تغطيها الأحراش. وكلما اتجهنا غرباً تغيرت الأحوال الجغرافية تغيراً غير محسوس فتقل الأمطار وتتهيأ للمياه فرصة التسرب من السطح إلى باطن الأرض وإذا ما واصلنا السير غرباً حتى مسافة ألف ميل من البحر رأينا موارد المياه تعجز عن أن تفي بحاجات الحياة ويشتد جفاف الأرض حتى إذا ما

اقتربنا من مصب نهر السند وجدنا المنطقة الأخيرة أي في حدود الأربعمائة ميل الخيرة من البلاد مراعي فقيرة بل وصحراء جرداء.

أما السفوح الغربية للهضبة الجنوبية والسفوح الجنوبية لجبال هملايا والمرتفعات التي تقع في شمال شرق خليج بنغالة فكلها تسقط عليها الأمطار الغزيرة صيفاً وتحتفظ بكميات من الرطوبة تسمح بنمو الغابات وهذه تصبح أدغالا في الأجزاء المنخفضة الشديدة الرطوبة –هذا وتهب الرياح الجنوبية الغربية الموسمية فتغمر جبال غانة الغربية بطوفان من الأمطار ثم توالى هبوبها صاعدة فوق الواديين المستقيمين لنهري ناربادا وتابتي وتحمل معها المطر الغزير فتتعمق به في داخل البلاد أكثر منها في جزء آخر – وإلى الشرق تتقابل التيارات الهوائية الآتية من الغرب بتلك الآتية مباشرة من خليج بنغالة ويسبب تقابلها سقوط أمطار غزيرة فيما بين منابع هذين النهرين حتى السواحل الواقعة في جنوب مصب نهر الكنج، وهنا نجد تربة البلاد مكونة من طمي أسود، كما نجد نطاقاً خصيباً يمتد عبر الجزء الشمالي من شبه الجزيرة يبدأ من جوجارات وينتهي عند دلتا نهر ماهاندي، بعضه غابات وبعضه أحراش وبعضه الآن أراضي مزروعة.



الخريطة رقم ٥٧
توزيع الأمطار في الهند
يسقط معظم المطر صيفاً

وإلى الجنوب من هذا النطاق نجد البلاد جافة، في أغلبها مراع ولا يشذ عن ذلك سوى وديان الأنهار والسهول الساحلية.

وهكذا تمتد الظروف الجغرافية بعينها فتشمل مساحة شاسعة من الأراضي مما يجعل البلاد بهذا الوضع عسيرة الحكم والتنظيم وإن نظمت فقد يتعذر الاحتفاظ بهذا التنظيم، وليست الصعوبة ناجمة عن أن البلاد كتلة ضخمة تعجز الحكومات عن إدارتها من مركز واحد باعتبارها وحدة واحدة وعلى الأخص لو تولى الحكم فيها أناس لم يألفوا تنظيم الحكومات، ولو أن شيئاً من هذا حدث لم يكن أمره عجباً، فأوروبا حتى اليوم رغم أنها متقدمة في نظمها إلا أنها لا تنتظمها حكومة واحدة –ولكن السبب الأول

في الهند هو أنها تضم أقساماً طبيعية كبيرة وليس بها من مهد واحد يصلح لنمو الحضارة كما هو الحال في مصر وبابل أو في واد نهر وي حيث الحياة ميسورة نوعاً وحيث كل قطر في حد ذاته يمثل وحدة صغيرة تمكن الشعوب القاطنة فيه من أن تتعلم أساليب الحكم والتنظيم ما دامت الحاجة تدعو إلى التفكير في المستقبل وتدبير أموره.



الخريطة رقم ٥٨

توزيع الغابات في الهند

في الهند ثلاث مناطق من الغابات

(أ) نطاق الهمالايا (ب) نطاق الهند الوسطى (ج)نطاق غربي الدكن

وبينما تجتمع الحرارة والرطوبة فتتعاونان على تشكيل الطاقة الشمسية وتقدماتها للإنسان بشكل واضح ينفعه في أغراض حياته، غير أنهما على هذا النحو يقللان من ظهور الحافز الذي يدفع بالأفراد أو

الجماعات إلى اقتصاد هذه الطاقة وتقل مقدرة المجتمعات على الاحتفاظ بما تقتصده منها، وهكذا ظلت المدنية الهندية دائماً متأخرة عن المدنيات الخارجية في عبقرية التنظيم –وأصاب المهاجرين الذين جاؤا إلى الهند في الحرب أو السلم قسطا من النجاح قل أو كبر في السيطرة على الجماعات التي سكنوا بينهما وتولوا تنظيمها.

ولكن من أين جاء هؤلاء المهاجرون؟

ولكي نفهم الجواب يجب ان نذكر حقيقة واضحة وهي أن الهند شبه جزيرة أشبه ما تكون بقارة في ذاتها، وأنها أقرب من أوروبا من الصين إلى قلب القارة الأسيوية موطن الرعاة – وإنها مفتوحة لمن يريد الوصول إليها من جهة المحيط هذا على الرغم من أنه ليس بها ما يغري الوطنيين الهنود إلى احتراف الملاحة البحرية أو ما يضطرهم إليها اضطرارا فلم يصبحوا قط أمة بحرية، وقد دخلت الهند أعداد وفيرة من المهاجرين الذين جاءوا إليها من البلاد الواقعة فيما وراء البحار أو فيما وراء جبهتها الشمالية أو الشمالية الغربية.

وقد جاء إلى الهند مهاجرون من وراء جبهتها الشمالية الشرقية ودخلوا أدغالها أزواحا ووحدنا وليس لدي هؤلاء أي قدرة على التنظيم فلم ينشئوا دولة ما – وقد سبق لنا أن رأينا الغابات تقف حجر عثرة في سبيل الهجرات المنظمة في كل عهد من العهود –فإذا ما كانت الغابات تنمو على سفوح وديان اشتد انحدار جوانبها وتتابعت واحدا بعد الآخر لم

يكن عجبا أن نرى أن المدخل الشمالي الشرقي للهند قليل الأثر في تاريخها إذ أعرض عنه المهاجرون.

وتختلف الحال في المدخل الشمالي الغربي اختلافا كبيراً، وهو كما رأيناه جافا في مناخه ولا تعترضه الغابات وتتصل الهند عن طريقه بحضارتين فتيتين إذ يمتد الطريق منه فيما وراء الجبال إلى السهل الأعم بسكانه من الشعوب الرعوية مخترقا سلاسل جبلية شديدة الارتفاع على ضيق عرضها تنتشر كالمروحة من الطرف الغربي لجبال الهيمالايا.

وهذا وتحف بهضبة إيران من الشمال والجنوب سلاسل جبلية تنحدر منها مجاري مائية ومن ثم تتبعها طرق تؤدي إلى بلاد ذات حضارات عريقة كفارس وبابل وآشور. فإذا ما جاءت الشعوب الجبلية، وأطلت على سهول الهند في شمالها الغربي وقعت تحت سحر السهول وإغرائها، يجذبها ذلك النسيم العليل الذي يهب من سهول الهند فيذكر تلك الجحافل بما ألفته في أوطانها الأولى ويصادف هوى في نفوس أفرادها فيتقبلونه قبولا حسنا.

وهكذا أخذ فيض المهاجرين من الشمال الغربي ينهمر إلى الهند الشمالية يأتون إليها زرافات ووحداناً وآلافاً ومئات الآلاف، تجاراً وظاعنين، غزاة ولاجئين –وقد وقف بعضهم عند عتبة البلاد، وقديما جاء إليها قدماء الأشوريين والإغريق في عهد سابق لفتوحات الأسكندر ووصلوا إلى الديار الهندية ولكنهم لم يوغلوا فيها – وقد قاد الأسكندر جيوشه إلى

قلب بلاد البنجاب، ولكن جنوده أشفقوا من التوغل في بلاد يجهلونها فشوا عصا الطاعة واضطر هو إلى أن يعود بهم أدراجه وقد جاء آخرون قبل الأسكندر وبعده من الجهة الشمالية الغربية وانتشروا في أرض الهند بدرجات متفاوتة.

والبحر أيضاً طريق مفتوح لكل من ألف ركوبه —فنجد شبه جزيرة الدكن قد تأثر بالشعوب البحرية منذ أقدم العصور التي نستطيع الرجوع إليها فقد جاء إليها في العهود السحيقة أقوام من البلاد الجافة الغربية التي سبقت أهل الدكن في الحضارة كما جاءت إليها عناصر متأخرة من شرق الهند الغزيز الأمطار – وفي الأزمنة الحديثة وصلت إلى الهند من وراء البحار عناصر امتازت بعبقريتها في التنظيم فجاء إليها الأوروبيون أولا من الجنوب بعد دورانهم حول رأس الرجاء الصالح ثم جاءوا إليها أخيراً من الغرب بعد فتح قناة السويس.

وقد عرفنا أن أقواما وفدت على الهند من الشمال ومن الغرب ثم من البحر واقترن مجيئهم بإدخال مدنيات أرقى شأواً من المدنية القائمة وقتئذ وكانوا أميل إلى القضاء على الحضارة التي وجدوها كما رغبوا في إجلاء سكان الهند الأوائل عن الأراضي التي كانوا يسكنونها.

ومن ثم لجأ السكان الأصليون بطبيعة الحال إلى الغابات الجبلية وإلى الأحراش الممتدة في الجزء الشمالي من هضبة الدكن حيث يجدون فيها ما

يحميهم من غارات المهاجرين الجدد وحيث يجدون من الغذاء ما يقيم أودهم ويحفظ عليهم حياتهم.



الخريطة رقم ٥٩

مداخل الهند من الشمال الغربي

وتشبه هذه الغابات غابات أوروبا في كونها تكفل الحماية لمن يلوذ بها ولكنها تختلف في أن الغابات الأوروبية تمكن الناس من متابعة حياتهم لو أنهم أعملوا فكرهم في أمور مستقبلهم وتحملوا بعض المشاق في جهادهم فتجود لهم الأرض بأحسن الثمرات إذا ما اجتثوا بعض غاباتها واستقروا ي جنباتها، بعكس الأحراش الهندية فهي تزود ساكنها بالحاجات الضرورية للحياة ولا تحفزهم إلى التقدم وبناء الحضارة.

وقد ظل فيضان الأجناس البشرية يتدفق على الهند من الشمال الغربي حتى قبل بزوغ فجر التاريخ فيسبب للسكان الأصليين قلقاً واضطرابا ولا نعلم أن كانوا قد جاءوا إلى الهند من السهل الأعظم أم من هضبة إيران.

أما المهاجرون الأوائل فقد انساق جزء منهم إلى الجنوب الشرقي ثم ذابت بقيتهم في غمار الموجات المتتابعة من الأجناس المختلفة التي جاءت إلى الهند من شمالها في أثناء ثلاثة الآلاف عام التي تلت سنة **٢٥٠٠** قبل الميلاد وقد استقرت الأجناس المهاجرة تدريجيا في السهول الشمالية للهند وكانت نهاية زحفها مجموعة الغابات الممتدة عبر الجزء الشمالي لهضبة الدكن وتركت الجزء الجنوبي منها للسكان الأصليين الذين سبقوهم إليها – وهكذا عززت الفوارق الطبيعية بين السهل الشمالي والهضبة الجنوبية بعد أن اختلف السكان في كل منهما وامتازت كل جماعة بميزتها الخاصة.

ثم أخذ كل من هذه الشعوب بقسط من المدنية وكان الشماليون أوفر حظاً حيث أقاموا ممالك عمرت نحواً من ثلاثة قرون –وكان الجنوبيون أقل نجاحاً وعلى العموم فإن معلوماتنا عن هذه الفترة ناقصة نقصاً ملحوظاً، وفي هذا دليل على عدم استمرار المدنية في مكان واحد تزدهر فيه. ويتضح نوعا ما أن مجموعات من الناس تنتمي إلى أجناس مختلفة وتتميز بخصائص مختلفة رتبت حياتها وعاشت كل منها في مجتمع مختلف وأن الفوارق بينها تقوم في أصلها على أسس جغرافية – فإن السهل الشمالي ليس سهلا واحداً بذاته لأن البنغال في الجنوب الشرقي غزيرة

الأمطار تغطيها أحراش الغابات بينما امتازت البنجاب في الشمال الغربي بجفافها ومقاطعة السند بالقرب منها أشد جفافا حتى أن نهر السند فيها قريب الشبه بنهر النيل إذ لا تتصل به أية روافد في مجراه الأدنى – وتقع بين هذين النقيضين مساحة كانت قديما في النطاق الذي أطلق عليه "الأراضي الوسطى" ولكنها الآن تدخل ضمن "المقاطعات الشمالية الغربية"[٢٩] –وهذه يكفي مطرها حاجات السكان فيها دون إسراف أو تبذير. هذه هي المناطق التي يزدحم فيها أكبر عدد من السكان سواء كان ذلك في المدن أم في القرى.



الخريطة رقم ٦٠

توزيع السكان الهندوس في الهند

---

(٥) هذه الإصلاحات كانت شائشة الاستعمال أيام الحكم البريطاني.

أن غالبية السكان في الهند من الهندوس

ويبدو بجلاء أثر الغابات في صد الزحف إلى الجنوب

وما وافى عام ٦٠٠ للميلاد حتى رأينا هذه المناطق الثلاثة مسكونة بشعوب ثلاثة وقد اختلف نصيب كل شعب من التقدم —وعلى الرغم من وجود هذه المناطق الثلاثة ومن اختلافها اختلافاً واضحاً إلا أنها تتداخل في بعضها بشكل غير محسوس فلا نجد بينها حدوداً فاصلة طبيعية ولا تعتبر الأنهار في عرف السكان حدوداً تفصل بينها بقدر ما تعتبر طرقاً تصل بينها، وموارد للماء تفيض بالخيرات.

ولهذا كان الاحتكاك بينها يكاد يكون أمراً محتوماً لا يمكن تجنبه إلا إذا انتظمت البلاد جميعاً حكومة مركزية مستقر – ولكن لم تظهر الحكومة القوية المدعمة وظلت هجرات الرعاة المستمرة تبعث القلق والاضطراب في المجتمعات القائمة فجاء إليها الهون والتتار الاسكوذيون Scyihians الذين عرفتهم الشرق الأقصى أيضاً وأشاعوا فيه الفوضى والاضطراب بطريق مباشر وغير مباشر. وقد اتحد الأهالي لفترة من الزمان ليواجهوا الخطر المشترك غير أن روابط اتحادهم كانت واهية الوشائج فلم تدم طويلا.

وهناك منطقة رابعة هي إقليم راجبوتانا بوجه عام وقد بلغ حداً لا بأس به من الرقي والتنظيم —ويقع إلى الشرق من نهر السند ويمتد محاذياً له – ويصل في عرضه إلى المائتي ميل ويتراوح في طوله من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ ميل —ويمكن إطلاق لفظ صحراء عليه، يقع جزؤه الشمالي الشرقي

كأسفين يفصل بين البنجاب والبلاد الوسطى – ويمتد بين هذه الصحراء ونطاق الغابات في شمال شبه جزيرة الدكن مساحة ترتفع في مستواها عن مستوى السهل الشمالي ولكن تحميها الطبيعة شر العدوان عليها من الشمال الغربي ومن الجنوب –وهي اقل في خيراتها من الأراضي الوسطى فقلت جاذبيتها في إغراء الغزاة إليها ممن جاءوا يبتغون السلب والنهب – فأصابت قسطاً من الرقي مكنها من مقاومة الهجمات التي شنت عليها مدى بضعة قرون.

أما السهول الواقعة في أقصى الجنوب الشرقي لشبه جزيرة الدكن فقد بعدت عن منافذ الهجرات التي تعرض لها السهل الشمالي –كفل لها البحر قسطاً من الحماية فأمكن لسكانها الأوائل أن يقيموا دولة عمرت لأكثر من ألف عام واتخذت لها أشكالا عدة، وكانت نموذجا ينسج على منواله أهل سيلان فيما وراء البحر وأهل وادي كوفري الأعلى والأدنى – فبقيت هذه المقاطعات دولا مستقلة عدة مئات من السنين، والحياة فيها بوجه عام سهلة ميسورة، وأن ضعف الحافز الذي يدفع بسكانها إلى الاستزادة من التقدم فاكتفوا بما وصلوا إليه من تنظيم مكنهم من مقاومة الضغط الواقع عليهم من الشمال – فلم يصلوا في تقدمهم إلى الحد الذي وصلت إليه أوروبا مثلا –لقد فكروا في حل ما واجههم من مشاكل ليعيشوا عيشة راضية فإذا ما قابلوا حضارة أرقى من حضارتهم عجزوا عن مقاومتهم، هذا بفرض تساوي الظروف بين الفريقين.

وتقرب معلوماتنا حد اليقين بظهور حضارة من طراز آخر وبظهور أقوام تعني بتسجيل تاريخها – فقد انتشر الإسلام غربا نحو أوروبا كما انتشر شرقاً نحو الهند. وحل الدين الإسلامي محل أشكال عدة من الوثنية إذ يمتاز عليها امتيازاً واضحاً – وكان للذين أدخلوا الدين الإسلامي إلى البلاد فضل في تنظيم النظم الواهية والحكومات الضعيفة.

لقد بينا في الفصول السابقة لماذا قاومت أوروبا هجوم الإسلام عليها، وقد تعرضت الهند لهذا الهجوم بعينه وبنفس مظهره – وتبين النتائج التي تمخضت عن هذا الهجوم الفروق الواضحة بين أوروبا والهند. فقد خضعت الهند في النهاية للمسلمين بدرجة ما وحكمها المسلمون، عير أن الإسلام لم يتغلغل في نفوس أهلها ولولا أحفاد الغزاة الذين جاءوا إلى الهند وهم يعتنقون الإسلام لما وجدنا بالهند إلا عددا ضئيلا ممن يؤمنون حقاً بالدين الإسلامي.

ولسنا في مقام يتيح لنا أكثر من التلميح – بأن هذه النتيجة لا تثير الدهشة إطلاقاً، فقد جاء الدين الإسلامي بعد الديانات السماوية الكبرى ووجد الديانات الأخرى قد تغلغلت في النفوس وآمنت بها بلاد أوروبا والهند والصين – فإذا تساوت الظروف فمن الطبيعي أن يظل الدين القائم باقياً ولا يبدو أن الديانة الهندوكية بما تنطوي عليه من خرافات متشعبة "وجنة وشياطين وآلهة وأنصاف آلاهة – منها آلهة للمنازل وأخرى للقبائل وثالثة للأقاليم ورابعة للأكوان" يبدو أن هذه الديانة لا تسمو لتكون قرينة للإسلام والمسيحية. ولكن الهندي الذي يقطن بلادا حارة رطبة في أغل

أجزائها عجز عن أن يرى الحقيقة الكامنة وراء المظاهر الخارجية. وليس الدين في نظره وجود إله أزلي – قادر – سرمدي هذه القوة العظيمة التي أدرك كنهها البدوي المتجول في فيافي الصحراء –ولكن الدين عند الهندي هو تلك المظاهر الحبارة التي تتخذها الحياة في تطورها. فليست هناك وحدة للوجود يسعى العقل إلى إدراكها. ولما كانت الهند بطبيعتها تميل إلى الانقسام ورغبتها في الانقسام مؤكدة، خلت مما يشيع الوحدة فيها كما أشاعتها الحروب الصليبية في أوروبا، فتهيأت الفرص للشعب الفاتح في أن يزيد الفوارق حدة حتى يفوز بالسيادة على أجرائها. والدين الإسلامي من ناحية أخرى لم يقدم في نظر الهندي التفسير المقبول عنده لمعنى الحياة – وهكذا لم يتقبله الهنود كدين لهم.

وأخذت الشعوب الإسلامية تتابع على الهند من القرن السابع حتى القرن السادس عشر، وطبيعي أن يأتي العرب أولا بطريق البر على طول الساحل، ثم بطريق البحر بحذاء شواطئه غير أنهم لم يتركوا أثرا دائما – ثم جاء بعدهم الأتراك قبل نهاية القرن العاشر بقليل عن طريق هضبة إيران مخترقين بلاد الأفغان، فلم يكد يمضي قرن من الزمان حتى اعترف السهل الشمالي بأكمله بالحكم الإسلامي وذلك بسبب المنازعات الشديدة التي استعرت بين الحكام الهنود.



الخريطة رقم ٦١

توزيع العناصر الإسلامية في الهند

تسكن العناصر الإسلامية.

(أ) في وادي السند غربي الصحراء

(ب) في المدخل الواقع بين الحافة الشمالية للصحراء ومنحدرات الهيمالايا

ومن ثم انتشر الدين الإسلامي في مقاطعة البنجاب الجافة وظلت تعتنقه إلى الآن وأصبحت معقل هذا الدين القيم —وقد ظل الناس على دينهم القديم على الرغم من اعترافهم بالحكم الإسلامي، فيما عدا البنجاب التي ظلت تعتنق الإسلام، وفي بادئ الأمر كان الحكام الجدد يمارسون الحكم في الأجزاء الخاضعة لهم من مراكز في أفغانستان، فلما فتح السهل الشمالي في بدء القرن الثالث عشر أصبحت دلهي مقر السلطة الحقيقية. ولنلق الآن بنظرة إلى دلهي وموقعها. فنرى أن إقليم السند وواديه، ومقاطعة البنجاب ليست سوى مدخل من مداخل بلاد الهند، ومن كلمة **Indus** أي السند اشتق اسم البلاد كلها، ويؤدي إلى هذا

المدخل ممر ضيق يصل في عرضه إلى ١٥٠ ميلا يقع محصورا بين الصحراء الهندية وجبال هيمالايا –وتقوم دلهي عند مخرج هذا الدهليز حيث تصل أراضي السهل إلى أضيق عنق لها، وتمتد على طول الحافة الشرقية للصحراء تلال آرافاليس وهي سلسلة من أقدم السلاسل الجبلية في العالم، وقد تآكلت كغيرها من السلاسل الجبلية القديمة ومزقتها عوامل التحات شر ممزق، وجنوبها هو أكثر أجزائها ارتفاعا وتظل في اتجاهها حتى مدينة دلهي تقريبا – وهكذا تقف دلهي كحارسة للباب الواقع بين التلال في الجنوب وجبال هيمالايا في الشمال – وقد وقفت وراءها الأراضي الإسلامية كما ترامت أمامها بلاد لم تصبح يوما ما إسلامية – وكان الحكام المسلمين أن يمارسوا الحكم فيها ولهذا اتجهت الطرق المختلفة الآتية من الجانبين لتلتقي في دلهي – وموقعها هو الموضع الطبيعي لعاصمة هندية تقع شمال منطقة الغابات – فلما تم للمسلمين تنظيم الشمال أولا كثيرا ما اختاروا عاصمتهم المرة بعد المرة في مواضع تبعد بضعة أميال عن دلهي الحديثة لتكون مقراً لهم ومركزا ينظمون منه البلاد وكانوا يطلقون عليها أيضا اسم دلهي.



الخريطة رقم ٦٢

موقع دلهي

تقع دلهي عند مخرج الطرق

بين الصحراء وجبال هيمالايا

واختيرت مرة مدينة أجرا كمقر للحكم وهي تقع إلى الشمال قليلا من دلهي في داخل السهل، ولكن القوم سرعان ما عادوا يعترفون بمزايا دلهي على غيرها من المراكز الأخرى.

وكيفما كان الأمر، فقد ظلت دلهي طويلا وهي عاصمة الشمال فقط، ولم يبذل المسلمون أية محاولة قبل القرن الرابع عشر للسيطرة على الأجزاء الهندية جنوبي نطاق الغابات حين بذلوا أولى محاولاتهم لإخضاعها للحكم الإسلامي –فسيروا جيوشهم في طول شبه الجزيرة وعرضها وحققوا هدفهم من الزمان، ولكن المجهود كان يفوق حد طاقاتهم وقاموا به في الوقت الذي بدأت الموجه الثالثة من الشعوب الإسلامية تطرق منافذ الهند

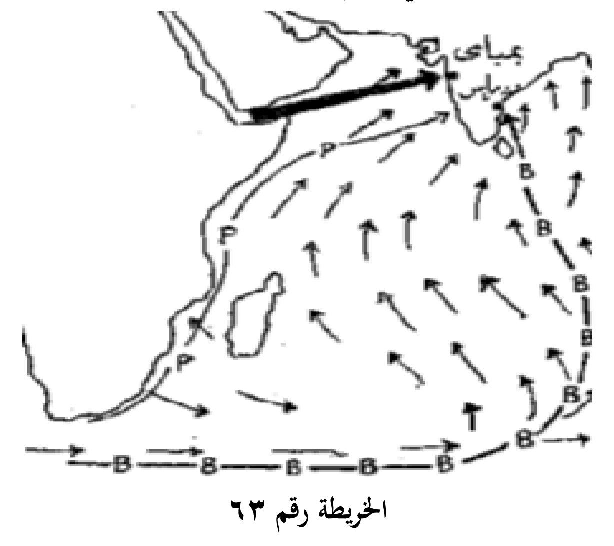
وتقلب الأوضاع وتثير الاضطراب فيها، فلم تمض بضعة أعوام حتى انتهزت المقاطعات البعيدة الفرصة وألقت عنها قيود الولاء لمدينة دلهي – إذ توالت على السلطة المركزية المصائب وناء أهلها بالمهام الملقاة على عاتقتهم فكان على السلطات في مدينة دلهي أن تكافح العوامل الطبيعية التي تدعو إلى التفرقة والانقسام وأن تصارع صعاب الحكم بين رعايا تختلف نظرتهم إلى الحياة عن نظرة حكامهم، وكان على الحكومة أيضا أن تتغلب العقبات الناشئة عن وجود الفوارق الطبيعية بين أقاليم البنغال والدكن ومقاطعات الشمال الغربي – أضف إلى هذا ما سببته الهجرات الجديدة من ضعف الحكومة وقد أخذ سيل المهاجرين التتار يتدفق من الشمال الغربي جاؤا من أراضي المراعي في أواسط آسيا. ومنذ عام ١٢٥٠ فصاعدا أخذت المتتابعة تدخل إقليم البنجاب وتضيف إلى المسلمين في الهند عدداً جديداً، ولكنها كانت تزيد في الحكومة القائمة ضعفا على ضعف، حتى انهارت الحكومة المركزية في دلهي، وقضى عليها في نهاية القرن الرابع عشر على أثر الخراب والتدمير الذي أشاعته في البلاد غزوة تيمورلنك.

وقد عاد تيمورلنك إلى سمرقند بعد أن تم له غزو الهند غير أنه تركها فوضى منقسمة على نفسها، تقوم فيها ولايات مستقلة في أحراش البنغال أو في سهول البنجاب الجافة، وفي مراعي الدكن وفي السهول الواقعة في أقصى الجنوب، بعضها يخضع أمير مسلم، وبعضها يخضع أمير هندي.

ولم تقم سلطة مركزية في الهند لمدة قرن ونصف من الزمان إلى أن جاءت إليها موجة جديدة من المغول وهم سلالة من سلالات تيمورلنك – وبعد أن قاموا بمغامرات متنوعة بدأوا في عام ١٥٥٦ – ١٦٠٥ – وهو من أعظم المعاصرين للملكة اليصابات في انجلترا – ونجح في توطيدأركان حكم متين بقى قائما حتى أفلت زمامه تدريجياً إلى أيدي البريطانيين وقد نجح خطوة خطوة في غعادة تنظيم البلاد الهندية شمال نطاق الغابات على أسس اقتصادية سليمة –أصبح مما قامت عليه الحياة من قبل. ولكن نجاحه كان محدوداً في الميادين الأخرى والسر في قوته يرجع إلى أنه استطاع على الرغم من أنه مسلم أن يوحد تحت لوائه جماعات الهندوس الفتية القاطنة في البلاد الوعرة الواقعة في الشمال وفي الغرب، وأن يكبح جماح العناصر الأخرى التي تعمل على التفرقة والانقسام وبعد خمسين عاماً اعتلى العرش حفيده أورانجزيب وطال عهده حتى بلغ خمسين عاماً حالفة النجاح خلالها في إخضاع جنوب الهند لسلطانه وامتد نفوذه فعلا إلى مساحات من الهند لم يصل إليها خلفاؤه من بعده. غير أن التاريخ يعيد نفسه إذ عاودت الفوارق والخلافات الظهور على المسرح. وفي عام ١٧٣٩ اجتاحت الهند جحافل جديدة دخلتها من الشمال ووطئت بأقدامها السهول الشمالية وقضت على الحكومة المركزية وعاثت في الأرض سلباً ونهباً.

وفي هذه الأثناء قويت شوكة المستعمرين الأوروبيين الذين جاءوا إلى الهند من وراء البحار. وقد حل الفرنسيون والبريطانيون محل البرتغاليين والهولانديين وبدأ البريطانيون عندئذ يسيطرون على الولايات المتنازعة

ليجعلوا منها دولة الهند الموحدة – ولما كان يجيئون إلى الهند من وراء البحار مسخرين الرياح الموسمية الصيفية لتدفع بسفنهم الشراعية، كان من الطبيعي أن يصلوا إلى البلاد من جنوبها وجنوبها الشرقي فجاءوا أولاً إلى السهول الكارناتية وسهول البنغال وهي أبعد ما تكون عن مصادر الاضطراب في الشمال الغربي ومراكز الحكم الشمالية. فاتخذ الحكم البريطاني قواعده في كلكتا ومدارس. وانتشر منهما نحو الشمال الغربي عبر السهول ونحو الغرب خلال هضبة الدكن. كما وصل البريطانيون إلى الهند من غربها أيضاً حين جاءوا إليها في أول الأمر وهم يلتزمون السير بحذاء السواحل الأفريقية. ثم طرقوا الباب الغربي مرة أخرى بعد افتتاح قناة السويس فدخلوها عن طريق ميناء سوارت وهو أقدم المحطات البريطانية في الهند وعن طريق بومباي وهي أقدم الممتلكات البريطانية فيها.



الخريطة رقم ٦٣

الرياح الموسمية في هبوبها على الهند

(أ) طريق البرتغاليين الذي يحتضن ساحل أفريقيا الشرقي

(ب) طريق البريطانيين الشراعي وهو يؤدي أولا إلى كلكتا

(ج) الخط الشمالي الذي تتبعه البواخر في السفر إلى بمباي



الخريطة رقم ٦٤

موقع مدارس

وظلت بومباي أجلا طويلا وهي تقل أهمية عن مدارس وكلكتا ولكنها اليوم تفوق مدارس وتساوي كلكتا في عدد السكان. وقبل افتتاحقناة السويس كان هذا المنفذ إلى الهند أقل أثراً من غيره من المنافذ حتى أنه في غضون الفوضى التي تبعت انهيار الحكم المغولي أخذ البريطانيون في إعادة تنظيم البلاد تحت سلطانهم واتخذوا من كلكتا ومدراس مراكز لإدارة شئون البلاد أكثر من اعتمادهم على بومباي. فتهيأت الفرصة للاتحادات الوطنية أن تنمو وتتشكل في الأقاليم الغربية والشمالية الغربية البعيدة، فنشأت ولايات المهراتا في الهضبة الجافة إلى الشرق من بومباي وولايات السيخ في أراضي البنجاب الجافة.

ولولا تدخل البريطانيين في المسرح الهندي لكان من الجائز أن تنهض ولاية أو أخرى من هذه الولايات وتحاول فرض سلطاتها على الهند بأسرها.

وعلى أية حال، كانت هذه الاتحادات هي اللقمة العسيرة التي واجهها البريطانيون وتطلب إخضاعها قوة وكفاية أكثر مما تتطلبه إخضاع غيرها من الولايات.

ولما كانت البنجاب بعيدة عن المنافذ البحرية البريطانية أي كلكتا ومدارس استغرق البريطانيون أكثر من نصف قرن لوضعها تحت الحكم البريطاني المباشر. ومنذ ذلك العهد كثيراً ما ضم البريطانيون مساحات إلى حكمهم إما بسبب فساد الحكم الوطني وإما بسبب عدم وجود من يرث الحكم المطلق في هذه الولايات – غير أنهم لم يستخدموا القوة العسكرية قط في توسيع رقعة سلطانهم إلى الأقاليم المختلفة.

هذه هي الهند. أغلب أجزائها خاضع للحكم الأجنبي كما كان الشأن دائماً في أية مساحة هندية كبيرة. تدار شئونها من كلكتا لأنها المنفذ إلى السهل من المحيط وستصبح دلهي في مستقبل الأيام عاصمة البلاد لأنها الوحيدة من بين المدن الهندية التي تستطيع أن تدعي بحق أنها كانت مركز الحكم وتدار منها دقة البلاد. والجزء الباقي من الهند ولايات وطنية وإن كانت لا ترجع في تاريخها إلى عهد أقدم من الحكم البريطاني في الهند وأغلبها يحكمه حكما مطلقا أمراء وراجات أجانب عن رعاياهم كأي حاكم بريطاني – والهند تعول عدداً عظيما من السكان الذين يعتمدون في سد حاجاتهم الحيوية على الطاقة المكتسبة من منتجات أرضها بفضل حرارتها

ورطوبتها – إلا أنها لم تكن قادرة على أن تحكم نفسها بنفسها أو أن تقوم بها حكومة منظمة دائمة(٣٠).

وقد ساد فيها الأمن الداخلي، وتحرص الحكومة فيها على عدم تسرب ما تختزنه البلاد من طاقة أكثر من أي عهد مضى منذ انتهاء عهد الفوضى ومنذ أن أغلق المنفذ الشمالي الغربي في وجه أي خطر قد يأتي من أفغانستان أو ما وراءها ويهدف إلى إشاعة الاضطراب فيها أو يبغى السيطرة عليها وقد تم تحصين هذا المدخل تحصيناً قوياً لأن الوصول إليه أصبح ميسوراً لا من كلكتا فحسب بل وبطريق السكك الحديدية الممتدة على طول وادي السند.

لقد أصابت الهند رقياً ونجاحا رغم أن الحكام البريطانيين يعيشون فيها كحكام فقط ولا يفكرون قط في الاستقرار بها بسبب اختلاف ظروف الحياة فيها عنها في بريطانيا. عاشوا وكأنهم ينفون أنفسهم زمنا ثم يعودون إلى أوطانهم إذا ما انتهت مهامهم – ولكن لا يقر قرارهم في دلهي كما قر قرار الغزاة المسلمون، وإذا استقروا فلابد أن تمتصهم جموع الشعوب الهندية كما تمثلت غيرهم من المهاجرين –أضف إلى ذلك أنه على الرغم من أن الشوب الرعوية الضاربة في السهل الأعم فيما وراء أفغانستان قد نظمت وتمدنت حقاً، إلا أن الطريق إلى الهند لا يزال مؤديا إليها كما كان دائما ولن يستطيع أحد أن يتنبأ أيها أشد خطراً. هجوم منظم أم غزو تقوم به جماعات لا تربطها ببعضها سوى روابط واهية.

---

(٦) هذه هي أفكار الإنجليز قبل أن يتحقق للهند استقلالها. المترجم

وعلى كل فالعوامل الجغرافية مازالت باقية – والهند شبه جزيرة أشبه بقارة في حد ذاتها وهي ذات مناخ حار مطير – ولا تزال معرضة للغزو من البحر ومن الشمال الغربي – يأتي إليها الأوروبيون من وراء البحار وهم الذين ترعوا في البلاد الشمالية وواجهوا ظروفها الجغرافية القاسية المنوعة – وقد عرفوا كيف يحلون مشكلات أشد تعقيداً مما يقابله الهنود. وعرفوا أيضاً كيف يأتون إلى الهند وكيف يحكمونها ولكنهم لا يألفون أساليب الحياة فيها، بينما الأهالي في الهند قادرون على الحصول على الكافة الجسمانية بسهولة ويزدادون عدداً كل يوم ويجدون الحياة في أوطانهم سهلة تخلو من حافز يدفعهم إلى التحكم في الطاقة واقتصادها على نطاق واسع – وهكذا نجد الأوروبي راغباً عن الاستقرار في الهند ونجد الهندي عاجزاً للآن عن أن يحكم البلاد بنجاح كما يحكمها الأوروبي(٣١).

---

(٧) لقد أثبت الاستقلال عدم صحة ذلك الإدعاء. المترجم

الفصل الخامس عشر

المراعي الأفريقية ـ مناطق النفوذ

أراضي السفانا الأفريقية

لقد اتضح الآن كيف كانت العوامل الجغرافية تتحكم في مجري تاريخ أوروبا وآسيا بوجه عام، وعرفنا بوجه خاص كيف نشأت ثلاثة ألوان من الحضارة على هامش السهل الأعظم – وفي سياق هذه القصة لم تتناول من أفريقيا إلا نطاقا ضيقا يمتد على طول ساحل البحر المتوسط، ولم يكن ثمة داع لذكر شيء عن باقي القارة إلا بالقدر الذي لزم لبيان كيف أن كشف الطريق البحري إلى جزائر الهند حول رأس الرجاء الصالح، كان حدثا بارزا من أحداث التاريخ.

وهنا نجد مجموعة من الحقائق الواضحة تبدو عجيبة شاذة عن المألوف، فبينما يبدأ التاريخ في مصر(٣٢) ويتخذ من شواطئ أفريقيا

---

(١) يجب ألا ينسى القارئ أن الإنسان قد استغرق آلافا من السنين قبل– بدء التاريخ المصري– وهو يتقدم في معرفة كيفية استخدام الطاقة واقتصادها خلال الظروف المختلفة التي تهيأت للحياة البشرية على ظهر الأرض، فقد بذلت محاولات عدة ليكون المؤرخون فكرة عن الزمن الذي استغرقه الإنسان في التدرج في مشقة في سلم الحضارة شيئاً فشيئاً ويختلف تقدير طول هذه الفترة بين عشرات الآلاف من الأعوام إلى مئات الآلاف.

وكيفما كان الأمر فإن معلوماتنا عنها قليلة لا تعدو أن تكون فروضاً لا تحتمل المناقشة، والواقع أن نمو الحضارة في مصر لهو فصل بارز يبدأ به تاريخ الإنسان.

الشمالية مسرحا لكثير من الأحداث نرى أن باقي القارة يظل مجهولا للعالم المتحضر حتى خمسة القرون الأخيرة وليس هذا فحسب، بل أنه على الرغم من أن الطريق إلى الهند حول شاطئ أفريقيا قد اكتشف قبل أن يعبر كولمبس بسفنه المحيط الأطلسي، إلا أن أفريقيا بقيت القارة المظلمة حتى النصف الأخير من القرن الماضي – هذا في الوقت الذي افتتح فيه البرتغاليون والأسبان الأمريكتين وأصبحت أمريكا الشمالية مقرا لمدنية عظيمة تناظر لدرجة كبيرة مدنية أوروبا.

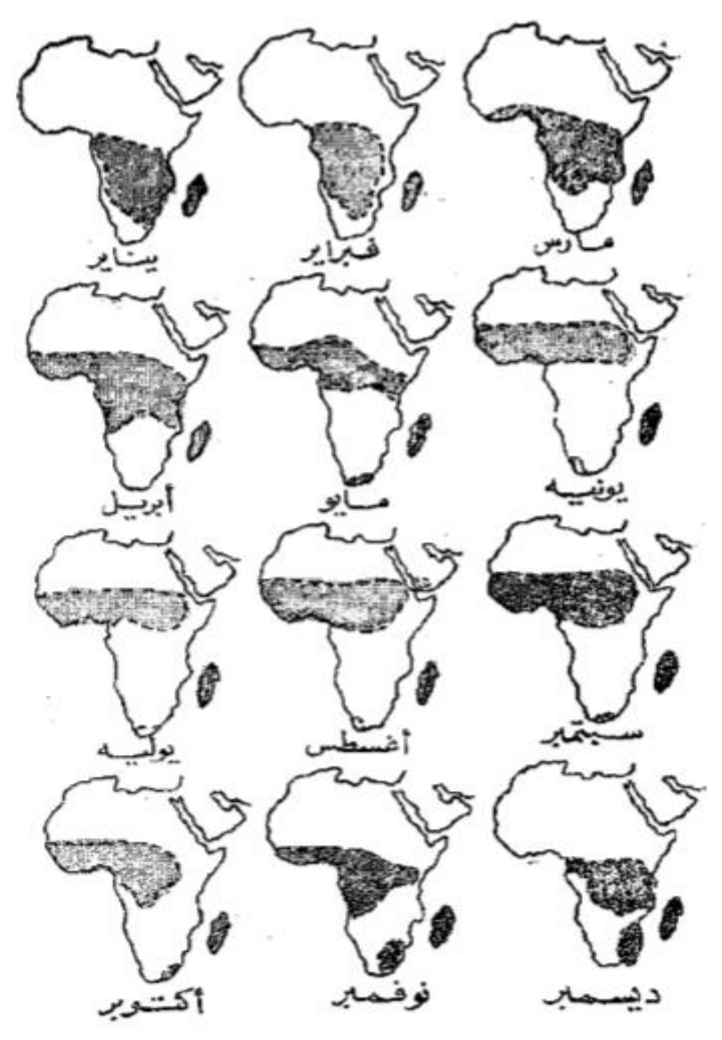
لقد تكلمنا في الفصل الثاني عن انعدام الحافز الذي يدفع الأجناس التوطنة في أفريقيا الاستوائية لأن تستغل مواردها الطبيعية ولأن تقتصد في الطاقة المتوفرة لديها ولنزد الآن هذه الحقائق تفصيلا ولنر أن كانت تفتح لنا مغاليق هذا التاريخ غير العادي.

تظهر خرائط التضاريس أن أفريقيا في عمومها هضبة ترتفع كثيراً فوق مستوى البحر وأن حافاتها انحداراً فجائياً إلى أعماق بحرية سحيقة – وتظهر خرائط توزيع الحرارة طول العام أنها تخلو من وجود أي جزء فيها في مستوى سطح البحر ذي مناخ بارد على مدار السنة – وجل أراضيها في معظم فصول العام ذات مناخ دافئ، بل ومساحات كبيرة منها حارة، وعلى أي الأحوال فإن منطقة الحرارة الشديدة فيها ليست ثابتة دائماً، بل أنها تتأرجح تأرجحاً يتفق وحركة الشمس الظاهرية إلى شمال خط الاستواء وإلى جنوبه فلو أن حزمة معينة من أشعة الشمس سلطت عمودية على سطح من اليابس لانتشرت الحرارة الناتجة عنها في مساحة نقل عما لو

سقطت هذه الحزمة بعينها على هذا السطح وهو في أي زاوية كانت، وبعبارة أخرى تزيد كمية الحرارة التي تستقبلها مساحة من اليابس لو أسقطت عليها أشعة الشمس عمودية عما لو استقبلتها وهي في أية زاوية أخرى، ولهذا تضافرت الأسباب التي تجعل الجزء الشمالي من أفريقيا أشد حرارة من جنوبها فإن أعلى درجات الحرارة موجودة في الشمال، لأن أراضي شمال أفريقيا أقل ارتفاعاً في المتوسط ولأن كمية اليابس في الشمال أكثر اتساعاً فلا تقتصر في امتدادها على قارة أفريقيا وحدها بل تتعداها إلى ما وراء شمالها وشمالها الشرقي وبطبيعة الحال يرتبط بهذا التأرجح في نطاق الحرارة الشديدة تأرجح آخر واضح العالم في مناطق المطر إلى الشمال وإلى الجنوب حسب ما تظهره الخرائط المرافقة.

والمطر يحدث عادة بسبب برودة الهواء الذي يضطر إلى الارتفاع إلى طبقات جوية عالية فينتشر ويتمدد وبهذا تقل درجة حرارته، وقد يحدث ارتفاع الهواء نتيجة اعتراض عقبات أرضية في الطريق كسفوح الجبال مثلا فيتحتم على الهواء عندئذ ارتقاء هذه العقبات، ولهذا كانت الحافة الغربية لهضبة الدكن غزيرة الأمطار في الصيف لأن الرياح الجنوبية الغربية في هبوبها عليها تضطر إلى الارتفاع فتبرد بتمددها – كذلك الأمر في بريطانيا فإن مرتفعاتها الغربية غزيرة الأمطار إذ تواجه الرياح العكسية بينما تقع بعض مرتفعات بريطانيا الأخرى إلى الشرق من هذه وتوازيها ارتفاعاً إلا أ"نها تقل عنها رطوبة وتزداد جفافا. وما ذلك إلا لأنه ليس هناك ما يوجب ارتفاع الرياح ارتفاعاً جديداً فوق هذه المرتفعات، وعلى أية حال ليس اليابس وحده هو السبب في ارتفاع الهواء، فلو اندفع تيار من الهواء الثقيل

تحت آخر خفيف لسبب هذا الاندفاع ارتفاع التيار الأخير الذي يبرد بدوره من جراء هذه الحركة، هذا التداخل في التيارات هو السبب الوحيد الذي يفسر سقوط الأمطار فوق المحيطات أو فوق الأراضي المسطحة التي لا يضطر الهواء في هبوبه عليها إلى الارتفاع فوقها – وقد يكون أيضاً عاملا مساعداً في سقوط الأمطار فوق المنحدرات، وكيفما كان الوضع، فقد يكون هذا علة سقوط الأمطار على نحو ما فوق الأجزاء الحارة من قارة أفريقيا، فإن الهواء في المنطقة الاستوائية لا يلبث أن ترتفع درجة حرارته فتهب على المنطقة من الشمال ومن الجنوب رياح أقل حرارة وتأخذ طريقها تحت ذلك الهواء الساخن ويميل هذه التيارات لأن تحتفظ باتجاهاتها الأصلية في الفضاء ومن ثم تنحرف فتأخذ اتجاهاً شرقياً بعض الشيء – ومما لا شك فيه أن الظروف الجغرافية ليست بهذه البساطة التي نذكرها الآن، فمن ناحية هناك من الشواهد ما يدل على أن الهواء في المناطق الاستوائية يرتفع وينخفض في شرائح رقيقة أكثر منه كتل كبيرة، ومن ناحية أخرى تدل الأبحاث التي أجربت في الطبقات العليا على أن كثيراً من الآراء والمعتقدات التي تبحث في علاقة الضغط بالرياح والأمطار والتي بنيت على معلومات مستقاة من محطات الأرصاد المبثوثة على سطح الأرض، كلها في حاجة إلى المراجعة والتمحيص على ضوء المعلومات الجديدة التي هي أكمل وأدق.



الخريطة رقم ٦٥

توزيع المطر في أفريقيا طوال العام

تبين المساحة المظللة الأماكن التي يزيد معدل سقوط المطر فيها على ٤ بوصات وهي تتأرجح إلى الشمال في الصيف الشمالي وإلى الجنوب في الصيف الجنوبي

ومهما كان سبب هذا الاختلاف فليس هناك من شك في أن تأرجحاً يحدث في مناطق المطر والجفاف أي في المناطق المناخية، يدفع بها إلي الشمال وإلى الجنوب وينتج عن ذلك وجود سبعة أقاليم مناخية على امتداد الشاطئ الغربي لأفريقيا، فهناك شريط ضيق على طول سواحل البحر المتوسط يمتاز معظم المطر شتاء، وتليه منطقة أكثر اتساعاً هي الصحراء الكبرى حيث يندر سقوط المطر وهي تمتد شرقاً وغرباً عبر القارة وتتخذ من مدار السرطان محوراً لها، ثم تليها منطقة المناخ السوداني وهي أضيق عرضا وتمتاز بصيف مطير وشتاء جاف –ثم الأقاليم الاستوائية بمطرها الدائم الذي يبلغ أقصاه عندما تبلغ الشمس سمت السماء في منتصف النهار – ثم تتكرر هذه المناطق في جنوب خط الاستواء – غير أنه يجب ألا يغيب عن الذهن أن الصيف في الشمال يقابله شتاء في النصف الجنوبي من القارة وأن هذه المناطق في الجنوب تشغل حيزاً من خطوط الطول أقل مما تشغله في الشمال لأن مساحة اليابس أقل اتساعا ولأن محيطاً يقع إلى الشرق منها. وعلى أية حال فإن لفظي "شتاء" "ومنطقة" في هذا الصدد قد يؤديان إلى الخطأ فإن المساحة في الجنوب أي صحراء كلها ري تصيب من الأمطار نصيباً أوفر مما تصيبه الصحراء الكبرى – وأن المساحة التي تسقط عليها أمطار "الشتاء" في الجنوب أن هي إلا إقليم صغير يقع في أقصى الجنوب الغربي. أما في شرق القارة إلى الشمال من خط الاستواء فات الكتلة اليابسة الكبرى التي تمتد إلى الشرق منها ذات أثر بالغ حتى أن مناطق الشاطئ الغربي تمتد مميزاتها عبر القارة

الأفريقية – أما في جنوب خط الاستواء فإن الساحل الشرقي يستمتع بقسط وفير من المطر الصيفي.

والأثر الذي يتركه هذا التوزيع للمطر هو أثر يلفت النظر حقاً، فقد نمت غابات كثيفة على جانبي خط الاستواء من جراء اجتماع الأمطار الغزيرة إلى الحرارة الشديدة – وتشغل هذه الغابات جزءاً عظيما من حوض الكنغو وشواطئ خليج غانة – كما امتدت غابات مشابهة لها وإن قلت عنها كثافة على طول سواحل المحيط الهندي من جزيرة زنزبار جنوباً – هذا وتمتد الصحراء الكبرى حيثما تنذر الأمطار حتى يصبح سقوطها أمراً شاذاً.

أما فيما عدا ذلك فتمتد مناطق شاسعة من الأعشاب بسبب انعدام الأمطار في بعض فصول السنة وهي تتدرج من مناطق المراعي الجيدة في بعض أجزائها إلى أن تصبح قفراً ببابا في بعض أجزائها – هذه البقاع الشاسعة بطبيعتها توفر الغذاء لآكلة العشب من الحيوانات، أو على الأخص الماشية والغزلان من جميع الأنواع وهي حيوانات تتحمل درجات عالية من الحرارة – وتمتد هذه الأراضي المشبية من السودان الغربي في الشمال على طول القارة الأفريقية جنوباً حتى تقترب من رأس الرجاء الصالح وتشغل معظم القارة تقريباً جنوبي الغابات الاستوائية.

هذه هي العوامل الجغرافية الكبرى التي شملت بتأثيرها الإنسان سواء كان متحضراً أم أخذ في التحضر أم همجياً متأخراً وليست الغابات

الاستوائية العظمى بالمكان الذي يصلح لنمو الحضارة أو المدنية، ويجب أن نذكر أن الغابات تعوق حركات الجماعات المنظمة من البشر سواء جاؤا إليها حرباً أم سلماً.

وقد رأينا كيف عرف الإنسان في مصر وسائل التحكم في الطاقة وتسخيرها على نطاق واسع لتحقيق أغراضه، لأن مصر احتمت بصحرائها الممتدة على كلا جانبي واديها واستمتعت بنهر له موردان من الماء، أحدهما من المنطقة الاستوائية ذات المطر الدائم والآخر من هضبة الحبشة بأمطارها الصيفية – وقد استطاعت الجماعات البشرية الأفريقية أن تسرح في طول القارة وعرضها وأن تجوب المساحات الشاسعة من الأراضي العشبية المسطحة، كما تجولت جماعات الرعاة في مناطق الاستيس في أوروبا وأسيا.

ولابد أن تؤدي الظروف المتشابهة إلى ظاهرات متشابهة، كما يؤدي اختلافها إلى فروق جوهرية. فليس في أفريقيا مكان واحد يشتد فيه البرد حتى يحتاج الإنسان إلى إعداد خاص لمقاومته. فالملابس مثلا ضرورة من ضرورات الحياة السكان مراعي الاستبس ولا غنى لهم عنها، إلا أنها ليست ضرورة أساسية لسكان المراعي الأفريقية فتقل بالتالي حاجتهم إلى اقتصاد واستغلالها – هذا وأن أراضي المراعي الأفريقية باستثناء المناطق التي تحف بالصحراء ليست في جفافها كمراعي الاستيس الأسيوية –وهي ليست متكتلة في مساحات واسعة يمثلها ويتبع لك نتيجتان:

الأولى:إمكان زراعة هذه الأراضي فنقل حاجة الأهالي إلى مزاولة حياة رعوية خالصة.

والثانية: أن جماعاة الرعاة الخلص أميل إلى التحكم في الجماعات الزراعية كما تحكمت قبائل العرب الرحل في سكان الواحات وكما سيطر رعاة آسيا الوسطى على فلاحي الأراضي التي تحف بمراعيهم حتى بضعة قرون مضت – وليس ثمة حاجة تدعوهم لأن يكونوا أهل جد ونشاط، أهل سمى ودأب. بل أن الاحتمال يزيد حتى يصل إلى درجة اليقين بأن القبائل الرعوية القوية تعمد بسبب جهالتها وهمجيتها وبحكم أنها أقل مدنية – إلى منع الجماعات التي تقع سلطانها من أنر تربي في نفوس أفرادها عادات استغلال الطاقة واقتصادها.

والواقع أن تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى – هذا أن قيل أن لهذا الجزء تاريخ ما – هذا التاريخ في الحقيقة أن هو إلا قصة تروي انتقال القبائل الرعوية المختلفة في حركاتها البطيئة فوق الأراضي العشبية، تستقر حيناً من الدهر في بقاع خاصة وتتخذ الزراعة الخفيفة حرفة لها وتكون لها قوة عسكرية تمكنها من فرض الجزية وجبايتها من القبائل الخاضعة لها، وقد تتهيأ لها الفرصة فتعمل على إبادتها وفنائها ولكن هذه القبائل في عمومها لم تنجح قط في تأسيس دولة يمكن أن نصفها بالتحضر. ومع ذلك فقيام الحضارات العريقة في الشمال واتصال الشعوب بهذه المدنيات وعلى الأخص بالشعوب القاطنة على شاطئ البحر الأحمر – كان له دائماً فيما يبدو بعض الأثر، لأن حركات هذه القبائل الرعوية على بطئها كان

مصدرها الأول في جميع الأحوال تقريباً الجزء الشمالي الشرقي من القارة أي الأراضي التي تتصل اتصالا مباشراً بالمدنيات الشمالية واتخذت هذه الحركات طريقين رئيسيين لها: الأول غربا خلال إقليم السودان والثاني جنوبا عبر الهضبة العالية وكانت الأقوام المهاجرة تسوق أمامها السكان القدامى في تلك البقاع كالبشمن والهوتنتوت وتدفع بهم جنوبا نحو منطقة رأس الرجاء الصالح وإلى داخل الغابات حيث وجدهم الأوروبيون أخيراً وقد سميت بأسمائهم الأقاليم التي سكنوها – فقد هاجرت شعوب الزولو والمتابلي والمشوتا والمساي جميعاً نحو الجنوب في خلال الألف سنة الماضية تقريباً وسكنوا الأقاليم التي تسمى بأسمائهم الآن.

غير أن الظروف الجغرافية في السودان تختلف بعض الاختلاف لأن السكان هنا أكثر اتصالا وتأثيرا بسكان الشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط وقد سلك هؤلاء دروب الصحراء في جماعات صغيرة العدد سواء كان ذلك قبل انتشار الإسلام أو بعده كما اختلطوا بالزنوج من السكان ونقلوا إليهم الأفكار عن استغلال الطاقة وتوفيرها بوسائل مختلفة، وزرعوا القطن في البلاد الرطبة التي تشبه البساتين في نباتاتها واستعملوا النيلة في صباغته، كما بنيت فيها المساكن الحجرية والمدن المسورة التي تضم آلافا من السكان. وهنا نجح المولدون من سلالات العناصر الشمالية المهاجرة في تأسيس دول عمرت قروناً أحياناً – وهذا هو أكثر ما يمكن أن يقال عن تاريخ أفريقيا. وكان هذا الطراز من الحضارة في أحسن صورة أقل نجاحا بالطبع من الحضارة الشمالية التي أوحت به – وعلى الشاطئ الشرقي

كان نفوذ العرب محسوساً في العصور التاريخية فقامت دول ولكنها لم توجه همها إلى استغلال الطاقة بقدر ما وجهته إلى الإسراف في استعمالها.

وقد حدث أن هاجر القبائل – بعد أن تأثرت بالحضارات الشمالية – إلى داخل الغابات لعلها واجدة لها ملجأ تلوذ به واستقرت في مواضع لم تبلغ بها الأشجار حداً من الكثافة يقتل النشاط الذهني وإن كفلت لها في الوقت عينة قدراً من الحماية يحول دون وصول القبائل الرعوية إليها ثم أخذت في تنمية وسائلها الخاصة في الحياة، بيد أن هذه لم تكن إلا حالات شاذة – وفي أغلب الأحيان لم تصب القبائل الأفريقية تقدما يذكر.

من هذا يتضح جلياً أن العناصر الوطنية في أفريقيا لا ينتظر منها شيء كبير، بل ينبغي أن ندرك لماذا بقيت أفريقيا كل هذه الأحقاب الطويلة وهي قارة مجهولة من العالم المتحضر، وقد كانت العلة مزدوجة، فهناك عقبات إيجابية من ناحية وقفت في سبيل كشفها وحالت دون الاستقرار فيها، وافتقرت من ناحية أخرى إلى الأغراء الذي يجتذب إليها الأقوام المتحضرة، أما العقبات فهي واضحة فإن القادم إليها من البحر يقابل على طول الشواطئ الغربية الصحاري الجرداء والغابات الكثيفة ابتداء من مراكش حتى جنوب نهر الكنغو فيما عدا الجزء الذي يصل إليه المناخ السوداني في سنغمبيا. وهنا فعلا بذلت محاولات في أزمنة مبكرة للاستقرار – أما إلى جنوب الكنغو فيحف بالشاطئ أشد أجزاء صحراء كلهاري جدبا وجفافا، وعلى العكس من ذلك تمتد على الشاطئ الشرقي بلاد تكسوها الغابات، فكان المكشوف يأتون إلى أفريقيا من وراء البحار

في قواربهم باحثين عن مصبات الأنهار على أمل أن يجدوا لهم منفذا إلى داخل القارة، غير أن أفريقيا تحيط بها مياه عميقة تتأثر تأثراً طفيفاً بموجات المد والجزر، وحيث تكثر الأمطار تجد الأنهار تقذف إلى البحر بمياهها ورواسبها مكونة دالات يصعب اختراقها، والأنهار ذاتها لا تصلح في أغب أجزائها للملاحة فهي إما سيول جارفة وإما سلاسل من العيون والآبار هذا باستثناء منطقة المطر الدائم، وحتى إن صلحت الأنهار للملاحة فهي لا تصل إلى دالاتها إلا بعد أن تنحدر من هضابها الداخلية فوق شلالات ومساقط متعددة، والأراضي في ذاتها شديدة الحرارة موبوءة بالحمى في كثير من بقاعها، بيئة لا يألفها الجنس الأبيض ولا تشبه مواطنه ولا تروقه سكناها، بل ولا يساوره أي حافز يغريه بارتياد مجاهلها، فقد خلت أفريقيا من أساطير الذهب المخزون والثروة والتوابل كالهند مثلا – فمر الناس بهذه الشواطئ المقفرة المنفرة وتابعوا رحلاتهم إلى الأراضي التي اشتهرت بثرواتها.

ومع هذا فقد تحكمت الظروف الجغرافية حتى في تقدم الإنسان الأبيض إلى مجاهلها، فحددت له أماكن لاستقراره دون غيرها وامتدت مستعمراته في بعض الاتجاهات دون غيرها، وتراوحت الأسباب التي دعت إلى هذا الاستقرار فكان بعضها محليا وبعضها متصل بطبائع بلاد أخرى، فقد نشأت مستعمرات في أول الأمر بالقرب من السنغال وغمبيا لأن الإنسان الأبيض بكر في الوصول إليهما ولأنهما بأحوالهما الجغرافية أكثر ملاءمة لسكناه بوقوعهما بين الصحراء والغابات كذلك كان الأمر على

الشاطئ الجنوبي عند ساحل أنجولا، فقد بكر البرتغاليون في احتلاله حيث أنه شبيه بمنطقة غمبيا والسنغال.

أما في منطقة الرأس فبدت خالية من المميزات التي تغري بسكناها وخلت من التوابل والبهارات، ومن الكنوز ومن الرقيق، قليلة الخيرات لمن يسكنها ولهذا فضل البرتغاليون احتلال الشواطئ التي تقع إلى الشمال الشرقي، وتزيد قربا من الهند، وهي الغاية الأسمى التي كان يستهدفها الرحالة البرتغاليون، وهكذا تركت منطقة الرأس لقمة سائغة للاستعمار الهولندي.

ثم انتقل زمام الأمر إلى بريطانيا في بداية القرن التاسع عشر حين خضعت كل أوروبا تحت أقدام نابليون إذ وجدت بريطانيا أن الضرورة تحتم عليها أن تستولي وتحافظ على المناطق المتطرفة التي قد يستخدمها الفرنسيون كقواعد للهجوم، وأدرك البريطانيون أن منطقة الرأس لا تختلف كثير في مناخها عن بريطانيا كما أنها أفضل المحطات ملاءمة في الطريق الذي يتبعه البريطانيون إلى الهند، وهو يختلف عن الطريق البرتغالي الذي كان يسير محاذياً للساحل الأفريقي كلما أمكن، هذا لأن البريطانيين بينهم وبين البحر ود متصل فكانوا يطلقون لسفنهم العنان مطمئنين إلى الرياح الغربية والتجارية، ولم يضيعوا الوقت سدى في محاولات للإبحار عكس اتجاهات الرياح بل عمدوا على الإفادة منها ما أمكنهم واتخذوا الاتجاه المبين في الخريطة في صفحة ٢٣٦ والذي لم يقترب بهم من اليابس إلا عند جنوب أفريقيا. وهكذا تضامنت الجغرافيا والتاريخ في هذه الحالة كما

تضامنتا دائما في توجيه اختيار الإنسان لأماكن استقراره وسكناه —وكل تقدم بلى ذلك تتحكم فيه الظروف القائمة وما يسبقها من أحداث — فإن تدهور البرتغال من منزلتها كدولة عظمى ساعد على الحيلولة دون نمو المستعمرات البرتغالية، كما أن شرق أفريقيا البرتغالي بساحله الموبوء بطبيعته تحف به كما رأينا الغابات الرطبة ولم يغر بالتوسع في الاستعمار، وتقدم الفرنسيون من السنغال شرق حتى وصلوا إلى أعالي النيجر فسيطروا على إقليم متكتل ساعد على تماسك ممتلكاتهم في شمال أفريقيا. غير أن أنجح أنواع التقدم هو ما تم على أيدي الإنجليز مبتدئين من مدينة الرأس نحو الشمال فوق أعلى أجزاء الهضبة الأفريقية ارتفاعا وأكثرها اعتدالا في المناخ وأسهلها اختراقا، فهي بهذه الصفات أكثر أجزاء القارة الأفريقية ملاءمة لسكني أناس ألفوا مثل هذه الظروف كما ألفوها في أوروبا. هكذا نرى أن البرتغاليين لم ينزلوا إلى البر قط في منطقة الرأس بينما احتفظ بها الهولنديون كمحطة في طريقهم إلى الهند، حيث الحصول على الثروة أمر ميسور، وهم الذين اشتهروا بحرصهم على جمع المال، ولم نتملكهم غريزة الاستعمار ولأن الوطن الهولندي في حاجة إلى أيدي أبنائه، ومن جاء منهم فعلا إلى منطقة الرأس كان يتطلع دائما إلى العودة إلى الوطن. غير أن البريطانيين كانوا أوسع منهم أفقا، وفقد بنوا المستعمرات من بادئ الأمر ثم توسعوا فيها فاصطدموا بالأهالي من الوطنيين من البوشمن ثم اتصلوا بالأجناس التي جاءت إلى الجنوب أخيرا كشعوب الزولو والمتابلي وأجبروهم على الحياة في هدوء وسكينة، وأخيرا أخضعوا أحفاد العناصر الهولندية الأصلية، وأجبروهم على طاعة حكومة واحدة، وهم الذين كانوا هاجروا

إلى الشمال كلما تقدم البريطانيون لأنهم لم يألفوا الخضوع لحكومة مركزية، وأخذ الحلم البريطاني بامتداد السيطرة البريطانية من شمال القارة إلى جنوبها يقترب من التحقيق تدريجا كلما اتسع نفوذهم وشمل أراضي تلائم في كثير أو قليل سكني الجنس الأبيض –وحدث مرة أن قوبل هذا التوسع بتحدي من جانب فرنسا عندما حاولت تحقيق حلمها في بناء إمبراطورية تمتد بعرض القارة – حتى حلت الأزمة في فاشودة والأحرى أن نقول أن حلها قد تقرر في بحر المانش حيث السيادة معقودة للأسطول البريطاني –فتقرر حينئذ أن تبقى مياه النيل تحت سلطة واحدة سواء كان الوصول إليها من الإسكندرية أم من الشاطئ الشرقي – ثم واجه النفوذ الإنجليزي تحديا جديدا فقد بذلت ألمانيا لفترة من الزمان محاولة جديدة لامتلاك جزء من المستعمرات الأفريقية ووصلت إليها من الساحل الشرقي بموازاة الممتلكات البلجيكية، وهكذا انفصلت المستعمرات البريطانية في الجنوب عن تلك التي تقع في الشمال، غير أن هذا الفصل لم يقض على فكرة ربط القاهرة بمدينة الرأس بخط حديدي يمر فوق الهضبة، ولكن سيادة المحيطات وما تهيئه من حرية النقل فيما وراء المحيطات قررت مصير شرق أفريقيا ووضعته تحت السيطرة البريطانية.

أما على طول سواحل غينا فقد احتفظت دول مختلفة بقلاع وحصون ومحطات منذ عهد الاكتشافات الأولى، ولكنها جميعا لم تود إلى توغل ناجح للإنسان الأبيض والحضارة الحديثة إلى داخل القارة لأن العقبات الطبيعية على طول هذه السواحل وقفت عقبة كؤودا تحول دون توغلها كما امتدت الغابات وراءها كثيفة عسيرة الاختراق، وزاد الطين بلة

انتشار الحميات ووجود الأجناس المتأخرة ، فلم يتمكن الإنسان المتمدن من اختراق هذه الغابات إلا حديثا، وهكذا سيطر على مناطق الزنوج وقد وصل الأوروبيون إلى هذه المناطق بأقل الطرق الطبيعية عسرا أي عن طريق النهر العظيم الوحيد إلا وهو نهر النيجر، فتناولوه بالتهذيب والتنظيم وربطوا الداخل بالشاطئ بواسطة السكك الحديدية. وهكذا دخلت منطقة النيجر في الميدان العالمي كقطر ينتج القطن ويزود مصانع أوروبا بما تحتاج إليه من منتجاته بينما ظلت أقاليم الغابات في دلتاه مجهولة تقريبا.

كذلك اكتسبت أهميتها الأراضي الممتدة في جنوب خط الاستواء وهي التي تقابل الإقليم السوداني في السنغال والنيجر الأعلى والأوسط، وكلما مست يد التنظيم والاستغلال الأراضي الواقعة إلى الشمال من ساحل أفريقيا الجنوبي كلما وجد أنه من العبث والإسراف أن تظل المواصلات تعتمد على خط حديدي واحد يربطها جميعا بأقصى الجنوب، بينما الطريق إلى الهضبة من الشرق أيسر من الطريق إليها من الغرب حيث يفصلها عن الساحل الغربي صحراء كلها ري القفرة. لهذا أخت الموانئ التي تقع على الساحل الشرقي في شمال مدينة الرأس تزداد أهميتها بالتدريج وإن ازدادت بعداً عن أوروبا، وقد يأتي الوقت الذي يصبح فيه إقليم الزمبيزي الأعلى أوثق اتصالا بأوروبا من الشاطئ الغربي، الأمر الذي حاول البرتغاليون تحقيقه منذ قرون خلت.

هكذا نرى أن أفريقيا التي طالما اقتصرت سكناها على شعوب همجية متأخرة وظلت مجهولة زماناً طويلا بسبب ظروفها الجغرافية، نرى هذه القارة قسمت أخيراً بين الشعوب الراقية، وفاز بنصيب الأسد من كان له الكلمة

العليا في عملية التقسيم، بيد أنه لا تزال هناك العناصر الأصلية التي يشتغل أغلبها بالرعي ولا تزال أساليب حكمها مشكلة معقدة تنتظر الحل.

الفصل السادس عشر

العالم الجديد ـ تاريخه قبل كلومبس أمريكا الأسبانية

لقد قصرنا النظر حتى الآن قصرا يكاد يكون تاماً على دراسة العالم القديم وحده فرأينا كيف أن ثلاثة ألوان من الحضارة نشأت على الإطار الخارجي للسهل المتوسط الأعظم الذي أثر فيها جميعاً. وقد عرفنا أن أهل أوروبا اتصلوا اتصالا مباشراً بألوان الحضارة الأخرى أثناء محاولاتهم الحصول على قدر أعظم من الطاقة واستغلاله –ومن ثم جاء عرضاً كشفهم لأمريكا – وقد يتبادر إلى الذهن السؤال التالي وهو لماذا كان الأوروبيون أسبق في كشف أمريكا؟ وقبل أن يقوم الأمريكيون بكشف أوروبا. وقد نضع السؤال في صيغة أخرى فنقول –لماذا كان أهل أمريكا الوطنيون عازفين أو بالأخرى عاجزين عن التحكم في الطاقة خارج بلادهم؟

لو بحثنا الحقائق الجغرافية لتكلفت بالجواب عن هذا السؤال ولرأينا أن الظروف الجغرافية كانت ولا تزال تختلف اختلافاً بيناً بين القارتين ومن البديهي أن يختلف التاريخان.

فما هي إذن هذه الحقائق الجغرافية التي كان لها ذلك الأثر الهام؟ هناك حقيقة هامة إن لم تكن أهم الحقائق جميعاً، وهي واضحة كل الوضوح – تلك هي أن العالم الجديد أصغر حجماً من العالم القديم وبوجه خاص

فإن مساحات اليابس الواقعة في نطاق الصحراوات فيه هي مساحات صغيرة جداً.

والظروف السائدة هنا شبيهة بالظروف السائدة في أفريقيا الجنوبية لصغر مساحة اليابس في كليهما وعدم وجود أراض إلى الشرق منهما وبذا نقصت مساحة الأراضي الصحراوية فيهما ولم يوجد المهد الذي يصلح لإنماء حضارة عريقة إذ أن وجود الصحراوات في شمال العالم القديم التي تمت في أحضانها الحضارات العريقة مرجعة في بعض أسبابه وجود كتلة عظيمة متصلة من اليابس – ومن الطبيعي أن يكون قلب هذه المنطقة الكبيرة من اليابس أجف نسبياً من الحافات. وقد يكون بعض السبب راجعاً إلى وجود منطقة واسعة من اليابس في شمال أفريقيا واقعة في مهب الرياح التجارية وقد قدر لها موقعها الجغرافي أن يكون قلب آسيا اليابس إلى الشمال الشرقي منها.

وقد خلا العالم الجديد منه وجود كتلة عظيمة متصلة من اليابس يمكن أن يقارب حجمها بيابس العالم القديم ذلك أن كلتا المنطقتين اللتين تقعان في عروض الصحراوات تمتدان امتداداً على الشرق وإلى الغرب. فالمنطقة الشمالية تقع في أضيق جزء للقارة أما الجنوبية فتبلغ تقريباً نفس اتساع منطقة جنوب أفريقيا على نفس خط العرض، وأهم من ذلك كله عدم وجود اليابس إلى الشرق من المنطقتين، وبدلا من أن تكون الجهات الشرقية منهما جافة أصبحت في الواقع مطيرة رطبة لأنها تقع في مهب الرياح التجارية وتصطدم بها عند أول هبوبها على القارة.

وهكذا تصبح المناطق الجرداء حقاً، صغيرة، فالصحراء في أمريكا الجنوبية تشغل شريطاً ضيقاً على طول الساحل الغربي وكذلك الحال في أمريكا الشمالية وإن لم تكن المناطق الجافة بهذا الضيق في عرضها إلا أنها صغيرة نسبياً – وساعدت التضاريس في كلا الحالتين على تحديد مدى اتساع الصحراوات كما حدث من اتساع الأنواع الأحرى من الأقاليم الطبيعية.

والمظهر العالم لتضاريس اليابس في العالم الجديد بسيط جداً بوجه عام، إلا أننا لكي ندرك كيف تحكمت التضاريس لابد من أن نتناولها بالدراسة في شيء من التفصيل.

وفي كل من القارتين توجد ثلاثة مرتفعات عظمى تفصل بينها منخفضات، وتمتد سلسلة الكوردليرا بحذاء الساحل الغربي وهي أوسع عرضاً في أمريكا الشمالية وعلى الأخص في جزئها الأوسط وتزداد ضيقاً وارتفاعاً في أمريكا الجنوبية.

ويحدها في كلتا الحالتين سلاسل أكثر ارتفاعاً. وما جبال روكي سوى مجموعة السلاسل التي تحدد بوضوح الحافة الشرقية للجزء الأوسط المريض من جبال الكوردليرا في أمريكا الشمالية.

وتقع إلى الشق من الكوردليرا في كلتا القارتين مجموعتان من المرتفعات أقدم منها عمراً وقد عملت فيهما عوامل التعرية حتى نخفض مستواهما – فنجد في أمريكا الجنوبية هضاب غيانة والبرازيل، وفي أمريكا

الشمالية مرتفعات الأبلاش والسهل التحاتي اللورنسي العظيم وهو في الحقيقة منخفض في مستواه إلى حد أن خليج هدسن يشغل قلبه بعد أن طغت عليه مياه البحر، بل ولا نستطيع أن نطلق على السهل لفظ هضبة إلا إذا عدونا الحقيقة واستلهمنا الخيال. وفي الواقع أن جبال الكوردليرا قد التوت عند حافة الكتل الصخرية العتيدة القديمة التي تحف بها من الشرق، وحيث لا توجد هذه الكتل القديمة كما هو الحال في إقليم جزائر الهند الغربية تنتشر هذه المجموعة من الجبال مكونة سلاسل منفصلة بعضها عن بعض – وقد تنخفض أحياناً في بعض أجزائها حتى لا تكاد تظهر فوق سطح البحر كما في أمريكا الوسطى وأحياناً تبقى قممها فقط نقطاً بارزة فوق الماء كما هي الحال في قوس جزائر الهند الغربية وأحياناً أخرى تختفي تماماً تحت سطح الماء.

ونجد في كل من القارتين سهولاً تمتد بين هذه المرتفعات في ثلاثة اتجاهات وهي أكبر امتداداً في أمريكا الشمالية في السهل الواقع بين جبال روكي وجبال الأبلاش وأكثر مواضعه انخفاضاً هو ذلك المحور الممتد من الشمال إلى الجنوب والذي يجري فيه نهر المسيسبي، ثم يرتفع السهل تدريجياً نحو الشرق ونحو الغرب ارتفاعاً غير محسوس لا تدركه العين المجردة ويظل متابعاً ارتفاعا حتى إذا ما وصل إلى حافة الجبال الغربية التي ترتفع عندئذ ارتفاعاً فجائياً بلغ ارتفاع سطحه نحو ميل واحد.

وتمتد بين النطاق اللورنسي بصخوره القديمة الصلبة من ناحية وبين جبال الأبلاش وسلاسل الكوردليرا من ناحية أخرى منخفضات ضبقة

نسبياً، يجري فيها نهر السلت لورنس نحو المحيط الأطلسي كما يجري كما يجري نهر الماكنزي نحو المحيط المتجمد الشمالي.

أما في أمريكا الجنوبية فيقع المنخفض العظيم على جانبي خط الاستواء ويقوم نهر الأمازون وروافده بصرف مياهه وله عنق ضيق يتجه إلى الشرق بين هضبتي غيانة والبرازيل – ونحو الجنوب يمتد سهل في محاذاة جبال الأنديز من الغرب وهضبة البرازيل من الشرق، على حين أنه في الشمال نجد سهلا أصغر كثيراً من هذه السهول يمتد بين جبال الأنديز حيث تنحني نحو الشمال الشرقي وبين هضبة غيانة ويجري فيه نهر الأورنوكو.

ولهذا كان للتضاريس أثر في تحديد مدى اتساع الأقاليم المناخية في أمريكا الجنوبية نتج عنه نتائج عدة نلخصها فيما يلي:

ذلك أن الغابات الاستوائية التي تغطي سهل الأمازون الحار الرطب تشغل مساحة واسعة عبر القارة وتمتد حتى السفوح الشرقية لجبال الأنديز. هذا من ومن ناحية أخرى أصحبت منطقة الصحراء في أمريكا الجنوبية ضيقة جداً بطبيعية الحال بعد أن تحدد امتدادها بين جبال النديز والبحر، أما الإقليم الذي يقابل الإقليم السوداني فهو أرض السفانا في حوض الأورينوكو وهي صغيرة نسبياً في مساحتها ويختلف مناخها عن مناخ السوداني الأفريقي من عدة نواحي هامة. ينطبق هذا القول أيضا على مناطق السفانا في المرتفعات الداخلية للبرازيل وهي إلى جانب ذلك مكونة

من صخور قديمة صلبة إذا ما سقطت عليها الأمطار فسرعان ما تنصرف عنها.

أما في أمريكا الشمالية فإن أشد الأقاليم جفانا يقع على المرتفعات الممتدة إلى الغرب من القسم الجنوبي من جبال روكي – ولهذا كانت الأنهار التي تسيل غربا وتنبع من هذه المرتفعات الجافة ضيقة وعميقة في مجاريها وتنخفض كثيراً عن المستوى العام للأراضي المحيطة بها وهي بهذا تساعد على جعلها أكثر جفافاً عما لو لم يقدر لها أن تجري على هذا النحو. وإلى الجنوب من هذا الصحراء تضيق الكتلة اليابسة برمتها وتقترب حافتا الجبال من بعضهما حتى تتلاقيا في القمة العالية لجبل أورزابا، وتستقبل الحافة الشرقية أمطار الرياح التجارية فتصبح رطبة كثيفة الغابات على حين تظل الهضبة المكسيكية فيما بين حافتي الجبال جافة نسبياً وأمطارها الشتوية قليلة جداً ومقصورة على بضعة شهور فقط.

وهناك أيضا إقليم جاف وهو السهول المرتفعة الممتدة إلى الشرق من جبال روكي وتكسو سطحها الأعشاب وهي تقابل مناطق الأستبس في آسيا. ومن البديهي أنها لا تضارعها أتساعا، لأن الغابات كانت تغطى البلاد الواقعة إلى الشمال وإلي الشرق منها وهي غابات صنوبرية في الشمال، معتدلة بالقرب من المحيط الأطلسي وشبه مدارية على طول ساحل خليج المكسيك. إما في أمريكا الجنوبية فإلى الإقليم الوحيد الذي يمكن أن نقول عنه أنه يقابل مناطق الأستبس فهو الأراضي التي تمتد إلى الشرق من جبال الأنديز حيث تقوم الآن جمهورية الأرجنتين.

وهكذا نجد أن الإقليم التي تناظرها في العالم القديم دفعت بسكانها منذ البداية لأن يبذلوا الجهود طواعيه أو اضطراراً حتى يحصلوا على مقومات الحياة بينما خلا العالم الجديد من أمثال هذه الدوافع التي تخلق مهاداً للحضارات كوجود نهر عظيم يخترق صحراء شاسعة يفيض بالماء الوفير في فصل من فصول السنة ويوفر الماء اللازم لنمو المحاصيل، ثم يفيض ماؤه في فصل أخر فتذيل النباتات وتصبح هشيما. كذلك خلا العالم الجديد من بلاد تستمتع بالدفء فتسهل فيها الحياة نسبياً ويجد الناس فيها حافزاً قوياً يدفعهم إلى التفكير في أمر مستقبلهم وفي اختزان القوت وغيره من موارد الثروة الطبيعية وحيث تكفلت الطبيعة بحمايتها وحالت دون وصول أفواج الطامعين في اغتصاب مخزون ثرواتها.

وحتى أراضي الأستبس هنا أصبحت صغيرة المدى، كما خلا المسرح من سكان المراعي الذين تميزت بهم مناطق الأستبس في العالم القديم، وهذا يرجع في بعض أسبابه إلى نقص آخر يقاسيه العالم الجديد على عكس العالم القديم، فلم يستوطن أمريكا الشمالية أو الجنوبية حيوان واحد من الحيوانات آكلة العشب التي استأنسها الإنسان في أوروبا وآسيا وأفريقيا. ولم توجد هنا الجمال أو الخيول أو الحمير أو الأغنام أو الماعز، وأهم من ذلك كله أن أمريكا خلت من الماشية قبل أن يستقدمها الإنسان من أوروبا —مع أن الماشية تمثل مظهراً من أقدم مظاهر اختزان الطاقة. ولم تكن هناك دواب للحمل قط توفر على الإنسان جهوده بدلا من أن يسرف في بذلها في نقل الأشياء من مكان إلى آخر – كما غاب عنهم وجميع الأغذية التي تصنع منه. وقد يحتاج هذا القول إلى بيان ولكنه بديهي، إذ أن الجاموس

البري كان يمرح في طوال المراعي وعرضها في قطعان لا حصر لها، ولا يبدو هناك سبب عويص يحول دون استئناسه إلا أنه يقال أحيانا أنه حيوان لا يستأنس بطبعه، وسواء كان هذا صدقا أم كذبا نبقى حقيقة راهنة وهي أن الجاموس البري لم يستأنس قط. والحيوانات المستأنسة وحدها هي التي تسمح بوجود الشعوب الرحل الرعوية التي تمتاز بقوة احتمالها وصبرها على المشقات وهذه الشعوب حين تنتقل تؤثر في سكان المناطق البعيدة المتناثرة على حافات أراضي الأستبس، ومع هذا الانتشار الواسع فإنها تحتفظ دائما بقوة كامنة بفضل امتلاكها تلك الطاقة المخزونة من رأس المال المقتصد. أما رعاة العالم الجديد فتحتم عليهم الضرورة الانتقال خفافا وقد تهيئ لهم خفتهم سرعة الحركة ولكنها لم تزودهم بقوة قاهرة لا تقاوم، فلا ينتظر بعدئذ أن نرى في تاريخ العالم الجديد هجرات بشرية عظيمة تكتسح ما يعترض سبيلها كما رأينا في هجرات العالم القديم – أضف إلى ذلك أن طراز الحضارة الذي ابتدعه الزنوج في أفريقيا وقام على أساس الماشية كان قيامه مستحيلا في أمريكا الجنوبية لأنها خلت حتى من الجاموس البري.

ومن ذلك يتضح أن العالم الجديد افتقر إلى الظروف المناسبة التي ساعدت على سرعة نمو الحضارات القديمة العريقة على النحو الذي بدأ في العالم القديم.

ففي أمريكا الشمالية تقع أكثر الأراضي جفافاً وأقربها إلى جدب الصحراء بالتقريب من الشمالي الغربي لخليج المكسيك إلى ما وراء رأس خليج كليفورنيا. والإقليم هنا دفئ في جميع فصول السنة وإن كان حاراً

حقاً في فصل الصيف، غير أنه يسمح للحياة أن تقوم في سهولة ويسر متى كان قيامها في بقعة من البقاع ممكناً وميسوراً – وعلى الرغم من أن الأنهار عموماً في هذا الإقليم يجري في مستوى ينخفض كثيراً عن المستوى العام للبلاد إلا أن جماعات صغيرة من السكان قد نجحت في استخدامها لأغراض الري في بعض البقاع المتناثرة هنا وهنا، وترتفع هضبة المكسيك في الجنوب وهي جافة نسبياً، يصعب الوصول إليها عبر الأراضي الجافة في شمالها كما يصعب الاتصال بها من خلال الغابات الكثيفة التي تغطي السفوح السفلى لهضبة من الشرق ومن الجنوب، فالبلاد بهذا الوضع دافئة في مناخها تستمد ماءها من المجاري المنحدرة إليها من المرتفعات والتي تكمل كميات الأمطار التي تسقط عليها بغزارة نوعاً ما صيفاً وتقل شتاء، وقد تهيأ لها قدر من الحماية الطبيعة – وفي المنطقة الصحراوية الواقعة إلى شمالها لا تكفل موارد الماء فيها الحياة إلا لعدد محدود من السكان ينتشر انتشاراً واسعاً – غير أنه في الهضبة المكسيكية يحتمل أن تتصل ببعضها الجماعات الصغيرة التي تعيش على سفوحها في مناطق متباعدة، وهكذا يبدو أنه لم يتوافر لهذه البلاد الأخيرة القدر من الحماية الذي توافر لمصر ولا الأسس التي تصلح لتعول عدداً كثيفاً من السكان كما هو الحال في مصر.

وكيفما كان الأمر فهذه المنطقة هي أقرب الأقاليم شبهاً بمصر من بين أقاليم العالم الجديد الوقعة في شمال خط الاستواء.



الخريطة رقم ٦٦

التضاريس والنباتات في المكسيك

ويتبين مما نعلمه عن تاريخ المكسيك أن الصحراء والغابات لم تكونا بحال من الأحوال حاجزين منيعين – وعلى الرغم من ضآلة معلوماتنا عن تاريخ المكسيك إلا أنه يبدو أن شعوباً محاربة جاءت إليها من الشمال الجاف في موجات متتالية، وكل منها تدمر في أول الأمر تدميراً جزئياً كل ما تجده من مظاهر الحضارة التي تفوق حضارة الغزاة ثم يجعلون من أنفسهم ورثة لها – ومن الجائز أن تكون بعض هذه الموجات ممن جاءوا كصيادين رحل انتقلوا إلى المكسيك من السهول الجافة الترامية في شرق جبال روكي أو ممن جاءوا من الأراضي الصحراوية ونقلوا معهم بعض ألوان المعرفة في فنون اقتصاد الطاقة واستغلالها، والتي سبق لهم كسب خبرتها في مجتمعاتهم الصغيرة المنعزلة كبناء من الطوب اللبن وكزراعة الذرة ليتخذوا منها غذاءهم أو كزراعة القطن لنسج ملابسهم من شعيراته، وعلى أي الأحوال فإنا نجد في المكسيك جماعات صغيرة قوامها القبيلة يعيش أفرادها معيشة جماعية في مستعمرات دائمة أو في مساكن ريفية مبنية من الحجر، ويتخذون من القطن كساء لهم ويعتمدون في غذائهم على الحبوب التي

كانوا يختزنونها في مخازن أو أهراء[٣٣] خاصة في محلاتهم، فإذا تحالف أهالي محلتين أو ثلاث سيطروا لفترة من الزمان على من يقطنون بالقرب منهم ويفرضون عليهم جزية من الحبوب والقطن، وقد يضطر هؤلاء بدورهم إلى الاعتراف بسيادة اتحادات أقوى وهكذا.

وهنا نرى تقدما محسوسا من ناحية، إذ لا يمكن اختزان الطاقة واستغلالها بطريقة تختلف عن تربية الماشية إلا بالحياة المستقرة الثابتة. ولما استقرت هذه الأقوام أخذت تجمع ألواناً من الطاقة الغذائية وأنواعاً من الطعام مما يسهل حفظها مدداً أطول عن غيرها حتى في تلك الأيام – وإن كان ذلك يتطلب جهداً كبيراً في إعدادها – فإن الثمار التي يأكلها الرجل الهمجي لا تتطلب منه مجهوداً أكثر من جمعها والتقاطها واستهلاكها في نفس اللحظة. غير أن الإنسان الهمجي يصيب تقدما لو أنه حفر الأرض بحثاً عن جذور النباتات ومعظمها يتطلب جهداً لمعالجتها حتى تصبح صالحة لتناولها. كذلك البذور من أنواع الحبوب الغذائية تتطلب جهوداً مختلفة قبل أن تصبح طعاماً سائغاً، فقد تمر أجيال بعد أجيال والفلاحون يفتنون في انتخاب أنواعها وتحسين نتاجها حتى تجود بأوفر محصول بل ولا يقتصر إعدادها على العناية بها أثناء نموها حتى تأتي بأفضل المحاصيل، بل تتطلب بعد حصادها معالجة طويلة حتى تصبح في أحسن أحوالها صلاحية للغذاء – ولنفكر قليلا في عدد العمليات التي يمر بها القمح قبل أن يؤكل ولنقارنها بعد ذلك بالخطوات اللازمة للتفاح أو الموز

[٩] شون

أو اللفت أو البطاطس حتى تصبح صالحة للطعام – هذا ولم يعرف سكان العالم الجديد شيئاً عن القمح، ولكنهم عرفوا الذرة الهندية وهي الغلة الرئيسية في العالم الجديد، ومن مميزاتها أنها تتطلب مجهوداً أقل في زراعتها وفي إعدادها، وقد عرفت بجميع أنواعها في أنحاء القارة، ومن الجائز أن قامت بزراعتها قبائل استقرت في مكان ما حينا من الدهر بعد أن تمكنت من قطع الغابات وزراعة أرضها حيويا – ثم تعود إليها حين يتم نضج المحصول فتحصد ما زرعته وتستهلكه. وليس في هذه الحالة اقتصاد كبير في الطاقة. وعلى أيه حال فقد تزرع الذرة أيضا في الأراضي الجافة بالاستعانة بوسائل الري فيقتصد منها بعض المحصول – وكان هذا أسلوب أهل المكسيك القدماء ولم يقتصروا على اختزان جزء من مواردهم من الأيام السمان لاستنفاده في الأيام العجاف ولكنهم استطاعوا أيضاً حماية أنفسهم بفضل ما جمعوه من ألوان الطاقة الغذائية – فإن هذه المحلات التي أنشأوها كانت في واقع الأمر حصوناً يلجأ إليها جميع السكان إذا ما تعرضوا لهجوم عليهم معتمدين على ما اختزنوا من مؤن وأغذية مما يهيئ لهم الفرصة لأن يقاموا الهجوم أطول مدة من الزمان. ولما كانت مطالب الحياة الأساسية لا تستغرق منهم كل وقتهم ونشاطهم بقى لديهم بعض الفراغ والنشاط يفيدون منه في اقتناء بعض كماليات الحياة وفي القيام بأعمال الحفر البسيطة واقتناء التحف الذهبية والفضية التي كانوا يصنعونها.

غير أن هذا التقدم الذي أصابه أهل المكسيك في السيطرة على الطاقة لم يكن تقدما من الطراز الأول فإن الظروف الجغرافية التي عاشوا

فيها والأحوال التاريخية التي سادت زمانهم جعلت الوحدة الاجتماعية الصغيرة ذات أهمية كبرى فلم يك ثمة داع للتكتل في اتحادات كبرى وإن سيطرت مجموعة من القرى على مجموعة أخرى فإن سيطرتها كانت مجرد حكومية أو ملكية ليس التوسع من أغراضها بل أن مقصدها الأول هو اغتصاب الجزية اغتصاباً تتبع في ألوان من التهديد والتشهير.

ولم يقم الفاتحون نظير هذا الابتزاز بواجب الدفاع عن الأراضي المفتوحة حتى يمكن توفير قسط أكبر من الطاقة – ولم تظهر عندهم أية فكرة للقومية كما لم يكن حكمهم مجرد استبداد عسكري في أبسط معانيه كما كان الحال إبان الحكم الأشورى بل احتفظت القرى الحاكمة بسيطرتها طالما بقيت القرى الأخرى مستضعفة تسودها الفرقة والانقسام، وكانت تدفع الجزية لمجرد الخوف من استئصال شأفتها إن هي منعت الجزية عن الفاتحين، ومما أضفى على المكسيك أهمية خاصة أنها كانت المهد الذي تطورت فيه وسائل اختزان الطاقة في المجتمعات الصغيرة فبلغت حداً من الكفاية لم تبلغه في أي مكان آخر، ولأن النظم الاجتماعية أو الحكومية لم تتعد في غيرها حد الطور البدائي. فلم يقتصر الأمر على أننا نرى تغييراً مستمراً في القرى الحاكمة فحسب بل ولم تبذل محاولة تذكر للاتحاد في وجه عدو مشترك يغير عليهم من خارج حدودهم وذهبوا في تصرفاتهم إلى النقيض من ذلك، وكان الأزتك هم العنصر الوحيد الذين وجدهم الأسبان يسيطرون آنئذ على المنطقة سيطرة حديثة التي سيطر بها الأسبان عليهم بعدد قليل من الرجال كما يفسر السرعة التي فرضوا بها سلطانهم على جميع هذه البلاد.

وقد ازدهر هذا الطراز من الحضارة المكسيكية في منطقة أخرى، ومن الممكن حقاً أن يقوم بعض الاتصال بين المنطقتين، إذ لا نعلم في الوقت الحاضر إلا القليل عن الجماعات التي سكنت شبه جزيرة يقطان المنخفضة الواقعة إلى الشرق من المكسيك والتي تفصلها عن بعضها غابات كثيرة وقد بلغ سكان هذه المنطقة درجة من الرقي لم يصل إليها أي شعب من شعوب هذه القارة، كما أن مناخ يقطان يشذ عن مناخ سواحل الخليج بغزارة أمطاره في شهور الصيف فقط على حين تجد المنطقة الباقية بأسرها تسقط عليها أمطار غزيرة على مدار السنة، ولهذا اكتست الغابات بينما أصبح شبه جزيرة يقطان أراض عشبية وللماء فيها شأن كبير.

والظروف الجغرافية في المكسيك ويقطان لا تختلف اختلافا كلياً عما يسود مواطن الحضارات العريقة في العالم القديم، غير أنه يجب أن يلاحظ أنه على الرغم من وجود هذا التشابه الملحوظ فيما يسود العالمين في الظاهرات الأساسية إلا أنهما يختلفان اختلافا بينا في أحوالها الظاهرة.

ففي أمريكا الشمالية نجد الأراضي العشبية صغيرة المساحة إذا قورنت بالأراضي العشبية في أوروبا وآسيا وكان الجاموس البري في أمريكا الشمالية هو الحيوان الذي كان يجوز أن يستأنسه الإنسان —وإن لم يستانس قط – فخلت البلاد من شعوب تماثل القبائل الرعوية الرحل في العالم القديم. أما أمريكا الجنوبية فقط حوت مساحة أصغر من الأعشاب المعتدلة – بينما اتسعت رقعة أعشابها المدارية اتساعا عظيما ورأيناها تخلو من أي حيوان يصلح للاستئناس حتى من الجاموس البري الذي كان لم

يستوطن هذه القارة قط، كما أن مساحة الصحراوات فيها ضئيلة المدى، فبقى معظم القارة تغطية الغابات الاستوائية الكثيفة، ولا غرو بعدئذ ألا نجد سبباً واحداً معقولا يبعث على تقدم المدنية في أمريكا على النحو الذي سارت عليه في العالم القديم.

غير أن أمريكا الجنوبية تنفرد بمجموعة من الظروف لا توجد في مكان آخر على ظهر الكرة الأرضية، إذ ترتفع هضبة الأنديز ارتفاعا فجائياً في غرب سهل الأمازون العظيم الذي تكسوه الغابات – ويتراوح عرض الهضبة بين مائتي وثلاثمائة ميل وتصل في ارتفاعها إلى نحو الميلين وتزيد حافتها الجبلية في ارتفاعها عن مستوى الهضبة بنحو الميل تقريباً.

وتغطي الغابات حافتها الشرقية وتطل من الغرب على سهل جاف مترب أما الأجزاء المنخفضة من الهضبة الوسطى فهي جافة دافئة نوعاً وتميل لياليها إلى البرودة – وهذا الطراز من المناخ هو نتيجة لارتفاع التضاريس بالقرب من خط الاستواء، وكلما ابتعدنا عن خط الاستواء اشتد برد الأراضي التي تعمل إلى نفس هذا المستوى من الارتفاع وحتى في هذه العروض فإن البلاد التي يعلو سطحها عن ذلك كالحافات الجبلية يشتد بردها لدرجة لا تحتملها الأقوام البدائية، وليست الهضبة الوسطى بهضبة واحدة متصلة الأوصال فالجبال الواقعة على حافتها تعمل على تقسيم الأراضي الصالحة للسكني إلى أحواض مختلفة يمكن الاتصال بينها ولو أنه عسير إلى حد ما وأرض كل حوض منها ليست مستوية إطلاقا ولكنها عبارة عن مجموعة من الجبال والوديان تتعاقب على التوالي.



الخريطة رقم ٦٧

تتسع المرتفعات في أمريكا الجنوبية

هنا إذن منطقة أخرى، وإن لم يوجد غيرها في أمريكا الجنوبية حيث يتيسر النمو لحضارة من طراز أكثر تقدما وأرفع شأناً، وهنا وجد الأسبان قبائل الأنكا كما وجدوا قبائل الإزنك في المكسيك وهم شعب نجح في فرض سيطرته حديثا على البلاد برمتها وورثوا تراثا تضافرت على بنائه أجيال مختلفة لعدة قرون مضت، ومما لا شك فيه أنه قد اعترته فترات من التأخر.

ولكنهم في الحقيقة تناولوا بالتنظيم أمور الدولة جميعا، الأمر الذي لم يحاوله الأزنك، وكانوا أسبق زمانا من الزنك في بناء محلاقم وقراهم. ومن الجائز أن يكون هذا التطور قد اتخذ مجراه في أبسط أشكاله، واستغرق زمنا طويلا، خصوصا وإن هذه المنطقة برمتها معروفة بتعرضها للتغيرات السريعة في مستوى ارتفاعها. ومن الجائز إنها كانت في تلك العهود السحيقة تقل في مستوى ارتفاعها ببضعة آلاف من الأقدام عنها في

الوقت الحاضر وإن الحياة كانت ميسورة في بعض بقاعها التي يشتد فيها البرد الآن، ولم تعد تصلح لنمو الحبوب ونضجها.

وهكذا نجحت جماعات في اكتشاف طرق استغلال الطاقة وتحسين وسائل هذا الاستغلال، وعاشت في الأحواض المختلفة المبعثرة بين شعاب الهضبة، وقد وفرت لها الطبيعة درجة ما من الحماية بما أحاطتها به من حافات جبلية غير مأهولة امتازت ببردها وبارتفاعها إلى جانب غيرها من المرتفعات التي تتداخل في بعضها فتزيدها تحصينا، وقد استمد الأهالي المياه اللازمة لري هذه الأراضي الخصيبة من الجبال ذات المناخ البارد، وزرعوا البطاطس والذرة واختزنوهما، وكانت الأولى نباتاً أصيلا من نباتات المنطقة ذاتها، أما الأخيرة فقد أدخلها بدون شك إلى البلاد الغزاة الذين جاءوا إليها من الشرق، والذين طعموا العناصر الأصلية من السكان بدماء جديدة رغم أنهم ربما اتجهوا في بادئ الأمر نحو التدمير —ولكنهم استطاعوا أن يفيدوا من الطاقة واستغلالها بعدة أساليب لم تتيسر لغيرهم من الجماعات، وذلك باستخدامهم اللاما، وهو الحيوان الوحيد في العالم الجديد الذي نجحت في استئناسه شعوب لم تتخذ الصيد حرفة لها. واللاما حيوان من نوع الجمل يقطن كنظيره المناطق الجافة، ولكنه يختلف عنه في أنه يتخذ موطنه على سفوح الهضاب العالية، وفي أنه ذو طبائع خاصة، فهو وإن كان دابة من دواب الحمل إلا أنه لا يصلح لجر الأثقال، وهو وإن كان مصدراً للغذاء إلا أنه ليس حيواناً لبونا – وهو في الوقت عينه مصدر من مصادر الكساء – كل هذا جعله صاحب الفضل الأول في نمو الحضارة الأنديزية، وبعد أن أتمت قبائل الأنكا تنظيم الإقليم الطبيعي الذي

نتوسطه عاصمتهم كوزكو، تناولوا بالتنظيم المؤسسات الاجتماعية المختلفة التي تطورت في الأحواض المتشابهة الواقعة إلى الشمال وإلى الجنوب منهم وخلقوا منها وحدة كبرى، ولا غرو فهم لم يكونوا مجرد إرهابيين مقصدهم السلب والنهب كقبائل الآزتك، وكانوا أكثر نجاحا حين نزلوا إلى الساحل الصحراوي الواقع إلى الغرب منهم وفرضوا سيطرتهم على المجتمعات العديدة المنعزلة التي وجدوها تستخدم مياه الأنهار التي تنبع من المرتفعات وتنحدر إلى السهول، كما رووا وزرعوا الأراضي الممتدة إلى جوار أنهارهم وهكذا سيطروا على الطاقة، وكان أسلوبهم في هذا العمل يقرب من أسلوب قدماء المصريين، ومع هذا فإن هذه المجتمعات كانت أكثر تعرضا للغزو الخارجي من المجتمعات التي نشأت في مصر، وكانت أيضاً أكثر عزلة عن بعضها لتتحد في دفاعها عن نفسها ضد الغزاة الذين جاءوا إليها بقوات منظمة.

وقد يبدو عجيباً أن الشعوب التي قطنت سلاسل جزائر الهند الغربية لم تبن حضارة من طراز الحضارة الإغريقية ذلك أن ظروف البيئة البحرية كما هو المتوقع دائما ليست عديمة الأثر تماما، غير أن هذه الدزائر كان يسكنها عنصران على الأقل انتقلا إليها في سهولة من جزيرة إلى أخرى واستمر سيل تدفق العنصر الكاريبي متصلا حتى أوقفه الأسبان عند وصولهم وقد سمى باسمهم البحر الذي تناثرت فيه هذه الجزائر، غير أن هذه المنطقة بنقصها شرطان أساسيان كي تقوم بها حضارة على طراز الحضارة الإغريقية فمن ناحية جاء السكان هنا من إقليم حضارته من نوع بدائي منحط وهم أصلا من ساكني الغابات الممتدة بين الأورينوكو والأمازون أو

ما بعدهما إلى الجنوب، وما أغراهم باحتلال هذه الجزائر خطوة خطوة سوى أن الجزيرة الأولى إلا وهي تزنداد تقع على مدى البصر من مصب نهر الأورنوكو، وقد عرف الأهالي إلى حد ما الملاحة في النهر –ومن ناحية أخري – فإن شواطئ بحر الكاريبي سواء منها سواحل القارة أم سواحل الجزائر كلها بلاد مطيرة تغطيها الغابات في أغلب أجزائها أي تسودها ظروف لا تبعث على التقدم إلا قليلا، على حين أن الأمر جد مختلف في بلاد الإغريق لأن الأراضي التي تقع حول البحر المتوسط في معظمها أوطان لأقوام تعلمت كيف تعيش عيشة راضية، وأيا كان العنصر الذي انحدر منه الإغريق فقد جاءوا من عناصر أصابت تقدما في الماضي، وربما يبدو من حديثنا عن الحضارة المصرية إنها نشأت وتطورت حتى نضجت وهي في موطنها، ولكن يجب ألا يغيب عن الذهن أن وراء المصريين عصورا طويلة من النمو والتقدم.

أما أهالي جزائر الهند الغربية فقد جاءوا إليها من بلاد أبعد من أن تكون موطن حضارة عريقة، ولم تصب حضارتهم إلا تطوراً ضئيلا عندما أغرتهم الظروف بعبور البحر، كما أن الجزر اليونانية لم تكن جافة مشمسة فحسب وتسودها ظروف تحفز على التقدم بل أن شواطئ الحوض الشرق للبحر المتوسط كانت كلها مواطن أقوام تقدموا في وسائل معيشتهم، وقد اختلفت ظروف بيئاتها، فأني سافر اليونانيون كانوا يرون شعوبا تؤدي أعمالا مختلفة بأساليب تختلف عن أساليبهم.

أما الشعب الكاريبي وأسلافهم فقد تعرضوا في جزائر الهند الغربية لظروف تشبه كثيراً الظروف السائدة في القارة التي جاءوا منها، باستثناء ما خبروه في بيئتهم البحرية التي كان لها بعض الأثر، وكان الجديد عليهم ضئيلا في رحلاتهم التي قاموا بها ومن ذلك يتبين أن جزائر الهند الغربية لم تصب تقدما يستحق الذكر.

وعلى ذلك لم يكن بالعالم الجديد إلا منطقتان فقد لهما أشباه ونظائر في العالم القديم، تحضر الناس فيهما فحاوزوا مرحلة الهمجية والوحشية ذلك أن الشواهد تظهر أن الحياة فيهما كانت سهلة نسبياً كما أن مجتمعاتهما الصغيرة كانت محمية من هجوم الجماعات المتبربرة وتهيأ لها الحافز الذي يدفعها إلى استغلال الطاقة واقتصادها – وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول أن البلاد التي أصابت تقدما في العالم الجديد كانت شبيهة بنظائرها في العالم القديم في كونها دفيئة نوعا ما، جافة نسبياً ولكن الظروف مجتمعة لم تكن مواتيه تماما حتى تجعل التقدم سريع الخطى.

ومن الطبيعي إذن أن يستكشف شعوب العالم القديم شعوب العالم الجديد لا العكس – لأن الأجناس التي سكنت الهضاب المرتفعة وهي الشعوب الوحيدة التي تقدمت فتجاوزت حد الهمجية لم تكن على اتصال بالمحيط. ولقد عاشت في بيئة لم تعمل على الازدهار المبكر للحضارة كما عملت البيئة المصرية، فضلا عن أنها تبدو أقل ملاءمة لأي نوع من أنواع التوسع فإن الانتقال عسير في الهضاب العالية في المكسيك والأنديز بين الأقاليم المرتفعة العديدة المتقاربة وأشد عسراً بينها وبين الجهات المنخفضة

على كلا الجانبين، وبينها وبين البحر وراءها – فجرت التجارة بمقادير ضئيلة، هذا إن وجدت إطلاقا – ولم يفكر القوم في شكل الكرة الأرضية ولا يحتمل البتة إن كان للمسألة عندهم أي قيمة عملية أو أنهم ظنوا أن هناك بلاد أخرى يمكن الوصول إليها عبر المحيط بأي طريق كان وأنها تحتوي على ثروات عظيمة.

ولم يصل المحيط في ذهنهم إلى المرحلة التي يخشي فيها القوم خطره، إذ لم يكد يدخل في نطاق معرفتهم. وهكذا ظلت هذه المرتفعات في عزلتها وصعوبة الاتصال بها – حتى في العصور الحديثة – وطناً لأقوام عدمت الحافز الذي يدفعها إلى البحث عن طريق مختلفة تؤدي بها إلى بلاد أخرى تجهل وجودها كل الجهل حتى وأن توافرت في أجزاء أخرى من القارة ظروف مواتية لكي تكون مهاداً لحضارة متقدمة إلا أنها فقدت الحافز الأول الذي دفع بأوروبا إلى إحراز قصب السبق في المدنية. فلو أننا أخذنا موضع الاعتبار لك العهود السحيقة التي استغرقها الإنسان في تقدمه ووزنا مساوئ العالم الجديد بمقارنتها بمساوئ العالم القديم لم يدهشنا أن المدنية في العالم الجديد كانت متخلفة عنها في العالم القديم بقدر ما يدهشنا الآن أن الفارق بينهما ليس كبيراً. فإن الظروف التي سادت العالم الجديد لم تسمح بتطور أي مدنية راقية ولكن هذه الظروف بعينها كانت من الأهمية بمكان سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة في تحديد نمو المظاهر المختلفة للحضارة التي نبتت بذورها الأولى في أوروبا ثم نقلت إلى تربة العالم الجديد، وكان أثرها مباشراً في أن ظروف البيئة من تضاريس ومناخ حددت للمهاجرين طرق الانتقال بأقل مجهود ممكن – وأما أثرها غير المباشر فيتمثل في ذلك

التراث التاريخي الذي فرض على الشعوب المهاجرة تصرفات معينة دون غيرها، وقد لاحظنا حتى الآن كيف تم اكتشاف العالم الجديد تحت رعاية أسبانيا وكيف كانت جزائر الهند الغربية أول أجزائه اكتشافاً دون غيرها من الأراضي الممتدة الواقعة إلى شمالها وذلك بفضل وقوعها على نفس خطوط العرض التي تقع عليها البلاد المصدرة للبهارات والتوابل وإليها تتجه الرياح التجارية في هبوبها من شمال أفريقيا.

وهنا كفارق كبير بين جزائر الهند الغربية التي جاء إليها الأسبان وبين جزائر الهند الشرقية التي ظنوا أنفسهم وصلوا إليها، وكان الوصول إليها من حظ البرتغاليين فإن الجزائر الشرقية يقطنها أقوام ذو مجتمعات منظمة وإن لم تصل في رقيها إلى المدى وصل إليه أهل أوروبا —وكانت مورداً لسلع تجارية ثمينة في حد ذاتها أو ظنها الناس كذلك – فحصل البرتغاليون في الحال على ما جاءوا يبحثون عنه ونقلوه إلى أوطانهم في سفنهم، وعلى العكس من ذلك كانت جزائر الهند الغربية تسكنها عناصر ذات مستوي منحط في حضارتها، وقد خلت من الموارد التي تغري المستكشفين بارتيادها وقد سارت محاولات الأسبان الأولى في استعمارها سيراً وئيدا، وربما كانوا يتابعون تقدمهم في بطء شديد وربما كان الفشل نصيبهم في استعمارهم لولا أنهم وجدوا المجتمعات التي ذكرناها آنفاً والتي كانت أكثر تحضراً من باقي مجتمعات أمريكا والتي تعيش في هضبة المكسيك وسهول يقطان وهضاب الأنديز والمنخفضات الصحراوية التي تقع إلى الغرب منها – وفي كل حالة من هذه الحالات كان استكشاف الحضارة القائمة في المنخفضات يؤدي بعد ذلك إلى التعرف على الحضارات القائمة في الهضاب، وقد أسرع

الأسبان إلى فرض سلطانهم على مساحات من الأراضي التي لو كانت مسكونة بقبائل همجية لاستغرق منهم تنظيما سنين عديدة إن لم تكن قروناً. وقد تناول الاستعمار الأسباني في أساه تلك الأراضي التي أصابت بعض التقدم في مدنيتها على الرغم من خلوها من التوابل والبهارات وما إلى ذلك، غير إنها احتوت على الذهب والفضة وهما من المغريات التي ظنها الأسبان خطأ موارد ثروة وغنى. وامتد الحكم إلى البقية الباقية من الأراضي في أمريكا الوسطى وشمال أمريكا الجنوبية وجزائر الهند الغربية لأن هذه الأجزاء بطبيعتها مكملة للأجزاء الرئيسية التي سبق لهم استعمارها، وبعد أن انتهي الأسبان من بحثهم السريع الجشع عن الذهب ظلوا يحتلون هذه الأقاليم احتلالا عسكرياً فقط بسبب وقوعها بين الأجزاء الهامة وتركوها في معم الأحيان على حالتها الفطرية أجيالا عديدة.

ولما انهارت القوة الأسبانية نفضت تلك البلاد عن نفسها قيود الحكم الأسباني وتفتت أجزاء وإن بقيت تحمل طابعاً أسبانياً –أما في جزائر الهند الغربية فلكونها خالية من الذهب وليست في موقع تستلزمه السيطرة على البلاد ذات الذهب المخزون لم يبذل الأسبان جهداً ليحتفظوا بأكثر من بضع جزائر فيها وسمحوا لغيرهم من الدول البحرية أن تفرض سيطرتها على الجزائر الأخرى وتستعمرها وتنظم شئونها.



الخريطة رقم ٦٨
بيرو والمكسيك
كانت بيرو والمكسيك أهم فتوح أسبانيا

أما باقي الأراضي فقد فرضوا سيطرتهم عليها وإن لم تعد عليهم بالمنفعة ، وأما الهضاب فقد ظلت تسكنها شعوب من سلالة العناصر التي وجدها الأسبان فيها، وهي بطبيعتها صعبة الاتصال بغيرها فظلت منقسمة إلى وحدات، ومن الغريب أنها احتفظت بأحوالها الماضية التي كانت تسودها قبل أن يأتي إليها الأسبان، فهي لا تزال بعيدة الصلة عن مؤثرات الحضارة الحديثة قليلة السكان على الرغم من اتساع مساحتها، تنتابها الثورات من آن لآخر وتعكس الميول التي تبرع إلى الانقسام إلى وحدات

أصغر. فالمكسيك، وهي هضبة تحدها الصحراء من الشمال والغابات من الجنوب هي وسهول يقظان الجافة التي تطل على البحر من جانبيها، وهما أعظم المستعمرات الأسبانية تمثيلا للطابع الأسباني. أما بيرو فقد اشتملت على المرتفعات التي أحاطت بعاصمة ألانكا الأصلية، وكذلك على الصحراء إلى الغرب منها والتي يتبع الري في زراعتها فلا يزال نصف سكانها من هنود ألانكا أما بوليفيا التي خضعت لحكم ألانكا أثناء تقدمهم نحو الجنوب وقد حرمت من السهول الساحلية، فلا يزال ثلاثة أربا ع سكانها من العنوج الحمر الخلص ومن بين هذه الوحدات اكوادور وقد خضعت بدورها لسيطرة ألانكا في أثناء تقدمهم نحو الشمال قبل اكتشاف أمريكا بنحو نصف قرن فقط. ولا تزال أغلبية سكانها من الهنود – ونرى أن كولومبيا وهي التي لم تخضع قط لحكم ألانكا – وأن سادتها حضارة من الطراز من الطراز عينه – كانت أكثر تعرضا للنفوذ الأسباني البحري السائد في بحر الكاريبي – عن طريق واديي ماجدلينا وكوكا، وقد أصبحت لهذا السبب تفوق في صبغتها الأسبانية غيرها من دول أمريكا الجنوبية.

ولا تزال مدينة المكسيك عاصمة للدولة الحديثة، وهي المدينة التي قامت إلى جوار بحيرة واعتبرها الآزتك حصناً منيعاً للدفاع عن قراهم، ولا تزال كوزكز مركزاً كبيراً لدولة بيرو الحديثة وقد سبق أن اتخذها ألانكا مركزا إستراتيجياً هاماً يوجهون منه غزواتهم، وعلى الرغم من أن الفاتحين الأسبان أنشأوا مدينة ليما في لصحراء الغربية الجافة التي حكمتها بيرو فترة من الزمان إلا أن الوضع أصبح معكوساً لأنها أضحت هي العاصمة التي تحكم بلاد بيرو – وأما مدينتنا فيراكوز وكالاو فتدينان بموقعهما إلى رغبة الغزاة

الأسبان في إنشاء مينائين للاتصال بالبلاد الواقعة فيما وراء المحيط الذي لم يحلم السكان الأصليون قد بركوبه.

وأما دويلات أمريكا الوسطى التي تغطيها الغابات والتي لم تستعمر استعماراً حقيقياً ولم تكد تتناولها يد التنظيم ولم تستمع بوحدة صحيحة كاملة – هذه الدويلات أقل في أهميتها من الدول القائمة على الهضاب، ولولا أنها أكثر اتصالا بمياه المحيطين العظيمين اللذين يحفان بها – ولولا أن الضرورة تحتم أن تمر بها شعوب أكثر نشاطاً من الوطنيين أو المولدين وهي تسعى سعيها في سبيل الحصول على الطاقة بوسائل هي آخر ما وصل إليه العقل البشري، لولا هذه الظروف لما كان لتلك البلاد الأهمية التي لها الآن.

وقد أخذت تنمو أهم دولتان جمهورينا شيلي والأرجنتين في أقصى الجنوب حيث لم يبذل الأسبان الأوائل جهوداً صادقة في الاستعمار أي أنهم اتخذوا فيهما نفس موقفهم في أمريكا الوسطى، ولكنهما تدينان بفضل وجودهما إلى النشاط الأسباني الحر وهما تتكونان في أساسهما من المنخفضات الممتدة على جانبي ذلك الحاجز المرتفع البارد الخالي من السكان، وقد ضمتا أراضي شبيهة بنظائرها في بلاد أوروبا الغربية – هنا وجدت العناصر الأوروبية المهاجرة نوعاً من المناخ تألفه من قبل فاستفادت من جميع المزايا التاريخية التي هيأها لها ماضيها.

وأخذ المهاجرون يستعمرون الأراضي التي عجز الوطنيون عن استغلالها وهم في حالتهم البدائية. وامتد تنظيم هذه البلاد من العاصمتين بونس إيرس وسانتياجو نحو الشمال ونحو الجنوب تدريجياً – وقد احتفظت نظم الحكم فيهما بأكثر من مجرد طابع أصلها الأسباني وأفاد البشر من احتلالهما واستغلالهما تدريجياً في تزويد العالم الحديث بالمزيد من الطاقة – وقد جمعت هاتان الدولتان (شيلي والأرجنتين) مزايا الاتصال السهل بالعالم الخارجي ومزايا سكني جماعات كانت أقدر على التحكم في الطاقة بأحدث الوسائل اقتصاداً في استغلال الموارد وهكذا زودت العالم بطاقة أكبر في أفيج أشكالها.

فمن الطبيعي إذن أن تفوقا في أهميتهما بالإضافة إلى أرجواي دول الأنديز الواقعة إلى الشمال منهما.

كما يجب ألا ننسى أن البرتغاليين في طريقهم إلى الهند وجزائر الهند الشرقية اكتشفوا جزءاً من أمريكا الجنوبية واقتسموا مع الأسبان الحقوق التي قررها البابا لهم بحكم إعلانه السابق وقد أنشأوا هنا وهناك محطات في بعض أماكن متناثرة على طول سواحل البرازيل وعلى ضفاف نهر الأمازون العظيم، واتسع ادعاؤهم حتى وسع مساحة كبيرة ظنها الناس ضئيلة القيمة فلم ينازع البرتغاليين فيها أي منازع – وهكذا وضعت الأسس لدولة حديثة ذات إمكانيات عظيمة ولا يزال أكثر أجزائها أهمية هي المناطق الساحلية الشديدة الانحدار في الجنوب الشرقي منها والتي تمتاز بسهولة اتصالها بالبحر وباعتدال مناخها نسبيا.



الخريطة رقم ٦٩

أمريكا الجنوبية وتوزيع الحرارة فيها

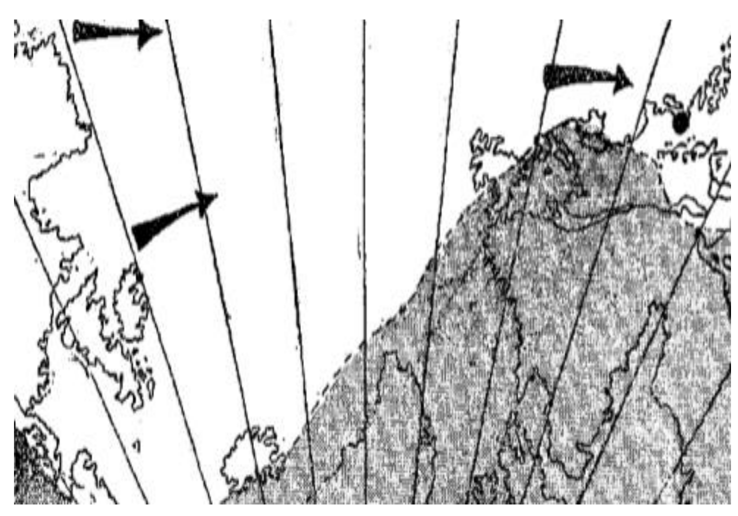
وهكذا نرى مرة أخرى كيف أن التاريخ في مجراه والظروف الحديثة في قيامها يضعان أسس تاريخ المستقبل، وهي تخضع لأثر الجغرافيا التي تحفز الإنسان إلى العمل من ناحية ثم تحدد له من ناحية أخرى كيف وأيان يقوم بأعظم أعماله.خرى كيف وأيان يقوم بأعظم أعماله.خرى كيف وأيان يقوم بأعظم أعماله.

الفصل السابع عشر

الفحم ـ الولايات المتحدة

لم يكن العالم الجديد كالعالم القديم ملائما كل الملاءمة في ظروف لنمو حضارة مبكرة أصيلة في مهدها ولم تظهر فيه بيئة شبيهة بمصر، وعلى الرغم من ثبات العوامل الجغرافية إلا أن أساليب تحكمها في التاريخ من عهد إلى عهد تبعاً لمقدرة الناس على الإفادة من الطاقة أو تبعاً لعجزهم عن استغلالها بطرق معينة. ولقد ظل المحيط أجيالا طويلة حاجزاً يمنع اتصال الناس القاطنين على جانبيه ثم أصبح طريقا مفتوحا يصل بينهم – ولهذا نرى على الجانب الأمريكي من المحيط الأطلسي منطقة لم تصلح لنمو حضارة قديمة، ولكنها اليوم مقر دولة من أكبر دول العالم حضارة، أمكنها استغلال موارد الطاقة بطريقة أكثر اقتصاداً بعد أن تيسر لسكانها فرصة التعرف على وسائل هذا الاستغلال. ولم تبشر المراحل التاريخية الأولى بأن هذه البلاد ستكون على مثل هذا القدر من الأهمية. فلم يقتصر النجاح في عبور المحيط على الأسبان وحدهم إذ تتابع بعدهم الفرنسيون والهولنديون والبريطانيون كل منهم في أعقاب الآخرين، وكانوا مدفوعين في محاولاتهم بأسباب تتصل بجغرافية العالم الجديد – واقتصر مجال نشاطهم الرئيسي على الشمال فقط، وفي غالب الأحيان كان همهم الأول البحث عن الطريق البحري إلى الهند – فسار الفرنسيون متتبعين مجاري نهري السنت لورنس والمسيسبي وتعمقوا في داخل البلاد وفرضوا نفوذهم على أقاليم

واسعة عبر السهول العظيمة التي تصل إليها هذه المجموعة من الأنهار. واستقر الإنجليز في الأراضي الساحلية الشرقية قبل أن يطرد منها الهولنديون، وكذلك بعد طردهم منها – خاصة وقد انفصل هؤلاء عن قواعدهم في أوربا، بما د عليهم من أحداث تاريخية في القارة ذاتها.



الخريطة رقم ٧٠

الجهات التي يقل متوسط حرارتها عن ٢٥ ف طوال شهر يناير

ثم وقفت أمام توسع الإنجليز عقبات كؤود، منها مرتفعات الأبلاش ونيوانجلند بما يغطيها من غابات، ومن ورائها امتدت السهول التي سيطر عليها الفرنسيون في غرب هذه المرتفعات. فكانت هذه في واقع الأمر عقبتين، إحداهما سياسية والأخرى طبيعية أعاقتا امتداد المستعمرات الإنجليزية غربا، ولم يدر بخلد أحد وقتئذ أن هذه المنطقة هي النواة المتواضعة لما ستتمخض عنه الأيام في خلال قرن أو قرنين من الزمان فتصبح دولة من أعظم دول العالم. هذا النمو مرجعه الأول الظروف

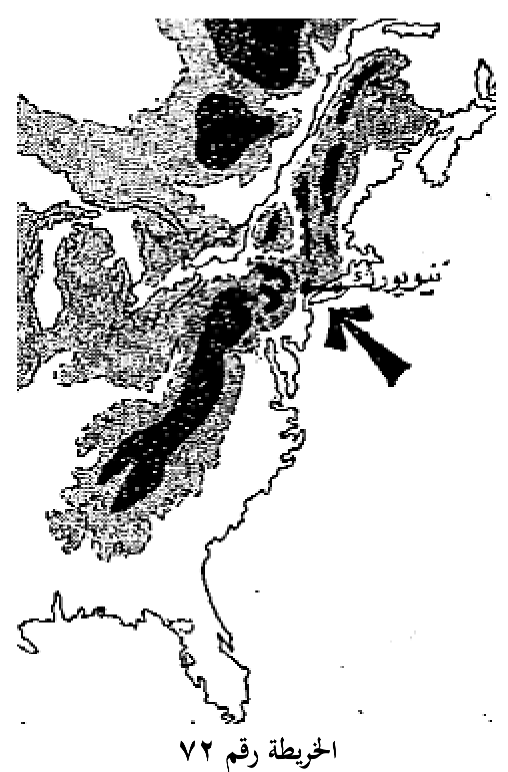
الجغرافية وبالأحرى العوامل الجغرافية التي تحكمت في التاريخ الأوروبي، ثم ما جد بعد ذلك من اكتشاف في وسائل الإفادة من الطاقة على خير وجه.



الخريطة رقم ٧١

توزيع الحرارة في يوليه في شمال شرق الولايات المتحدة

قامت هذه المستعمرات الإنجليزية في وسط يبعد بها عن نطاق البرد القارس في الشتاء والحر القائظ في الصيف. حقا ليس على شاطئ أمريكا الشرقي منطقة يمكن أن يقارن مناخها بمناخ بريطانيا. غير أن الأراضي التي استعمرت هنا فعلا كانت أقرب شبهاً بالموطن الإنجليزي عما يمتد وراءها إلى الشمال أو إلى الجنوب. وأن الحقائق المناخية لتفسر لنا إلى حد كبير أهمية مواقع المدن الأمريكية العظيمة، وعلى الأخص مدينة نيويورك.



الخريطة رقم ٧٢

موقع نيويورك بين نهر هدسون وموهوك

هكذا وقفت مرتفعات الأبلاش بغاباتها عقبة في سبيلهم، وكان هذا خيراً وبركة فنمت مجتمعات صغيرة في ولايات نيوانجلند وفرجينيا متصلة ببعضها، تغص بسكانها الذين فرضوا سيادتها عليها فعلا بعكس ما حدث للمستعمرات الفرنسية فقد امتدت حتى شملت مساحات واسعة من مصب نهر المسيسبي حتى مصب نهر السنت لورنس وبقيت على حالتها الفطرية الأولى خاوية من السكان، تبعثر فيها الفرنسيون حتى لنجد رحالة هنا وصياداً أو مبشراً هناك.

غير أنه يوجد عبر هذا الحاجز طريق سهل يتصل اتصالا مباشرا بأحد خلجان المحيط، الذي تدخل فيه موجات المد فتتعمق إلى نحو مائة وخمسين ميلا. وهنا في هذه المياه المأمونة أبحر هنري هدسون ورجاله من أهل هولنده يبحثون عن طريق بحري يؤدي بهم إلى زائر الهند الشرقية ثن اتبعوا الوادي الذي سمى باسم مكتشفه الأول، وبمتابعة السير بحذاء رافده الموهوك وجد المستعمرون البريطانيون قادرين على أن يضربوا ضربتهم وأن يحطموا الخط الفرنسي من داخله، وأن يستعمروا بنجاح منطقة السهول الوسطى.

وليست هذه الحقائق وحدها سبب هزيمة الفرنسيين فربما اختلفت النتيجة لو أن فرنسا عززت قواتها في السنت لورنس تعزيزاً قوياً. ولكن السياسة الاستعمارية الفرنسية كانت سياسة مضطربة –كما رأينا – متأثرة بالظروف الجغرافية في فرنسا فعجزت عن الاحتفاظ بمستعمراتها، وقد أفاد البريطانيون من انتصارهم فائدة كبرى، وسرعان ما صبغوا البلاد بالصبغة البريطانية ولو أنه لا تزال إلى الآن على سواحل السنت لورنس الشمالية جالية تتكلم الفرنسية وتحتفظ بتقاليد وعادات تشف عن أصلها الفرنسي، ولو أنها لا تدين بالولاء لفرنسا.

وقد اختلفت البلاد الواقعة على الشاطئ الشرقي لأمريكا الشمالية عن تلك التي افتتحها الأسباب بسبب اختلاف الظروف الجغرافية، فكانت الوحدات السياسية فيها أكثر ثباتا واستقرارا. حقا أفلح المستعمرون رجالا ونساء في زراعة الأرض وامتازوا بحماسهم وغيرتهم على

العمل – واستقروا واستثمروا خيرات البلاد بفضل ما بذلوا من جهود – وكانت أجناسهم في أول الأمر عناصر أوروبية خالصة ليس فيها مولدون، ولم يقم بوضع نظم الحكم والتقاليد الاجتماعية فيها رجال عسكريون أو كهنة وقساوسة همهم الأول المجد والذهب أو نشر الدين – بل امتازوا بعبقرية الابتكار والإبداع. وإن الاستعمار ليستغرق زمناً أطول مما يستغرقه الفتح ولكنه أفعل أثراً وأدوم نجاحا. فلما جاءت إليهم فيما بعد عناصر مختلفة تتكلم لغات مختلفة تمثلهم المجتمع الأول واحداً وأضافوا إلى المجموع قوة على قوة.

غير أن هذه المزايا نفسها لم تكن لتنتج آثاراً جليلة سريعة لو لم توفق الإنسانية إلى كشف عظيم من بين ألوان الكشوف التي أصابها العالم، كشف يقف نداً لند مع كشف المحيطات أو مع استخدام الحديد أو النار – وقد سبب ثورة شاملة لأنه كان كشفاً لأسلوب جديد من أساليب التحكم في الطاقة – ذلك هو اكتشاف البخار.

قد افترضنا قبلا أن الغذاء والكساء هما أهم حاجات الإنسان الأساسية لحفظ حياته، فإن الطعام بعد تمثيله يتحول إلى طاقة تمكن الإنسان من القيام بأعماله. وفي الأقاليم التي نحن بصددها كان الكساء مساعداً كبيراً على الاقتصاد في الطاقة الفردية – وفي العصور السحيقة مثلا أو بين الجماعات المتوحشة كان الحصول على الغذاء والكساء يتم بوسائل قد تختلف عما جرت عليه العادة خلال جميع العصور التاريخية وعند جميع الشعوب التي لها لأهمية تذكر، كان الحصول على الغذاء

والكساء يجري على نحوين اجتماعيين إما عن طريق استئناس الحيوان وإما بزراعة الأراضي. وكان من واجب كل فرد وكل أسرة وعلى الأكثر كل جماعة صغيرة من الناس – أن توفي لنفسها جميع ما تحتاجه من غذاء وكساء فاستقلت كل جماعة من هذا استقلالا عملياً عن باقي أفراد العالم باستثناء الأماكن التي تعرضت لألوان من التدخل الخارجي شنه عليها من طمعوا في الاستيلاء بالقوة على ما اختزنته تلك الجماعات من غذاء أو كساء.

وبعبارة أخرى – كان الأفراد هم الذين يقومون باستغلال الطاقة يؤدون هم وحيواناتهم جميع الأعمال الآلية – وأصبحت كمية العمل محدودة بالقدر الذي يستطيع أداءه عدد ضئيل من الرجال أو الحيوانات، وشذ عن هذه القاعدة استثناء واحد أو استثناءان ولكن شذوذهما يؤكد عموم هذه القاعدة وهي أن الزراعة والرعي كانتا الحرفتين السائدتين وإن أقصى ما يستطيع الإنسان بذله من مجهود فهو دائماً محدود بقدرته على أداء عمله. أما الاستثناءان فهما أن الإنسان في العصور الأخيرة سخر الماء والهواء في إدارة الطواحين اللازمة لطحن الحبوب لإعداد الغذاء، ونرى اليوم في أنحاء الريف طاحونة هنا وأخرى هناك وننظر إليها على أنها تحفة أثرية جميلة أكثر من اعتبارها آلة ذات قيمة بارزة – ولو رأيناها تدور وبهمة نشاط فآخر ما توحي به هذه الآلات العتيقة المتداعية أنها كانت وظلت مئات من الأعوام وهي أعظم الآلات التي توصل البشر إلى صنعها وقد أعطت أكبر قسط من الطاقة عرفه الإنسان – فالطاحونة على صغرها كانت الآلة الوحيدة التي يزود الإنسان بطاقة أكبر من طاقته

الجسمانية، وهي الآلة الوحيدة أيضاً التي سخرها الإنسان لخدمته وتعتمد على طاقة ليست مستمدة من طاقته الغذائية ولقد كانت ثورة أو انقلابا جامحاً عندما استغنى الإنسان بسببها عن عمله الشاق اليومي في طحن ما يلزمه من حبوب، فطحنت الجماعة الواحدة جميع الكميات اللازمة لأفرادها دفعة واحدة في الطاحونة العامة وقد سخرت لإدارتها قوة قد تكون في نظرنا ضعيفة بمقارنتها بما يقوم في أذهاننا من أفكار عن القوى.

ولقد كان الطحان شخصية هامة في تلك الأيام كما كانت الطاحونة مركزاً رئيسياً. وكم من مدينة وكم من قرية تدين في أصل نشأتها إلى وجود طاحونة إلى جوار مجرى مائي – ولم تكن هذه الظاهرة قاصرة على بريطانيا فحسب، ولكنها شملت جميع أنحاء العالم القديم وأجزاء من العالم الجديد التي استعمرت قبل هذه الأوان بأكثر من مائة عام.

وقد أعار الناس في تلك الأيام أهمية بالغة لهذا الأسلوب الضعيف من أساليب استخدام القوى، وهو يظهر لنا مدى ضآلة المنشئات الآلية الكبرى التي يمكن إقامتها – لقد أغنت الطاحونة الإنسان عن بعض عمله المنزلي اللازم لإعداد طعامه غير أن كل ما يتعلق لكساء وهو ضروري لحفظ الطاقة الحرارية في جسم الإنسان ظل في جميع مراحل صناعته عملا يدوياً خالصاً سواء كان ذلك في سلخ الجلود أو جز الأصواف أو زراعة الكتان أو خياطة الملابس ذاتها فقام الأفراد بجميع هذه العمليات. وكان يقوم بها الفرد الذي يعد لنفسه جلباباً أو يقوم بإعداده له عضو من أعضاء أسرته.

وقد حدث تقدم عظيم حين ظهرت حرفة النساجة وكانت في مرحلتها الأولى تعتمد على طاقة الإنسان بعد أن وفق إلى استخدام النول وهنا نرى لم اكتسبت نقابات النساجين في القرون الوسطى في شمال إيطاليا أهمية بالغة... ولم اشتهرت بريطانيا كدولة ترى الأغنام.

وقد كانت التجارة قليلة جداً، لأن التجارة تنطوي على إمكان الحصول على بعض السلع بأثمان أكثر رخصاً، بمعنى أنها أقل كلفة فيما تتطلبه من طاقة في مكان عنها في الآخر، ثم أنها تنطوي على إمكان نقل السلع نقلاً رخيصاً من مقر الإنتاج إلى موطن الاستهلاك. وفي جميع العصور الوسطى بل وفي جميع العهود التي مرت بعد ذلك إلى منذ مائة عام قبل زماننا هذا كانت البضائع الكبيرة الحجم لا تنقل إلى في ظروف استثنائية جداً لأن تكاليف نقل الأشياء الكبيرة الحجم أو الثقيلة الوزن أي الطاقة التي تلزم لنقلها إلى أية مسافة كانت بالإضافة إلى الطاقة اللازمة لإنتاجها – كانت كبيرة بحيث تستنفذ كل ربح منتظر مهما قلت تكاليف إنتاجها في موطنها الأول، وحتى بعد أن عرف البرتغاليون الطريق البحري إلى الهند كانت جميع التوابل المنقولة إلى أوروبا على مدار السنة لا تزيد في حجمها عما يملأ مقدمة سفينة حديثة من سفن البضائع الشاطئية. والتوابل هي السلع الوحيدة التي كان نقلها حينئذ يدر ربحاً ما.

وقد جرت هذه التجارة المصغرة استثناء من القاعدة السائدة وقتئذ وهي أن كل طاقة يسخرها الإنسان لخدمته كان مصدرها الوحيد قوته البدنية أو قوة الحيوانات التي استأنسها. فسخر الرياح لتدفع بأشرعة سفن

ذلك العهد، على صغرها وعدم رشاقة حركاتها في عبور المحيطات – وبهذا كانت الرياح والقوى المائية هي الطاقة الوحيدة التي نجح الإنسان في استغلالها على نطاق ضيق لطحن الغلال في البر ولتسيير السفن في البحر. كما خلت البلاد من وجود الطرق بالمعنى الذي نفهمه من كلمة طرق، بعد أن أنهار ما أنشأه الرومان منها واقتصر الأمر على بضعة مسالك ودروب معينة، ولهذا جرى معظم النقل التجاري المحلي في ذلك العهد بطريق الملاحة النهرية لأن تسيير قارب على الماء أيسر جهداً من جر عربة على اليابس أما المدن الجديرة بتسميتها مدنا فكانت تتصل اتصالا وثيقاً بالحكم والإدارة أو بالقدر الضئيل من التجارة الذي يجري نقله. فلو اتخذنا مثلا أية وحدة سياسية لرأيناها تضم مدينة واحدة – واحدة فقط – هي العاصمة ومقر الحكم فيها حيث نمت نظمها وأصابت قدراً من النجاح كبيراً أو صغيراً في الدفاع عن البلاد وهيأت للناس فرص الاشتغال بالزراعة والرعي وغيرها من الحرف التي أمكن مزاولتها في أمن ودعة تدخل خارجي. كما قامت بضعة موانئ حيث كانت تسهيلات الشحن والتفريغ للسفن التي تزور الميناء تدريجاً ما، ولا نجد في الدولة بعد ذلك سوى قرى صغيرة ظلت على حالها عهداً طويلا دون أن تصيب ازدهاراً أو انحطاطاً فقد لت ليفربول مثلا قروياً عديدة وعدد سكانها لا يتجاوز كثيراً سبعمائة نسمة وفي هذا دليل أي دليل على جميع الظروف السائدة – وبقيت هذه المدن سنة بعد سنة وقرناً بعد قرن لا يطرأ عليها أي تغيير طفيف وظل الناس يولدون ويقضون وهم يعيشون في عالم يعتمد في أساسه على المهن الزراعية والرعوية – عالم يعير القوة الجسمانية للإنسان أهمية كبرى لأن المرء بقوة

عضلاته، والقوى من يستطيع أداء ما يعجز عن أدائه شخص ضعيف بل وبأي وسيلة كانت.

ثم بدت بوادر الانقلاب الصناعي منذ أكثر من قرن مضى – في عالم يقوم على الزراعة والرعي حيث اقتصر العمران فيه على بعض الموانئ الصغيرة بأسواقها التجارية وعلى بعض المدن الكبيرة التي أضحت عواصم لوحداته السياسية، وحتى ذلك الأوان كان استعمال الفحم قاصراً على الأغراض المنزلية، ثم أمسى مستعملا في إدارة الآلات التي تؤدي من الأعمال أكثر مما يستطيعه الإنسان أو الحيوان بل أكثر مما يستطيعه عدد منهم لو اجتمع بعضهم إلى بعض ظهيرا. وهكذا ذلل الإنسان لخدمته طاقة أخرى غير طاقته لتقوم بما كان يؤديه من قبل واستطاع أن يستخدمها على نطاق يتسع كثيراً عما مضى – فتغيرت الحال بعدئذ وأصبح في الإمكان استيراد المواد الأولية اللازمة للغذاء والكساء من أقصى بقاع الأرض ولم تقتصر التجارة على نقل الكماليات كالتوابل والشاي – ولكنها تناولت المواد الأساسية التي يتكون منها طعام الإنسان وملابسه، ففي بريطانيا مثلا لا يزرع من القمح إلا خمس ما تستهلكه ولم تعد الخضروات التي تلزم البريطاني في غذائه تنمو في الحقل المجاور لمنزله – وجاءت إلى البلاد أنواع من الفاكهة لم يسمع عنها أجداده من البريطانيين – كما لم تعد مواد الكساء تنتج إنتاجاً هو الكفاف بعينه بل أصبحت تستورد في كميات هائلة من القارات البعيدة فيما وراء البحار والمحيطات، ثم بات من الميسور إعداد الملابس الجاهزة إعداداً كاملا فقلت بالتالي عملية صنع الملابس في المنزل – كما أمكن إعداد معظم الطعام ليوضع فوراً على المائدة، وقلت

بالتالي العمليات المنزلية اللازمة لإعداده وأمسى إعداد الطعام في المدن العظمى صناعة زاهرة يمكن للمرء في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار أن يحصل على وجبة من الطعام تناسب ذوقه ومقدرته المالية.

هذا التطور الجديد كل الجدة الذي طرأ على الإنتاج والتجارة ترك أثراً بعيداً في نواحي الحياة الاجتماعية وهو قمين بأن يتناولها بالتغيير والتبديل في مستقبل الأيام.

وسرعان ما استفادت بريطانيا من هذا الكشف. وكان طبيعيا أن يتم هذا الكشف في بريطانيا وهي التي طالما استخدمت فحكم نيو كاسل (الفحم البحري) في الأغراض المنزلية البحتة.

وهناك من القرائن ما يدل على أن فحم نيو كاسل كان ينقل إلى لندن في عهد مبكر جداً يرجع إلى القرن الثالث عشر – وقد انفردت مناجم نيو كاسل من بين حقول الفحم في العالم يقربها الشديد من البحر حتى بذت ميع الموانئ الأخرى في رخص نفقات الشحن فيها – وبدأ الأهالي في استعماله في حرق الجير أو في كور الحداد أو في صهر النحاس والرصاص وعمل الفخار وفي تخمير الجعة أي أن استعماله كان قاصراً على طاقته الحرارية المباشرة ولهذا كان طبيعياً جداً أن تبدأ في بريطانيا لا في غيرها الخطوات الأولى البسيطة التي أدت إلى اكتشاف طرق استخدامه في إدارة الآلات – ومن الطبيعي أيضاً أن يكون لهذا التوفيق فيها – لا في

غيرها – هذه النتائج البعيدة الأثر فحيث يبدأ الناس اكتشافاتهم الأولى كان حرياً بهم أن يتابعوا بحوثهم أن يحققوا نتائجها.

فلما استخدم الفحم في توليد البخار نقلت أشياء كان من العسير نقلها قبلا وتحركت أشياء في سرعة لم يحلم بها الناس من قبل – ولما خرجت بريطانيا ظافرة من الصراع الطويل الذي انتهى بهزيمة نابليون في سبيل السيادة البحرية كانت أوضاعها مهيأة للإفادة على أحسن وجه من مزايا هذا الكشف الجديد الذي أخضع لها كميات هائلة متزايدة من الطاقة، بينما ظلت الدول الأوروبية الأخرى تعاني ألوانا من الارتباك في ميع مؤسساتها ومن ثم عجزت عن أن تجاري بريطانيا في هذه المزايا، فازدادت أهمية بريطانيا كبلاد تتحكم في مقادير هائلة من الطاقة. ولما كانت جميع الطرق تؤدي إلى لندن أنشئت أيضاً خطوط السكك الحديدية لتنحني فتتقابل فيها أيضاً. ونظراً لما كان للندن من مكانة مرموقة ولما لها من تراث ماضيها التاريخي ونظراً لما تجمع لها من قوة سيطرت بها على هذه الطاقة الهائلة فضلا عن أنها في الأصل العاصمة التجارية لبريطانيا، تضافر كل هذا فزاد مركزها توطيداً وأصبحت المركز الرئيسي الذي يؤدي خدمات البنوك للعالم بأجمعه.

وتبع ذلك تقدم جديد، ذلك أن تنظيم تجارة السلع المختلفة التي يسهل نقلها في اليابس والماء بالوسائل الحديثة قد ازداد يسراً وسهولة إذ أمكن للدولة التي تنتفع بخدمات البنوك في لندن أن تقتصد في طاقتها، وكانت بريطانيا بالطبع أكثر الدول انتفاعا بهذا كله.

ولقد قدر أن القوى التي يهيؤها استخدام الفحم في المصانع الإنجليزية وحدها بعد استبعاد جميع نواحي استخدامه الأخرى تبلغ في جملة طاقتها ١٧٥ مليون رجل(٣٤) يعملون جدياً وبأسلوب نافع يعز على البشر القيام به. وأن قوة اليونانيين التي أتاحت لهم بناء تلك الحضارة المجيدة في جميع نواحي التقدم البشري كانت تقوم في أساسها على طبقة من الرقيق – إذ كان لكل رجل إغريقي من الأحرار أي لكل عائلة إغريقية خمسة من الرقيق، وقد يغيب عن أذهاننا دائماً تقدير أعمالهم عندما تتناول الإغريق بالحديث مع العلم بأن هؤلاء الرقيق كانوا يقومون بأكبر قسط من الطاقة اليونانية.

وقد نقول أن لكل أسرة في بريطانيا أكثر من عشرين رقيقا يمدونها بالطاقة اللازمة لأعمالها – ولا تحتاج إلى إطعامهم وإعاشتهم ولا يشعرون بهموم حياة الذل والعبودية وبؤسها. ففي بريطانيا بسكانها البالغ عددهم ٤٥ مليون نسمة من رجال ونساء وأطفال تدور مصانعها بقوة ١٧٥ مليون رجل فضلا عن الطاقة التي تستعملها السكك الحديدية والبواخر البريطانية والتي تصل قوتها إلى نحو ٩٠ مليون رجل.

ولو أننا وازنا بين القوة الجسمانية التي يملكها أقل من عشرين من الرجال والنساء وبين نفس القدر من القوة الآلية التي نتيحها الوسائل الميكانيكية المختلفة – لو أننا وازنا بين القوتين لاتضح لنا تفاهة القوة

---

(١٠) هذا في وقت تأليف هذا الكتاب أي في عام ١٩٢٧.

الإنسانية بالنسبة للقوة الآلية – ولقد أصبح الإنجليز أمة من المهندسين يضغطون بأصابعهم على أزرار مختلفة أو يحركون روافع آلية أو يعملون في تشحيم الآلات وحفظها، الأمر الذي يجعل الآلة الاجتماعية الكبرى تعمل في سهولة ويسر بقدر الإمكان.

فأصبحت تلك القوى الآلية تقوم بطحن الغلال وصناعة الملابس ونقل الأطعمة من أقصى جهات الأرض وحمل المسافرين هنا وهناك وهم يسعون في مناكبها يبغون لهوا أو عملا كما تقوم بنشر الأخبار وبطبع الكتب المملوءة بالحكمة والمعرفة وتأدية خدمات لا حصر لها ولم يحلم بها الإغريق قط.

ثم أخذ استغلال الفحم يمتد شيئا فشيئا إلى البلاد الأخرى، خاصة وأن نطاق الفحم في أوروبا يمتد في فرنسا وألمانيا والنمسا والروسيا حيث الأحوال الجغرافية فيها تختلف الآن عما كانت عليه منذ أحقاب مضت تقدر بمئات من ملايين السنين – فقد كانت شواطئ القارة القديمة بمناخها الحار الرطب تنخفض بالتدريج وكانت خير بيئة لنمو الأشجار الغابية السرخسية العظيمة في كثرة وكثافة ملحوظتين ثم طمرت وظلت بقاياها محفوظة بين طبقات الطين والرمل التي أرسبتها المحيطات أو لبتها الأنهار حتى لجأ الإنسان إلى هذه الطبقات حديثا لتزوده بالطاقة التي اختزنتها له الكيمياء العضوية واحتفت له بها بين أنسجة الأشجار النامية. ولم يتكون الفحم في كل مكان من هذه النطاق، وأن تكون، فقد يحدث أن تكون عوامل التعرية والالتواء قد أزالته تماما خلال العصور الطويلة التي مرت به

حتى وقتنا هذا. وفي مناطق أخرى من أوروبا تكون الفحم في عصور متأخرة ولكنه في الغالب ضئيل القيمة قليل الكمية ردئ النوع.

ومن ثم استطاعت هذه الدول المختلفة تحت ظروف مختلفة أن تستغل الطاقة التي تيسرت لها بدرجات متفاوتة، وفي فرنسا مثلا يوجد الفحم في ركنها الشمالي الشرقي حيث ينحني نطاق الفحم ويدور ليعبر مضيق دوفر وليتصل بحقل الفحم في كنت بإنجلترا وهو حقل طالما عرفه الناس وأن لم يستغل إلا أخيراً – حقا يوجد بعض الفحم في المرتفعات الجنوبية في فرنسا ولكنه في كميات قليلة – وبينما تجني فرنسا المزايا التي هيأتها لها معرفة أهلها ووهم ذوو مهارة وذوق وخبرة بأحسن الأساليب الحديثة فضلا عن مقدرتهم على استيراد الفحم من البلاد الأخرى إلا أن فرنسا على الرغم من كل هذا بقيت دولة زراعية في أساسها.

غير أن ألمانيا أسعد حظا نسبياً ولو أن نطاق الفحم فيها يجري ملاصقا للحافة الجنوبية للسهل – وفي هذا عيب بعده عن البحر – ويرجع أكبر الفضل في تقدم ألمانيا الحديثة إلى وجود موارد عظيمة من الطاقة في داخل حدودها – فلما بدأت إنشاء الطرق الحديدية رسمت سياستها بأن عمدت إلى جعل برلين مركز تقابلها لأنها أضحت عاصمة الدولة وقت إنشاء الخطوط الحديدية مما زاد في أهمية مركزها كعاصمة للبلاد وحقق لها قسطا من الاستقرار رغم أن السكان يتجمعون في مناطق الفحم البعيدة عن هذا المركز المتوسط.

وتتقاسم ألمانيا والنمسا حقول الفحم الموجودة في أعالي نهر الأودر[٣٥] ويضاف إلى ذلك ما تمتلكه النمسا من كميات صغيرة مبعثرة رديئة، ولروسيا حقول واسعة من الفحم تمتد شمال البحر الأسود، ولكنها كما يتضح من تاريخها الماضي لم تمض في استغلالها شوطا بعيدا.



الخريطة رقم ٧٣

حقول الفحم في الولايات المتحدة

أما بلاد الهند والصين فإن ماضيهما التاريخي لم يهيئ لهما فرصة استغلال الفحم الموجود بهما استغلالا سريعا، ولا تستحق كميات الفحم في البقاع الأخرى من العالم أي اعتبار باستثناء أمريكا الشمالية فقط، التي بذت جميع البلاد الأخرى في مدى استفادتها من اكتشاف طاقة الفحم، وقد قدرت موارد الفحم في العالم بمقدار ٧.٣٩٧.٥٣٣ مليون طن ويقدر ما تمتلكه كندا منها بنحو ١.٢٣٤.٢٦٩ مليون طن ويقدر نصيب الولايات المتحدة من هذه الكمية نحو ٣.٢١٤.١٧٤ مليون طن، وسواء صدق هذا الزعم أم لم يصدق فإنه من الجلي أن كميات الفحم الموجودة في أمريكا الشمالية تمثل نسبة عالية غير عادية من جملة كمياته الموجودة في

---

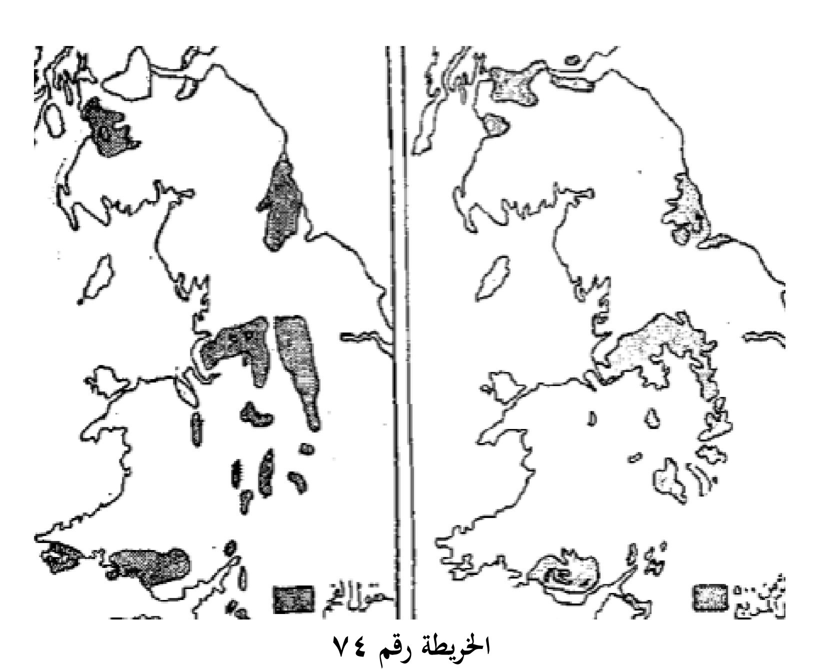
[١١] هذا قبل أن تصبح النمسا دولة صغيرة.

العالم أجمع، ولو أننا تناولنا بالبحث والتحليل مواضع حقول الفحم في الولايات المتحدة لرأينا أن الفحم فيها يقع في ثلاثة أرباع عدد الولايات التي تدخل في نطاق الاتحاد تحت لواء الحكومة الاتحادية في واشنجتن – على حين أن أكبر كمياته تقع مباشرة على طول الطريق الذي امتد فيه العمران الطبيعي بجزاء وادي الهدسن والموهوك.

وتختلف أمريكا الشمالية عن القارات الأخرى في أن الجزء الكبر منها درج في حضارته من أول الأمر مستخدما الوسائل الحديثة، وقد نما عدد سكان أمريكا الشمالية نموا كبيرا حتى ليمكن أن يقال أن سكان الجزء الواقع شمال المكسيك قد تضاعفوا مائة ضعف منذ بداية القرن التاسع عشر، وقد سخرت الطاقة على نطاق واسع جماعات الفت الجد في العمل ونفضت عن أنفسها قيودا كثيرة من التقاليد البالية وبدأت تعتنق أفكارا جديدة دون أن تتعصب لهذه أو لتلك. فليست المسألة إن سلالات أوروبية أغرتها الهجرة إلى أراضي فيها كثير من الشبه بأوطانها الأولى وليست بذات قيظ لا فح في الصيف ولا بذات برد زمهرير في الشتاء حتى يحولا دون العمل، بل هي بلاد بلغت حدا من الحرارة يكفي لنمو النبات وبلغت من البرد جدا يحفز على إعمال التفكير. حقا لم تكن توائم نمو حضارات مبكرة ولكنها كانت الطراز الذي يصلح لنمو حضارة يقيمها رجال من شمال أوروبا بالإضافة إلى ما توافر لها من مزايا امتلاك كميات هائلة من طاقة الفحم.

***

وظلت عمليات الهجرة والاستيطان والتكتل تجري مجراها على الساحل الشرقي خلال قرون، فتم بذلك تشكيل الطابع العقلي والأخلاقي للمجتمع الأمريكي كما تحددت لغته أيضا، وقد بدأ الناس فيها يشعرون بقيمة الكشف الجديد (أي استخدام الفحم في توليد البخار) في نفس الوقت الذي توصلوا فيه إلى معرفة طريق الهدسن والموهوكوغيره من الطرق الجنوبية التي تصل الشرق بالسهول الوسطى، وإن كانت تزيد في وعورتها عن طريق الموهوك. وفي عام ١٨٠٧ أي قبل افتتاح قناة إيري بثمانية عشر عاما أبحرت أول سفينة بخارية من نيويورك إلى ألباني فقطعت مسافة ١٥٠ ميلا في أربع وعشرين ساعة، ومن السخف أن نتساءل ماذا يكون الولايات المتحدة لو لم يدركها الصناعي؟ والجواب يسير ومعروف إن لم يكد الانقلاب الصناعي يؤثر أثره حتى قفزت الولايات المتحدة واكتسبت أهميتها، فمست يد السحر جمع مرافق فيها من تحسين في زراعتها إلى استخدام آلات حديثة أقدر على أداء أغراضها، فازدادت غلة الأرض عما كانت قبلا، وغلى هذه التطورات عينها يرجع الفضل في تكدس رؤوس الأموال في بريطانيا وبفضلها استطاعت الخروج ظافرة من الحروب النابوليوب ولا شك أنه كان لهذه التطورات أثرها المباشر في غرب المحيط الأطلسي كما كان لها أثرها في شرقة. ونستطيع أن نتعرف على مدى التغيير الذي أصاب أمريكا لو قارناها بما حدث لبريطانيا.



الخريطة رقم ٧٤

توزيع الفحم وتوزيع السكان في بريطانيا

فلما بدأت بريطانيا في استخراج الفحم من مناجمها المتناثرة في المراعي الممتدة على جانبي جبال البنين ظهرت في الوجود انجلترا أخرى جديدة أحدث عهدا من ولايات "نيوانجلند" التي أسست على الشاطئ الشرقي لأمريكا قبل الانقلاب الصناعي بقرنين من الزمان، وحتى ذلك الأوان كانت مقاطعات يور كشير والمراعي المحيطة بها جميعها خالية من السكان تقريبا والناس يتكاثرون على الأراضي الخصيبة الممتدة إلى الجنوب منها. أما الآن فالناس يتزاحمون فيها بالمناكب وكل يبذل جهده في توجيه طاقة الفحم الوجهة التي تجود بأحسن الثمرات. هذا وتختفي في الولايات المتحدة أهمية التطور الجديد تحت ستار من التطور الزراعي فيها وما التطور الزراعي نفسه في واقع الأمر إلا أحد مظاهر هذا التغيير الشامل كان

الهندي الأصيل من سكان أمريكا يتحول في قاربه الصغير في الأنهار والبحيرات بينما أخذ المهاجرون الأوروبيون يجوبون في وقواربهم البخارية – التي بنيت على طراز سفينة فولتون – الأنهار والبحيرات ثم القنوات فانتشرت الزراعة في البلاد على أيديهم أسرع مما لو قدر لها إتباع وسائل أخرى.

ومنذ افتتاح قناة إيري في عام **١٨٢٥** توطد مصير نيويورك نهائياً كمنفذ تجاري للدولة، ثم أنشئت السكك الحديدية فجرت أولا بحذاء البحيرات والأنهار ثم ابتعدت عنها لتخترق البقاع المتنائية – مما هيأ للإنسان فرصة الاقتصاد في الطاقة وسمحت له باستخدام طاقته البدنية على خير وجه ممكن. غير أنه حتى منتصف القرن التاسع عشر لم تكن تبشر الدلائل بما تمخض عنه هذا التطور في نهاية هذا القرن، فقد كانت باكورة النتائج لاستخدام الفحم في صناعة الغزل والنسج وفي طرق المعادن وسحبها قاصرة على استقرار السكان حيثما وجدوا، وفي ولايات نيوانجلند أمكن استخدام القوى المائية في إدارة الطواحين ثم اتخذ الفحم بديلا عنها نظراً للعدد الكبير من السكان الذين تجمعوا فيها أكثر من أي مكان آخر ممن اكتسبوا مهارة خاصة في استخدام الآلات حتى وإن كانت من نوع بسيط. ثم تجمع السكان من ذوي المهارة شيئاً فشيئاً في حقول الفحم الممتدة على طول الحافة الغربية لجبال الأبلاش ثم في المنطقة المتوسطة جنوبي بحيرة مشيجان ولا تزال تمتد هذه الحقول نحو الجنوب الغربي – ولا تزال المناطق الحديثة في نموها غير قادرة على الوقوف نداً لند مع تلك التي اكتسبت مهارة خاصة أما بتوارثتها جيلا عن جيل وأما

لأنها نقلتها إليها أو اقتبستها عن غيرها – ولا يهمنا أيا كانت الوسيلة التي توسلت بها إلى اكتساب تلك المهارة بقدر ما يهمنا أنها قد بدأت تنافس تلك البلاد ذات السبق في الحضارة – والتي تستمتع بقوة القصور الذاتي التاريخية. وقد أمكن الآن إقامة الصناعة القطنية بنجاح في مقاطعة ألباما، ولو سار إنتاج الفحم في زيارته بالمعدل الذي يسير عليه الآن – فلن يمضي طويل وقت قبل أن يبلغ الطرف الجنوبي لجبال الأبلاش في إنتاجه للفحم قدر ما تنتجه مقاطعات نيوانجلند.

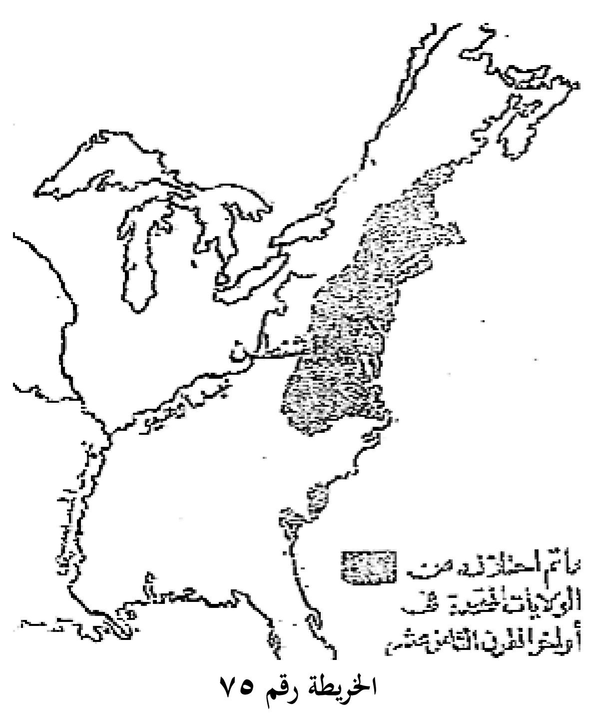
وليس التقدم كله وليد استخدام تلك القوى الضخمة المتولدة من الطاقة الفحمية، ولكن هناك حقيقة تكمن في أن كل تقدم في مرفق من مرافق الحياة يحفز على تقدم في المرافق الأخرى، فدعت الضرورة بعدئذ إلى صناعة آلات جديدة تتناسب والظروف الجديدة المتطور واستحدثت آلات تهيئ للإنسان فرصة الانتفاع بطاقته البدنية وطاقة ما يستأنسه من حيوان لكي يكون أكثر انتفاعاً عما كان قبلا. ومنذ أن نجح الإنسان في أن يستبدل بيده عصاه أو آلة حجرية، والآلات تسير نحو الكمال كلما تقادمت العصور. فلما حدثت الثورة الصناعية انتشرت عملية الاستبدال هذه انتشاراً واسعاً فشملت بلاداً أخرى بالإضافة إلى البلاد التي نتحدث عنها الآن، غير أنها لم تبلغ من الظهور والوضوح في أي قطر ما بلغته في الولايات المتحدة.

وطبق الأمريكيون الدرس الذي تعلموه من الصناعة على الزراعة فاستخدموا الآلات بقصد الاقتصاد في الطاقة واستغلالها، فاختفى النجل

اليدوي ليحل محله المنجل الآلي وقد أدى استخدام الآلات إلى تخفيض تكاليف الزراعة للمحاصيل بنحو ١٧٠ مليون جنية في مدى خمسين عاماً – وفيما بين عامي ١٨٥٥ و ١٨٩٤ نقص تباعاً الزمن الذي يستغرقه الفلاح في إنتاج البوشل الواحد من الذرة الهندية من أربع ساعات ونصف إلى ثلاثة أرباع الساعة، وبين عامي ١٨٣٠ و١٨٨٦ نقص الزمن الذي يستغرقه العامل لإنتاج البوشل الواحد من القمح من ثلاث ساعات إلى عشر دقائق – وفي عام ١٨٦٩ كان نقل البوشل الواحد من القمح من شيكاغو إلى ليفربول يتكلف ٣٧ سنتيما فأصبح عام ١٩٠٥ يتكلف نقله خمسة سنتيمات وحتى الآن على الرغم من تناقص قيمة النقد في أيامنا هذه فلا تزيد نفقاته عن هذا الحد إلا قليلا[٣٦]. ولم ينقص القمح أو الذرة في قيمتها الغذائية ولكن حدث وفر في الطاقة وانطلق الناس أحراراً يؤدون أعمالا جديدة فيفيدون من أوقاتهم فوائد أخرى.

---

[١٢] كتب هذا في عام ١٩٢٧.



الخريطة رقم ٧٥

"المستعمرات البريطانية الأولى في شرق الولايات المتحدة"

كانت واشنجتن مركزا مناسبا لتكون العاصمة في الوقت الذي اختيرت فيه

ولما أنشئت السكك الحديدية أضحى التنظيم في الأمريكتين أيسر تطبيقاً على نطاق واسع، أوسع منه في العالم القديم، واختيرت واشنجتن بطبيعة الحال لتكون مقر الحكومة بحكم توسط موقعها بين مستعمرات نيوانجلند ومستعمرة فرجينيا حين كان السكان يزدحمون على الشواطئ الشرقية، ومن الطبيعي بعدئذ أن تظل عاصمة البلاد ويتوقف بقاؤها كعاصمة لها على سهولة اتصالها بالولايات الواقعة في الوسط أو النائية في الغرب وقد كان لإنشاء سكة حديد كندا الباسيفيكية أثرها في ضم

كولومبيا البريطانية إلى كندا. كذلك كان أنشاء الخطوط الحديدية الأخرى عبر القارة حائلا دون نمو وحدات مستقلة على شواطئ المحيط الهادي.

لقد انتشرت السكك الحديدية في كل دولة أوروبية غير أن انتشارها هنا كان أوسع نطاقا – وهاك ظاهرة تستحق الذكر وهي أن السكك الحديدية في أمريكا الشمالية خلقت مدنا في المناطق التي مرت بها باستثناء شواطئ المحيط الأطلسي لأنها لم تخطط لتمر بالمدن الهامة ولكنها اتبعت في سيرها الطرق التي تقل فيها المقاومة الطبيعية ما أمكن، فلم يكن بد من التقائها في بعض النقط كموقع مدينة شيكاغو مثلا حيث وجد الناس هذا المكان أكثر ملاءمة لسكناهم عن غيره من الأمكنة وهكذا نشأت المدن وليدة التقاء السكك الحديدية.



الخريطة رقم ٧٦

موقع شيكاغو

كذلك نرى في الولايات المتحدة تلك القوى الآلية الجبارة التي سخرها الإنسان لخدمته وتقوم مقام الرقيق في الأزمنة السالفة، نراها تهيئ للإنسان قدراً من الطاقة على نطاق واسع يصل بالتنظيم والاقتصاد إلى أبعد الآفاق، والأمريكيون هنا مهندسون بارعون تفوق عبقريتهم الهندسة عبقرية سكان القارات القديمة، يضعون الخطط الدقيقة للإفادة على خير وجه من الطاقة التي يتم لهم اقتصادها – ويصرفون بعضها في اكتشاف الوسائل المؤدية إلى زيادة الاقتصاد فيها ولا ينفقون ذلك عبثاً أو تعسفاً هواية عارضة بل يتوخون الصبر في بحوثهم – ولا تجاري الولايات المتحدة بلاد أخرى في السخاء بكرم على البحوث العلمية من جميع أنواعها سواء بطريق مباشر أو غير مباشر فتسير حضارتها قدماً.

غير أن الأراضي الجنوبية في الولايات المتحدة رطبة وتختلف أحوالها عن تلك التي يألفها الأوروبيون فاضطر سكانها في أول مراحل استقرارهم في البلاد إلى استقدام الزنوج من أوطانهم الأفريقية ليقوموا بالعمل اليدوي الشاق في الحقول وعلى الأخص لإنتاج القطن لمصانع لنكشير، والزنوج عادة يتناسلون في سرعة، ويكونون جماعات متماسكة وقد بلغ تعدادهم عشرة ملايين نسمة(٣٧) لا يختلطون بغيرهم من السكان بل ويتعذر على المجتمع تمثيلهم وهضمهم – وليست هناك صحراء هامة لتفصل بين الجنس الأبيض والأسود – ولم تقاس أمة أخرى ما قاسته الولايات المتحدة من مثل هذه المشكلة ولم تصل بعد إلى حل لها.

---

(١٣) تعداد الزنوج الآن في الولايات المتحدة يصل إلى ١٦ مليون نسمة.

الفصل الثامن عشر

توزيعات اليابس الكبرى - العالم كما هو

لقد تحدثنا حتى الآن عن دول مختلفة وكل واحدة منها كانت تزيد في مساحتها عن سابقتها، حتى الإمبراطورية الرومانية وهي تكاد تعادل في مساحتها الولايات المتحدة لا يمكن مقارنتها بها إطلاقاً في عدد السكان، ولقد زادت طرق المواصلات سهولة خلال الجيل أو الجيلين الأخيرين، وبفضلها أصبح العالم الآن مجموعة اقتصادية واحدة، ولم يعد جزء منه بقادر على الاستغناء عن الأجزاء الأخرى. حقاً أن هذا العالم أصبح الآن وحدة حية ولو أن تنظيمه لا يزال بعيداً عن حد الكمال حتى من الناحية المادية.

ومن ثم ينبغي علينا في دراستنا اعتبار العالم الحديث وحدة واحدة أكثر من اعتباره أجزاء منفصلة وهو كالكائن الحي معقد كل التعقيد في تركيبه حتى ليصعب التعبير عنه بتعريف بسيط غير أن هناك طريقة أو طريقتين للنظر إليه، وقد تظهران لأول وهلة كيف قام التنظيم في العالم أجمع وكيف وفرت الطاقة تبعاً لذلك كما تظهران الخطوط التي سوف يجري عليها التقدم فيما بعد، ولكل نظرة قيمتها.

ولعل أبسط الطرق عند النظر إلى توزيع اليابس هي أن نأخذ الجزء اليابس على أنه جزيرتان عظيمتان هما جزيرة متوازية الأضلاع تمثل العالم القديم وجزيرة أخرى هي عبارة عن الأمريكتين وكلتا الجزيرتين تقعان في محيط عظيم... ولم يجر ذكر الأمريكتين في قصة العالم إلا حديثاً، بينما نشأت في العالم القديم ثلاث حضارات عريقة مستقرة هي الحضارة الأوروبية وقد انتشرت في النطاق المنخفض والذي تغمر بعض أجزائه مياه البحر عبر الكتلة اليابسة، ثم الحضارتان الهندية والصينية وقد ازدهرتا على حافة المحيط.

وينقسم متوازي الأضلاع الذي يكون العالم القديم إلى قسمين غير متساويين تفصلهما الصحراء أكثر من أن يفصلهما نطاق البحر الممتد بينهما، وهما القسم الأفريقي ولا تاريخ له والقسم الأوروبي الآسيوي. كما يقع في قلب الكتلة الأوراسية السهل الأعظم بمراعية الاستبسية في جنوبه، تستند في ظهرها إلى الغابات في الشمال ثم إلى المحيط الشمالي الذي تعز الملاحة فيه، هذا السهل هو الآن سهل الروسيا وإن ظل طويلا موطن الرعاة الرحل الذين طالما اندفعوا منه إلى البلاد التي تحف به.

وقد عرفنا أن البلاد الساحلية تحيط بهذا السهل وإن فصلتها عنه في بعض المناطق هضاب عالية أو سلاسل جبلية، وقد تطورت هذه البلاد في نظمها حتى نضجت فأصبحت دولا مختلفة تتبعنا تاريخها فيما سبق من فصول واحتمت إلى حد كبير بحاجز الصحراء الكبرى فأمنت شر الخطر الزنجي.

أما الجزء الأوسط من هذه المنطقة فبعضه سهول وبعضه هضاب، بعضه قد تناولته المدنية بأسبابها وبعضه بقى على الفطرة – وهو بحكم توسط مركزه، وبحكم اتساع مساحته ذو موقع فريد في العالم قديمة وحديثة – ويمكن ربط أطرافه بالطرق الحديدية بسهولة كبرى، لا لأنه بعيد عن المحيط، ولا لأنه مستقل عنه، بل بسبب حقيقة واقعة وهي أن قلب هذا السهل أميل في طبيعته إلى بيئة المراعي إن لم يكن إلى بيئة الصحراوات، وتوحيد أجزائه أمر طبيعي لو قامت به قوة من القوى المستقرة في أحد أطرافه أي بالقرب من حافاته في الشرق أو في الجنوب أو في الغرب. وفي الواقع أن هذا القلب قد شمله التنظيم مرة بعد أخرى مدداً طالت أو قصرت بوسائل مختلفة، وكانت جميع المحاولات استبدادية خالصة في نظم حكمها – سواء خرجت تلك المحاولات من جبال التاي في الشرق أو من هضبة طوران في الجنوب، أو تلك المحاولة التي بذلتها مقاطعة موسكو في الغرب أخيراً، وكانت أكثرها توفيقا.

وتوجد في متوازي أضلاع أوراسيا أراض تقع على حافة المحيط وتتأثر بالبحر في تاريخها، وسكان معظم هذه البلاد في القطاع الأوروبي سادوا البحر زمناما كالعرب والفينيقيين والإغريق والإيطاليين القدماء منهم والمحدثين والأسبان والبرتغاليين والبريطانيين والهولانديين والنرويجيين كلهم دانت لهم سيادة البحر أو سيادة المحيط معتمدين جل الاعتماد أو بعضه على سهولة النقل المائي ورخصه وأمنه، وعلى ما يشعرون به من ميل جارف نحو البحر نشأ عندهم من جراء طول ألفتهم له وركوبهم ظهره، وأما في القطاع الآسيوي فاليابانيون هم الذين انفردوا من بين سكان آسيا في

تقرير مصائرهم على متن البحار. أما الهند والسين فقد ظلتا تختلفان اختلافاً أساسياً عن البلاد الغربية – وإن بقيتا معرضتين للمؤثرات المحيطية، إلا أنهما لم تحاولا قط أن تلعبا دورهما على مسرح البحر.

ولم تصادف السيادة البحرية البريطانية أي تحد لها تقريباً منذ موقعه الطرف الأغر فكانت سفن الأسطول البريطاني تمخر عباب البحار جميعا وتتجمع بكثافة في بحر المانش أو بحر الشمال حين يحتمل ظهور الخطر فيه عن غيره من البحار وتسير في دوريات منفردة في المحيطات وفي شرق أفريقيا مثلا حيث لا يوجه لها أي تحد، وكانت النتيجة الواضحة لهذا التفوق البحري تكوين مجموعة الأمم البريطانية التي تعتمد على أمها بريطانيا فضلا عما يتبعها من ملحقات ومحميات ودول وضعت تحت انتدابها ومحطات متفرقة بعضها على حافات أوراسيا وتبعثر بعضها الآخر في أنحاء المياه التي تحيط بالكرة الأرضية أو اشتط بها النوى إلى ما وراء الصحراء الكبرى، ولكنها جميعا اشتركت في صفة واحدة هي الاعتماد على البحار كلية في اتصالها ببريطانيا قامت السفن التجارية في جميع البحار بدور لا يقل حيوية عن دور الأسطول فقد كانت واسطة الاتصال لجميع مواطن الاستعمار البريطانية وبجميع المواضع التي استغلت فيها الأموال البريطانية، وتعاونت مع بريطانيا دول بحرية أخرى كفرنسا مثلا وهي التي ظلت عدوة لها حقبة طويلة وكإيطاليا بعد أن أعيد تنظيمها حول روما وأصبحت وريثة للتقاليد الرومانية، وكالبرتغال وهي حليف قديم لبريطانيا وكاليابان وهي أحدث حلفائها فكونت هذه الدول مجموعة من

القوى البحرية سيطرت عمليا على جميع الأراضي التي تحيط بقارتي أوروبا وآسيا.

ولما شمل التنظيم قلب أوراسيا والدول البحرية كان من الضروري أن تظهر بالتدريج منطقة نتقابل فيها القوتان وأن تقوم بالتدريج في هذا النطاق مجموعة من الدول الصغرى هي في أغلبها بقايا تاريخية لعهود غابرة، حين كانت التنظيمات السياسية والاقتصادية محدودة ضيقة النطاق فاكتسبت كل دولة منها خصائص مميزة لها، بعضها طبيعي وبعضها موروث من العهود القديمة، وأصبح لها من شخصيتها ما يعضها عن الذوبان في غيرها – وظلت في هذا الوضع التعس كدول مانعة للتصادم أما لأنها عجزت أو لأنها عزفت عن الاتحاد مع غيرها لتندمج في وحدة كبرى، فهي من الناحية السياسية مستقلة استقلالا مقلقلا مضطربا ولكنها تلحق بغيرها دون شك من الناحية الاقتصادية. وقد اختلف نطاق الدويلات القليلة السكان من آن لآخر تبعا لتطور الظروف، ولكنه ظل يحتوى على فنلنده والسويد والنرويج والدانمرك وهولنده وبلجيكا ولكسمبرج وسويسره وبولنده ودول البلقان وإيران وأفغانستان وسيام وكوريا. وفنلنده مثلا على بعد موقعها ليست سوى قطاع ساحلي يصلح للزراعة يستند ظهره إلى غابات ومستنقعات تسكنها جماعات تختلف اختلافا أساسيا عن جيرانها. وتشترك اسكندنياوه والدانمرك في كثير من الخصائص غير أنهما مسكونتان بشعوب تتباين وتختلف في تاريخها وعاداتها، وتشعر شعوراً قويا بهذا الاختلاف. أما الأراضي الواطئة فيسكنها الهولنديون والبلجيكيون وهم قلة غير أنهم يقدرون الفروق التي تميز بعضهم عن بعض تقديراً خاصاً،

فأهل هولنده رجال بحر وزراعة بينما نحا أهل بلجيكا نحو الأعمال التجارية والصناعية. وال|أراضي الواطئة بالإشتراك مع لكسمبرج والأبزاس واللورين وسويسرة تمثل الجزء الأوسط من إمبراطورية شارلمان أي مملكة لوثرنجيا التي كانت تقع بين الجزأين الشرقي والغربي وانفردت سويسرة بكونها البلاد الوحيدة التي احتفظت باستقلالها من بين سكان جبال الألب. وقد نشأت في بادئ الأمر نتيجة لتحالف أربع مقاطعات سيطرت على ممرات الطرق الكبرى عند تقاطعها بين شعاب جبال الألب فيما وراء قمة أندرمات Andermatt وكان موقع هذه الولايات أكثر ملاءمة للدفاع عن استقلالها، وتفضل غيرها من الولايات الألبية الأخرى، إذ هيأت الطبيعة لسكان الوديان الجبلية فرصة لقاء المهاجرين في الأراضي المنخفضة الواقعة إلى الشمال منهم مع احتمائهم في نفس الوقت بسلاسل جبال الجورا وببحيرات جنيف وكنستانس. أما الدول البلقانية فسكانها مجموعة من رعاة الجبال وفلاحي الوديان وتجار البحار وهم خليط من السلاف واليونانيين ينتمون في دياناتهم إلى المذهب الكاثوليكي وإلى الكنيسة اليونانية وإلى الدين الإسلامي، كل فئة حسب ماضيها التاريخي، ولكنهم يشعرون جميعا شعوراً قوميا، ويحنون إلى التجمع في وحدات قومية تتصل اتصالا وثيقا بظروف بيئاتهم الجغرافية، وإلى الشمال منهم نشأت دول من شعوب تقطن السهل، حدودها مائعة ولبعضها مواقع جغرافية هيأت لها تاريخا مستقلا قد يمتد إلى قرون مضت وقام بعضها الاخر في أحضان الغابات فلم تستطع أن تقف على قدميها قط وبالأحرى لم تسنح لها فرصة الاستقلال.

وإلى الشرق تقع تركيا وقد مرت في تاريخها بعهود مختلفة بدأت بعهد ما قبل الإغريق وتتابعت عليها عهود الإغريق وتتابعت عليها عهود الإغريق والرومان والبيزنطيين والأتراك ولم تستقر حدودها على حال واتخذت مدينة القسطنطينية كعاصمة لها واعتمدت في أساسها على أقليم آسيا الصغرى – وقد استوطن الأرمن المرتفعات وسكن الفرس الهضاب ولكل شعب من هؤلاء ذكرياته عن أمجاد غابرة سواء عسكرية أم فكرية أم روحية إلا أن إيران الآن بلاد تكاد تخلو من كل سلطة معترف بها حتى ليصعب على المرء يطلق عليها لفظ دولة[٣٨]. أما أفغانستان وغيرها من دول الهمالايا فعلي الرغم من تأخرها في الحضارة عن الدول الصغرى إلا أنها تستمتع لقسط حقيقي من الاستقلال أوفر حظا من تلك الدول الأوروبية الصغرى نظراً لبعد مواطنها ولأنها أصعب منالا على القوات الغازية، ولكنها في الواقع أقل مقدرة على المقاومة لو أنها تعرضت لهجوم منظم.

ويجوز لنا اعتبار ألمانيا، بمعنى ما، داخلة في هذا النطاق، وكذلك الصين، ذلك أن أوروبا الوسطى تعتبر من منطقة التصادم هذه ما دامت بعيدة عن التنظيم مقطعة الأوصال تتنازع جماعاتها عوامل العداء، غير أنها لو نظمت في إطار من الوحدة لاختلف مركزها كل الاختلاف ولأصبحت قوة لا يستهان بها. وتعتبر ألمانيا دولة بحرية كبرى لما لها من الاتصال بالحبر الذي يغريها بالملاحة البحرية وموقعها على الحافة الغربية لقلب أوراسيا مع

[١٤]كتب هذا في عام ١٩٢٧ قبل أن تستقر أمور الحكم في إيران.

ما امتازت به هذه الحافة من ازدحام في السكان يجعل على أية حال مركزا تنبعث منه محاولات لتنظيم هذا القلب.

أما الصين فهي عالم في حد ذاتها – عظيمة جدا في مساحتها متجانسة جدا في سكانها إلى حد يجعلها لقمة عسيرة الهضم على فاتحيها على الرغم من أن بعض أجزائها قد ينجح في استغلاله أقوام أخر يجيئون إليها من بلاد أخرى. وقد رأينا أن أهل الصين بطبيعتهم يعزفون عن الاشتغال بالأعمال البحرية في إعداد وفيرة إلا أن اتصالهم بالبحر يهيئ لهم مزاياهم حريصون على الإفادة منها والصين شأنها كشأن ألمانيا بل هي أجدر من ألمانيا في موقعها الذي يبيح لها السيطرة على قلب أوراسيا دون أن تتعرض لاحتمال أي أجنبي. ويجب ألا يغيب عن الذهن أن الصين سيطرت في زمن ما على جزء كبير من هضاب الاستبس يمتد غربا حتى كاشغر وزنجاريا – وسادته الثقافة الصينية في عهد من العهود ولا يخفي الآن أن بعض جنود البلاشفة هم من المرتزقة الصينين. فالصين ولو أنها دولة قليلة الحركة إلا أنها ذات موقع فريد في أهميته.



الخريطة رقم ٧٧
اتساع الإمبراطورية الصينية

والهند نفسها ذات مركز أكثر تفردا من الصين، ولو أن القليل من سكانها يعملون في الملاحة البحرية والنهرية إلا أنها تستمع بمزايا الاتصال البحري السهل وتتمتع بسلامة موةاصلاتها البحرية بحكم أنها جزء من مجموعة المم البريطانية. والواقع أن الهند لا تجمعها وحدة حقيقية بل تتكون من ولايات عديدة مختلفة متعادية في أغلب الأحوال. والهند بهذا الوضع حلقة من حلقات منطقة التصادم بين القوتين إلا أنها وهي تستظل بالحكم البريطاني أقرب إلى الوحدة منها في أي ههد من عهود تاريخها(٣٩)، فهي من بين البلاد الساحلية التي تحف بالمحيط أقربها إلى حافة قلب أوراسيا العظيم. وطبيعي أن تلعب الهند دورها في السيطرة على هذا القلب، غير أنه يلاحظ أنه منذ فجر التاريخ استمرت موجات الهجرة تدفع بالناس من

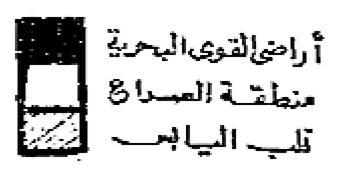
---

(١٥) كتب هذا في عام ١٩٢٧ قبل أن تستقر دولتا الهند والباكستان.

قلب آسيا نحو الهند، ولم يعرف قط أنه كان لهذه العملية رد فعل عكسي. هذا باستثناء ما حدث في العصور السحيقة عند انتشار الإنسان على ظهر الأرض فهناك من الفروض ما يؤيد انتشار الهجرة البشرية في إعداد وفيرة من الهند إلى داخل القارة.

وإن هذه الآراء عن قلب أوراسيا وما يحيط به دول بحرية وما بينهما من مناطق تصادم هي نتيجة مباشرة للحقائق الجغرافية الراهنة، وقد نشأ هذا الوضع القائم الآن ثم تطور على مر الزمن، وكلما تغيرت الظروف تفاعل ميراث الماضي مع عناصر الحاضر وهكذا تنتظم الأمور في مرونة توائم تغير الظروف.





الخريطة رقم ٧٨

قلب العالم القديم والمراكز التي سادته

ولا يعيش العالم القديم وحده في هذه الكرة فإن العالم الجديد يحتل مكانه في محيط أوسع مجالا، ولبس للظروف الجغرافية أو الماضي التاريخي للعامل الجديد ما يؤثر بطريق ما في دول العالم القديم. ذلك أن الأراضي في قلب العالم الجديد والدول البحرية فيه لا تنفصلان عن بعضهما بل تمتزجان، ومن ثم انعدم ظهور نطاق التصادم بين القوتين، والولايات

المتحدة هي سيدة المسرح الأمريكي لأسباب ربما تكون قد تتبعنا بعضها حتى الآن، حقا قد تصبح الولايات المتحدة دولة بحرية كبرى، وتلعب في التاريخ دورا أكبر مما لعبته بريطانيا في الأزمنة السابقة غير أنها بعيدة —وإن لم تبعد كثيراً – عما قد يقوم في العالم القديم من حروب ومنازعات وما يتمخض عنها من نتائج، وقد عاشت في عزلتها محتمية وراء محيطاتهم وزودتها الطبيعية بأنواع من القوى المادية والاقتصادية والمعنوية مما يجعلها جديرة بحق بأن تكون مناط الزعامة والتحكيم في المنازعات الدولية.

وقد ظهرت أحوال عالية جديدة بظهور الولايات المتحدة وارتفاع مكانتها إلى دولة عظمى إذا اكتسب كشف كولمبس مغزي جديداً – فما من شك في أن فكرته عن كروية الأرض هي التي أدت إلى كشف طريق آخر من غرب العالم القديم إلى شرقه، كما أن كرويتها الآن تجعل الولايات المتحدة واقعة بين غرب العالم القديم وشرقه أيضاً، وأن المسافة بين غرب الولايات المتحدة إلى شرق آسيا لهي أقرب من غرب أوروبا إلى شرق آسيا وإن لم تقرب كثيراً. ولو نظرنا إلى الكرة الأرضية وتحققنا من المسافة عبر المحيط الهادي خصوصاً من جنوبه الشرقي إلى شماله الغربي لرأينا أن هذه المسافة بالذات هي التي حالت دون استخدام الطريق الغربي من أوروبا إلى جزر الهند والشرق الأقصى استخداماً يعود بالفائدة الحقة، وإلى أن نهضت الولايات المتحدة لم يكن العالم الجديد سوى أرض مترامية تقع على مسافة ما إلى الغرب من أوروبا وليس لها كبير وزن.

والولايات المتحدة تخرج من نطاق مجموعة الدول التي كان لها أثر حتى الآن(٤٠) وهي كتلة متماسكة متجانسة هيأت لها الطبيعة موارد ضخمة من الطاقة لا نهاية لها وتواجه المحيط الهادي والأطلسي في وقت معاً، وتتصل بكل من شرق أوراسيا وغربها، وبفضل قناة بنما المحصنة أصبح في قدرتها أن تنقل أسطولها من محيط إلى محيط – وقد حاولت أن تؤمن المنافذ المؤدية إلى تلك القناة بإعلانها مبدأ منرو الذي يحرم على دول العالم القديم جميعاً أن تبسط نفوذها على أي جزء من أراضي العالم الجديد، وقد اقتصر نجاحها في الوقت الحاضر على حماية الدول الصغيرة الثانوية المحيطة بالبحار المؤدية إلى قناة بنما، والولايات المتحدة تمتاز بميزة أخرى فهي ليست كأوروبا مكونة من دول متشاحنة منقسمة على بعضها، يتكلم أهلها لغات متعددة ويذكرون دائماً العداوة والبغضاء التي سادت بينهم في خلال تاريخهم الطويل، فهنا نرى بلاداً متسمة الأرجاء يتكلم أهلها لغة واحدة وليس لهم ماض ملئ بالحزازات والاختلافات. هذه هي الولايات المتحدة.

غير أن هذه النظرة في توزيع الكتل اليابسة الكبرى لا تزال ناقصة إذ لم ندخل في اعتبارنا كثيراً من الظاهرات الهامة في هذا التوزيع – فإن أفريقيا فيما وراء الصحراء الكبرى واستراليا تعتبران إطاراً ضخماً للعالم القديم تتحكم فيه إلى حد كبير الدول البحرية العظمى، كذلك يمكن اعتبار أمريكا الجنوبية كإطار ينفذ إليه نفوذ الولايات المتحدة، وقد بسطنا في

---

(١٦) كان هذا ثبل شبوب الحرب العالمية الثانية وتغير أساليب الحرب.

الفصول السابقة لهذا المؤلف الأسباب التي فرضت على جنوب أفريقيا وأمريكا الجنوبية أن تكونا مجرد إطار للدول الكبرى غير أنه يمكن إدراك وضع هذه البلاد بالإضافة إلى وضع استراليا بشكل أكثر وضحاً لو أننا نظرنا إلى نظام توزيع اليابس نظرة أخرى. والواقع أننا لا نصدق كل الصدق عندما نقول أن هناك مجموعتين من اليابس هما العالم القديم والعالم الجديد.

ذلك أنه بظهور الولايات المتحدة اكتسبت توزيع الكتل اليابسة الكبرى حول العالم معنى آخر وأهمية أخرى، حقاً ظلت روسيا تستمتع بأهميتها كما ظلت الدول الساحلية في أوضاعها غير أن المسألة أصبحت أبعد من ذلك أثراً – وعلى الرغم من أن اليابس يبدو في توزيعه وكأنه لا يسوده نظام إلا أنه في واقع الأمر يتبع نظاماً خاصاً، فهناك قارة عظيمة تحيط بالقطب الجنوب كما تحيط مياه المحيط المتجمد الشمالي بالقطب الشمالي وتحيط بالقارة الجنوبية حلقة متنصلة من المحيطات تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم وتدور حلقة أخرى من اليابس متصلة تقريباً فتلتف حول المحيط الشمالي ويتدلى من هذه الحلقة اليابسة ثلاث مساحات من اليابس تمتد جنوباً وتفصلها ثلاثة محيطات تضيق تدريجياً نحو الشمال.

ولما كان الجزء الأعظم من اليابس يقع في نصف الكرة الشمالي كان هذا بعض السبب في أنه امتاز بتلك الصحراوات الواسعة حيث بدأت فيها المدنيات القديمة وما يتبع ذلك من ازدهار المدنيات الأخرى فيما بين خطى عرض ٣٠، ٦٠ْ شمالا، وقد امتاز سكان المناطق الواقعة إلى

الشمال من خط عرض ٣٥ْ شمالا بأنهم أكثر الأجناس البشرية نشاطاً. وخلا النصف الجنوبي من الصحراوات الواسعة، كما خلا من مساحات اليابس الصالحة لاستقرار شعوب سبق لها اكتساب خبرتها في اقتصاد الطاقة في مواطن أخرى، ومن ثم نرى أن جميع البلاد الهامة تقع تقريباً في نطاق متصل يدور حول مركز لها في منطقة الأراضي القطبية الشمالية التي لا تصلح لسكني الإنسان بسبب بردها القارس – هذا باستثناء قليل من الجماعات المنعزلة التي قطنت جنوب أفريقيا وجنوب أمريكا الجنوبية واستراليا – ونظراً لما عليه هذه الشعوب الشمالية من مدنية كان من الضروري أن تسودها رغبة طبيعية في الاتصال ببعضها البعض – فلما نهض الجزء الأنجلو السكسوني من أمريكا الشمالية أي الولايات المتحدة وكندا – واكتسب أهميته أصبح لزاماً أن تنشأ خطوط مواصلات ذهاباً وإياباً عبر المحيط الأطلسي وعبر قارتي أوروبا وآسيا، بل وأن تؤسس خطوط دائرية متصلة، جيدة في بعض الأماكن، رديئة في البعض الآخر، تهيئ لسكان هذا النطاق في كل مكان منه تسهيلات للانتقال بنفقات أقل مما لو لم يتهيأ لبلادهم ذلك الموقع، وأصبح كل مكان في هذا النطاق حلقة في سلسلة المواصلات الدائرية فقل بذلك عدد نهايات الخطوط والأماكن التي لا تؤدي إلى ما بعدها، وأصبح كل مكان يؤدي إلى غيره.

وإننا نرى الآن خطوطاً حديدية تجري عبر أمريكا الشمالية وسيبيريا وقد اكتسبت أهميتها لا لمجرد أنها تختزل الطريق البحري اختزالا عظيما ولكن لأنها تمثل عدة حلقات من سلسلة الطريق الدائري الذي ليس له بداية أو نهاية – بينما يظل الطريق المقترح إنشاؤه بين مدينة الكاب

والقاهرة لمنافسة النقل البحري على الجانبين لا يؤدي بعد نهايته الجنوبية إلى مكان ما، ومدينة الكاب كمحطة نهائية لخط بري هي نهاية مغلقة بينما الأمر عكس ذلك في الشمال فنرى مدناً كنيويورك ومنتريال وفانكوفرو وسن فرنسسكو مثلها تماما كمثل طوكيو ونجازاكي وأمسك وموسكو وشانغهاي وكولومبو والإسكندرية وبرلين وباريس ولندن كلها تقع على الطريق الرئيسية بحراً وبراً وجواً.



الخريطة رقم ٧٩

"منطقة الانتقال والاستقرار في النصف الشمالي"

غير أنه بدخول اليابان في الموكب العالمي بعد منتصف القرن التاسع عشر ببضع سنين اتصلت الحلقة الأخيرة في سلسلة خطوط المواصلات حول العالم – وبلاد اليابان ذات مناخ بارد في الشمال جبلية في معظمها رطبة دفيئة في جنوبها الغربي حيث تحيط ببحر شبه مقفل، وحيث تقترب كثيراً من بلاد الصين ذات الحضارة العريقة – واليابان بطبيعتها مهد من المهاد التي تتربي رجال البحر ولتاريخها شبه عجيب بتاريخ بريطانيا وأن ظل التاريخان يختلفان اختلافا كبيراً.

بقى شمال اليابان فترة طويلة مسرحاً لجماعات بربرية همجية، في حين أن الجنوب دخل في حيز المدنية مبكراً في العهد المسيحي وأسست مقاطعات الجنوب الغربي في القرن الثاني الميلادي وكانت اليابان تستقبل دائماً أشعاع الحضارة الصينية كما شعرت بريطانيا بأثر الحضارة الأوروبية – تتسرب إليها الأفكار إبان السلم كلما انتقل إليها اللاجئون من كوريا ومعهم خبرتهم بالفنون الحديثة كما نقل رجئو أوروبا خبرتهم إلى بريطانيا، ومارست اليابان الطباعة قبل أن تعرفها أوروبا بمائة وخمسين عاماً – ووصلت المهارة الفنية فيها درجة عالية من الكفاية والإتقان حتى أنه حين نقل البرتغاليون الأسلحة النارية إلى اليابان في عام **١٥٤٥** سرعان ما قام صناع الأسلحة اليابانيون بمحاكاتها.

غير أن هذا الحافز لم يشبه تماما نظيره الذي تعرضت له بريطانيا فالحضارة الصينية تختلف عن الحضارة الأوروبية وقد تتابعت الدول البحرية في أوروبا واحدة أثر الأخرى في خلال القرون المتوالية وقد تأثرت بريطانيا

بكل منها من وجوه مختلفة – بينما وقفت اليابان وحيدة في شرق آسيا ولم يطرأ على المؤثرات الحضارية الصينية تغيير يذكر، فلم تواجه اليابان هجوماً جدياً غير تلك المحاولة التي قام بها المغول في عام ١٢٨١ بعد أن أغرتهم ثروة اليابان المتراكمة. حقاً عانت اليابان بعض الحروب الأهلية من طراز الحروب الأهلية التي عرفت في بريطانيا باسم حروب الوردتين – غير أن الشعب الياباني أفراداً وجماعات ظل في معظم تاريخه يصوغ مستقبله بنفسه دون أن يتدخل في شئون القارة ودون أن يعاني تدخلا من أحد.

وربما كان من آثار هذه العزلة أن اليابانيين سلكوا تبعا لذلك مسلكا رجعيا إزاء الحضارة الغربية أبان موسم الاكتشافات البحرية، وظلت البلاد أكثر من قرنين من الزمان وهي مغلقة في وجوه الأجانب. ويجب أن نذكر أن اليابان لم تكن كالمكسيك خالية من السلطات، بل أن حكومتها تمكنت من أن تجعل هذه العزلة ناجحة، ومن ناحية أخرى كانت تلك السياسة تمثل عهدا أو ظاهرة خاصة فقد كان البحر هو نسيم الحياة بالنسبة لليابانيين، وكم ذكروا البحر في قصصهم وأساطيرهم منذ أقدم العصور كما ذكره الإغريق في قصصهم وأساطيرهم، وكان صيادو السمك اليابانيون يخرجون دائما بنصيب وفير، وحتى في القرن الرابع عشر مارست اليابان التجارة مع سيام، فلما تخلت عن سياسة العزلة فجأة لم يكن ذلك سوى استئنافا للسير في مصيرها الطبيعي، ويرجع هذا التغيير المفاجئ إلى حقيقة واحدة وهي أن كروية الأرض في ذلك الحين فقط أصبحت ذات أثر عملي محسوس في تكييف حياتهم.

فلما نهض غرب الولايات المتحدة واكتسب أهمية في منتصف القرن التاسع عشر وشعر العالم برغبة في سهولة الاتصال بين سان فرنسسكو والصين بدت الحاجة ملحة لمحطة تموِن السفن بالفحم في رحلتها الطويلة بينهما، والتي تبلغ من الطول سنة آلاف ميل. ولما كلنت أقصر الطرق لابد وأن تمر باليابان فقد أصبحت هي الموقع المختار الذي يصلح لأن يكون محطة تموين – وقد نزل الستار فجأة، فاختتم مسرحية العزلة اليابانية حين ظهر في خليج يدو الياباني أسطول أمريكي حديث يطلب أن تقدم له اليابان بعض التسهيلات، عندئذ زلزل النظام الياباني من أساسه فجأة وبسرعة، كما لو كان زلزالا حقيقيا من بين الزلازل التي تعودتها البلاد من آن إلى آخر، فلم يمض عليها عشرون عاما إلا ووجدت نفسها تقع في الطريق الشمالي الذي يدور حول العالم، ووجدت نفسها معدة لأن تأخذ مكانتها كدولة في عالمنا الحديث، ولما تم لها النصر على روسيا أخذت مكانتها كدولة عظمى وأصبحت السفن اليابانية الآن تبحر في أركان المعمورة، والنفوذ الياباني ينتشر إلى أبعد من النطاق الجزري لشرق آسيا.

وهكذا نجد في نصف الكرة الشمالي طريقاً للمواصلات تتصل حلقاته لأن اليابس متصل إلى حد ما، ولأن مساحات كبيرة تقع شمال خط عرض ٣٠° شمالا تلائم نمو المدنيات الحديثة، بينما قلت مساحات اليابس في نصف الكرة الجنوبي وتزداد قلة جنوب خط عرض ٣٠° جنوبا. والجماعات التي تسكن حافاتها الجنوبية ليست إلا سلالات تفرعت عن الأجناس التي تقطن إلى الشمال منها.

والبلاد الجنوبية تتشابه في تركيب صخورها تشابهاً عجيباً ربما كان ذلك راجعا للتكوين الأول لقارات نصف الكرة الجنوبي، فما هي سوى بقايا قارة قديمة، هضبية في تضاريسها، ولا تزال بقاياها ممثلة في جنوب أفريقيا وفي شرق أمريكا الجنوبية وفي غرب أستراليا تحف بها في القارتين الأخيرتين جبال التوائية هي جبال الأنديز في أمريكا والسلسلة الشرقية في أستراليا، وتفصلهما البقاع المغمورة في المحيطين الأطلسي والهندي.

كما تتشابه بلاد النصف الجنوبي تشابهاً عجيباً في مناخها فلا تعتريها تغيرات مناخية عظمى بسبب عدم وجود الكتل اليابسة الكبرى والمساحات التي تصلح لسكني الرجل الأبيض هي مساحات أغلبها صحراء في غرب القارة يقابلها نطاق ساحلي في شرقها – ويبدو هذا واضحا بصفة خاصة في أستراليا – وبهذه الظروف تتشابه القارات الجنوبية في منتجاتها فقلت بذلك فرص تبادل التجارة فيما بينها كما أنها أكثر عزلة عن بعضها من عزلتها عن الأراضي الشمالية، وليس هناك في الحقيقة طريق مواصلات دائري في النصف الجنوبي، فنجد مثلا جزيرة ترستان دي كونا تقع مباشرة بين بيونس أيرس ومدينة الرأس، كما تقع جزيرة كرجولن مباشرة بين مدينة الرأس وملبورن، غير أنه من أنذر الحوادث أن تمر سفينة بإحداهما، كما يقع بين أمريكا الجنوبية واستراليا بضعة جزائر تحمل أسماء لا نسمع بها إطلاقا.

وقبل أن تشق قناة السويس وقناة بتما كانت حركة النقل العالمي التي تجري في البحار تمر فعلا بمضيق ماجلان وجول رأس الرجاء الصالح،

وهي تحمل بحارة غالية الثمن صغيرة الحجم فاستمتعت أمريكا الجنوبية والطرف الجنوبي لأفريقيا فترة من الزمن مميزة وقوعهما على الطريق الرئيسي، غير أنه لما أنشئت السكك الحديدية عبر القارات وافتتحت القنوات الكبرى فقدت كل منهما شيئا من أهميتها النسبية ولم تهيأ لاستراليا قط تلك الميزة التي توافرت لهذه البلاد أي جنوب أفريقيا وأمريكا الجنوبية لأنه تفصلها عن الأراضي الأسيوية مناطق شاسعة من البحار ولم يك ثمة ضرورة إلى الدوران حولها إذا دعا داع إلى الملاحة حول العالم، ولهذا لم تكتشف إلا حديثاً وظلت بعيدة عن جميع الطرق التجارية الهامة ولا مناص من بقائها كذلك – ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن بلاد أمريكا الجنوبية واستراليا ونيوزيلند تقع في أطراف العالم بكل ما تشمله الكلمة من معنى حرفي – ومن الجائز أن تكون هذه الحقيقة متصلة اتصالا وثيقاً بقلة سكان أستراليا الأصليين وبكونهم يمثلون جنساً بدائياً تماماً.

وكان جنوب أفريقيا أكثر تعرضاً للمؤثرات المختلفة، فضلا عن أنه لا يمتد كثيراً نحو الجنوب فيقتصر في امتداده حتى عرض ٣٥ْ جنوبا. ويقطن هذا الجزء أجناس وطنية. أما استراليا فقد تركت في سباتها حتى جاء عهد تفوق السيطرة البريطانية على البحار فأصبحت بعدئذ مستعمرة بريطانية خالصة نتعصب لسياستها البيضاء وربما كانت العلة في تعصبها هي أنها بلاد قليلة السكان يسهل الوصول إليها من الأراضي الواقعة إلى شمالها وهي أقرب منالا لأهل تلك البلاد عنها بالنسبة للقادمين من الجزر القاصية الواقعة في المحيط الأطلسي (يقصد بريطانيا). أما جنوب أفريقيا فقد تم احتلاله حديثاً في زمن متأخر نسبياً، على الرغم من أن اكتشافه قد

تم مبكراً وتحكمه الآن دول بحرية وتقطنه أعداد وفيرة من الوطنيين بينما تم احتلال أمريكا الجنوبية إبان عهد الاكتشافات الأولى وقد أصبحت أسبانية أو برتغالية في ثقافتها وتتبع في نظامها الاقتصادي النطاق الشمالي.

يتضح من ذلك أن أجزاء العالم الهامة هي التي انتظمت دولا تقع في الإطار الشمالي للاستيطان والحركة، ويتصل بهذا الإطار حواف تقل في أهميتها نسبيا – وسواء انتظم الناس في دول أم قسموا تبعاً لحرفهم، وسواء كان نظام تقسيمهم أفقياً أم رأسياً وسواء كان توزيعهم قومياً أم دولياً فسوف يظل التوزيع الأساسي ذاته صحيحاً إلى الأبد.

أضف إلى ذلك أن العالم الآن بنطاقه الشمالي وما يتصل به من شعب هو وحدة اقتصادية واحدة ولكل شعب على سطح هذا الكوكب مكانه داخل هذه الوحدة بما في ذلك الشعب الأمريكي القاطن في الولايات المتحدة مهما بعدت به الدار ونأت عن خطر الاشتباك العسكري – وما دام سكان هذا الكوكب يعتمدون على جهود بعضهم بعضاً وما دام ساكن بريطانيا يفيد في يوم واحد بطريق مباشر أو غير مباشر من جهود عشرات الآلاف من الناس لا من مواطنيه فحسب بل ومن السكان المنتشرين في كل أنحاء العالم – ومادام رجل الاسكيمو يعتمد في الحصول على آلاته على مصانع البلاد الصناعية كما يعتمد عليها الرجل الزنجي في أواسط أفريقيا في سبيل الحصول على ملابسه – ما دام كل هذا جارياً أضحى من المستحيل أن نعتبر استقلال الفرد مثلا أعلى في حد ذاته. ولم تعد المشكلة الحقيقية كيف نعيش منفصلين عن بعضنا بعضاً، بل

أضحت كيف نعيش معاً ولا تزال غايتنا هي الحصول على أكبر قدر من الطاقة سواء كانت طاقة بشرية أم طبيعية. وإذ كان الإنسان بمجهوده الفردي قد يبطئ في استغلال الطاقة حتى ولو اشترك مع غيره فقد يمكن أن تسرف الجماعة أو الفرد في استخدامها فتضيعها هباء منثوراً، ولا يكاد المرء يصدق ذلك الإسراف الهائل في موارد الطاقة التي ذهبت سدى في الحرب العالمية الأولى – من فحم ومحاصيل وما توافرت على إنتاجه المدن والصناعات المختلفة وتلك القوى البشرية الهائلة كلها ذهبت جفاء وقد يتطلب إصلاح ما أفسدته الحرب قدراً يقرب من خمس كميات الفحم الموجودة في العالم – وهناك إسراف في الطاقة حتى في السلم يجل عن الوصف بسبب الاحتكاكات المختلفة بين الدول. أليس عجباً بعد ذلك أن يرغب العالم في إقامة نوعٍ من الحكومة العالمية ليحرس تلك الوحدة العالمية؟... ولو أن العالم قد وفق إلى هيئة أمم قوية ناجحة لكان ذلك بمثابة بدء مرحلة جديدة في سبيل التقدم واقتصاد الطاقة فيتجنب بعض النواحي التي تضيع فيها الطاقة هباء منثورا.

الفصل التاسع عشر

احتمالات الغد

لقد تتبعنا في الفصول السابقة الخطوات الهامة التي مر بها العالم الحديث في أثناء تطوره تدريجيا – ونظرنا إلى هذه الظروف باعتبارها أثراً من آثار تحكم الجغرافيا في الإنسان وتوجيهها أياه في أثناء محاولاته للحصول على قدر أوفر من الطاقة واستغلالها. وقد عرفنا ما هي هذه الضوابط الجغرافية الهامة ولاحظنا أنها تعمل عملها بطرائق مختلفة عديدة تبعا لمدى معرفة الإنسان وخبرته المكتسبة كما ونوعا – ويبقى علينا الآن أن نقوم بمحاولة لكشف النقاب عما يكنه المستقبل من تطور محتمل وعما إذا كانت الدنيا أو ستتغير ستقطع شوطا آخر من أشواط التقدم.

ومهما كان الأمر، يتضح من دراساتنا السابقة أن هناك احتمالا لأن تسير المدنية في طريقين اثنين، فقد تعمد تلك العوامل التي درسناها إلى العمل بأسلوب يختلف عن أسلوبها السابق، وقد تصبح موارد الطاقة التي لم تستغل في الماضي ميسورة في متناول الإنسان، وقد يصبح الانتقال سهلا في أقاليم يتعسر فيها هذا الانتقال الآن، وقد يجد الإنسان نفسه قادراً

على استخدام موارد من الطاقة في أقاليم يتعذر عليه الآن استغلالها. وسيصاحب هذه التغيرات في استخدام الطاقة تغييرات في أهمية الأقاليم بمقارنتها بغيرها – ومن ثم سوف تظل الجغرافيا تتحكم في التاريخ وتوجهه في مجراه غير أن توجيهها سوف يتبع أسلوبا مختلفا.

وأكثر من ذلك، قد يكون هذا التغيير راجعا إلى نفاذ موارد الطاقة التي يعتمد عليها الإنسان الآن وقد يزداد جفاف بعض البلاد بشكل محسوس فيعز بذلك نمو المحاصيل وزراعتها وتعجز موارد الغذاء عن الوفاء بحاجات السكان – ولو أن ظاهرة الجفاف هذه شملت مساحة واسعة من الأراضي لتأثر التاريخ تأثراً كبيراً – حقا بذل بعض العلماء محاولات لإثبات أن قلب القارة العظمى آخذ في الجفاف شيئاً فشيئاً وقال بعضهم أن هناك نظاماً ثابتاً يقضى بمرور فترات منتظمة من الجفاف أو من الرطوبة ولكنها لا تطرد في جفافها – وسواء صحت هذه النظرية أو تلك – فإن هذا لا يعنينا البتة، فإنا نعلم علم اليقين أن فترات الجفاف طارئة في التاريخ سواء كانت ذبذبتها دورية أم لا، وقد أثرت في التاريخ بأكثر من طريقة واحدة – وسواء تطورت المساحات القارية فازدادت جفافا أم لم تتطور فإن هذا التغيير بطئ جدا في حدوثه مما يجعل التطورات الأخرى أعظم أثراً.

وقد يبق أن تكلمنا عن حقول الفحم التي يستمد منها الإنسان أكبر مورد من موارد القوة، ولابد يوما من أن تصاب هذه بالعجز فتنفد مواردها ويصبح التغيير في تلك الحالة من الخطورة بمكان، لأن الفحم الذي يحترق مرة يفني إلى الأبد ولا يمكن تعويضه أبداً، ومن البين أن هناك قدراً محدوداً

من الفحم فإذا استهلك لم نجد له عوضا، وقد يظن البعض أن كميات الفحم في العالم ضخمة بدرجة تطمئننا إلى استغلاله أحقابا لا حصر لها ولا تنذر بتفادها، غير أن الحقيقة ليست كذلك. فقد تم مسح الكرة الأرضية الآن وإن كان مسخا غير تام في بعض أجزائها تعوزه التفاصيل في أجزاء أخرى، وتم ذلك في دقة تجعل من المستحيل تقريباً أن تختبئ موارد عظيمة من الفحم لم تكشف بعد، وعلى هذا الأساس لو ظل الاستهلاك الحالي على معدله لن يلبث الفحم الموجود في بريطانيا وألمانيا أكثر من فترة تتراوح بين خمسمائة عام وألف عام ولن يستغرق استهلاك الفحم في الولايات المتحدة أكثر من ستة آلاف عام، ولو فرض واستمر الاستهلاك يزيد بمعدل زيادته في السنين الأخيرة فإن جميع الفحم الذي يصلح للاستغلال في هذه البلاد (أي بريطانيا) بظروفها الراهنة سوف ينفد في بحر مائة وخمسين عاما، وقد لا يكون هذا النفاد في حد ذاته خسارة كبرى، وقد يصبح حافزاً يدفع إلى زيادة الاقتصاد واستمرار التقدم. أما الدافع إلى الاقتصاد فقد بدأ فعلا في محاولات تجعل الآلات تفيد بأكبر قدر من الطاقة المتولدة عن احتراق الفحم، ولا يعدو ما تستخدمه آلة بخارية جيدة أكثر من ١٢% من طاقة الوقود الذي تحرقه وهو تقريبا نفس النسبة التي يستخدمها الإنسان في أداء أعماله من مجموع الطاقة المتولدة من غذائه. غير أن نسبة ما يسخره الطور بين فعلا قد تبلغ ٣٠% من طاقة وقوده وقد تعلو هذه النسبة قليلاً في الآلات التي تستخدم غاز الاستصباح. ومع هذا فهو تبذير لو قارنا ذلك بالطاقة التي تستهلكها حشرة اليراع لتعطي ضوءها فإن كفايتها الضوئية لا تقل عن ٩٩ ١/٢% من مجموع طاقتها.

ومهما كان الأمر وحتى لو فرض واستخدمت كل الطاقة الكامنة في جميع موارد الفحم الموجودة في العالم كله في أغراض نافعة فمن الواضح أننا واصلون إلى مجاعة في الفحم بعد حين من الزمان قد يبدو بعيداً، باعتبار مقاييسنا العادية ولكنه قصير بلا شك باعتبار العهود التي نقيس بها الأزمنة التاريخية. وإذا ما نفذت حقول الفحم ضاعت أهمية البلاد التي تمتلكها، وكلما أمكن الدولة أن تستخرج الفحم من باطنها عهوداً أطول كلما زادت أهميتها بقدر مناسب، هذا على فرض بقاء الظروف الأخرى على حالها. ولهذا تكتسب حقول الفحم الشاسعة في الصين أهمية خاصة كلما زنونا بنظرنا إلى المستقبل.

كما أن البترول مصدر هام من مصادر الطاقة، ولو أن معلوماتنا عن منابعه تقل عن معلوماتنا عن مناجم الفحم إلا أنه يكاد يكون من المؤكد أن هذه الموارد لا تتجدد على مر الأيام وأن مجموع الكميات التي تصلح للاستغلال لا تقارن البتة بكميات الفحم وأنها سوف تكون أسبق في النفاذ – ويلاحظ أن كميات البترول في الولايات الشرقية من أمريكا تتناقص تناقصا سريعا – هذا على الرغم من أن الناتج في ازدياد في الولايات الواقعة في غربي نهر المسيسبي، ومع هذا فلو سار الحال على هذا المنوال لنفدت كميات البترول في الولايات المتحدة في مدى قرن من الزمان ولو ظل معدل الاستهلاك في زيادة لرأى هذا الجيل بعينيه نفاد كمياته.

فماذا يتبقى لنا من موارد الطاقة الأخرى؟ لقد ظل أهالي شمال غرب أوروبا يستخدمون لمدى ألف عام أو يزيد القوة المتولدة عن ارتفاع المد

مرتين يوميا فحملت موجات المد السفن في داخل الخلجان الممتدة إلى مسافات بعيدة في اليابس ضد اتجاه الرياح وعكس تيارات الأنهار، وكانت الطاقة المتوفرة عن هذا الاستغلال ذات فائدة كبرى – وقد يبدو ممكنا استخدام هذه القوى التي تضيع هباء فتستغل في جميع الوجوه النافعة غير أنه لا يمكن أن تحل محل الفحم في جميع البلاد باستثناء بعض مواضع محظوظة – وقد لا يبدو محتملا – حتى مع فرض نفاذ الفحم – أن يلجأ إليهم الإنسان إلا باعتبارها الملاذ الأخير أن عزت عليه موارد القوى الأخرى. وحتى في ذلك الزمان فسوف يكون ضائعها أكثر من ناتجها– وربما دمرت الزوابع المؤسسات الكبرى التي يتطلبها استغلال مثل هذه القوى.

أما طاقة الرياح والمياه الساقطة فهي شبيهة بالمد والجزر في أنها تتجدد دائما بعكس طاقة الفحم. وقوى الرياح شأنها كشأن المد والجزر يقل ناتجها عن ضائعها وأما مجموع القوى المائية فهو لا يوازي إطلاقا القدر اللازم لتأخذ المكانة التي تحتلها طاقة الفحم اليوم هذا إذا عجزت موارد الفحم في يوم من الأيام. وتقدر القوى المائية ف الولايات المتحدة مثلا بأنها تتراوح بين ٣٦ و ٦٦ مليون حصان وهذا القدر على فرض تسخيره جميعه يقل بكل تأكيد عن نصف الطاقة التي يوفرها الفحم المستخرجة الآن من مناجمه في الولايات المتحدة، وقد يقل عن هذا كثيراً، وتقدر جميع القوى المائية على سطح الكرة الأرضية بمائتي مليون حصان تقريبا، وهو قدر أقل بكثير مما يهيئه الفحم اليوم، فإذا غاب الفحم عن الوجود فلن تستطيع القوى المائية أن تسد جميع احتياجاتنا، وإن أصبحت

ذات نفع عميم – وعلى العموم فإن طاقة المياه الساقطة تمتاز بأنها أكثر اقتصادا من الطاقة المستمدة من الهواء أو المد والجزر، وبعبارة أخرى أن أي كمية معينة منها تعطي من صافي ناتجها قدرا أوفر من أيهما، وربما نرى في مستقبل الأيام الأقاليم المرتفعة الغزيرة الأمطار أرفع مكانة وأبعد شأوا في ركب الحضارة العالمية.

ويحتمل بطبيعة الحال أن يكتشف عامل جديد يهيئ لنا استخدام صور من الطاقة التي تصدر عن بعض المواد كالراديوم مثلا وهو أهمها أو نتحكم في الطاقة التي تصدر عن الحرارة الكامنة في باطن الأرض، ولكن هذا لا يزال فرضا بعيدا فلن يستخدم أي قدر معقول من الطاقة المتولدة عن أي من هذين المصدرين.

ولهذا يبدو أن أقرب التطورات احتمالا تلك التي تقول بنفاد كميات الفحم، وانتشار استخدام القوى المائية والقدرة المتزايدة على الإفادة من موارد الطاقة بأساليب أكثر اقتصادا. أي أنه على فرض تساوي الظروف جميعا ربما بلغت الأقاليم التي تحتفظ بفحمها دون نفاذ أطول أجل ممكن والتي تتوفر لها موارد كبرى من القوى المائية، من المحتمل أن تبلغ هذه الأقاليم منزلة كبرى بين أقاليم العالم الأخرى التي حرمت مثل هذه المزايا.

ولنأخذ بعين الاعتبار التوزيعات الأساسية الأكثر أهمية فنقول أن موارد الفحم والبترول هي في طبيعتها رأس مال تجمع لنا في عهود سحيقة ماضية وباستهلاكنا إياها لا نجمع طاقة إطلاقا، وهي تختلف في أساسها عن

طاقة الإنسان البدنية والتي هي طوع إرادته والتي يولدها في جسمه بعد تناوله الغذاء المستمد من الطاقة الشمسية والتي وفرت للنبات أو الحيوان فرصة النمو قبل ذلك بأيام أو شهور، وقد كانت هذه هي وسيلة الإنسان الوحيدة الممكنة في أداء أعماله حتى مائة وثلاثين عاما خلت، ولهذا فإن استخدام طاقة الفحم والبترول ضرب من قبيل الصدفة العارضة التي لا تلبث أن تزول بآثارها، ولكنا ونحن في زهوة الانقلاب الصناعي وما تستتبعه من تطور وتغيير لا نشعر بخطر نسيان أنه أمر حادث وإن الإشعاع الشمسي هو المصدر الأخير للجزء الأعظم من الطاقة التي نسخرها على ظهر الأرض وعلى الخص فإن النباتات النامية تهيئ لنا موارد من الطاقة في أحسن أشكالها ملاءمة للإنسان، ولا شك أن فلاحه الأرض سواء زرعت بساتين أو محاصيل أو أشجار وسواء كانت هي أقدم الحرف الإنسانية أم لم تكن. هي بلا شك الأساس الأول لطاقة الإنسان.

وقد أصبنا تقدما في اقتصاد الطاقة باستخدام أحسن الآلات وبإتباع خير أنواع التنظيم حتى يقل الضائع ما أمكن وحتى نصل إلى أحسن النتائج، كما أصبنا خطوات أخرى من التقدم بحصولنا على زيادة في المحاصيل كنتيجة للبحوث التي نجريها على المشكلات المختلفة والتي لا يبدو حلها لأول وهلة مؤديا إلى اقتصاد في الطاقة، فنتج مثلا عن الدراسات التي أجريت في علم الوارثة أن ربيت أنواع من القمح تقاوم الأمراض أو تستغرق وقتا أقصر في نموها مما تمخض عنه ظهور سلالة من القمح أفضل مما وجد حتى الآن، وأدت البحوث التي أجريت على الطفيليات التي تعيش في التربة وفي غيرها وتفترس أنواعا خاصة من الباكتريا

تمتاز بأنها تزود النباتات بغذائها في شكل صالح لها، كما أنه بفضل الأبحاث التي أجريت على الظاهرات الجوية في الطبقات العليا وسقوط الأمطار في أماكن متفرقة كجنوب أمريكا والساحل الشرقي لأفريقيا – وهي ملاحظات في حد ذاتها ذات طابع علمي بحت – أصبح في الإمكان أن نزود فلاحي الهند مثلا ببيان عما يحتمل سقوطه من الأمطار بفضل الرياح الموسمية. ولهذا نرى بعض البلاد تحرز الآن تقدما في مقدرتها على الحصول على قسط أوفر من الطاقة المستمدة من التربة وتحرص أشد الحرص على ألا تفقد منها إلا أقل قدر ممكن –مثل هذه البلاد تجمع أعظم قسط من الطاقة حيث نرى أكثر سكانها قادرين على بناء الحضارة وهم أكفأ الناس على استخدام وسائل العلم الحديث. مثل هذه المساحات في أغلبها توجد حيث يعظم القدر المختزن من الطاقة فيستطيع أهلها أن يخصصوا جانباً منها لإنفاقه على ترقية هذه البحوث. وبعبارة أوضح هي البلاد التي تحوي أكبر قدر من الفحم، ومن ثم نرى في الوقت الحاضر أن نتائج التقدم في زراعة التربة قد تختفي بعض الشيء تحت قناع من التقدم الذي طرأ على البلاد من جراء استخدام الفحم.

ولولا تصدير الفحم أو المصنوعات التي تم صنعها بفضل طاقته لفقدت أراضي الدول الكبرى خصوبتها فعلا – حقول القمح في ايست انجليا تحتفظ بخصوبتها بسبب استخدام الأسمدة الكيميائية أو العضوية، ويدفع ثمن الأسمدة الكيميائية مما تحصله البلاد من ثمن صادرات الفحم ومما تصنعه من مصنوعات، كذلك يدفع ثمن المواد العضوية بنفس الطريقة حيث أن الماشية تعتمد في غذائها على المواد المستوردة. ولو أ، بريطانيا أو

ألمانيا أو فرنسا أو حتى الولايات المتحدة اعتمدت على نفسها بمفردها لقلت قدرتها الإنتاجية شيئاً فشيئاً، وتنفرد الصين وحدها بقدرتها على الاحتفاظ بخصوبتها دون مساعدة خارجية.

ويبدو محتملا أن أعظم تقدم قد يحدث في المستقبل حين يتناول العالم بالتنظيم البلاد التي تكون فيها النباتات أسرع في نموها عما في غيرها بفضل الطاقة الحرارية وبفضل وجود نسبة كافية من الرطوبة والأمطار، وقد رأينا حتى الآن أن الغابات الاستوائية ظلت بعيدة عن التنظيم العالمي، ولم يقدر لأية حضارة قديمة أن تنمو بها لأن نمو النباتات فيها أسرع من أن يتحكم فيه البشر – غير أن الإنسان ازداد خبرة وعلما بما تيسر له من تحكم في قوى عظمى وضعها الفحم تحت تصرفه، فأصبح الآن قادرا على استخدام مصادر أخرى عظيمة من موارد الطاقة، ففي الأقطار الشمالية لا ينمو بها إلا محصول واحد في العام ونموه يسير فيها بطيئاً بالنسبة لغيرها من البلاد، بعكس أحواض الأمازون والكنغو وجزائر الهند الشرقية حيث ينمو النبات على الدوام وفي سرعة كبيرة، وفي هذا ينبوع من الطاقة يتجدد دائما فهل نستطيع الإفادة منه؟ نحن في البداية الآن – وتنظيم هذه الأماكن يأخذ مجراه، ذلك أن العالم يستمد من غاباتها احتياجاته من المطاط، ولكن هذا أمر تافه على أهميته لأن المطاط ليس مصدرا من مصادر القوى، وفائدته محصورة في أنه يهدف إلى اقتصاد الطاقة فقط ونتوقع لهذه الأقاليم أن تصبح يوما ما مصدرا مباشرا يزود الإنسان بألوان من الطاقة – سواء كانت مستمدة من مواد تصلح وقودا للاحتراق – وهذا مشكوك فيه – أو من الكحول المقطر من النباتات أو بأي شكل

كان فهذا أمر ليس بذي بال بالنسبة لتلك الحقيقة الراهنة وهي أن الطاقة موجودة بها فعلا ويمكن استغلالها.



الخريطة رقم ٨٠

النطاق الذي تشتد فيه الحرارة
وتغزر فيه الأمطار وتنمو به الغابات

وهناك في الحقيقة سببان يحولان دون نجاح الإنسان في استغلال هذه الأقاليم حتى الرجل الأبيض على ما عرف عنه من عبقرية في التنظيم – ولعل السبب الذي يأتي المقام الأول هو إن أحوالها الجغرافية تختلف اختلافا بينا عن تلك الأحوال التي ترعرع الرجل الأبيض فيها في الأقاليم الشمالية، ولهذا عزف عن أن يبذل محاولات ليحل المشاكل التي تواجهه أو أن يحاول تكييف نفسه ليعيش فيها عيشة راضية. وبمعنى آخر من الصعوبة بمكان أن يجعل الناس يغيرون عاداتهم التي نشأوا عليها أو أن يغيرون أساليبهم في تأدية أعمالهم لأن القصور الذاتي الكامن في نفوسهم أقوى من أن يناله أي تغيير. وقد عرفت أفريقيا وجنوب أمريكا قبل أن ترتاد الولايات المتحدة وكندا بزمان طويل، ولكن الناس في الدولتين الأخيرتين يعيشون فيها بطرائق لا تختلف كثيرا عن تلك التي اعتادوا عليها في بلادهم الأولى، بينما كل شيء غريب في البلاد الأخرى ويجب تدبير

الحياة فيها على أساس مختلف. ولهذا لا تهاجر العناصر البيضاء إليها في إعداد وفيرة لتستقر فيها – وعلى أحسن الفروض فهم يرغبون في المهاجرة إليها ف إعداد صغيرة ولبضع سنوات فقط كما يذهبون إلى الهند مثلا.

ولهذا فلن يبعث على الدهشة أن رأيناها تصيب تقدماً قليلا ثم يأتي في المقام الثاني أن الظروف الجغرافية فيها ليست مختلفة فحسب ولكنها تهدد الحياة بالخطر وقد رأينا اليونانيين والرومانيين يظهرون بمظهر من فقد الحيوية والقوة في عهودهم الأخيرة لو قارناهم بتاريخهم الأول –وربما كان هذا راجعاً لانتشار الملاريا بينهم بعد أن انتقلت إليهم من البلاد الدفيئة التي سيطروا عليها. وسواء كان هذا الزعم صحيحاً أم لم يكن، فمن الثابت أن الأمراض غير المعروفة في البلاد الباردة تصبح شديدة افتك في ضحاياها لو أنهم انتقلوا إلى البيئات ذات الحرارة المرتفعة. وفي هذا خسارة في الأرواح لا يقابلها أي اقتصاد – غير أنه يبدو في هذا الميدان أن الإنسان أصاب تقدماً، فقد بحثت هذه الأمراض وعللها وتوصل الإنسان بعض الشيء إلى اكتشاف وسائل الوقاية منها، ولم تبشر هذه الأبحاث في أول الأمر أنها ستنقذ الإنسانية من بعض آلامها، ولم يساورنا أمل في إمكان اقتصاد الطاقة عن طريقها. فمنذ جيل مضى لم يتنبأ إنسان بأن هذه المعرفة بمقاومة الأمراض تكتسب عن طريق دراسة الحشرات بأنواعها المختلفة وعاداتها وعن طريق جمعها وفحصها تحت المجهر – إلا أن هذا كان الواقع بعينه – فقد ثبت أن الأمراض تنتقل من إنسان إلى إنسان بوساطة أنواع خاصة من الحشرات كالبعوض مثلا – مثل هذه الأمراض

نقصت كثيراً أو أمكن القضاء عليها بإفتاء الحشرات الناقلة لها، ومثلا انتشرت الحمى الصفراء في ريودي جانيرو في عام ١٨٩٨ ومات بسببها ١٠٧٨ شخصاً إلا أن ضحاياها في عام ١٩٠٨ كانوا أربعة —ةفي هافانا مثلا فيما بين عامي ١٨٥٣ و ١٩٠٠ كان معدل الوفيات السنوي من الحمى الصفراء يصل إلى ٧٥٤ نسمة بينما نجده فيها في عام ١٩٠٧ يقتصر على حالة واحدة فقط وفي عام ١٨٨٧ مات في إيطاليا ٢١٠٣٣ من جراء فتك الملاريا إلا أن هذا العدد تناقص حتى أصبح ٤١٦٠ في عام ١٩٠٧ وفي الإسماعيلية بلغت الإصابات بالملاريا ٢٠٠٠ إصابة في عام ١٩٠٢ ثم اختفت فيها تماما في عام ١٩٠٥ كذلك طهرت بورسعيد أيضاً من الملاريا.

ولنتخذ النقود مقياساً، فنجد فيها أدلة على اقتصاد الطاقة. ففي عام ١٩٠٣ كلف انتشار الملاريا شركة قناة السويس مبلغ ٣٨.٢٠٠ فرنك بينما لم تتكلف مقاومتها عام ١٩٠٨ إلى نصف المبلغ. وإن حفر قناة بنما نفسها لم يصبح ميسوراً إلا بعد اكتشاف الإجراءات اللازمة للتغلب على الأمراض فطهرت المنطقة من مرض الطاعون والحمى الصفراء كما نقصت إصابات الملاريا نقصاً كبيراً . وقد هبط معدل الوفيات بين الموظفين في قناة بنما من ٤٠ في الألف في عام ١٩٠٦ إلى ١٠.٦٤ في الألف في ١٩٠٩ وهي نسبة أقل بكثير مما يوجد في أغلب مدن العالم المتحضر. كما نقصت في منطقة بنما إصابات الملاريا من ٨٢١ في الألف في عام ١٩٠٦ إلى ١٣ في الألف في عام ١٩١٧.

هذا ويقال أن مناخ الأقاليم الاستوائية ليس مؤذيا في حد ذاته وكل ما يؤخذ عليه أنه يسبب ضربة الشمس لمن يخرج في العراء إبان حرارة النهار دون أن يكسي رأسه بغطاء واق لها. كما أنه يسبب للإنسان رغبة في النوم بعد تناول وجبة الغذاء ويقال أن السل والحمى الروماتزمية والأنفلونزا أمراض لا وجود لها هناك وأنه لو أمكن للإنسان تجنب ذبابة التسي لنجا من مرض النوم، ولو تجنب العوض لخلص من الملاريا – وينصح دائما بعدم النوم على الأراضي الموحلة وألا تنصب الخيام على مواضع المعسكرات القديمة تحاشياً للبق والقراد – كما قيل أنه لو اتخذ الحرص والانتباه دباناً له لكانت الحياة في البلاد المدارية أقل تعرضاً للأمراض منها في البلاد المعتدلة ذات المناخ البارد والتي تنتشر فيها الأنفلونزا انتشاراً ذريعاً.

قد يصعب على الإنسان إتباع هذه النصيحة وإنه لمن الرقي أن يعرف المرء النصح الذي يسديه وإلى أن يتيسر للبشر أن يتبعوا هذه النصائح وأن يفيدوا من نتائج علمهم ومعرفتهم حينئذ فقط يمكن استغلال موارد الطاقة الهائلة المختزنة في الغابات الاستوائية ولن تجري بعدئذ أنهار الكنغو والأمازون في أقاليم خاوية من سكانها.

ثم أن هناك احتمالا آخر – فقد خلت من النباتات فيا في الصحراء الكبرى بسمائها الصافية وأمطارها المعدومة التي لا تسقط فيها سنين متوالية حتى عجز الإنسان عن الحياة فيها. ولو قدر للإنسان أن يسخر لخدمته بطريقة مباشرة الطاقة المستمدة من إشعاع الشمس التي تظل تفلح

الأرض بأشعتها باستمرار من مطلعها حتى مغيبها بدرجة تقل قليلا عما تسديه الشمس لأراضي العروض الاستوائية، لو أن الإنسان وفق إلى شيء من هذا لتحول إقليم آخر لا يزال خاويا من سكانه إلى إقليم يعول عدداً كبيراً من السكان ولبلغت منزلته شأوا عظيما.

لو أننا اتخذنا في الصحراء مساحة تقرب من مساحة لندن على أوسع حدودها لوجدنا أنها تستقبل من الطاقة الشمسية في كل عام ما يوازي الطاقة المتولدة عن احتراق الفحم المستخرج من جميع مناجم بريطانيا بأسرها، وقد أجريت تجارب على بعض الآلات التي تعطي كفاية حرارية عالية، ولكن التجارب لا تزال في مهدها والوقت لم يحن بعد لنقول أنه قد اتخذت الخطوات الأولى في سبيل ثورة صناعية كبرى.

ومن الثابت أنه كلما اقترب الإنسان من خط الاستواء كلما زادت إمكانيات الاقتصاد في الطاقة، ومن المؤكد أيضاً أن تلك المناطق تحوي موارد من الطاقة سنلجأ إليها حتما إذا ما نفذ الفحم وأننا سنستخدمها إن عاجلا أو آجلا. وإذا اتخذنا الماضي قياسا للمستقبل فلابد وأن يقترن استخدامها بتغيير – آت لا ريب فيه – في توزيع سكني البشر وفي أساليب الحياة وفي جميع الأمور مما يؤثر أثراً عميقا في مجرى التاريخ. وسيكون للتاريخ الماضي دوره في تعديل هذا التطور فتظل في الوجود أشياء لا سبيل إلى تغييرها لأنها وجدت وأصبحت من صميم الكون.

والآن وقد آن الأوان لكي نترك رواية القصة فنختم الكتاب بهذه النظرة إلى المستقبل، وقد لا يكون المقام مناسبا لأن نسبق الزمن فنقول أن الأحداث تجري نحو غاية معلومة في خلال مراحلها العجيبة وأن النواميس الإلهية تؤدي رسالتها في دقة بالغة وأن كانت تسير سيراً بطيئاً.

الفهرس